جمال الغيطانى

الأعمال الكاملة

شطح المدينة
هاتف المغيب
متون الأهرام

المجلد السادس



الهيئة المصرية العامة للكتاب

الأعمال الكاملة

جمـــــال الغيطـــــانى

جمال الغيطانى

المجلد السادس

شطح المدينة
هاتف المغيب
متون الأهرام



الهيئة المصرية العامة للكتاب

١٩٩٦

الغلاف : حامد العويضى

الاخراج الفنى : أميمة على أحمد



شطح المدينة



٠٠ وسن للحيظات قبل توقف القطار مباشرة ، انتبه الى صرير العجــلات وتباطؤ السرعة ٠ تغير ايقــاع الحركة وخشــيته من المجهــول ٠

خمس ساعات وعشر دقائق ، اندفاع متصل ، سرعة قصوى معدنية الضجيج ، لا تتغير وتيرتها الا عند عبور المدن ، والدنو من المنحنيات ، واختراق الأنفاق ، ومواضع الحذر التى تحددها العلامات وخبرة القيادة ، آثر ذلك ، اتصال رحلته مباشرة ، بدلا من قضاء ليلة فاصلة في عاصمة يجهلهــا ، مستوجبــة للحذر ، خلو من معارفه ، سمع وقرأ عن رواج أمر اللصوص بها ، استهدافهم للغرباء ، خاصة القادمين من الشرق ، ما هو فى هذه الديار النائية عن موطنه ، عن أهله ، وصحبه ، الا أجنبى ٠٠ غريب ٠

من المطار الى محطة السكك الحديدية المركزية رأسا ، لم يطل انتظاره ٠ المدينة تقع على الطريق الرئيسى المؤدى الى الغرب ٠ كل نصف ساعة يقصــدها قطــار ، انها المدينة الوحيدة بعد العاصمة الاتحادية التى تقف بها كل القطارات العابرة ، حتى الدولية منها المتجهة أو القادمة عبر الحدود ٠

جاء في كتيبات ادارة تنشيط السياحة التابعة للبلدية أن ذلك لأهمية المدينة بالنسبة للموقع ، ولما تتضمنه من آثار قديمة ، وتراث معماري ذي خصوصية وفرادة ، ولانخفاض نسبة الحوادث ٠

مصادر الجامعة ترجع السبب الى المركز العلمى ، الى وجود الكليات العريقة التى درس بها مشاهير الأدب والفن والعلم ٠

يقوم واقفا ، مستوفزا ، متوقعا ما لم يعد له العدة ، فى غربته يتوقع دائما المفاجأة الضارة ، يخشى نزول أذى ما من حيث لا يدرى ، ما طبيعته ؟ ما كنهه ؟ ما مصدره ؟ ٠

لا يمكنه القطع ، لا يستطيع التعيين أو التحديد ، أنما يلزم الحذر ، ويهيمن عليه التوجس ، ما يوده الآن انهاء وضعية المسافر ، بلوغ الفندق فى أقصر وقت ٠

حقيبة السفر فى يده وتطلعه حوله يعنى أنه لم يستقر بعد ، ان نقوده مكتملة وجواز سفره ، وشئونه بحوزته ، يرغب الوصول الى مأواه ، الى مستقرة المؤقت حيث سيمضى أيامه المعدودات هنا ٠

العنوان موضح ضمن خطاب الدعوة ، الحق أنهم لم يغفلوا التفاصيل ، المواعيد ، الحفلات ، الندوات ، أوقات الفراغ موضحة حتى يمكنه اللقيا بمن يشاء ٠ لكن ٠٠ بمن ؟ ٠

ما من أحد هنا ، ما من معارف من قريب أو بعيد ، احتاط لأوقات الفراغ فاصطحب كتابين ليخلو اليهما فى الليالى السبع المقدر له أن يمضيها هنا ، ينزل درجا يؤدى الى نفق يمتد تحت الأرصفة ، يتبع لافتات دالة على المخرج ، الى مكان عربات الأجرة ، طابور من العربات الصفراء ، حديثة الطرز ، يهبط السائق ، يرتدى سترة جلدية توحى بالملاكمة ، بالشروع فى منازلة ، يحمل الحقيبة ، يضعها فى خزانة السيارة الخلفية ، الركوب الى جواره غير ممكن ،

لا تسمح قوانين البلدية بذلك ، ولم يدر السبب ! • لا يمكنه رؤية العداد من مقعده ، نقوده محدودة ، لكن الأمر ضرورة ، لا مفر فى البداية ، يجهل الدروب والطرق ، اضافة الى اجهاد السفر ، وعبء الحقيبة ، وحذره •

الميدان فسيح ، قديم ، والمبانى عتيقة ، بالتأكيد •• تمت كلها الى ما قبل القرن التاسع عشر ، عجوز يرتدى معطفا بنى اللون ، يتوكأ على عصا ويمسك لفافة ، يتابعه بعينيه ، يلتفت ، لكن اتجاه العربة يحـول بينه وبين الرجل متمهل الخطى ، بادى الرجعـة ، لا يعرفه ، لا يدرى مقصـــده ، ربما يعبر الموضع ذاته فى هذه اللحظـــة •

يثق أن ملامحه العابرة جدا ستعلق بذهنه ، أول ما سيذكره عند استعادة أيامه هنا ، عندما تولى هذه الأوقات كلها ويتحول المحسوس ، المرئى الى مجـرد صـور ، بعضها واضـح ، ومعظمها مضبب ، باهت •

لكنه لن ينسى أبدا اللحظات الأولى ، الانطباع الأول ، رسوخ كامن ، وأيام عديدة مدثرة ، قوم متباعدون • ورائحة خفية تمت بشكل ما الى زهور صفراء ، دقيقة ، رهيفة ، تتوسطها دوائر صغيرة بنفسجية ، هكذا عين ، مع أن اليقين معدوم ، والأسباب منفية •

لماذا العجوز ؟ لماذا التفكير فى هذه الزهور ؟ وأغصان جافة فى ممر حديقة لا وجود لها ، أنما تتشكل عناصرها من أنحاء شتى لا رابط بينها ، أنها البدايات ، يشبه الوصول الى أرض لم يطأها بولوج العالم الحسى لامرأة ، مبهر اكتشـــاف دقائق الخصائص الصغرى فى المرة الأولى ، كل منهن عالم ، منظومة بمفردها ، أما طرق التعبير عن ذروة النشوة أو سلوك السبل اليها ، فلا تتشابه أبدا ، تماما كالبلدان والامصـــار والأراضى المعمـورة ، تـرى •• من القائل ؟ أغترب تتجدد • تستعصى عليه الذاكرة المجهدة •

تتوزع العربة على مهل حول الميدان المبلط بحجارة صغيرة ، أعمدة الأقواس الحجرية ، قمم أشجار تطل من سور مرتفع ، درج رخامي مؤدى ، تمثال شيخ مصوب العينين يمسك قنديلا ، تتجه السيارة صوب الطريق لمبنى المحطة من الطرف الآخر ، يتوقف أمام المبنى الرابع ، يظنها اشارة مرور ، أو سبب ما ، لكنه يفاجأ بالسائق يشير الى مدخل قديم :

أقل من دقيقة ، مفاجأ بقصر المسافة ، حقا .. الغريب أعمى ولو كان بصيرا ، لو أطلع على الموقع لعبر الميدان ، لادخر ما دفعه ، مبلغ مرتفع بالقياس ، فيما بعد عرف أن البداية مرتفعة القيمة ، مجرد فتح الباب ، بعد انتهاء مدته ، بعد انقضاء اقامته ، يوم سفره الى العاصمة ، بعد سبع ليال ، يمضي مشيا الى المحطة .

يتطلع الى الواجهة ، نوافذ مستطيلة مؤطرة بزخارف جصية ، تتخلل الفراغات تماثيل صغيرة وزهور حجرية ، يجتاز الرصيف ، بلاطه مربع مصقول ، ما بين جدران البيوت والأقواس الحجرية ممر طويل ، يستعيد شارع محمد علي ، لكن أقواسه أغلظ ، تهدمت في مسافات عديدة ، لا تتصل ، يبدو كفم تتخلل أسنانه فجوات غير منتظمة ، يستعيد مآذن مسجد محمد علي فوق القلعة التي تسد الأفق والروائح المنبعثة من سوق الخضار والتي تطغى عليها أحيانا رائحة الأسماك النفاذة ، خاصة في شهور الصيف ، يرى مقهى التجارة القديم بعيني طائر ملحق ، ينزل على مهل حتى يحط فوق منضدة في الركن المعتم ، لسبب لا يدري كنهه ، لا يرى الا ملامح رجل تجاوز الخمسين ، نحيل ، يرتدي جلبابا ، يحتضن عودا مغطى بقماش أخضر حائل ، يحلق الى شيء حيث أيام منسية تتوالى خلالها صور غامضة باهتة ، لا يدري متى رأى الرجل ، متى قابله ، لكنه

بالتأكيد لم يتبادل معه حوارا عندما أنس الى المقهى زمنا وأمضى أوقاتا طويلة الى عازف كمان ضرير أنبأه عن ألحان وضعها لو أتيح لها الظهور لغطت على شهرة محمد عبد الوهاب ولنسيه الناس خلال أسابيع ، لكنه مواجه بعقبات صعبة فى الاذاعة والتليفزيون نتيجة مبالغ ثابتة يدفعها كبار الملحنين الى المسئولين للحيلولة دون لقائه الجمهور الواسع ، الجمهور الواسع ، آه ٠٠ لو تتاح الفرصة ، لا يذكر من ملامح الضرير الا حجمه ، كان بدينا ، متهدل الكتفين ٠

يجتاز مدخل الفندق الضيق ، لا يتناسب مع رحابة بهو الاستقبال وحداثته ، مقاعد حادة الحواف ، خطوط مستقيمة ، لا يمت الداخل الى الخارج ، بعد الليلة الأولى ، فى صباح أول أيامه أدرك استمرارية وذيوع التناقض ، الواجهة عتيقة وداخل المبنى حديث جدا ، تعرض الواجهة ثلاثة طوابق ، بينما يتكون البناء من ستة ، الحفاظ على الطابع المتوارث تنظمه قوانين صارمة ، واضحة . لا تحتمل التفسيرات الخاطئة ، أو التأويلات سيئة القصد ، أو الحزق المتعمد ، المضمون جلى جدا ، احتفظ بالمظهر القديم ، أو اتبعه ، وافعل فى الداخل ما شئت ٠ ولأنها المرة الأولى التى يرى فيها وضعا كهذا ، اهتم بتتبعه ، بتقصيه ، بعد استقراره داخل الغرفة . واتمامه طقوسه ، رص أوراقه بجوار السرير ، وعدة حلاقته فوق الرف الزجاجى فى الحمام ، والملابس من الحقيبة الى الصوان ، أما جواز السفر وحافظة النقود فتحت الوسادة التى سيسند اليها رأسه ، عندما خيره موظف الاستقبال بين ايداعه فى المكتب أو حفظه معه ، لم يتردد ، أومأ برأسه شاكرا دسه فى جيب جاكتته ، لا يمكنه مفارقته ٠ شيئان لا يتخلى عنهما ، الجواز وبطاقة الطائرة ، يخشى دائما فقدهما ، وما يستتبع ذلك من متاهات شتى ٠

بعد أن رتب حاجاته ليضفى خصوصيته على الغرفة المشاع ، تمدد فوق السرير ، مستمتعا بوحدته فى حيز غريب ، نائيا عن

موطنه • التمدد على الظهر والحملقة الى السـقف ومحاولة فرز الأصوات الشاحبة النائية ، عادة أكتسبها منذ اعتقاله قبل ربع قرن وحبسه انفراديا لمدة أربعة وأربعين يوما قبل تحويله الى السجن الجماعى • وتعذيبه لاجباره على الاعتراف بالتهمة الموجهة اليه والى صحبه ، قلب نظام الحكم من خلال انشاء تنظيم سرى يعتنق الأفكار الهدامة ويدعو الى الصراع الطبقي وينكر الأديان السماوية جميعا ، وذلك أثناء جلوسهم في مقهى يحتسون فيه البيرة ، وأكواب الشاى الافرنجي المعبأ فى أكياس من ورق رهيف ، ثم انتقالهم الليلى الى مقهى شعبى قرب مسجد الامام الحسين ، وتبادلهم الحوار همسا معظم الوقت ، وبصوت مرتفع أحيانا للتمويه على مراقبيهم الأكفاء ، وتدخينهم المعسل أثناء ذلك •

على شفتيه تلوح ابتسامة ، سرعان ما تتوارى ليبدو تعبير أسيان ممتزج بدهشة طفولية بكر ، يقوم واقفا ، يتناول الأوراق التي وجدها فى انتظاره ، مضطر لقضاء الليلة فى الغرفة ، يجهل المدينة ، كما أنه متعب ، لن يطول سهره •

يتأمل الملفين الأنيقين ، الأول من الجـامعة التى تستضيفه بمناسبة البرنامج الاحتفالى لمرور تسعة قرون على تأسيسها ، والثانى من البلدية معلومات شتى عن المدينة ، موقعها ، تخطيطها ، خصائصها التاريخية والفنية ، المعمارية • أهم الصناعات والأنشطة والمشاهير الذين قضوا فترات من حياتهم بها . طالت أو قصرت •

الأمور المرعية
عند اعادة البناء

•• الموضوع خلافى ، غير محسوم ، يتبلور خلال فترات ، يغيب حينا لكن لحضوره وشيش دائم ، جوهره ذلك السؤال : أيهما أسبق ، المدينة آو الجامعة ؟ •

مؤلفات ، ودوريات ، وأبحاث ، ومناقشات ، وتصريحات علنية وأخرى خفية تتناول هذه النقطة ، ليس على المستوى المحلى ، انما فى اطار التاريخ القومى للبلاد الموحدة منذ قرنين لا غير •

تتداخل عناصر عديدة لتصيغه ، أو لتعيد ترتيب أولوياته ومحاوره وتفاصيله من فترة الى أخرى • ومن مرحلة الى مرحلة • وعند أى تغير يصاحب صعود طبقة ، أو سيطرة فئة ، أو بروز عنصر معين • أو نشوء أتجاه سياسى جديد ، ليس بالضرورة داخل البلاد ، وانما النظر فى مناهجه ، أو بزوغ نجم أستاذ جامعى كبير •

ما تم تدوينه فى العصر الامبراطورى ، مختلف عما تردد فى زمن الولايات ، لا يتفق مع التفاصيل التى ذكرت فى العصر الملكى ، وبعد اعلان الجمهورية تغير هذا كله ·

لكن ·· هذا الموضوع بالذات لم يتغير جوهره ، هل شيدت المدينة أولا ، أو ظهرت الجامعة ، ثم نشأ وضع يلبى احتياجاتها وتطور ليتخذ شكل المدينة ؟ والواجهات من الأمور التى تعكس القضية بوضوح ·

أقدم المنشآت هنا مبانى الجامعة ، بعضها يرجع الى السنين الأولى ، أى قبل تسعة قرون ، ومنذ تشكيل أول بلدية قبل بدء مجلس ادارة الجامعة ممارسته لمهامه ـ كما تؤكد مصادر البلدية ـ أو بعد ظهور أول كلية قبل نشوء المدينة ـ تؤكد الدراسات الجامعية ـ وثمة اتفاق على احتفاظ المدينة بطابعها القديم ، العريق ، هنا يقول رجال البلدية أن ذلك من صميم عملهم ، وأن أسلافهم هم الذين أرسوا التقاليد والأعراف والأصول والقوانين التى تكفل ذلك ، بل تكبدوا مشاقا ومخاطر ، ويضربون المثل بما جرى مع الادارة المركزية للتخطيط العمرانى فى العاصمة الاتحادية عندما شرع رجل أعمال كبير ، منبسط النفوذ ، فى بناء مصنع باحدى ضواحى المدينة ، اشترى عددا من المبانى فى المنطقة القديمة لاعدادها كمقار للادارة ، بدأ فى الهدم ، عندئذ طلب منه مهندسو البلدية الالتزام ، الحفاظ على الواجهات القديمة ، والبناء كما يشاء خلفها . غير أنه لم يعبأ ، بل هزأ من ذلك فى تصريح أدلى به الى مجلة أسبوعية ، واسعة الانتشار ، راديكالية الاتجاه ، وقيل أنه دفع ! · وصف ما طلب منه بأنه عبث ، وقال ان الناس يجب أن تعيش فى مكان حقيقى يعكس روح العصر ، وليس فى متحف ·

رئيس البلدية أنذره بالتوقف فورا ، وسحب معدات الهدم ، وأعلن أنه سيرفع الأمر الى المحكمة الدستورية الاتحادية ، قبل أن

يخرج المادة السابعة من دستور الولاية الى حيز التنفيذ عملا لا حقا ، وهذا نذير بحرب أهلية .

ترددت شائعات عن محاولات رجال الأعمال رشوة القضاة وكبار المسئولين ، بل وبعض أعضاء المجلس البلدى فوقعت الخشية لتعاظم أمر الرشوة في البلاد .

خلال أيام المؤتمر سمع الكثير ، ودون التفاصيل ، أمر مهم عنده ، لتناقضه مع ظاهر ما يبدو له منذ وصوله الى المطار ، ثم ركوبه القطار ، وحتى استقراره في غرفته ، يبدو كل شيء صارم الانضباط ، قاسى التقاطيع لكن ما اطلع عليه عكس ذلك ، فالرشوة فاشية ، لا يوجد ما يستعصى عليها ، يمكن الحصول على أدق المعلومات وأشدها حساسية ، بما فيها مؤسسات الأمن العام ، وأجهزة مكافحة أنشطة التجسس ، ولجنة اعادة كتابة التاريخ المشكلة عقب انتخاب رئيس الجمهورية الحالى للمرة الثانية

كل له قدر معلوم ، حتى تكليف ضباط بالخدمة السرية لجمع معلومات دقيقة عن شئون المواطنين الحساسة ، كذلك الظهور في وسائل الاعلام المركزية والمحلية مقابل مبالغ معينة يتم الاتفاق عليها مع مخرجى البرامج ومسئولى التخطيط المركزى .. أموال أخرى متفاوتة المقادير تدفع الى المصورين وعمال الاضاءة مقابل تركيز آلات التصوير على شخصية معينة أو زوايا خاصة تبرز جمال ممثلة ، أو ملامح خاصة لرجل سياسية تظهره قاسيا ، صارما ، قادرا على ارهاب خصومه ، ثمة امكانية لتخفيض الأعمار ، بعد تغيير شهادات الميلاد ، طبعا .. المستفيد هن النساء .

وفى وقت مضى تحدثت المدينة عن طبيب أسنان مشهور ، وصدمته الحادة التى الزمته الاقامة حتى الآن بقسم الأمراض العصبية والنفسية بالمستشفى الجامعى ، وذلك أنه اكتشف بعد وفاة زوجته أنها تكبره بخمس عشرة سنة ، بعكس الوثائق ، بدءا

من شهادة الميلاد ، وحتى بطاقة الاقامة ، وجواز السفر ، وأوراق العضوية فى النادى الاجتماعى ، اتضح له أنها دفعت أموالا لتغيير البيانات حتى تصبح رسميا أصغر منه بسبع سنوات · كان افتضاح الأمر بعد هذه السنوات الطوال ثقيل الوطأة ، فلم يحتمل ·

كل شيء ممكن اذا ما دفع مقابلا ، مبالغ معينة ، هدايا ، أو تسهيل الحصول على أشـــياء عينية ، كتمرير صفقات ، أو امتلاك أراض عامة ، أو الوصول الى منصب ·

ما توقف عنده ، ضرورة احتفاظه بنقود لدفعها مناصفة بين رجال الجوازات والجمارك ، مع سلامة الاجراءات ، واستيفاء جميع الخطوات ، والالتزام بالمدة المحددة للاقامة ، وانعدام المخالفة كلية ، انما يتم الدفع لتيسير المتعارف عليه ، والا وقع التباطؤ ، ربما يطلب منه الانتظار حتى تتم مراجعة بعض البيانات ، يتم تأخيره عمدا ، حتى تقلع الطائرة ، يفاجأ بوقت لم يعد له العدة ، قرر اتخاذ الحيطة ، ومما أدهشه أن تلك الأمور معروفة ، متداولة ، حتى بالنسبة للأجانب القادمين لتمضية أجـــازات ، أو الاقامة فتــرات أطـــول ·

جهة واحدة تستعصى على الرشوة ·

انها الجامعة ، ويضرب المثل دائما بابن أمير الولاية الغربية فى العصر الملكى ، عرض والده هدايا ثمينة تتضمن مجوهرات وتحفا ثمينة ، لكن المجلس رفض قبوله بعد رسوبه فى الاختبار الشخصى ، وتتردد وقائع أخرى مشابهة ، لكن بعض رجال البلدية يؤكدون أن ثمة أشكالا أخرى ومسارب خفية ، ويضربون مثلا بأستاذ مادة الاعلام الموجه الذى ساعد زوجة رئيس الجمهورية السابق وسهل لها الحصول على شهادة التخرج فى كلية العلوم الانسانية ، مقابل وعده بمنصب كبير ، ولكن رجال الجامعة يردون فورا ، اذ تقرر احالة هذا الأستاذ الى لجنة التأديب السرية · ولكن مصادر البلدية

تؤكد أن السبب مختلف ، ذلك أنه ضبط فى دورة المياه الخاصة بالسيدات يمارس الجنس واقفا مع طالبة من الصف الأول ٠

والحديث فى هذا يطول ٠

نعود لذكر ما جرى من رجل الأعمال ٠ اذ يبدو أن جهود البلدية لوقفه لم تنجح ، أو لم تلق صدى فى العاصمة الاتحادية ، عندئذ لوح رئيس المجلس بالمادة السابعة ، وبعد أيام قليلة نفذ مضمونها بدون الاعلان عن العمل بها ٠

استنفر قوات الأمن المحلية واستدعى جميع أفرادها الذين خرجوا من الخدمة طوال السنوات العشر الماضية ، ورفع الراية القرمزية فوق البرج المائل ، وأمر باشعال تسعة وثلاثين شمعة رسمية على أضرحة الفلاسفة ، واضاءة شمعة كبرى تزن ربع قنطار تحية لروح رئيس الفلاسفة الذى لم تعرف مقبرته حتى الآن ، ومازال البحث جادا عنها ، ومثل هذه الشمعة لم توقد منذ أربعة قرون ، بعد وقوع الوباء الكبير فى القرن السادس عشر ٠

يبدو أن هذه الاجراءات لاقت أصداء طيبة وأيقظت أسبابا ظل ركودها ، فالمدينة كانت فى الأصل امارة مستقلة حتى القرن السابع عشر ، ثم جرى فى القرن التالى توحيد البلاد بالقوة بعد حروب دامت أربعين سنة متصلة ، سالت خلالها دماء ، واستبيحت أعراض ، وثروات ، وتغيرت معالم ، الا أن المدينة القديمة عامة ، ومبانى الجامعة خاصة لم يلحق بها ما جرى فى المدن الأخرى التى محى بعضها تماما ، ترجع مصادر البلدية ذلك الى حكمة رئيسها ، ودهائه السياسى الذى مكنه تجنب الأطراف المتحاربة ، أما وثائق الجامعة فتؤكد أن السبب الرئيسى يرجع الى مجلسها الأعلى ، عندما وجه نداء للحفاظ على الجامعة وتراثها الحضارى والانسانى ، نص النداء المكتوب على رق من جلد الغزال محفوظ فى العاصمة ، معروض فى مركز الوثائق الاتحادى ٠

هكذا ·· لم تغلق الجامعة أبوابها واستمرت تستقبل الطلاب طوال زمن الحرب ، بعد انتهاء المعارك ، وضم المدينة الى الولاية ، وضم الولاية الى الاتحاد ، لم يفقد الأهالى احساسهم القديم بالتميز ، وحافظوا جاهدين على مظاهر شتى خاصـــة بهم ، مثل اللباس التقليدى ، وترتيب أصابع المقانق فى الطبق ، ونوعية النبيذ الذى ظل ينتج طبقا للأساليب القديمة فى براميل من خشب عتيق · رغم تطور وسائل الانتاج ، كذلك الموسيقى التقليدية والطقوس المتبعة فى الأعراس والجنائز · وكعك العيد الكبير ·

هنا تشير كتب علم الاجتماع الى دور الجامعة وحضورها القوى ، وتقاليدها الصارمة فى الحفاظ على الطابع ، ومما اشتهر وذاع أمره وأقبل الناس على رؤيته خاصة فى المناسبات ، أزياء الأساتذة والطلبة ، والحفاظ على الأزياء أصعب من واجهات المبانى ، العمارات لا تتغير الا عبر حقب متباعدة ،، أما الملابس فتتبدل من سنة الى أخرى · بل ·· من فصل الى آخر ، لكن نجحت الادارة الجامعية وحولت بعض العناصر الى شعار ودلالة ·

خلال أيام اقامته الأولى وأثناء جلسات المؤتمر الاحتفالى دون العديد من الملاحظات المتعلقة بالأزياء ، خاصة الأقدم ··

لمحة وجيزة

.. بداية ، يجب القول ان ما يبدو اليوم طريفا ، غرائبيا ، عبثا على الراهن ، كان فى الماضى المندثر جزءا من سدى الحياة ولحمتهـــا .

عندما أسس أول معهد ، نواة الجامعة ، وخصص لدراسة العلوم الدينية والشئون الفقهية ، والمعاملات الشرعية ، كان من الطبيعى أن يتمـــاثل الزى وقتئذ مع رجال الدين ، الا أن كبير الأساتذة رغب فى التمييز ، أضاف الى الرداء القاتم الفضفاض حزاما من القماش عرضه مقدار قبضة اليد ، أبيض للأساتذة ، أحمر للطلبة ، كذا غطاء للرأس .

زى ذكورى طبعا ، فلم يحدث أن قبل المعهد أناثا بين صفوفه طوال ثمانية قرون ونصف القرن ، فقط .. جرى التحاق بعض الطالبات منذ خمسين عاما عقب مناقشات حادة ، ومعارك لفظية وارجاءات متتالية ، ومحاولات شتى للتعطيل ، حتى انتهى الأمر بعد ثلاثين عاما من النقاش بقبول عدد من الطالبات اللواتى اعتبرن فى

البداية منتسبات ، وخضعن لشروط صعبه ، واختبارات عديدة ، وتفاصيل الأمر مطولة ، لو أوردناها لغطت وأملت ·

منذ أربعين سنة وقع خلاف محوره الحزام الذى أضيف فى الأزمنة البعيدة ، المصادر وكتب الرحالة تؤكد أنه من الحرير ، بعض الباحثين أثبتوا أنه صنع من الجلد المدبوغ ، يتوسطه قفل من نحاس أصفر محكم ، وفي قول أحدهم ، نحاس أحمر ··

بعد استمرار النقاش أعلن المجلس الأعلى عن وجود زى كامل كامل فى قبو المخلفات الجامعية ، تقرر ترميمه وعرضه فى المتحف المتاح للجميع والمحتوى على نفائس جمة ، لكن ·· لم يتم ذلك حتى الآن ، وقيل فى سبب ذلك أن الجلباب ولوازمه موجود فى نقطة عميقة من القبو تختلف فيها الرطوبة ودرجة الحرارة اختلافا جما · ولابد من عمليات دقيقة لحفظه عند تعرضه للهواء العادى . مقال واحد ظهر فى جريدة البلدية الأسبوعية شكك ولمح الى احتمال عدم وجود الزى ، ولم يعلق أحد ، لكن المقطوع به ، المفروغ منه ، وجود أشياء نفيسة ، نادرة ، بعضها يعد من الأعاجيب ، داخل القبـــو ·

انه شق طبيعى تحت الأرض يتشعب الى عدة ممرات أوسعها شبه دائرى ، ثم يبدأ منه نفقان يقال أنهما غير مستكشفين الى النهاية لانعدام الهواء الصالح عند مسافة معينة ، ولارتفاع درجة الحرارة . يضم كنوز الجامعة المتوارثة ، بدءا من المخطوطات النادرة · والألواح المنقوشة بلغات منقرضـــة ، وكراســـات قديمة بالقلم الغريب ، والأشكال الهندسية التى تؤول وتفسر ، وأدوات الكتابة المندثرة . وأول كتب طبعت ، ورسائل ملوك وسلاطين وأباطرة ، وسيدات مشهورات وأدباء كبار ، ورسائل شخصية لأساتذة أو طلبة ، أو بعض أهالى المدينة ، عاشوا فى حقب مختلفة ولكن أوراقهم الآن قريبة متجاورة ، كذا دفاتر حوليات ، ويوميات تجار ، وفهارس ،

ومخطـــوطات كتب على ورق البردى القديم ، حتى الهدايا التى تلقتها الادارة عبر تسعة قرون من الحكام والأثرياء والمؤسسات ، والهيئات الدينية ٠

ويؤكد العارفون أنه من المستحيل تماما الاحاطة بما يحويه القبو حتى وأن زعمت الادارة وجود سجلات دقيقة ، متوارثة ، دون فيها كل شيء ٠

من فترة الى أخرى ، وفى مناسبات محددة ٠ يجرى عرض نوعى ، مرة للأوســـمة التى تلقاها رجال الجامعة البارزين ٠ أو شهادات التقدير من الهيئات العلمية المماثلة ، أو للتحف النادرة ، أو لمخطوطات مشاهير قضوا سنوات هنا كدارسين ، توجد مطبوعات صدرت فى نهاية القرن الماضى توضح بعض محتويات القبو ، من ذلك مجلد ثمين يتسابق هواة السجاد والمتخصصون فيه الى اقتنائه مع ندرة نسخه الآن ، وارتفاع السعر أن وجدت ، وآخر عن المصابيح اليدوية ، سواء المهداة ، أو تلك التى علقت على مدى قرون عدة فى قاعات الجامعة وحجراتها ، وثالث عن المحابر الفضية ، والنحاسية ، والمصنوعة من عاج الفيلة الهندية ، ومن حجر أسود صلب لا يوجد الا فى جبال الأنديز ، ورابع عن المنمنمات الشرقية ، ويضم أقدم صور معروفة لأبطال شاهنامة الفردوسى ، وقصة فيرهاد وشيرين ، والزير سالم ، والظاهر بيبرس ، وسيف بن ذى يزن ، ومجلد خامس رسم لوحاته فنانون مجهولون اصطحبهم سلاطين الأتراك سرا فى حملاتهم العسكرية ، وسهراتهم ٠ وخلواتهم ليرســـموا ملامحهم ، وليمسكوا بلحظاتهم الفانية ٠

لم تنشر هذه اللوحات من قبل خشية غضب بعض رجال الدين الاشداء ، المتعصبين ، وان كان الأمر صـــار الى غير ذلك فيما بعد ٠

هذه المجلدات تطبع بأعداد محدودة جدا ، وكثير منها الآن فى ندرة المخطوطات ، منذ عدة سنوات بيع فى صالة احدى المزادات

الشهيرة نسخة من مجلد صدر في منتصف القرن الثامن عشر يحوى صورا وسجلا بأنواع السيوف النادرة التى تقلدها رؤساء الجامعة عبر أزمنة مختلفة عند افتتاح المراحل الدراسية ، بيع بمبلغ تجاوز المليون ، تناقلته الصحف ، لكن ·· لم تعرف شخصية المشترى ، قيل أنه ثرى ، وتردد أنها هيئة ما ، وأكد البعض أنه متحف عالمى . لكن ·· لم يثبت شيء ·

تغييرات ضئيلة جرت على الأزياء خـــلال فترات متباعدة ، لا يلحظها الا الباحث المدقق ، عدا تلك المرتبطـة بضـجة كبرى أو حوادث استثنائية · مثل الدوائر الثلاث وتلك مرتبطة برداء رئيس الجامعة ، خاصة الذى يظهر به عند حفل التنصيب ، وافتتاح العام الدراسى ، واختتامه ، غطاء رأس مرتفع ، بنى اللون ، مقبب ، تتقدمه ريشة كتابة من النوع العتيق ، فوقه عباءة رمادية تنسدل الى ما بعد الركبتين مقدار شبر واحد ، تتخللها ثلاثة خطوط حمراء ، يتوسط كل منها عند الخصر ثلاث دوائر مذهبة ، تحمل الحرف الأول من اســـم الجامعة . أنه الأول أيضا من اسم العاصـــمة المركزية ·

مشكلة كبرى حول تلك الدوائر ، لا تزال تفاصيلها تروى ، يقال أن أول رئيس اتحادى كان شخصيا مهيبا ، صارما ، قاسيا فى معاملاته ، ضاريا فى عدائه لخصومه حتى أنه صفى الكثيرين خنقا بيديه ، كان كثيف اللحية ، عظيم الشارب ، محبا للنساء ، مكثرا من أكل العصافير المحشوة بالفستق ، ونوع صغير من السمك لا يعيش الا فى المياه النقية جدا المتوافرة فى برك طبيعية فوق مرتفعات جبلية شاهقة فى أمريكا الجنوبية ·

فى المتحف القومى لوحات عدة تسجل ملامحه فى مراحل عمره المختلفة منذ بدء ظهوره فى حياة البلاد السياسية · وضعت عشرات الكتب فى سيرته ، وأعماله ، ومعاركه ، تطرق بعضـــها الى أدق

شئونه ، حتى ذكر أحدهم ان التحاليل العلمية التى أجريت على ثلاث شعيرات من رأسه فى مختبرات كلية العلوم أثبتت اختلال غدده وضعفه ، أما ما أشيع حول فحولته فالغرض منه اضفاء الهيبة · امتعض رجال البلدية ، واعتبروا ذلك محاولة لتشويه التاريخ القومي للبلاد ، همس البعض بوجود صلة بين ما أعلن والدوائر الذهبية ·

بدأ الأمر عندما أصر على اضافة رموز الدولة الى المؤسسات الاقليمية حتى لو تمتع بعضها بذيوع الصيت ، وسمعة دولية ، اختار بنفسه هذه الدائرة الذهبية على أن تتوسط العلم ، ويوضع ثلاث منها على عباءة رئيس الجامعة ·

رئيس الجامعة كان عالما ، متمكنا ، راسخا ، قوى الحضور ، موفور النظر ، تجاوز التسعين بذهن لم يهن ، ومهابة ، أمضى فى منصبه العلمى أربعين سنة متصلة ، لم يفارق خلالها أسوار المنطقة الجامعية ، لكم دعى الى مؤتمرات ، الى احتفالات ، ومناسبات ، لكنه لم يستجب قط ، سعى اليه القصاد وأصحاب المسائل من كل فج ·

عندما بلغه القرار ، أطرق مقدار ساعة ، ثم قام الى مقر خلوته واحتجب يومين ، لم يره أحد ، لم يقابل انسانا ، ثم خرج معلنا دعوة المجلس الأعلى ، المكون من عمداء الكليات والأساتذة المتخصصين وأقدم خريج محلى على قيد الحياة ·

قال باختصار دال : أنه لن يسمح أبدا باضافة هذه الدوائر مادام حيا ، سابقة خطيرة لو مرت ستفقد الجامعة استقلاليتها · ستهدر تقاليد عريقة أفنى خيرة أبناء الجامعة أعمارهم للحفاظ عليها وتأصيلها · والعبور بها من زمن الى زمن ·

جري الاجتماع فى حال شديد من التأثر ، حتى أن بعض الحاضرين · ذرف دمعا ، طبعا كل ما دار فيه بلغ رئيس الدولة ،

تعاظم غضبه ، أرسى العزم وأكد التصميم · قال ان اضافة هذه الدائرة قرار سيادى ، لم يصدره للمناقشة ، انما للتنفيذ ، واذا لم تقع الاستجابة سيغلقها الى الأبد ، ·· نعم ، سيوقف أعمال الجامعة تماما ، ولو هب العالم كله ضده · سيحول مقاراتها الى متاجر لبيع الأقمشة ، والأطعمة الطازجة ، بعض ممن يحيطون به وعرفوا بالقدرة على مناقشته أشاروا عليه بتجنب الصدام والسعى بالحيلة · أما الاجراءات العنيفة فستضر الدولة الجديدة ·· ولا داعى ! ·

من هنا بدأ الدهاة سعيهم ·

كان فى المجلس الأعلى أستاذ مشهور فى عالم المنطق الأرسطى، عنده شهرة ، ولأمره ذيوع ، تجاوز السبعين بعامين ، وعنده تطلع الى المنصب الرئاسى ، مضمر لغيرة قصوى ، وقلق عصبى ، يخشى أن تدركه المنية قبل ادراج اسمه بين من تولوا أمور الجامعة والذين تصطف اللوحات الزيتية مبرزة ملامحهم فى القاعة الرئيسية ، تلك عادة قديمة مرعية ، من مراسيم التنصيب رسم لوحة زيتية تعلق فى اطار خشبى قاتم يخلو من الزخارف ·

كان هو المرشح الأول ، صحيح أن ثمة انتخابات تجرى . لها طقوس وأصول مرعية ، غير أنها شكلية طبقا للعرف ، دائما هناك شبه اتفاق غير معلن حول شخص بعينه ·

صحيح أن الرئيس معمر ، طاعن فى السن ، لكنه يبدو صحيح البنية ، غير ذى علة ، يتبع نظاما غذائيا غريبا ، اذ يتناول فى افطاره ، حبة ثوم ، ونصف كيلو بصل مشوى ، وفى الغذاء طبق خضار مسلوقا ، وفى العشاء كوبا من عصير التوت البرى ، لا يقرب اللحم ، أو البيض ، أى شىء حى يمت الى البر أو البحر ، يغطى رأسه بطاقية من صوف الغنم المغزول يدويا ، ويتمدد فوق لوح خشبى مغطى بملاءة رقيقة ، ثم يروح فى سبات عميق لا يوقظه منه

قرع الطبول ، في الصباح الباكر وبعد اطلالة قرص الشمس يرى في الحدائق الفسيحة لمحيطة ماشـيا لمدة ساعة ، الدلائل تشير الى عنفوانه ، وأنه سيتجاوز المائة ، انه الشقيق الأصغر لسبعة ذكور عاش أقلهم مائة وعشرين سنة ٠

متى سيعلو أستاذ المنطق الأرسطى كرسى الاستاذية اذن ؟ ٠ انه معتل ، نحيف ، رقيق البنية ، غير قادر على مضاجعة امرأة منذ ثلاثين عاما ، كان في ضيق ، ولم يخف ذلك أحيانا ٠ غير أن البعض يذكرون أسبابا أخرى ربما تبدو موضوعية ٠ ذلك أن رئيس الجامعة كان منتميا الى أساتذة العلوم العملية ٠ وهؤلاء يشغلون المنصب الرئاسي منذ قرن ، أدى ذلك الى تذمر خفى بين أساتذة العلوم النظرية ٠ هؤلاء يعتبرون أنفسهم أجدر ، ولهم حجج شتى ، منها أن الجامعة بدأت بالكليات النظرية ، المعهد الديني ، ثم الفلسفى ، ثم الأدبى وتحولت المعاهد الى كليات ، أما كلية الفلك فالنقاش حولها لم يحسم ، عملية أو نظرية ؟ ٠ أما التاريخ الرسمى فيعتبر الطب أول كلية عملية ٠

من حججهم أيضا أن تخصصاتهم تسمح لهم باتقان فنون الادارة ، لكنهـم هم أنفسهم كانوا على خلاف فيما بينهم ، ذلك أن شقاقا قديما بين كليات الفلسفة والآداب والتاريخ من ناحية ، وبين كليات العلوم السياسية والادارية والتجارية ٠ والأسباب عديدة ، لكنها لم تصـــل درجة الحدة قط ، حتى الخلاف بين النظريين والعلميين ، ذلك أن الصراع الأعم بين البلدية والجامعة ٠

المهم ٠٠ جرى اتصال ما ، غير معروف حتى الآن ٠ بين أستاذ المنطق الأرسطى وبين رئيس الدولة الاتحادية ٠ تم خفية طبعا ، ولم يعرف أحد ماذا جرى فيه ؟ ثم تفجر الموضوع أثناء الاجتماع الشهرى الموسع ٠ فيه يتناول الأساتذة العشاء معا مع طقوس معينة ، قديمة ، يتم تقديم أنواع معينة من الطعام مطهية فى أوان فخارية

قديمة ، مع أصناف من النبيذ المحلى غير الموجودة خارج الجامعة ، عند البدء فى تناول كل طبق تتلى فقرات من نصوص أدبية مجهولة المؤلف ، بعد تناولهم العشاء يطرقون فى أحاديثهم موضـــوعات شـــتى ٠

أبدى أستاذ المنطق الأرســـطى وجهة نظر تهون من اضافة الدوائر الذهبية الثلاث الى العباءة الرئاسية ، التفت الحاضرون ليروا وقع الكلمات غير المنتظرة ، رأوا رئيسهم الصارم مرهوب الجانب يتطلع الى نقطة غير محددة بعينين زجاجيتين ٠

استمر أســـتاذ المنطق مشيرا الى لا معقولية تعريض وجود الجامعة واستقلالها للخطر مقابل ثلاث دوائر وهمية ، توقف منتظرا رد الفعل ، الا أن الصمت الغريب ، المريب ، استمر ، عندئذ قال باختصار أنه لا يرى ضررا فى اضافتها ، ثم قال ، يجب الافلات من أسر الماضى المندثر ٠

احتدم النقاش ، طق الخلاف ، علت الأصوات فى اجتماع لم تكن تسمع فيه الا همسا ، العجيب ٠٠ أن الرئيس لم يفه حرفا ، انما بقى قابعا فى مقعده عند مقدمة المائدة البيضاوية ، الشهيرة ، والتى ظهرت فى العديد من لوحات فنانى المرحلة الكلاسيكية ٠

يذكر أحد الأساتذة أن صمته بدأ لحظة اثارة الموضوع ٠ لم يسمع صوته فيما تلا ذلك ، أرجعوا ذلك الى صدمة ماحقة نزلت به ، لم يتوقع أن يسفر الشقاق كما جرى هذه الليلة ، هو من اعتاد تسيير الأمور باشارات من ملامحه أو نظراته بدون لفظ ٠ قال آخرون أنه أدرك بوضـــوح ادبار أمره ، وأن ما كان لن يكون ، لذا لم يتحمل فسكت ، ولما طال صمته ونظره الى نقطة غير محددة ، وشرد بوجوده الحسى ، فلم يعد يره أحد ، اجتمع المجلس الأعلى وعزله ، تفاصيل ما جرى مبهمة ، ترد فى مصادر الجامعة من خلال عبارات عامة ، بشكل ما ، كان الأمر مثيرا للخجل ، فلم تحدث

اقالة قسرية الا مرة واحدة منذ خمسة قرون ، وتفصيل ذلك مثير ٠

اذ تولى أمور الجامعة عالم كبير بمقاييس عصره ، اشتهر أمره في علم الفلك ، والأرصاد وتحديد الأنواء ، له معرفة بفن الخط وبعض آثاره موجودة الآن في القبو ، وله في هذا المجال تفانين عجيبة ، منها أنه كتب أعمال شكسبير كاملة على حبة أرز ، وخط الكتاب المقدس على بيضة حمامة مفرغة ، كان خبيرا بأنواع السفن ، وطرق بنائها ، هاويا لصناعة نماذج دقيقة تثير الاعجاب ، مع أن المدينة في منطقة شبه جبلية ، والبحر ناء ، بعيد ، لم يفارقه حلم الرحيل يوما ، أتقن حرفا عديدة مارسها في فراغه ، منها نجارة الخرط ، والتطعيم بأنواعه ، الفضة بالذهب ، والنحاس بالفضة ، والخشب بالعاج ، ونقش الفولاذ ٠

ومن آثاره المعروضة بالمتحف الصغير ، قفل بدون مفتاح ، يغلق ويفك وفقا لحركات معينة ، وعد هذا من الأعاجيب في وقته ، عرف بقوة ذاكرته ، اذا قرأ كتابا حفظه ، واذا سمع قصيدة شعر مرة تلاها ولو بعد عشر سنوات ، يذكر الملامح وان التقى بصاحبها بسرعة ٠ كما اشتهر بقدرته الفائقة على اجراء العمليات الحسابية بما فيها أعقد عمليات الضرب والجمع والقسمة شفويا دون استخدام قلم ٠

في السادسة عشرة قام بشرح كتاب « الجديد في الحكمة » لابن كمونة ٠٠ في عشر مجلدات ، ترجم الى عشر لغات منها الأوردية، ثم وضع شرحا للشرح في خمسة عشر مجلدا لكنه لم يطبع ولم يترجم ٠ ويقال أنه عقد العزم على اعداد شرح لشرح الشرح ، وضع خطته بالفعل ٠ والأصول لا تزال محفوظة ، لكن لم يمتد به الوقت ، بعد أن جرى له ما سنذكره ٠

من آثاره أيضا قاموس للغة الأكدية القديمة ، لم يستعن بمرجع واحد أثناء اعداده ٠ بوبه وقسمه وصنفه ورتبه من الذاكرة ٠

هذا قاموس لم يظهر قبله ولا بعده ، ومازال مرجعا لا قرين له .
أتقن من اللغات القديمة ستة عشرة منها الأشـــورية والحميريه والسريانية القديمة ، والمسمارية ، كما برع فى علم الطب ، وتوصل الى معرفة مسار الدورة الدموية فى الأذن الوسطى ، كما وضع تبسيطا لكتاب الحسن بن الهيثم « المناظر » والذى قام فيه العالم العربى القديم بتشريح العين الانسانية · ورسم مكوناتها ، ومسار الدماء داخلها ، تؤكد المصادر أنه كان على وشك التوصل الى تحليل التركيب الطيفى لألوان قوس قزح خلال الدقائق الخمس الأولى بعد نزول المطر مباشرة ، لكن ما جرى أعاق هذا كله ، ودفع البعض الى التشكيك فيما تركه من آثار متنوعة ، مختلفة ، طرقت كل علم · وأحاطت بشتى الفنون ·

لا تزال سيرته تدرس حتى الآن لطلاب الصفوف الأولى وتعد مثالا لما يجب أن يحتذى به الساعون كل مراتب العلم المختلفة ، وتركز على مرحلة التكوين خاصة التى يشرح فيها كيف بدأ تحصيله العلم فى سن مبكرة ، واستيعابة العلوم المختلفة ، وشعوره الحاد بضيق الوقت ، وقصر العمر عن المطلوب ، وشح الزمن ، مما دفعه الى عمل متصل لمدة أربع وعشرين ساعة أحيانا ، ولجوئه الى صب الماء البارد فى أيام الشتاء عندما يوشك أن يدركه الوسن ·

فى فتوته لم تتجاوز ساعات نومه ثلاث ساعات ، بعد العشرين أربع ســـاعات ، وبعد الأربعين ·· خمسا ، الا أنه بعد الســـتين عرف الأرق ، حتى بلغ به الأمر أنه لشـــدة تعبه أحيـــانا لا يمكنه النـــوم ! ·

يبدو أنه انعدام الوسن مع تقدم العمر وضعف البنية الفاعلة ، وأسباب شتى ، أوصله هذا كله الى ظهور أعراض تجاهلتها السيرة الرسمية المقررة ، لكن تشير اليها حوليات البلدية والتى تضم تراجم عديدة لأساتذة الجامعـة باعتبـارهم من مواطنى المدينة ، وبالطبع مغايرة تماما لما تذكره المصادر الجامعية ·

يدأ الامر بشرود مستمر ، متصل · خلال ساعات الدرس . ثم ضحكه المفاجىء في مواقيت الصلاة ، ثم تغير مشيته الوقور ، محددة الخطى ، وتثنيه وتمايله عند اجتيازه الفناء الرئيسى ، ثم محاولته التلصص ليلا على بيوت المدينة ، والتسلل الى حمام النساء الجماعي نهارا ، في الليل يخصص للرجال ، أعتبر من مفاخر البلدية وانجازاتها الهامة وقتئذ ، أحد أساتذة الجامعة ، بكلية الهندسة قال انه لولا أسهام الجامعة في بنائه لما ظهر على خريطة المدينة ·

تخفى في ثياب النساء ، دخل نهارا ، ثم خلع ما يرتديه وراح يجرى وراءهن مثيرا الذعر ، طبعا ·· رويت هذه الواقعة بصيغ شتى ، واعتبرت من أسوأ المحن ، حتى أن وفدا من كبار الأساتذة توجه الى البلدية واجتمع برئيسها لمدة سبع ساعات ، تم الاتفاق على بقاء عدد من التفاصيل سرا على أساس أن شيوعها سوف ينال من سمعة الجامعة ، وربما أدى هذا الى توقف مجيء الطلاب الأثرياء من الدول الأخرى ، وهؤلاء يحدثون رواجا في المدينة ، ان اتفاقا تم التوصل اليه ، لكن ·· بقيت تفاصيله غامضة ·

المهم ·· تم عزل رئيس الجامعة لأول مرة وهو على قيد الحياة ، حبسوه في بناء قديم مهجور ، لا يعرف أحد من شيده ، أو أقام به ، ولا تزال آثار من جدرانه باقية ، اذ أقيم مكانه المستشفى الجامعي الذى بدأ نشاطه منذ القرن السابع عشر · ومازال محور خلاف أساسى ، البلدية تطالب بالاشراف عليه لغموض ما يجرى داخله ، وهذا أمر يطول شرحه ، الجامعة تؤكد تبعيته المطلقة لكلية الطب التى لا يتوقف أساتذتها عن اجراء الأبحاث والتجارب ·

ان قرونا خمسة مرت على عزل رئيس الجامعة ، رغم طول الحقبة فان الاستفسار حول مرضه مما يثير ضيق الأساتذة حتى الآن · أنها السابقة الوحيدة قبل عزل الرئيس العجوز الذى لم يحتمل امتداد العمر به حتى يرى بعينيه اضافة الدوائر الثلاث الى

العباءة الرئاسية ، اعتزل بعرفته ، ولم يخرج منها الا محمولا ، هامـدا ٠

حكايته تروى الآن لأفواج السائحين ، أحيانا يبتسم البعض عندما يصغى الى تفاصيل الأمر ، ولكنه عندما ألم به تساءل ، من قال على فسمع منه ذات يوم بعيد أن الموت قرار داخلى ؟ وأن الانسان يقرر فى لحظة معينة من مسيرته البشرية ، لكن تختلف المدة ، يبدأ الاحتضار عند البعض فى الثلاثين ولا يكتمل الا بعد السبعين أو الثمانين ، البعض يمضى فجأة اذا وقع خلل بعالمه . لكن المفروغ منه ، المقطوع به ، أن لكل أجل كتاب ، ولكل عمر مقدار مجهول ، لا يزيد أو ينقص عما هو مقدر ٠

ما جرى لرئيس الجامعة بسبب اضافة الدوائر الثلاث ذكره بصاحب المقهى القديم ، المشهور فى مدينته ، وكيف قضى ؟ ٠ تعجب للتشابه بين العناصر مع تباعد الأمكنة واختلاف الأزمنة ، ولا بأس من ذكر الأمر لانشغاله به ، واستعادته له ، وتأمله فيه ، اذ أمضى فى زواياه أوقاتا عندما أدركه مكتملا قبل نقصانه ، عندما أقام سنين عدة على مقـربة ، لكم حن الى اسـتعادة ولو لحظات أو دقائق من توهج مشاعر أو ترقرق صفو ، أو طيب مزاج بصحبة آخرين أحبهم وأحبوه ، ثم ولى عنهم وتباعدوا عنه لأسباب ٠

لكم حن وهفا مع اكتمـــال ادراكه أن ما فات لن يعود ، وما مضى لن يرجع ، أحيانا اذ يستعيد لحيظات حميميته يتعجب . يتساءل : أحقا كانت ؟ ٠ أحقا اجتزتها بجسدى هذا ؟ هل يمت حضورى المحسوس الآن الى ما كان منى ؟ ٠

تبدو أزمنته المستعادة بالمخيلة كأنها تخص غيره ، لكنها تلح عليه ، تتكأكأ على ذاكرته ، وتلغ فى الأوردة المؤدية الى غرارة قلبه خاصة عند اغترابه ، وسعيه الى ديار بعيدة عن أصل نشأته ، حيث تقل الصحبة أو تنعدم الرفقة ، فيسعى ولا يستقر ، يمضى ولا يقيم الا فيما لم يعد موجودا ٠

المقهى وصاحبه ٠٠

٠٠ اختلف عامة الناس والمتخصصون في عمره ، قدره البعض بمائتين ، وزاد آخرون قرنا كاملا ، وأثبت أجانب أنه كان قائما زمن الحملة الفرنسية ، ثمة لوحة تصور جانبا منه فى كتاب وصف مصر ، الذى أعده علماء الحملة عن البلاد وما تحوى ، وأن بونابرت زاره واحتسى مشروب الحلبة وأبدى اعجابه بنكهته ٠

فيما بعد اشتهر المقهى بالشاى الأخضر المعطر بالنعناع ، وهذا من عناصر الحنين القوية عنـــد صاحبنا خلال اغترابه ، مهما اختلفت المدة ، طالت أو قصرت ، بمجرد عودته ، يمضى الى ركنه الذى اعتاد الجلوس فيه ، يبادر الى احتساء كوب أو اثنين ، ليس مقصودا لذاته ، انما سعيا الى ما يثيره التوحــد من استدعاء للحظات مندثرة ، وأخرى لا تزال فى رحم الغيب ، تهدئة لاتقاد الجذوة ، ودرءا لعصف الحنين ٠ كثيرا ما ردد : أنه مأوى وليس مقهى ٠ موقعه فى الحى القديم ، القادمون الى أضرحة الأولياء الصـــالحين يقصدونه ، خاصة يوم الجمعة ، منهم أهل الريف ، كذا طلبة العلم

وشيوخهم ، هذا اليوم بالذات يصعب وجود مقعد خال حتى ما قبل المغيب ٠

ازمنة شتى تتابعت ، كل منها ترك بقايا أو أودع آثارا علقت بالجدران ، أو رصت فوق الأرفف ، أو تدلت من السقف ، فمن ذلك المرايا الضخمة ، بلجيكية المصدر ذات الأطر المدججة بزخارف أغريقية ، أهداها أمير من العائلة المالكة فى نهاية القرن ، اعتاد تدخين النرجيلة فى مقصورة خصصت له ، نهاية الممر ، قرب الزهور الصناعية التى أطلعت عليها ٠ وتوقفت أمامها الامبراطوره أوجينى ، عندما ثقل جسد الأمير ٠ وقلت حركته ، ذهب المعلم الكبير الى قصره المطل على النيل لاعدادها له ، يوميا يجىء خادم حبشى يقود عربة ذات جوادين أصيلين ، مرة فى الصباح ، ومرة قبل العشاء ، يصحب المعلم الذى يمضى مباشرة الى الحجرة الخاصة ، حيث يوقد الجمرات ، ويضبط التمباك ، ثم يشعل الدخان بأنفاسه القوية حتى تسلس ولا ترهق الأمير ، كانا فى البداية يتبادلان كلمات قليلة ، ثم طالت خلوتهما ، وحدثه الأمير عن أدق شئونه ، وأفضى بأسرار جمة ، يقال أن المعلم الكبير كان يخشى مجرد التفكير فيها ، فما البال بترديدها أو الافصاح عنها ، حتى بعد دخول الأمير مرض الموت ، ورحيله ، يتعلق الأمر بدقائق ، بعضها يخص أميرات من العائلة ، لم يفض قط ٠

فى المقهى أوان خزفية من صنع تركيا ، وبلدان أواسط آسيا ، وسيوف أغمدت منذ أزمنة طويلة ، وقوارير عطور نادرة من زجاج ملون ٠ وسجادة صغيرة من حرير ، عليها رسم مشكاة تطل منها زهور ، صنعت فى هيرات ، أهداها ملك الأفغان المنفى قبل عودته الى بلاده منتصرا ، علقت الى الجدار بحيث تعلو المكان الذى اعتاد صاحب المقهى الجلوس فيه ، ولم يغيره منذ ستين سنة ، وقطع خشب مخروط توقف صنعها لبطلان اليد العاملة التى كانت تبدعها وتسويها ، فمن ذلك دولاب صغير يعلق الى الجدار ، تتخلله زوايا

صغيرة من العاج ، وأرفف من خشب أشـجار ذى رائحة لا تنفذ ، قوية ، تعبق فراغ المقهى كله خاصـة فى صـباح الأيام الشتوية المشمسة ، تنبعث هادئة ، راسـخة ، تطغى على سائر الروائح ٠ حتى التمباك المحترق على مهل بجمرات الفحم ، تبعث راحة وترسل خدرا ، العجيب ان هذه الرائحة اختفت تماما من الخشب بعد رحيل ابن المعلم الكبير ، آخر ملاك المقهى ، ولم يفسر أحد سر ذلك ٠

احتوى المقهى أيضا على أوان نحاسـية منقوشـة بالزخرف الدقيق ، بعضـها صـنع لاحتواء الماء ، أو لترص فوقه الأكواب والأوانى ، ومن ذلك صينية منقوشة ، زخارفها مورقة ، متفرعة ، متداخلة ، تتغير مع حركة الناظر ، فيصبح المثلث دائرة ، والخط المجرد مورقا ، والنجمة هلالا ، حددت الزخارف بخيوط الفضـه الممسوسة بالذهب ، وعدها البعض من العجائب ، هذه الصينية آخر ما أنجزه واحد من قدامى الصناع اشتهر أمره . لم يكن يعمل الا قبل غروب الشمس بساعتين ، وبمجرد غوص قرصها عند الأفق يتوقف أيا كان الوضع الذى يعمل فيه ، حتى اعتبر بعض معارفه والمحيطين به توقف يده عن طرق المسطح النحاسى أو المعدنى علامة على تمام الغروب ، خاصة فى رمضان ، لم يكن يعمل وفقا لتصميمات مسبقة ، انمـا كان ينحنى محملقـا فى الفراغ ثم يبدأ النقش ، مستخدما أدوات معدنية ، مدببة بعضها غايظ كالمطارق ، وآخر نحيل كالابر ، من بين أصابعه تتخلق النقوش ، لا يجور شكل على آخر ، لم تخرج من بين يديه قطعتان متشابهتان ، قلده بعض صغار الصناع ونقلوا عنه ، لكنه لم ينسخ ذاته قط ، مات عن أربع وثمانين سنة ٠ مال رأسه فوق هذه الصينية التى عاقت زمنا طويلا فى صدارة المقصورة الرئيسية بالمقهى ، بعد انتهائه من حفر آخر نقطة أغلقت الدائرة الوسطى التى تتفرع منها الخطوط والأشكال ٠ ظنه البعض نائما ، وعندما حددوه وجدوا صعوبة فى فك أصابعه عن المطرقة الصغيرة والأزميل ، حتى أنه دفن بهما ٠

احتوى المقهى على ستائر نادرة من الخرز الملون ، صغير الحجم كحبات الذرة ، تتخلله فصوص من مرجـان البحر الهندى الأعظم ، تنسدل على فراغات المقصورات المتجاورة على جانبى الممر الرئيسى ، فتحجب وتشى فى عين اللحظة ، هذه الستائر أهداها طالب علم من جزر القمر درس فى الأزهر سبع سنوات قبل عودته الى بلاده ، واعتاد القدوم بعد صلاة الفجر مباشرة والجلوس صامتا مقدار ساعة داخل المقاصـير ، صفت نراجيل عتيقة ، متنوعة الطرز ، أما التى اعتز بها صاحب المقهى ، وحنا عليها ، وأكثر من عنايته بها . وترفق بوضعها ، فكانت تخص فى الأصل السلطان أحمد العثمانى ، خاتمه وطرة توقيعه على زجاجها الأزرق ، الشفاف ، الرقيق ، كيف وجدت طريقها الى هنا ؟ . هذا ما لا يعرفه أحد .

حدث أقدم العمال ـ رحمه الله رحمة واسعة ، اذ كان غندورا ، طيب المظهر ، رائق المزاج ، قوى الاهتمام بزبائن المقهى ، قال ان الحاج اذا طرب أو انتشى أو مر بلحظات صفو ، يأمر باعداد هذه النرجيلة ، يضعها أمامه ، يتأمل صور السلطان المرسومة على الوعاء الزجاجى ، وتوقيعه ، يهز راسـه هزتين قصيرتين موجزتين . متتابعتين ، يعرف الأقربون أنه يمر بذرا صفوه وخلوته مع ذاته ودنوه الأقصى من لب راحته الانسانية .

أغرب ما يروى عنه ، ما يتعلق بغرفة الزهور والامبراطورة أوجينى ، فى نهاية الممر حجرة جدارها زجاجى . الناظر داخلها يرى ورود الدنيا كلها ، المعروفة فى مصر ، وفى أقصى المعمورة . عندما جاءت الامبراطورة أثناء احتفالات افتتاح قناة السويس ، زارت المنطقة القديمة وأثناء تفقدها المآذن العتيقة والجدران الزمنية للمبانى القادمة من عصور بعيدة ، توعكت قليلا ، وشحب لونها . رفعت يدها الى جبهتها ، لم يكن هناك مكـان مناسب الا المقهى القريب . طبعا سبقها رجال القصر لتنظيفه وتهيئته والتأكد من ابتعاد الشحاذين والهجالين والفضوليين ، اقترح أحدهم على الحاج

احضـــار أطقم الشاى والقهوة من القصر ، كذا الأكواب الزجاجيــة الملونة التى لا تخرج من الخزائن الا فى المناسبات الكبرى ، مثـل مولد النبى ، وعيد الجلوس ، أو الحفلات التى تقـــام للملوك لكنه أبى ، وقال صراحة أن بعض ما عنده لا يوجد فى القصر ٠

وقف عند رأس الطريق القصير المؤدى من الميدان الى المقهى . وبالتحديد أمام المطعم الايرانى الذى أغلق بسرعة وســـدت منافذه لدواع امنيه وخوفا من نفور الامبراطورية أو غثيانها اذا استنشقت روائح التقلية والمرق ، ربما أزعجها ما لم تعتد عليه ، كان المعلم . شابا فى العشرين ، كان طويلا ، له مهابة ، غليظ الرقبة ، ضخم الشارب ، ورث عن والده حبه وشرهه للأكل والنكاح ، فى هذه السن المبكرة كان يلقب بالألفى ، لأنه ضاجع منذ بلوغه ألف امرأة . زاد عليهن فيما بعد ، لكنه ظل يعرف بذلك ، وأمر فحولته معروف ، وله أطوار غريبة تروى أمرها شائع ٠

لحظة لقائه بها بدا ثابتا ، راسخا ، قسماتها هى التى اختلجت مسفوة عن رغبة انثى ، وعندما مد ذراعه لتتكىء عليها طبقا لنصيحه باشا كبير سبق الركب وأطلعه على السلوك الواجب اتباعه وحذره مغبة التقصير ٠ برغم ذلك عند وصولهما الى المدخل انفصل عنها ، فرد يده داعيا للدخول ، ثم تقدمها كما اعتاد رجال الفترة عندما يصحبون زوجاتهم ، لوحظ أنها أفسحت الخطى حتى تلحق به ، وطوال جلوسها بالمقصورة لم ترفع نظرها عنه ، حتى زعم البعض أنها قضت غلمتها بالبصر ، بعد دقائق من الراحة ، وقفت ، مشت فى الممر متعجبة مما تراه ، آهاتها تخفى نشوة أخرى ، يجمع الكل على تعجبها مما رأته من أزهار فى الغرفة الزجاجية ، فل ونرجس وشقائق نعمان ، ولوتس وياسمين ، وأنواع أخرى لم ترها ، تعجبت وتطلعت ، أخبرها من له دراية ممن كانوا برفقتها أن بعض هذه الأنواع لا ينبت الا فى الصين ، أو فى قمم الجبال النائية ٠

لدقائق استمر المعلم يتطلع اليهم هادئا ، مبتسما ، غير عابىء بجمال السيدة التى استضافها مليك بلاده وشيد من أجلها القصور واليخوت سعيا وتقربا ، حتى قيل أنه أشرف بنفسه على رصف طريق ستمر به عربتهما ، بحيث يميل الارتفاع بمقدار معين فتضطر طبقا لموضع جلوسها المدبر الى الاتكاء عليه ، هكذا يدنو ويلامس ، لعل وعسى ! •

تطلع المرافقون ، وأبدوا الدهشة ، كيف تنمو الزهور فى هذا الحيز الضيق ، ما الذى يجمع ورود الشــتاء مع الصيف ؟ • بعـد أن هدأ الكل ، تقـدم المعلم ، فتح البـاب والتفت الى الامبراطورة وعندما هم كبير حاشيتها منعه من اجتياز العتبة ، أغلق الباب ، رآه الواقفون ، يشير الى الأزهار ، مومئا ، مفسرا ، شارحا ، لا يدرى أحد أى لغة نطق ، قال ان هذا كله مصنوع من خيوط الحرير الدقيقه التى لا يمكن رؤيتها متفرقة ، نسجت وصيغت بمهارة ، أعتى خبراء الزهور لا يمكنه اكتشاف حقيقتها الا بعد اللمس والفحص ، يبدو بعضها مبلولا بالندى ، وما القطيرات الا مهارة صانع ، هذا السر لم يبح به المعلم ولم يفصح عنه الا للامبراطورة ، لكنه لم ينطق به علنا الا بعد الغارة العنيفة التى جرت احدى ليالى الشهر الأول من السنة الثالثة للحرب العظمى ، تسبب انفجار قريب فى تدمير الجدار الزجاجى الأمامى الذى توقف عنده خلق من شتى الأجناس والملل ، تعجبوا وتأملوا ، سرعان ما تلاشت الزهور والألوان • بدا شحوب ثم ذبول ، ثم تحللت ، عندما اكتشف العمال ذلك فزعوا اليه ، طالعهم بعينين صامتتين تفيضان أسى لم يفارقه حتى يومه الأخير الذى أوفى به عامه الرابع والعشرين بعد المائة وثلاثة شهور وستة أيام ، هكذا يؤكد العارفون ، خاصة رجلا أكبر منه بعشر سنوات ، قصير القامة ، نحيلها ، عنده دكان خياطة بلدى ، ومازال قادرا على تمرير الخيط الحريرى من سم الابرة ، أكد أنه حضر مولده ، وخاصة يوم السبوع ، أقام والده ليلة ظلت المنطقة تذكرها

لسنوات تالية ، كل فقراء الناحية أكلوا طبيخا ولحما وحلوى طيبة وأخذوا كفايتهم لمدة أربعة أو خمسة أيام أخر ، وزع الجنيهات الذهبية على كل من حضر ، وغنى المطربون ، وأنشد المنشدون ، لا عجب ٠٠ انه الولد بعد ست بنات جئن متعاقبات ، حتى فكر المعلم الكبير فى تصفية المقهى عند شعوره بوهن الكبر ، لم يقدر على تخيل شخص غريب يقعد فى نفس الموضع عند المدخل ، وينفث دخان النرجيلة ، ويدير شئون المكان ، لكن ربنا أكرمه ورزقه بغلام ، قدر له أن ينمو ويصبح ذائع السيرة ، مشهور بحسن الخلق ، ورجولة فياضة ، ألم تفتتن به الامبراطورة أوجينى احدى حسناوات عصرها ؟ ٠ اعجابها لهج به رجال القصر وأعضاء السلك الديبلوماسى وقتئذ ، وذكره قنصل ايطاليا فى مذكراته التى نشرت قبل تولى موسولينى السلطة ٠

بعد انصرافها أبدت رغبتها فى استدعاء المعلم الى قصر ضيافتها لاعداد الشاى الأخضر المحلى بالسكر النبات ، والمعطر بالنعناع ، وبالفعل ٠٠ ركب عربته الخاصة التى يجرها جواد أسود فاحم ذو غرة بيضاء ، أعد لها الشاى وسقاها بيديه ، لكن ٠٠ هل خلا بها ؟ ٠

لا يمكن لأحد الجزم بالنفى أو الاثبات ٠ أمر صعب ، طبعا رويت عشرات التفاصيل ، خاض أبناء الحى القديم فى الأمر ، طبعا اختلط الواقعى بالمتخيل ، بعد سبعين سنة جاء ممثل الاذاعة البريطانية ، عرض فى البداية عليه شيكا مصرفيا بالعملة الانجليزية ، مقبول الدفع ، على بياض ، مقابل الاجابة على سؤال واحد : عندما مضى الى القصر ليعد الشاى وخلا بها ، هل نال المعلم ما لم يتمكن منه الخديوى ؟ ٠ تطلع المعلم اليه ، أشار بنصف أصبعه أن يقدم ، أن يقترب منه ، فرح الانجليزى ، ظن أنه سيستمع الى الاجابة ، أشرع جهاز التسجيل ، وعندما دنا متأهبا للجلوس على مقربة ، فوجىء بالمعلم يمسكه من ياقته ، يهزه ثلاث مرات ، ثم

يرفعه فى الهواء ويبقيه معلقا بينما الرجل يفرفط برجليه ، لعنه ولعن الاذاعة البريطانية والفضول الذى لا يرحم الحى أو الميت ، ثم قال بصوت سمعه الجميع انه لو رأى الانجليزى مرة أخـــرى فسيجعل وجهه مطرح قفاه ! ٠

هرب الخواجـه . ويؤكد الحاضرون أنه بال على نفســه ، وامتلأ رعبا ، غير أن السؤال ظل يتردد ، والاجابات عنه تتنوع ، لزم الصمت فلم يفصح ولم يشف غليلا حتى بعد أن طعن فى السن وتداخلت عليه الرؤى ، تهدلت أطرافه ٠ وتثاقلت نظراته ، وصار تحديقه الى مالا يرى أكثر من نظره الى المحسوسات ، الا أنه فى أقصى حالات ضعفه كان يوحى ببنيان قوى قام يوما ، لم يعد يفارق موضعه فوق الدكة الخشبية التى حفر عليها تاريخ صنعها قبل قرنين من الزمان ، حتى الأيام الأخيرة حافظ على ذهابه الى الحمام التركى مرة كل أسبوع ، ولم يمنعه الوهن عن قضاء حاجته بدورة المياة الملحقة بالمقهى والتى جددها وسواها ٠

فى شبابه هابه الجميع ، وخشيه القريب والبعيد ، بمن فيهم ضباط الشرطة الذين تعاقبوا ، أتقن فنون المصــارعة ، واللعب بعصاتين فى وقت واحد ، واستخدامهما بمهارة عند نشوب قتال ، ذاع أمره فى الشقاوة ، وقدرته على الجماع ، لم تحتمله الا امرأة حلبية أقامت فى بيت منعزل بضاحية عين شمس ، لكنه لم يتزوجها، رغم اقترانه بعدد غير معروف من النساء ، لكنه لم ينجب منهن ، بعد وفاة والده فجأة وبدون مقدمات تفرغ تماما للمقهى ، اعتنى به وبذل المجهود الأتم ، بعد الطواف والتنقل والجرى هنا وهنـــاك لم يعد يفارق المدخل ، لا صيفا ولا شتاء ٠ من فوق الدكة يدير الأمور بنظراته ، لزم النرجيلة ولزمته ، يقــابل الجميع بمودة متحفظة ، مقتضبة وتعبيرات لا تتغير الا عند قدوم عزيز ، ليس بالضرورة من ذوى الجاه أو الشهرة ، كان يخدم بنفسه الملوك ورؤســاء الدول ، وكبار العاملين بالمنظمات الدولية والممثلين ،

والمطربين ، والشعراء الكبار والكتاب ، ولاتزال صورته وهو يقدم القهوة ضاحكا الى الفريق عزيز المصرى معلقة ، لكن صورة جمال عبد الناصر جالسا بصحبة اثنين مجهولين اختفت بعد عام من وفاته ، كان يقوم محييا من يقدره هو لا غيره ، لم يتحرك عند رؤيته وزراء • وضباط شرطة كبار ، لكنه انتفض مرارا مجرد رؤيته رجلا عجوزا ملتحيا كان يصل فى نفس موعده كل عام ، يجوب الوادى من بلاد النوبة وحتى ساحل البحرين ، الأبيض والأحمر ، يزور أضرحه المشايخ ، كبيرهم وصغيرهم ، يقرأ لهم الفاتحة ، ويوقد عند كل منهم شمعة ، ثم يمضى ، كان المعلم يتبرك به ، ويعد له الهدايا قبل قدومه بشهر ، وينتظر موعد ظهوره بلهفة لا تخفى ، وعند انصرافه ينحنى مقبـــلا يده ويطلب منه البركة ، كان يبدو مسرورا عند الزيارة ، مؤكدا لمن حوله أن والده أوصاه بالرجل الصالح قبل وفاته ، يبدو راضيا ، مرتاحا راحة لا تعرفها قسماته الا لحظة مناجاته جواده العربى القديم ، امتطى صهوته زمن الشباب ، يقال أنهما ولدا فى يوم واحد ، كان يسرجه ، وينظف جسده ، ويطببه ، ويطعمه ، ويسقيه بيده ماء الورد • وعندما لزم الدكة ، بان عليه التعب ، وقف جواده الأكحل ذو الغرة الى جواره ، لم يربطه ، كان طليقا من كل قيد ، لكنه لا يبتعد ولا يجمح أبدا ، وفى أيام الصيف الحارة يذب عن وجه صاحبه الذباب ، وينحنى ليتشممه أو ليطمئن عليه ، لا أحد يدرى ، يقسم أقدم العمال أنهما يتبادلان الحوار ، كل منهما يفهم الآخر ، أحيانا يومىء ، فيمد الجواد رأسه ، عندئذ يهمس له ، والجواد يهز رأسه أو يهمهم ، أو يطرق حزينا ، أو يرفع قائميه الأماميين فى حركة زهو ويصهل بصوت مرتفع متدفق حتى ليسمع من بعيد •

احتفظ أيضا بثلاثة أقفاص بها أربع وعشرون فرخ حمام ، عجيب أنه لم يغلق أبوابها قط ، يطير الحمام ويرجع أى وقت ، فى الليل يتململ ويسمع هديله وغطيطه ، يحط بجواره ليلقط حبا

أو ليرشف قطرات ، عدد الحمام لم ينقص ، ولم يزد طوال أربعين عاما ، اذا طقت بيضة وأطل زغب أخضر ، كان ذلك يعنى قرب أجل حمامة كبيرة ، لا يتأخر الأمر أكثر من يومين ، وربما وقع العكس ، فيسبق الموت الميلاد ، هكذا مضى الأمر ، لم يهتز ولم يختل حتى جرى ما جرى ٠

ذلك أن رئيس بلدية العاصمة كان جهولا ، غتيتا ، نائيا ، قرر اعادة تخطيط الحى القديم وبناء فندق يصلح للسائحين ، اقتضى الأمر ازالة المقهى ، الحق أن الأمر لم يتم بهدوء ، شرع كتـاب لهم شأن فى الاشادة بالمقهى ، نبهوا الى أهميته التاريخية وسرد بعضهم الأحداث التى جرت فيه ، والشخصيات التى عبرت فضاءاته ، بدءا من شيوخ الأزهر الكبار ، وحتى نابليون بونابرت ، والزعماء السبان سيمونيين ، ولاظوغلى باشا ، والامبراطورة أوجينى ، وجمال الدين الافغانى ، وطبعا ٠٠ الشيخ محمد عبده ، وسعد زغلول ، وغيرهم ، قام بعض محبى المقهى بجمع مئات التوقيعات ، نجوم فن ، ورياضة ، ورجال قضاء ، وأساتذة أجلاء ، وندامى أنسوا الى أركان المكان وزواياه وأمضوا مقادير من أوقاتهم ٠ غير أن هذا كله لم يزد رئيس البلدية الا اصرارا وعنادا ، تحدد يوم معين للاخلاء ، وبدء الهدم ٠

المعلم تابع ما يجرى صامتا من فوق الدكة ، يجيئه المريدون فيهونون ، ويذكرون احتمال صدور أمر عال بوقف هذا العبث كله ، كان يصغي ولا يهز رأسه ، لا يومىء ، لا يجيب باشارة ولو واهنة ، وعندما امتنع الجواد الأكحل عن تناول الطعام لمدة ثلاثة أيام قبل الموعد ، وعندما كمن الحمام فى اقفاص ، كف عن التحليق أو تناول الحب ، وتوارى كل صوت ٠ بدأ ذبول واضح حول عينيه ، كان يردد الطرف بين الجواد وأقفاص الحمام ، وترتجف شفتاه بما لم يفهمه أحد ، ولم يدركه الأقربون ٠

صبيحة اليوم المحدد لرفع أول معول هدم ، ناداه أقدم عمال المقهى فلم يجب ، كان يسند رأسه الى يده ، متمددا على جنبه الأيمن، مشيرا بسبابته ، علامة التوحيد ، فوق الأرض انفرط الجواد ، اذا بانت ضلوعه ، هزل قوامه ، لم ير من قبل الا واقفا ، متخايلا ، اذا تلمس راحة رفع احدى قوائمه لحيظات • سقطت حمامتان من القفص التانى ، أما ما تبقى فاضطروا الى الصعود على سلم متحرك لاخلائه ، تجمع القوم ، عظم التأسف ، صاح شيخ ضرير ، ضخم البنية ، اعتاد تدخين النرجيلة صباح كل يوم ، أمر الواقفين بستر جثمان الراحل فللموت حرمة ، عندئذ أقدم الكل ، بكى العمال كثيرا ، خاصة عندما عثروا تحت رأسه على لفافة تحوى قماش كفنه • وسائر ما يحتاج اليه فى رحلته الأخيرة ، توسده مدة طويلة لا يدرى أحد مقدارها ، لم يستطع العيش حتى يتنفس هواء يوم يرتفع فيه معول الهدم •

هكذا وجدوا رئيس الجامعة فى غرفته الخاصة ، مرتديا ملابسه الرسمية التى لم يظهر بها الا عند مناقشة الرسائل العلمية المتقدمة ، والعشاء الطقوسى ، كان ملتحفا بالعباءة الخالية من الدوائر الثلاث ، لم يقدر على الاستمرار حتى يضعها ويراها مرغما ، دفن بها ، كانت آخر عباءة من الرسم القديم ، كانت معدودة من أجل الشارات • لكن •• لحقها ما يطال كل شىء ••

عودة الى الأزياء

•• تؤكد وثائق الجامعة أن تصميم الأزياء وتطورها ليس مصادفة ، كل جزئية ذات دلالة ومعنى ، ترتبط بمرحلة أو حدث معين ، الالمام بتاريخها جزء هام جدا يمتحن فيه المتقدمون لشغل مناصب الأستاذية • تماما كما يجب الالمام بطقوس العشاء الأسبوعي وحفل قبول الطلبة الجدد • والحفل الختامي ، وتوديع الخريجين الذين أتموا المدة •

خلال القرنين الأخيرين لم يطرأ أي تغيير يذكر عدا تلك الدوائر التي ظهرت بعد تأسيس الدولة الاتحادية ، الألوان ثابتة صيفا . وشتاء • مادة القماش متغيرة ، في الصيف من كتان ، وفي الشتاء من صوف • الحذاء يغطى الساق ، يصنع من الجلد البلغارى • فى المدينة بيت اختص بعمل الملابس وتوفير خاماتها ، يتوارث الحرفة أبا عن جد أسرة قديمة الأصول ، عمل كل أفرادها فى الحياكة • احتفظوا بسجلات قديمة فيها مقاسات الأساتذة ، والتغيرات التى طرأت على أجسامهم ، خاصة عند الانتقال من الشباب الى الشيخوخة وما يستتبع ذلك من نقص أو بدانة • لكن يبدو أن تفصيل أزياء الجامعة لم يعد يفى بالحاجة ، كما أن لوازم القماش أصبحت مرتفعة السعر مما جعل الأزياء خارج المتناول بالنسبة للكثيرين • ثم لحقت الضربة المؤثرة بعد الحرب العالمية ، عندما أنشأ أحد رجال البلدية اثر تقاعدة مباشرة مصنعا لتفصيل الملابس ، بدأ بالطلبة ، ثم تدرج الى الأساتذة • وبرغم التقاليد الراسخة ، والحدود الفاصلة ، فان احتياجات الواقع أقوى ، وهذا معروف مجرب فى غير عصر • قل الطلب على ما تنتجه الأسرة ، انصرف أفرادها ونسوا المهنة عدا

أب عجوز وزوجته وشقيقته الصغرى التى تجاوزت الآن السابعة والسبعين ولم تتزوج ، يقال أنها أحبت فى صباها طالبا جامعيا قدم من الشرق ، ثم استدعى الى وطنه فجأة واختفى خبره فذهلت عما حولها ، حتى تحتفظ الآن بزيه الذى لم يتسلمه فى مخدعها ، وتثق أنه سيرجع يوما ، وأنه لن يخل بوعده لها ، أمرها معروف ، ذائع ، تماما كالصينيين الذين يقيمون منذ عشرات السنين قرب البرج فى انتظار طلة أميرهم الشاب ، وسيأتى تفصيل ذلك فى موضعه . المهم .. أنها لا تسترد وعيها الا عندما تمسك الابرة والخيط . تصم حواسها عن كل ما ليس له صلة بعملها ، أصابعها طويلة ، نحيلة ، ان الثلاثة آخر من تبقى للعمل فى تفصيل الأزياء ، الأبناء تفوقوا ، الأكبر التحق بالأسطول وأصبح ضابطا يعمل على غواصة . الثالث سافر للعمل حفارا بتروليا فى الصحراء الليبية ، أما الابنة وهى الوسطى فتعمل فى المستشفى الجامعى ممرضة ، منذ سنوات تعيش بمفردها فى الجانب الآخر ولا تزور والديها الا على مسافات متباعدة .

حرص مجلس الجامعة على تفصيل العباءات الرئاسية عند الأسرة حتى يتوافر ضمان لاستمرارها . ومن الثابت أنه رفض عرضا تقدم به مصمم أزياء باريسى شهير أبدى استعداده لتصميم زى جديد للطلبة ، وأزياء للأساتذة تساير التطور . فى بداية الخمسينيات وقع تطور هام ، اذ سمح للطلبة بارتداء الأزياء العادية ، لم يعد ممكنا أن يمضى كل شىء كما كان فى الماضى ، لكن لم يحدث تعديل بالنسبة لهيئة التدريس ، وحافظ موكب الافتتاح على خصوصيته . كذلك احتفال يوم التخرج ، ويوم تقليد أحد الباحثين الشهادة العليا عندما يطلق النفير الجامعى ايذانا بارتداء العباءة العليا . وعندما استخدمت البلدية صور المواكب التقليدية فى ملصقاتها السياحية والكتيبات الدعائية ، توقع الكثيرون احتجاجا جامعيا قويا ، لكن لم يحدث شىء ! المبانى لم تتغير .

عندما جال فى المدينة ، ومشى متمهلا فى شـــوارعها رأى

الواجهات عتيقة ، لكنها مجلوة ، نظيفة ، الزمن القديم يرقد في المداخل الفسيحة ، والزوايا المظللة ، ولكن كل شيء ذو رونق كأن الفراغ منه تم بالأمس ٠

وثائق الجامعة تؤكد أن الحفاظ على الطابع يرجع الفضل فيه الى مهندسي الجامعة ، بينما تفند البلدية ذلك ، وتؤكد أن الخطط والمشاريع مجرد حبر على ورق بدون بلدية صارمة ، واعية ، يتمتع رجالها بحس تاريخي وثقافي ، وحب عميق للمدينة ، وتشير المصادر دائما الى الوقفة الحازمة في مواجهة رجل الأعمال القوى ، واجباره على سحب معداته ، ومن ثم اجهاض مشروعاته ، لو نجح واقام المباني التي خطط لها لبدأ التشويه في الفراغ السحيق ، أما العمارات التي يدب اليهـا خلل ، وتوشـك على انهيـار ، فيتم الاحتفاظ بواجهاتها أما التصميم الداخلي فمن شأن المالك ٠

من هنا كانت واجهة الفندق مقسمة الى ثلاثة طوابق فقط . أما الداخل فيتكون من ستة ، أمضى وقتا يحاول التوفيق تدركه الحيرة عندما يتطلع من النافذة الى الطريق ، عند أي مستوى من الواجهة تقع غرفته ؟ ٠ كيف تبدو الغرفة من الداخل حديثة ؟ النافذة مؤطرة بالمعدن ، من الخارج لا أثر لها ٠

كثير من الأمور بدا له غامضا ، مستغلقا ، تفاصيل عديدة تكشفت وانجلت عبر حوار أو قراءة أو ادراك كنه العلاقة بين أمر وأمر ، لا يمكنه أرجاع كل ما وصله الى أسباب بعينها ، هنا لابد من ذكر ملاحظة ، أنه ما من تفصيلة مهما دقت وردت في هذا التدوين الا أحاط بها ، وما لم يطلع عليه لم تذكره لأنه خارج الساحة ٠

ان أموا لا حصر لهـا أثارت دهشته منذ وصـوله ، لكنه لن ينسى أبدا عجبه عندما اتصل به موظف الاستقبال أثناء تهيئه للرقاد ، أخبره بوصول رسالة عاجلة ٠

مظروف يحمل اسمه ، حروف عربية منسقة ، مشكولة ، يطلب كاتبها الاتصال به في الرقم الموضح لأمور هامة ٠٠ صاحبك المغربي ٠

لقـــــاء

٠٠ من ؟ ٠

من هو ؟ ٠ لم يلتق به قط ، وسيتناول العشاء عنده بعد قليل ، بالأمس ٠٠ أثناء ترتيب أوراقه فى مدينته النائية الآن ، لم يفكر فى مجرد احتمال تناوله العشاء فى بيت يقع هنا ، فى شارع لم يطأه ٠ تساءل فقط عن شكل الفندق ، عمن سيلتقى بهم فى الرحلة ، من سيصغون الى بحثه ، الى ما سيقوله من آراء ؟ ٠ عند الشروع فى السفر يتوثب للقاء المجهول ، للنظر فيما لم يقف عليه ٠ لكن ٠٠ أن تصله رسالة بعد دقائق من وصوله ، فى مدينة لايعرف فيها أحد ، فهذا مالم يطرأ بذهنه ٠

كان مرهقا ، لكن عنده تحفز ورغبة ، رؤية ما لم يشهده وما لن تقع عيناه عليه مرة أخرى ، احتمال مجيئه مرة أخرى شاحب ، نادر ، « بعد عشر دقائق ستصل سيارة ٠٠ » ٠

لم يقدر على التعلق بملامح محددة ، الطرقات ضيقة ، اتجاه واحد ، مبلطة بالحجارة ، منحنيات مفاجئة ، أضواء قليلة تشع واهنة

من خلف الستائر ، ساحة متسعة نسبيا ، يتفرع منها طريق مرتفع، تختفى الأقواس الحجرية ، وتسفر المداخل المؤدية ، فوهات غير منتظمة ٠ مؤدية الى عوالم يجهلها ٠

عندما توقفت العربة أمام البيت الصغير ، يحده سور خارجي . يبدو المكان أشبه بضاحية ، يتقدم مضيفه . صعب تحديد عمره ، لكنه لا يقل عن الثلاثين ، ولا يزيد على الخمسين ، ابتسامة لا تخلو من تكلف ٠

منضدة بيضاوية من الرخام الملون ، الأخضر غالب ، تتخلله خيوط حمراء ، أو ما وقعت عيناه على زجاجة نبيذ ياقوتية ، بجوارها فتاحة معدنية ذات العمود ملولبة ، محاطة بأطباق من الجبن ، شرائح طماطم ، قواقع بحر ، زيتون أسود ٠

تتجدد عنده طاقة ، ويصدر عنه اقبال ٠ اعتاد شرب النبيذ عند سفره ، زجاجة كبيرة كاملة مع الغذاء ، أخرى مع العشاء ، لكنه بمجرد العودة الى مستقره يكف فكأنه لم يذقه قط ، يرتبط عنده بالرحيل ، مما رغبه جمع الزجاجات الفارغة للأنواع المختلفة ، لكنه لم يشرع ، شأن أمور أخرى لم تخرج عن دائرة الخواطر . يضيق بتناوله منفردا ، الا عند امعانه فى الوحدة ، وايغاله فى شفق كابى ، الوحدة أمر مكروه عند الشراب ٠ بغضه القدماء ، قالوا ، لا يضطر اليه الا من فقد نديما مساعدا أو خليلا موافقا ، ورأى أن لزوم الانفراد ضرورى للحاجة الانسانية ٠

مما ألم به أن المدينة بها نوعان من النبيذ ، الأول جامعى ، ينتج فى المزارع التابعة لكلية الزراعة عند بداية الطريق المؤدى الى الجنوب ، أوقفها أمير الناحية منذ ستة قرون ، بها شجيرات كروم نادرة تم جلبها فى أزمنة غابرة من بلدان نائية كان الوصول اليها لا يتم الا بشق الأنفس ٠ يخصص المحصول كله لانتاج النبيذ الذى اشتهر أمره ، يقتصر بيعه على المدينة ، كمية المنتج محدودة ، ثمة

أنواع خاصة جدا لا توجد خارج الجامعة ، ما يتناوله الأساتذة فى العشاء الاسبوعى ، هذا أحمر ، ثم نبيذ الحفلات الرسمية التى تقام تكريما للطلبة الذين أنهوا مراحلهم الدراسية · وهذا أبيض · تشرف كلية الزراعة على مزرعتين ، الأولى تلك الخاصة بالكروم ، والأخرى تجريبية لاختيار محاصيل جديدة ، أو عملية تطعيم نوع آخر ، ولهم فى ذلك أمور عجيبة ·

الصنف الثانى تنتجه البلدية ، يؤكد الذواقة أنه أقل جودة ، أشهره الوردى ، أما الأبيض فأقل جودة ، يعد ويعبأ فى مصنع حديث ، المسئول عنه من كبار الموظفين ، يتم تسويقه من خلال ادارة المحاصيل ، يتم الاعلان عنه عبر وسائل الاعلام الحديثة ، ويقدم فى الفنادق الكبرى بالمدن الأخرى · لكنه لا يرقى الى مستوى النبيذ الجامعى ، خاصة الأحمر المعتق فى براميل خشبية قديمة ، لا يمكن العثور عليه الا فى ثلاثة مطاعم خارج البلاد ، الأول فى باريس · والثانى فى نيويورك ، والثالث فى طوكيو ، مكلف جدا · حتى قيل أن القدوم الى المدينة لاحتسائه أقل تكلفة من قيمة وجبة فى أحد هذه المطاعم ! ·

اليه تمت هده الزجاجة الماثلة ، القائمة · انه ناعم المذاق ، لطيف الحضور ، بطىء التأثير ، خافت السريان ، باعث على الميل · قال المغربى انه خشى امتناعه عن الشرب ، يبدو مسرورا بعد صب السائل الياقوتى ، اتحاد الزجاج باللون ، رفع كأسه · تتلامس الحافتان ، أقبل مبتهجا ·· لكنه لم يطلعه على خصيصته ، ارتباط شرب النبيذ عنده بالسفر ، بالاغتراب ·

بيت ينبىء بيسر أحوال ومقدرة · لم تطل حيرته أو تساؤله عن أسباب الدعوة غير المرتقبة · قال المغربى انه اطلع على أسماء المدعوين الى الاحتفال فى الجريدة الناطقة باسم الحزب الراديكالى المساند للجامعة ، اتصل بعدد من المسئولين ، عرف موعد وصوله ،

ومكان اقامته ، حرص على مقابلته فى اللحظات الأولى ، لم يتمكن من انتظاره فى محطة القطار ، كما أنه خشى رد فعل لا يمكنه التنبؤ به لانعدام العلاقة ، اضافة الى اعتبارات أخرى سيوضحها فيما بعد ، تحدث عن اقامته منذ عشرين عاما · جاء الى هنا مجردا ، تقلب فى أعمال شتى · مر بأطوار عديدة حتى وصل الى ما هو عليه الآن ، يدير مؤسسة تمتلك عدة شركات تعمل كلها خارج البلاد ، أحب المدينة لأسباب شتى ، أهمها تفردها وخصوصيتها ·

« أنت ضيفٌ على الجامعة ، وستمضى هنا أسبوعا ·· » ·

يومئ ·

« طوال اقامتك بيتى بيتك ، اننى أعيش هنا ·

بمفردى ، ابنتى تدرس فى الجنـــوب وامرأتى مقيمة فى الشـــمال ·· » ·

ما يقوله تمهيد لشىء آخر يتأهب لذكره · يميل حتى يوشك أن يلامسه :

« هذه المدينة تعيش صراعا قديما ، يخبو ويظهر ·

لكنه الآن يمر بمرحلة حساسة ، لذا وجب الانتباه » ·

قال ان الخلاف بين الجامعة والبلدية أمره قديم ، غائر الجذور. ربما لا يشعر به الغريب ، العابر ، لكن يمكن أن يقع فيه رغم ارادته ، خلاف موجود فى تفاصيل الحياة اليومية ، يعيشـــه الجامعيون ، وسكان المدينة أيضا ·

« أنت الآن طرف ، ألم تحضر للمشاركة فى احتفال بمناسبة مرور تسعة قرون على تأسيس الجامعة ؟ » ·

وصل تأثير الشراب الياقوتي الى الأطراف الحدودية ، توشك حواسه ادراك أطياف غير مرئية منبعثة من الحشائش القصيرة ، والشجيرات المتوارية فى الليل ، والزهور المنطوية ، يكاد أن يتلاءم مع الموجودات ، لكن شيئا ما فى حضور المغربى ، ومسا خفيا فى لهجته ينمى عنده قلقا .

« جوهر الصدع ، أيهما الأسبق ، الجامعة أو المدينة ؟ .

والاحتفال الذى تشارك فيه يؤكد أنها الجامعة .. » .

فيما بعد ، استعاد وجه الرجل وملامحه ، القسمات الرخوة ، اللهجة المحملة بالنذر ، مشيئته المتمهلة عندما دعاه لرؤية البيت من الداخل ، متحف صغير ، ذوق رفيع ، منمنمات فارسية من القرن السادس عشر ، أطال تأمل احداها ، صغيرة ، مستطيلة ، يتوسطها شيخ آسيوى الملامح يمسك وردة ، فى قعدته غرابة وفى تطلعه غموض ، أما الوردة فلها حضور انسانى عجيب . تحسس الملمس الحريرى لسجادة تركية المنشأ ، قال انه اشتراها بمبلغ كبير . صانعها بكى دمعا عندما سلمها اليه ..

« لم يشأ مفارقتها .. » .

ترى كم أمضى فى صناعتها . صعب عليه مفارقة ما أبدعته يداه ، رأى مشغولات فضية يمنية ، وأوان خزفية فارسية ، وصناديق خشبية مطعمة بالفضة والفيروز ، مغربية ، لوحات أصلية ، وحليا من جهات شتى ، ما أطلع عليه كثير ، يعكس دقة انتقاء ، بقدر ما ينم عن ثراء ، لماذا لم يسأله ، الى أى جانب يميل هو ؟ . صباح اليوم التالى ، أفاق وعنده فضول ، رغبة فى لقاء المغربى مرة أخرى ، قلب أوراقا تحوى مقالات ومعلومات حول الصراع ، ذوده بها ، شدد عليه أن يفيها ، الحق أن المغربى أضاء له جوانب شتى ، وسهل عليه ادراك ظواهر كان ممكنا الا يلحظها ، أو تبدو له مبهمة ، مستغلقة .

أيهما الأصـــل ؟؟

قضية لم تحسم ، ومشكل لم يحل ، حتى الآن مثار أخذ ورد ، بدأ منذ زمن بعيد لا يمكن تعيينه الآن ، واتخذ وجهات عديدة ، لكنه ظل مستمرا ، أحيانا يخبو · ومرات يشتد ، البعض فقد حياته أو حريته ، الأمر جد ، لكن ·· أى أسباب كامنة ؟ أى عوامل فاعلة ؟ · لا يوحى الظاهر بشىء ، تبدو المدينة هادئة ، راسخة الفاعلية والقبول · تقفز طرقاتها بعد الغروب ، حتى السهر نسبى ، المقاهى والمطاعم تغلق عند العاشرة ، قرار قديم أصدرته البلدية فى منتصف القرن الماضى لأسباب مجهولة الآن ، مازال ساريا ، مكان واحد مفتوح طوال الليل والنهار ، انه مقهى محطة القطار ، لكن ·· لا يقصده الا المسافرون ، وظهور غيرهم يثير الريبة ·

اعتاد عند نزوله بلدا غريبا أن يتعسس أحوالها الأمنية . هل يوجد خطر ؟ هل يتزايد ليلا ؟ هل يمكن التجوال بمفرده ؟ أى مناطق يجب أن يحذوها ، الى أى ساعة يمكن السهر ؟ · طبقا لما يقف عليه يضع الخطة ! ·

مما ألم به هنـــا ، وجود عصابات دولية تتعقب الأغراب ، لسرقة جوازات سفرهم وأوراقهم ، نشـاطها سافر فى العاصـمة الاتحادية ، لكنه ليس منعدما هنا ، فقدان هاجس يحتاط له ، يخشى مجرد وروده عليه ، ما الحال اذا وقع ؟ · لا ينام الا بعد الاطمئنان عليه ، يضعه تحت وسادته ، فى الليل يتحسسه ، واذ يخرج لا يتركه فى خزانة الفندق ·

بشـــكل عام المدينة آمنة نســبيا والسـبب وجود الجامعة ومحدودية سكانها ، كما أن قصادها محدودون ، ممن لهم اهتمامات معينة ، أو ممن يريد المشى فى المواضع التى عبرها مشاهير المفكرين ، والكتاب ، والموسيقيين ، والرسامين الذين تعلموا أو عرضوا فى القاعات الشهيرة ، والمعماريين والمخططين ، والعلماء الباحثين الذين درسوا الطبيعيات ، والعلوم الهندسية والذين أحدثت اختراعاتهم طفرات هائلة فى مسيرة البشرية ·

برغم الهدوء المبادى فان أحداثا صغيرة ـ أو هكذا تبدو ـ تقع فجأة فتثير الروع · منذ عشر سنوات اختفى طفلان ، الأول فى السادســة ، والثانى فى الثامنة ، سرعان ما تردد أن أشخاصـا اختطفوهما لحساب الجامعة ، حيث ستجرى عليهما تجارب ، ويتم استئصال بعض أعضائهما فى المستشفى التابع لكلية الطب العليا ، لا يخضع لاشراف البلدية ، كاد الأمر يؤدى الى كارثة عندما خرجت مظاهرة ـ وهذا نادر هنا ـ اتجهت الى الساحة الأمامية ، خرج اليهم عميد الكلية ، وهو من أشهر جراحى القلب فى العالم ، خطب فيهم مهدئا ، ومتهما عناصر معينة فى البلدية تهدف الى السيطرة على المستشفى لأغراض خفية ، لكن يعلمها المسئولون فى العاصمة الاتحادية ، صاح معلنا بصوت حشرجه الانفعال ، أن المستشفى جزء لا يتجزأ من كلية الطب ، العاملون به أقسموا على الاستشهاد عند عتباته دفاعا عنه ، وكلهم من أهالى المدينة ، ما من غريب واحد بينهـــم ·

انصرف القوم بعد وقت غير قصير ، لكن بعد مضى عام سرت شائعة لا يدرى أحد مصدرها ، أثارت الذعر في البيوت كلها ، مؤداها أن فرقا من المستشفى تطوف على مدارس الصغار بحجه تطعيمهم ، لكن غرضهم الحقيقى سحب كميات من الدم لتخزينها وبيعها بالعمله الصعبة ، فزع الأهل مفارقين بيوتهم ، ودوائر أعمالهم ، واصطدمت العربات ببعضها ، وتماست المناكب عند الهرولة ، سعيا لسحب أولادهم ، ولم يهدأ الامر الا بعد جهد جهيد بذله رجال الجامعة أجمعون • ثمة نقاط أخرى يبدو فيها الخلاف ، وأن بدا كامنا ، مستترا ، من ذلك العيد القومى ، معروف عيد الجامعة الكبير ، الذى يقام كل مائة سنة ، أنه المئوى ، ولكن فى كل سنة تحتفل الكليات كلها بيوم نزول الفلاسفة الأربعين أراضى الناحية ، وهناك عيد انتهاء الدراسة ، وأيضا عيد بدئها ، لكل طقوسه ، ومفردات مشاهده • فى المقابل لم يكن للبلديه مناسبات خاصة ، كل ما يتم الاحتفال به ، أعياد عامة تحتفل بها كل الولايات ، مركزها العاصمة الاتحادية ، عدا بعض الطقوس العامة الخاصة بفئة أو طائفة أو أتباع دين أو مذهب ، مثلا •• احتفال الصينيين المقيمين بذكرى غياب أميرهم واختفائه المباغت ، أو خروج الأمير العربى بصحبة حاشيته فى العربات ذات النوافذ المعتمة مرتين فى العام للاحتفال بمناسبتهم الخاصة ، ثم رجوعهم الى الفندق الذى كان يعرف قديما بمربط الفرس ، وان توقف الأمير عن ذلك خلال السنوات العشر الأخيرة •

قرر العمدة الذى تولى شئون البلدية فى نهاية القرن الماضى ، تحديد يوم معين لاتخاذه عيدا قوميا ، طبعا روعيت اعتبارات اقتصادية سياحية ، مثل حلول اليوم صيفا ، لترتيب طقوس معينة ، منها الرقصات الشعبية ، ومد أسمطة المأكولات الشعبية ، لجذب السياح الأجانب ، وترويج الأحوال، وتاريخية أهمها الا يكون للجامعة أى صلة من قريب أو بعيد بذلك اليوم •

هكذا .. وقع الاختيار على يوم معين من شهر أغسطس ، يقال أن معركة كبرى نشـــبت فيه بين أهالى المدينة وكتيبة من جنود الجيش الشمالى ، المعادى ، الذى اجتاح البلاد وقتئذ ، استشهد فى القتال سبعون مواطنا ، أقيم لهم نصب تذكارى كبير فى الساحة الواقعة أمام مبنى البلدية ، فى الصباح المحدد يتوجه عمدة البلدية لوضع أكليل من الزهور ، بصحبة كبار المسئولين ، ثم يفتتح الاجتماع الاستثنائى للمجلس ، بعده يخرجون الى ساحة الاحتفالات حيث يجرى العرض الاحتفالى ، وتمر فيه عربات الشرطة المحلية ، وقوات المطافىء ، وحدات الاســعاف ، تلاميذ المدارس الابتدائية والاعدادية والثانوية ، وعمال النظافة ، والنقل العــام . وانارة المصابيح الغازية ، وتقدم الفتيات رقصات خاصة بالمدينة فى الهواء الطلق ، ثم يفتتح السوق الكبير السنوى الذى تشارك فيه الجمعيات الخيرية ، والمنظمات الاجتماعية التابعة للحزب الحاكم ، وهيئة رعاية المســنين .

عبر السنوات المتتالية أضيفت تفاصيل عديدة الى الاجراءات الطقوسية ، والحق أنه أصبح يوما مشهودا ، ومقصدا للزائرين ، وأهالى المدن القريبة .

غير أن حكايات عديدة سرت همسا بين أهالى المدينة ، وجهرا بين طلبة الجامعة ، مؤداها أن البلدية بالغت كثيرا فى اختيار اليوم ، واضفاء القداسة عليه . وحقيقة الأمر ـ كما تثبت بعض وثائق الجامعة السرية ـ أن رجلا شاردا ، لا يعرف أصله أو فصله ، تسلل ليلا الى معســكر الكتيبة المعادية ـ وفى قول آخر مجرد فصيلة ـ ليسرق فطيرة بعد أن فاحت رائحة الخبيز من الفرن الميدانى وقت العصر ، وعندما شعر الحراس به أطلقوا النفير ظنا بوقوع هجوم معاد ، لم يكتفوا بقتله ، انما قرروا صباح اليوم التالى تجريد حملة تأديبية ضد المدينة ، حتى لا يتكرر مثل ذلك ، نزلوا شوارعها ،

اقتحموا البرج ، ودخلوا البيوت ، وفتكوا بكثيرين ، وافتضوا أبكارا، وكانوا يشعلون النيران فى مبانى الجامعة ، لولا تراجعهم فى آخر لحظة ، لم تقع مقاومة عامة ، أو منظمة ، انما بضع حالات فردية قمعت على الفور ، أذن ‥ أساس العيد القومى الذى اختارته البلدية واقعة سرقة ٠

نمى ما تردد الى المسئولين ، وبالطبع اتهموا الجامعه ، وعناصر معينة فيها بالترويج لمثل هذه الشائعات الكاذبة ، التى تنال من التاريخ الوطنى ، كادت تقع أزمة ، ولكن لم تخرج تفاصيل هذا الصراع الى العلن ، فالخلاف مهما عمق له حدود يحرص كل طرف ألا يتعداها ، ويظل هذا كله مجرد أعراض ـ تختفى حينا ، وتتجدد مرات أخرى ـ للخلاف الأكبر ، الأساسى ، ومحوره ‥ أيهما أسبق ؟ الجامعة أو المدينة ؟ ٠

بالطبع ، لكل طرف حججه ، وأيضا وثائقه ، ومصادره ، وطرقه فى أثبات هذه النقطة أو تلك ٠ واجتذاب هذا الطرف أو ذاك الى صفه ، لا يقتصر الأمر على الوثائق ، هناك الحكايات المتداولة ، شفاهة ، بعضها دخل فى عناصر العقائد المستقرة ، والعادات القديمة الأصلية أو المكتسبة ، بل منها ما أصبح جزءا من حضور المدينة ذاتها ، ومن أشهرها حكاية الفلاسفة الأربعين ، أطلع عليها فى كتيب صغير يصف أشـــهر آثار المدينة ، ومبانيها العتيقة ، وجده فى الحقيبة الصغيرة التى تضم أوراق المؤتمر ، ثم قرأها مرة ثانية فيما بعد ، عندما انفلت الترتيب ، وخرج عن طوعه ٠

الفلاسفة الأربعـون

·· يقال انه فى الزمن القديم الذى لا تسفر ملامحه الآن ولا تبين ، قبل تكون المجتمعات وظهور الامارات ، قبل مجىء القومية الرئيسية فى البلاد التى جاءت عبر هجرة جماعية كبرى من وراء الجبال القصية فى الشرق واستقرت هنـا ، يقال انه قامت مملكة قوية فى جزر البحر المحيط النائية ، تعاقب عليها حكام عديدون ينتمون الى أسرة واحدة · حتى اعتلى أحدهم العرش وكان صغيرا ، طائشا ، ضيق الخلق ، فى عصره رجع الفلاسفة الذين رحلوا الى الشرق بأمر والده للاطلاع على الأمور واخباره بها ، عادوا بمعارف جمه . وأخبار عجيبة ، وأسرار كثيرة ، تحدثوا بهذا كله ، وأصغى الناس ، ضاق الملك الشاب بهم · رأى فيما يرددونه عوامل جالبة للفتن والقلاقل ، أمر بالحوطة عليهم خاصة بعد أن تكلم أحدهم عن طرق ممهدة ، ومصـــابيح تضىء ليلا ، وآلات تنبعث منها أنغام مرقصات ، مطربات ، وبيوت مبنية من حجارة ، قرر نفيهم ، أمر بترتيب قافلة تمشى أربعة شهور كاملة لا تنقص يوما ، شهران فى البحر ، وشهران فى البر ، آخر يوم تضع أحمالها ، تتركهم فى الموضع الذى تصل اليه ، جرى تنفيذ ذلك بدقة كاملة ·

تركوا بمفردهم بعد فك قيودهم ، بدون زاد ، أو أية حوائج عندئذ بدأوا العمل ، لم يضـــيعوا لحظة ، كان عددهم اربعين ، وكبيرهم فى الخمسين ، فى المدينة أربعون مقبرة ، تسع وثلاثون ظاهرة ، مطروقة ، أما المقبرة الاربعون فمجهولة ، موضعها خفى ، مندثر ، الجامعة تبحث عنها ، والبلدية أيضا ، المقابر عند النواصى الظاهرة ، وفى الطرقات الضيقة ، واحدة فى الحديقة الدائرية ، على كل منها كتابة بالقلم الغريب الذى لا يفهمه الا ذوى الاختصاص، أهالى المدينة والنواحى المجاورة يتبركون بها ، يوقدون الشموع فى مواقيت محددة ويضعون النقود الفضية المستديرة فى أطباق صغيرة مكشوفة ، لا يقربها أحد ، غير معروفة الجهة التى تجمع النقود ، يقال أنها ادارة الجامعة التى تحولها الى ميزانية قسم الآثار القديمة بكلية العلوم الانســـانية ، الذى يتولى أعمال الترميم والصيانة الدورية ، المعترف بها ، وهذا غير مؤكد ، اذ يقول البعض ان البلدية تجمع النقود وتضيفها الى ميزانية المنشآت المدنية ، ويهمس آخرون أن ثمة اتفاقا قديما غير معلن ، غير موقع ، يقضى بتوزيع المبالغ مناصفة بين الجهتين ، على أى حال لا يمكن القطع أو التحديد مع أن الأمر ميسور ! •

المهم •• بدأ الفلاسفة العمل • رتبوا أمورهم ، فكانوا أول من حدد مصادر الرياح ، وحاول كبيرهم التوصل الى عمل يحد من خطرها ، وقيل حبسها واطلاقها عندما يهوى ، لكنه لم يصل •

إنهم أول من حفر لاقامة أساسات البناء ، ومدوا الأسقف الواقية من المطر والشمس الصهدة والثلج ، وأول من قسموا المبانى الى غرف منفصلة ، وأقاموا الحظائر للحيوان ، وكشفوا عن مصادر المياه فى الناحية ، وتحكموا فيها ، أقاموا ثلاثمائة وخمسة وستين صهريجا ملؤوها بمياه الأمطار • خصص لكل صهريج يوم واحد : فاذا نفد لا يملأ الا فى موسم الأمطار التالى ، واذا بقى فيه مقدار لا يستخدم انما يترك ليتبخر ، ولم يعـرف سـبب ذلك • تحتفظ

المدينة بعدد من بقايا الصهاريج ، كشفت عنها التنقيبات التى تمت فى خمسينيات القرن الماضى · وقامت بها الجامعة · تضم المدينة مسارات بعض القنوات التى شكلت جزءا من شبكة تموين المدينة خلال العصور الوسطى ، تنظيم دقيق ، عجيب ، وصفها الرحالة والتجار الذين دونوا ملاحظاتهم لكن أشمل وصف كتبه جاسوس ينتمى الى مجموعة الامارات الشمالية التى هددت المنطقة عامة والمدينة خاصة ، وصف نظام تموين المدينة بالمياه ، حيث اعتبر النهير الصغير مصدرا رئيسيا ، هذا النهير ظهر بعد زمن الفلاسفة الأربعين ، أثر الزلازل المتواصلة فى القرن السابع ، تذكر بعض المصادر زلزلة الأرض لمدة سبعة وخمسين يوما مما أدى الى تشقق الجبال ، من شرخ صخرى عميق نبع الماء وتدفق ، مجراه ضيق مفروش بالحصى ، يمكن رؤيته عند أعمق أجزائه ، منه تؤخذ المياه الى الصهاريج القديمة ، ثم تضخ بوسيلة لم تعرف بعد ، عبر قنوات صناعية تتفرع الى أخرى أصغر ، تمضى تحت الحدائق والميادين ، يسمع خريرها وان لم تقع العين عليها ، أحيانا تتدفق من فتحات صغيرة فى الجدران ، يقال ان المياه كانت تمضى فى حركة دائرية بحيث لاتمضى الى مصب ، أو الى منتهى معين ، انما تعود لتتدفق فى المسارات ذاتها ، قال الرحالة العربى بن فضلان المدينة تبدو وكأنها تمشى على الماء وبالماء ، هذه الحركة الدائمة أضفت عليها حيوية ، لا مثيل لهذه المدينة فى العالم ، الا فاس فى المغرب الأقصى ، أساتذة الجامعة يقولون ان تصميم شبكة المياه الفريدة تلك موجود فى خزائن البلدية ، مرسوم على جلود غزلان ، لكن البلدية لا تفرج عنه ، ولا تسمح للباحثين بالاطلاع عليه ، وهذا ضار بالعلم ، عمدة البلدية صرح منذ عشرين عاما أن التصميم يعد من أدق الأسرار وأنه يتصل اتصالا مباشرا بالخطط الدفاعية · لذلك يجب ابقاؤه سرا حذرا وتحوطا ، ربما يقع أى حادث أو عارض فى المستقبل ·

نرجع الى الفلاسفة الاربعين ، أنهم أول من جز صوف الغنم ، وغزلوه ، ونسجوه ، وأول من دبغوا الجلود وصنعوا منها أحذية ، وأول من سلق اللحم والخضروات ، أضافوا الملح الى الطعام ، وصنعوا الأوانى لشرب السوائل ، واستخلصوا اللوف لهرش الجلد وحكه ، وهذبوا السواك لغسيل الأسنان ، كما أنهم أول من حدد الجهات الأربع الأصلية ·

أمور عديدة تجل عن الحصر تنسب اليهم · ولكن ثمة أشياء محددة ارتبطت بكبيرهم الذى لم يصل أحد الى مقبرته حتى الآن ، فهو أول من حدد مواقيت الشروق والغروب ، وميل الظل ، ودخول العصر ، وفرق بين الفجر الكاذب والحقيقى ، ولحظات اكتمال الندى ، وتحول الطل ، وتبخر المياه ، وأسس علم امتزاج الألوان ، كما عين الحد الفاصـــل بين اليقظة والنوم ، كما وصف الأحلام وفسرها ، توصل الى النتائج التى حددها ابن سيرين ومن بعده سيجموند فرويد ، وشرع فى عمل يحفظ ما يراه النائم بحيث يمكن استعادته ، لكنـه لم يتمه ولم يتوصـل ، انه أول من أشـــات الى مستثيرات الذكرى وصنفها ، وفرق بين الأصل والظل ، والصوت والصدى ، اكتشف مركز الدائرة ، ورسم مواقع النجوم الثابتة ، ولاحظ حركتها مع تقدم الليل ، وفرق بين الشـــكل المستدير والبيضاوى ، والمستطيل والدائرة ، والمثلث ، وهذا ليس بالهين فى أوانه ·

غير أن انشـــغاله الأعظم كان بالوقت ، وهو أول من نطق « صباح الخير » · وسبب ذلك حالة وجد صعب نزلت به لسبب ما ، يقال أنه بدأ ارتخاء أعصابه ، وعدم قدرته على الجماع ، وفى رواية أخرى انشغاله بالنهايات مع طعنه فى السن ، وادراكه استحالة الابطاء من سريانه ، أو التأثير فى ديمومته ، ذات يوم خريفى كابى أطال النظر الى قرص الشمس قبل اكتمال غروبه ، بدا هلعا وكأنه يرى ذهابه أول مرة ، صاح راجيا من صحبه مساعدته فى الامساك

بالقرص الأحمر القانى ، ان غيابه يعنى غيابهم ، وذهابه يعنى ذهاب قدر منهم لن يعود أبدا ، الشمس لا تمضى ، انما هم من يرحلون ، وعند كل مغيب ينقص رصيدهم من الدنيا .

ضرب الأرض بقبضتيه ، يجب التأثير فى الدورة الحتمية ، الأبدية ، حار صحبه فيما يجب عمله ، مع أن ثلاثة منهم كانوا على دراية بأحوال النفوس وتقلباتها ، وما يلحقهـا فى أطوار العمر ، لكن .. ما بدا منه ذلك اليوم استعصى عليهم ، خاصة عندما اندفع لاهثا ، مزبدا ، محاولا ادراك قرص الشمس بأطراف أنامله .

يقال أنه أمضى ليلا اليلا ، يرتعد كفرخ الحمام المبلول ، يحيطه صحبه ، حتى اذا تبين الخيط الأبيض من الخيط الأســود ودنا الانبلاج ، تطلع الى حمرة الأفق الشرقى ، وطفا من أغوار عينيه تعبير كاى ، بعد لحيظات تحول الى صحبه ناطقا :

« صباح الخير » .

صارت العبارة عرفا ، ثم عادة ، ثم جملة لازمة ، جرى اعتقاد فيما تلا ذلك أن الانسان اذا لم يفه بها لمن حوله ، فان الشمس ستمضى ولا ترجع ، ثم توارى المعنى الكامن من الافئدة ، ولكن الجملة انتقلت الى سائر اللغات المنطوقة .

عندما حانت ساعة احتضار الفيلســوف ، ولى وجهه تجاه الشمس ، قال معاتبا :

« لو اتبعتمونى » .

أدركوا أن الأمر قد شغله ، وأنه كتم ولم يسفر .

كيف تناسل الفلاسفة ، وتكاثروا فى هذه البقعة التى كانت خرابا عند صولهم بدون صحبة امرأة واحدة ؟ هنا تتعدد الروايات ، لكننا نورد أشهرها ذيوعا .

يقال ان ذلك جرى زمن نفى الفلاسفة ، فى بلد يقع الى المغرب الأقصى ، وقيل الى الجنوب ، وفى رواية أخرى ، ما وراء النهرين ، اذ حطت عند الفجر قافلة من أربعين امرأة ذوات جمال وفتنة ، متقاربات الأعمار ، عندهن أنوائه زائدة ، وخصائص تفردن بها ، منها بسوق القامة ، وتميز الأطراف والقدود وتبلور الأرداف ، وصفاء المقل ، وتأودهن عند الخطو بايقاع لا مثيل له ، حتى قيل ان الرجل الذى لا يستنفر عند رؤية تمايلهن لا أمل يرجى منه ، نزلن البلد وأقمن فيه ، وقيل أنهن جئن من مدن نائية تقع خلف المحيط الأعظم ، فارقنها لأسباب غامضة ، بعد وصولهن ظهر تبدل فى سلوك النساء وتصرفاتهن ، اذ تجرأن على رجالهن وعظم اشتداد الرغبة عندهن ، بعضهن خرجن فى طلب الغرباء السالكين طريق الحرير العظيم ، قيل ان الأربعين قمن بتلقين نساء تخطين الأربعين ، قيل أنها اذا ضاجعت رجلا فانها تأتى من خفى الحركات ما لا يقدر على الصمود أمامه أعتى الرجال وأشدهم صبرا ومراسا • لحظة بلوغها الأوج وذروة المتعة تطلق صرخة ، نافرة ، غريبة ، خليطا من حشرجة وجعير ، من ضحك وبكاء تسمع فى أطراف البلد ، ولهولها تنفر الجياد والابل ، ما لم يشد وثاقه منها يفلت ويصعب رده •

زاد الأمر عن حده ، وأضطربت الأحوال ، وشكا الأزواج من تغير زوجاتهم ، وأرجع الحكماء الطاعنون فى السن ما جرى الى اقامة الغريبات عن الديار ، قرروا نفيهن الى موضع بباب لا يمكنهن منه العودة ، وضعن قسرا فى قافلة صدر الأمر برحيلها لمدة ثلاثة أشهر كاملة لا تنقص يوما ، وعند النقطة التى يتم فيها الوصول يفارقنها ، وتشاء المصادفة أن ينزلن أرضا قريبة من موضع المدينة الحالى . لا يدرى أحد من اكتشف الآخر ؟ الفلاسفة أو النساء ؟ • على أى حال وقع اللقاء ، ويحفل الأدب القديم بحكايات عديدة محورها الشبق الوعر الذى تفجر بين الرجال المنقطعين عن العالم ، والنساء المنفيات بسبب اشتداد رغباتهن ، ويرجع البعض تعثر أعمال

الفلاسفة اليهن ، ومن هدا اللقاء وقع التناسل . ويؤكد الرحـــالة القدامى ومنهم ابن فضلان ، وابن بطوطه ـ فى رحلته الثانيه ـ على جمال نساء المدينه ، وشدة ميلهن الى الرجال ، خاصة الغرباء ، واتقانهن لفنون الاثارة ، واظهارهن من الحركات والقدرات مالا يوجد فى نساء الامم الاخرى ، ومازال حالهن وتفردهن قائما ، ملحوظا ، لكن رغبتهن اصابها فتور بعد أن قام أحد أحفاد الفلاسفة باعداد تركيبة خاصة من أعشاب غير معروفة وضعها خفية فى مصادر المياه التى تمد المدينة ، ومنذ هذا الوقت ضعفت الشهوة عندهن ، لكنهن لم يفقدن ما توارثنه من فنون وحركات ، حتى قيل أن من لم يضاجع أحداهن يموت جاهلا بالمرآة .

تفاصيل لقاء الفلاسفة بالنساء عديدة ، مثيرة منهم انحدر أبناء المدينة ، مصادر البلدية تقول انهم كفوا عن انجاز العلوم وتحقيق الفوائد بعد اجتماعهم بالنساء ، لكن مصـــادر الجامعة تؤكد أنهم أبدعوا أفضل ما قدموه بعد وصولهن ، والدليل ، تلك المسائل السبع التى صيغت والمواجهة الى الأبناء الصغار الذين ولدوا ، وتتضمن الاشارات والرموز ، ولاتزال معانيها متضمنة فى أسئلة الاختبار التى توجه الى الملتحقين الجدد ، تغيرت صياغة الأسئلة ، لكن المضمون لم يتبدل الا قليلا .

المســائل الســبع ..

أولها : ما الأشجار الاثنــا عشر ، ذات الفــروع الثلاثين ، الظاهرة فى العالم كله ، ومع ذلك لا ترى ؟ .

ثانيها : ما الطائران المحومان دائما ، لا مستقر لهما ولا محط، ولا نقطة اقلاع أو وصول ، لا مأوى ولا فزع ، الى الأبد يحوم كل منهما فى أثر الآخر فلا يدركه ، أحدهما أبيض ، والآخر أسود ، ولا يدرى أحد أيهما أسبق ؟ .

ثالثها : من الفرســــان الثلاثين ، هم فى عرض دائم ، فاذا عبروا نقصوا واحدا واذا رجعوا فلا ناقص ولا زائد .

رابعها : ما الشجرتان اللتان يقف عليهما طائران ، كل منهما يصيح على الآخر . اذا طار من هذه تساقطت أوراقها ، واذا وقع على الأخرى ازدهرت وأورقت ، فتكون ناضرة ، والثانية ذابلة مدى الأيــام ؟ .

خامسها : ما البلدة الآمنة التي هجرها ناسها وأقاموا في غيرها ، حتى اذا انتبهوا وأدركوا ، تطلعوا الى الرجعى ٠٠ لكن ٠٠ هيهات ؟ ٠

سادسها : لماذا تنتصب قامة الانسان دون سائر المخلوقات ؟٠

سابعها : لماذا توجد في الوجه سبع فتحات ؟ وفي سائر الجسد فتحتان ، ولماذا تتكون فقرات العنق من سبع ؟ ولماذا يتكون الأسبوع من سبعة أيام ؟ ٠

لايزال جوهر هذه المسائل ساريا ، تحرص التقاليد على بقائه كاحدى العلامات المتبقية من زمن الفلاسفة الأربعين ، الى جانب ملامح أخرى ٠ منها أن عدد المجلس الأعلى أربعون عضوا ٠

عدد المسموح لهم من الأساتذة بحضور العشاء الأسبوعي أربعون ٠

أجازة نصف العام الدراسي أربعون يوما ٠

راحة ما بين المحاضرات أربعون دقيقة ، والوقت يحدد داخل الجامعة بالمزولة الحجرية العتيقة ، ولا يعتد بالساعات الحديثة المهداة والموزعة على مباني الجامعة ٠

عدد القاعات الرئيسية أربعون ، من هنا تؤكد الجامعة أن الفلاسفة هم نواة أساسها المتين ٠

لكن ٠٠ في المدينة علامات أخرى لا صلة لها بالجامعة ٠ فمن ذلك عدد الشوارع الرئيسية ، انها أربعون ، والمباني الرسمية

أربعون ، لهذا تصر البلدية على انتماء الفلاسفة اليها ، هم الذين وضعوا لبناتها الأولى ، ما قاموا به متصل مباشرة بأساس تكوين المدينة ، بنشأتها ، بتخطيطها ، لذلك أقاموا أمام المبنى الرئيسى للبلدية فى القرن الماضى تمثال الأربعين ، كتلة صخرية هائلة تبدو من خلال خطوطها وتضاريسها ملامح أربعين وجها ، والى أعلى ترتفع أربعون يدا فى اتجاه شمس تحملها الأنامل ، تبث أربعين شعاعا . تطال كل الجهات *

البرج ..

.. تفحص الخريطة ، متخذا موقع الفندق نقطة انطلاق ، المقر الرئيسى للجامعة ليس نائيا ، على مسيرة خمس أو سبع دقائق . لن يحتاج الى عربة أجرة ، تكفى مرة واحدة . كان يجهل المسافة من محطة القطار ، من يهوى المشى مثله يمكنه أن يلف المدينة كلها فى أقل من ساعة .

هكذا شرع .

صباح هادىء ، وثير ، ضوء رخيم وطرقات مبلولة ونواص تثير الحنين ، سماء دانية توحى ببحر قريب من أنه بعيد ، أربع ساعات بالقطار السريع ، أرصفة عريضة تحدها أقواس حجرية ، متتالية ، متاجر متجاورة ، مداخل بنايات قديمة مغلفة بالظلال ، تنبعث منها عتاقة رطبة ، وأصداء مندثرة ، وبقايا لقاءات خلسة ، رخام بارد ، وسلالم لا تفسح عن كل درجاتها ، وشىء ما يبعث على التذكر .

عبر ثلاثة مفارق ، ميدان مبلط بالحجارة ، فى المواجهة يقوم البرج الكبير ، شاهق ، غامض ، ميله ملحوظ ، أصبح علامة عليه وسببا لذيوعه ، اختلف الناس في سبب بنـــائه ، فمن قائل أنه لغرض حربى يمــكن رصد أى عدو مقترب ، وثمة من يقول انه بنى كرمز للجامعة ، ولاجراء تجارب تتعلق بالجو والمناخ ، لكن التعليل الثانى لا يلقى قبولا ، ما معنى تشييد هذا المعمار المعقد ، الغامض الذى لم يكشف عن أسراره كلهــا بعــد ، فى زمن كانت وسائل البناء فيه بدائية لمجرد أن يكون رمزا ؟ · ما معنى ذلك ؟ هذا سخف ، على أية حال ، انه شعار المدينة الآن ، مرسوم على مفتاحها الذى تهديه البلدية الى كبار ضيوفها الرسميين ، أو عند اعلان التآخى مع مدينة أخرى نائية · مطبوع على البطاقات المصورة ، تباع نماذج من جص ، ومن نحاس ، وحديد ، ونيكل ، وفضة ، مختلفة الأحجام ·

بعض الجامعيين يضمرون ضيقا قديما متوارثا ، فلولا مهندسو الجامعة لما انفردت المدينة بهذه الاعجوبة الهندسية ، لكن الأهم ·· أن البرج لم يكن رمزا للمدينة حتى منتصف القرن الثامن عشر · فالمدينة جامعية ، وأهم ما تضمه ·· الكليات والمعاهد العلمية ، كان شعار المدينة نفس ما يراه الناس فى الدائرة الذهبية التى تتوسط غطاء رأس أقدم أساتذة الجامعة ، أنبيق زجاجى ينطلق منه شعاع دخانى ، يتشكل منه وجه فتاة حسناء ترفع يديها الى أعلى رمزا للمعرفة · بدأ الخلاف حوله فى ذلك الزمن البعيد ، وأوقف العمل به ، حتى حسم الأمر مع توحيد الدولة ، والاتفاق حول العاصمة المركزية ، نجح رئيس البلدية وقتئذ ، وكان رجلا جادا · شديد الكلف بالمظاهر ، فى استصــدار مرسوم مركزى بتغيير شعار المدينة ، ثم ضـــم البرج الى المنشـــآت التى ترعاها البلدية ، ودبر حملة دعائية بحيث أصبح من معالم البلاد ، ومقصد الأجانب ، وزاده غرابة ما يروى عنه من أحداث جرت فيه أو حوله ،

أو معتقدات قديمة تتخذه محورا · كذلك ميله ، ولون الحجارة التى شيد منها ، أحمر ياقوتى ، فى المكتبات عدد لا يحصى من المؤلفات حوله ، بعضها علمى معمارى ، أو تاريخى وصفى ، أو معلومات عامة للزائرين ·

فمما ارتبط به من معتقدات ، شاعت واستقرت ، أن العاقر اذا خطت عتبته سبع مرات قبل شروق الشمس فانها تنجب ، ومن الباب الرئيسى ، ومن يشكو ألما فى الدماغ يلف خيطا أحمر ، ومن يشعر بآلام المعدة يعقد خيطا أبيض حول أحد المسامير البارزة ومن جفا حبيبه يتناول ذرات من التراب العالق بالدرج ويضعه فى مثلث ورقى بعد كتابة اسم المحبوب الجافى بمداد أحمر ، فانه يرق ويلين ويأتى طواعية باذن الله ، واذا غمضت المراجع ، واستبهمت الدروس على الطالب النجيب ، فانه يكتب اسمه على ورقة صغيرة ويلقى بها عبر احدى النوافذ المستديرة العليا ، عندئذ ينفك المعقود ، وتتضح المسائل المستغلقة ، هذا كله وغيره ، شائع منتشر بين القوم ·

عرف البرج أيضا كمكان شهير للانتحار ، آخر حادثة وقعت منذ سبع سنوات ، كان غريبا ، أفريقيا ، طويل القامة جدا ، نزل المدينة ذات صباح باكر ، لفت الأنظار ، وتطلع اليه كل من رآه ، مشى فى الشوارع ، عبر الميادين · لم يتوقف عند مكان معين ، لم يتطلع الى نافذة أو لافتة ، حتى وصل الى البرج ، طاف حول بنائه المربع سبعا ، ثم دفع مقابل بطاقة دخول ، كان أول الصاعدين ، صعد السلالم الثمانمائة بدون توقف ، حتى الشرفة المربعة ، نظر الى كل الجهات بعينين مزرورتين ، وشفتين منفرجتين، لحقه زائر ثان ، اعتاد المجىء هذه الساعة المبكرة لدراسة ضوء الشمس من خلال منشور زجاجى ملون ·

بهدوء خلع الافريقي قميصه ، ثم بقية ثيابه ، ورتبها قطعة ، قطعة حتى أصبح عاريا كما ولدته أمه وفيما بعد قال الطالب انه هلع وظنه ينوى أمرا ، لكنه بدا غير منتبه الى وجوده أو وقوفه على مقربة ، توقع قيامه بأداء طقوس معينة يجهلها ، تمت الى بلده أو الى جماعته ، خاصة عندما عقد يديه أمام صدره العارى ، لكنه فوجىء بوثبة مفاجئة ، خاطفة ، يجتاز بعدها السور الى الفراغ ، وعندما تجمعوا حول جثمانه الذى تمدد أمام المدخل تماما ، كان لا يزال محتفظا بوضع يديه أمام صدره .

لم تعرف هويته ، أو الجهة التى ينتمى اليها ، لم يعثر على أى أوراق ، ولم يبلغ أحد عن غياب مفقود ، راح الافريقى على حاله ، ودفن فى مكان مجهول ، وتردد أن جثمانه انتهى الى احدى قاعات المستشفى الجامعى لاجراء تجارب ، انقطع أثره ونسى أمره فى الخضم اليومى ، لكن بعد مرور أربعين يوما تناقل حراس البرج ما رآه أحدهم ، ثم تأكد فى الليالى التالية ما ظنوه وهما ، الافريقى يظهر أعلى البرج ، ويطوف حول السور عاقدا يديه أمام صدره ، ويخطو فى الفراغ منحنيا الى حد ما . أكد آخرون أنهم شاهدوه من مسافة نائية ، وقدم طيار هيلوكبتر تقريرا الى قيادته المتمركزة خارج المدينة حول ما رآه أثناء تحليقه فى مهمة تتعلق بأمن الدولة الاتحادية ، بعد وقوع هذا الحادث ، وظهور تلك الشواهد ، صارت الزيارة ليلا غير مرغوبة ، حتى بعد اضاءة البرج ، ولم يقدم عليها الا الغرباء الذين يجهلون ، لكن ليست هذه أشهر الحكايات .

فى الأربعينيات وصلت الى البلاد أميرة تنتمى الى العائلة الملكية فى بلاد الانجليز ، جميلة . أمرها معروف ، دارسه للآثار . وقيل أنها تنوى البحث عن مقبرة كبير الفلاسفة الأربعين ، والتى لاتزال غير معروفة ، ومما يتردد فى كتب الأقدمين أنها تضم أوراقا من البردى تحوى العلوم والمعارف كلها .

طبعا نشأ نزاع ، من يستقبلها ؟ عمدة البلدية أو رئيس الجامعة ؟ اضطرت السلطة الاتحادية الى التدخل اتقاء لفضيحة خارجية ، مع أن مبادراتها فى هذا الشأن نادرة · تقرر أن يستقبلها عمدة البلدية فى محطة القطار · وأن ينتظرها رئيس الجامعة أمام كلية العلوم الانسانية ، على أن يصحبها نائبه من الباب الخارجى ، وهذا ما تم بالفعل · الا أنها سببت ارتباكا عندما طلبت زيارة البرج قبل غروب أول أيامها فى المدينة ، رغبت فى رؤية قرص الشمس الآفل من العلو الشاهق ، المائل ·

مشكلة ! ·

الأميرة شخصية هامة ، ويجب اتخاذ الحوطة ، وترتيب اجراءات حراسة خاصة ، المبنى غامض ، كثير من فراغاته مجهول حتى الآن ، ثم زاد الأمر تعقيدا عندما أبدت رغبتها فى الصعود بمفردها قصد التأمل الهادىء ·

هى ميساء ، ذات رفعة أنوثية ، بريقها داخلى صميم ، يتوهج فى لحظات المودة والقربى · ويخفت فى الأحـوال العادية ، لكنه يشع كدفء خفى المصدر ، معجبوها كثر ، منهم سليلو أسر نبيلة ، وأثرياء ، وأمراء من أقصى آسيا ، ونجوم سينما · وأبطال رياضة -

لكن الغريب العجيب أنها لم تعجب ولم تعشق الا رجلا من صعيد مصر · بالتحديد من قرية القرنة ·

عندما زارت مصر استقبلها الملك ، نزلت فى فندق مينا هاوس لتطل على الأهرامات صباحا ومساء · ثم سافرت باليخت الملكى « قاصد خير » الى بر الأقصر ، وخلال أيامها النهرية كتبت رسائلها الشهيرة ، فى الأقصر احتفى بها القوم ، رتبوا جولات متأنية ، دققت وأمعنت الفرجة ، أبدت اعجابا بما رأت ، والماما بالتاريخ الفرعونى القديم ، عند تأهبها لدخول مقبرة الأميرة نفرتارى ظهر

رجل مقدد الوجه ، بارز عظام الترقوتين ، باسق القامة ، قدمها اليها مفتش آثار الناحية باعتباره الوحيد الذى يحفظ الرسوم والنقوش ، بل ويتقن اللســـان الفرعونى القـــديم ، اضافة الى سبع لغات أجنبية منها البولندية ٠

كان مهيبا ، طويلا كجذع نخلة ، راســـخ النظرة ، متأنى الخطوة ، متين الملامح ، بعد نزولها المقبرة أبدت رغبتها الشديدة فى قضاء ليلة بوادى الملوك ، أحدثت ارتباك ، اضطر مدير الناحية الى ارسال عدة برقيات ، لم يأته رد واضح ، لا من القصر ، ولا من وزارتى الداخلية أو الخارجية ٠

ازاء اصرارها ٠ واعلانها تحمل المسئولية خضع الجميع ٠ لم تصطحب الا حارسها الخاص ، كان عارفا ، عليما بأحوالها ، اشتهر بصمته ، بعد وفاتها أعلن فجـــأة أنه سينشر مذكراته ، لكنها لم تظهر قط ، نتيجة تدخل القصر ٠

المهم ٠٠ نصبت خيمة للأميرة فى الصحراء ، تحت سفح تل مرتفع مشرفا على وادى الملوك ، مع ارتفاع القمر شبه المكتمل ظهر رسول ، اقترب راسخا ، واثقا غامضا كطيف يسعى ، جثت ، صبت الماء المعطر من أبريق نحاسى ، غسلت قدميه ، فى هذه الليلة تردد صوتها فى الوادى العتيق حتى تعجب حارسها الخاص من قدرتها على الاحتمال ، قيل ان رسول ضاجعها ست عشرة مرة ، عندما سألته ، أهذه عادة أهل البلاد ؟ هز رأسه نفيا ، مشيرا الى صدره ٠ لا يدرى أحد ما جرى بالضبط ؟ ٠ كيف أقنعته بالرحيل معها ؟ سحبها الى بلادها ٠ قيل كتبرير أنه ماض لتعليمها اللغة الفرعونية التى يتقنها ٠ اشترت قصرا قديما مهجورا ، أقام فيه منذ مائة وعشرين سنة أحد أفراد أسرة البوربون ، لجأ الى المقاطعة بعد نشوب الثورة الفرنسية ٠ كثر ترددها عليه ، صارت تقضى بصحبة رسول يومين أو ثلاثا كل أسبوع ٠ لوحظ تغير جسدها ٠

اذ عظمت عجيزتها واتسع حوضها ، وتغيرت مشيتها ، صارت أبطأ ٠

لم يدم الأمر طويلا ، بعد ما يقرب من ثلاثة أشهر بدأ شرود فى عينيه ، ازدادت اطراقاته ورسمه خطوطا متقاطعة ، متعامدة فوق الأرض ، فشل كبير الأطباء الملكيين الذى جاء اليه سرا فى فض سره ٠ قال للأميرة أنه على ما يبدو يعانى حالة اكتئاب شديدة لافتقاده المنشأ والوطن ، لابد من ذهابه الى بلده ، غير أنها أبت ، أكثرت من ترددها عليه ، وقضائها وأقانا طوال الى جواره ، وأبدت فيضا من مشاعر ، لكنه لم يستجب ولم يزدد الا حزنا وكمونا ، صباح أحد الأيام ظهر عدد من الرجال بينهم شاب أنيق يمسك لوحات عديدة ، علقها الى حامل خشبى وصار يقلبها ، ويخط فى دفتر أبيض ، فرش العمال الأرض غير المستوية بالرمال ، رمال صفراء غامقة تتخللها شجيرات قصيرة مما ينبت فى جنوب مصر ، ثم غرست سبع نخلات ليلا ، وصارت مقصدا ومزارا فيما بعد ، كثيرون من أهالى البلاد لم يسبق لهم رؤية النخل الا فى لوحات الرحالة الذين قصدوا بلدان الشرق ٠ عندما اكتمل الأمر وصلت الأميرة ، بدت مبتهجة ، راضية عن العمل الذى تم ، كأن جزءا متكاملا من الصعيد النائى انتقل الى الريف الانجليزى ، لم يبد رسول مجاوبة ، كأن الأمر لا يعنيه ، لا يمت اليه ، صار ذاهل النظرة محملقا الى بعيد ، فى كل يوم يتناقص وزنه ٠ حتى حط تماما ٠

وجدت عليه الأميرة وجدا شديدا ، بعده مالت الى انطواء وتعددت أسفارها ، حتى عدت فى هجاج دائم ، لايستقر بها مقام ، لم ولن يدرى أحد ما جال بخاطرها ، أو أى صور تواردت عليها عندما طلعت البرج الشهير ، أما ملامح وجهها فلم تسفر ولم تنبىء بشىء ، صار انتحارها المفاجىء ، أمرا باعثا على الحيرة ، ومبعثا

لتخمينات شتى ، لفترة خاضت الصحف فى الامـر ، بل صدرت كتب ، وأشير الى رسول طبعا ، لكن لم يتأكد ارتباط انتحـارها بحزنها عليه · لو صح لأودى بها عقب وفاته ، لكن ثمـــة فترة فاصلة مقدارها ثلاثة أعوام ، أما علاقتها به · فقيل أنها مجرد نزوة امرأة غريبة تجاه رجل بدائى !

وبالرغم من الألم الذى عبر عنه عمدة البلدية فى خطاب العزاء الرسمى ، وقيامه بمرافقة الجثمان حتى المطار المحلى ، وأداء المراسم الخاصة بما فيهـــا التحية العســـكرية ، وتنكيس الاعـلام لمدة سبعة أيام ، بما فيها العلم الاتحادى ، والاعلام الجامعية ، وبالرغم من مظاهر الأسى ، فان البلدية بدأت على الفور التخطيط لاستخدام انتحارها كعنصر دعائى ، وضعت حلقة معدنية عند النقطه المفترض أن الأميرة تجاوزتها الى العدم ، ليتوقف عندها الأدلة والشراح · كما تضمنها الكتاب التذكارى المئوى ·

غير أن حكاية ابن امبراطور الصين أغرب وأعجب

ذلك أنه جاء الى الجامعة متفقدا وزائرا ، قرر والده ايفاده للاطلاع على ما يجرى فى الأقسام العلمية ، عند وصـــوله تم حل المشكلة التى نشأت ، من سيستضيفه ؟ · الجامعة التى سيدرس بها ، أو البلدية باعتباره ضيف المدينة البارز ؟ ، اتفق على أن يقيم أسبوعا كضيف على الجامعة ، وأسبوع للبلد · وعندما جاء ·· أبدى رغبته فى الاقامة بالفندق الكبير · أقدم الفنادق وأفخمها ، نزل فى الجناح الملكى ، وعلقت صورته فى الممر المؤدى بجوار الذين حلوا من قبل · استقر ، وعلق علم البلدية فوق المدخل ، فى نهاية الأسبوع الأول رفع شعار الجامعة ، هكذا بالتبادل ، اعلانا عن الجهة المضيفة ، ربما لم يلحظ الأمير ذلك ·

فى نهاية الأسبوع الرابع وجهت اليه الدعوة لزيارة البرج ، أبدى الأمير اعجابه بالبناء السامق ، المائل ، قال انه يوجـد فى

قال ان البرج الصينى يرتبط بملك عاش فى التاريخ البعيد فى عهد الممالك المتحاربة ، وأنه أراد الوصول الى السماء وملامسة النجوم ، أمر باستمرار صعود البنـــاء ، وخيـــل اليـه أنه عند حد معين سيجتاز الحد ، بذل المهندســون جهدا حتى ارتفعوا به فوق الغيوم ، تردد ذكره فى البلاد النائية ، وقف ابن بطوطة على بقاياه ، وصفه أثناء ترحاله فى بلاد الصين ، لا تكشف النصوص القديمة عن أسباب انهياره ، أو توقف البناء ، وقيــل أن الملك أصيب بمرض غامض أودى به كعقاب رادع من الســـماء ولا تزال البقايا منتصبه ، قاس الأمير ارتفاع البرج بمســـاعدة ثلاثة من مرافقيه ، من خلال حـــركة الظل وانتقاله عبر أوقات النهـــار المختلفة ، اتبعوا أساليب قديمة ، معقدة ، وآلات حسابيـــة غير معروفة فى الجامعة ، أنهم أول من حدد الارتفاع بدقة ، ودرجة الميل، ومقدار زيادته كل سنة شمسية ، لكنهم لم يبلغوا أحـــدا بنتائج القياس المقارن ، أيهما أعلى ؟ برج المدينة ، أو البرج الصينى ؟

توجه الأمير ثلاثين مرة ، فى العشرة الأوائل لم يصعد ، اكتفى بالطواف حوله ، ومعاينـــة أحجـــاره ، والتطلع من زوايا مختلفـــة ، وفى المرات العشر التالية أتم القياسات ، ثم بدا صعوده ، أبدى اعجابه بالقدرة على استغلال الفراغات الداخلية المحدودة ، وفى المرة الثلاثين أبدى رغبته فى دخول الحجرات السبع الموزعة على الارتفاع الشاهق ، دخل الأولى والثانيـــة والثالثة والرابعة والخامســـة والسادسة مبديا همة عالية ، مستنفرا كل طاقته ، منرعا أدق حواسه ، كان يدخل بمفرده ، بينما يقف مرافقوه فوق الســـلم الحجرى الدائرى ، اثنان صينيان ، وثالث من رجـــال البلدية ، بدا تعبهم ، وسمع لهاثهم قرب نهاية السلم الدائرى ولج الغرفة السابعة ، وعندما طال تفقده ، شعر مرافقوه فى البداية أنهم منحوا عدة دقائق للراحة ، لكن الوقت مر ، والدقائق توالت ، ولاحت

نذر ، عندئذ تقدم أكبر المرافقين سنا ، نادى بصوت خافت ، ثم بصوت مرتفع ، التفت الى زميله ، بحسم ولج الغرفة ، الضيقة ، المعتمة ، التى لا مخرج آخر لها ، وعندما أطل بدا مختلط التعابير ، لم يجد أثرا للأمير • وحتى الآن • يقف الأدلة ، قائلين باختصار •

« هنا اختفى أمير الصين •• »

لغز لم يحل ، وأحجية لم تفسر ، وبالرغم من تغير نظام الحكم فى الصين ، وقيام الجمهورية ، ثم اعلان النظام الشيوعى ، فان طلب البحث عن الأمير يتجدد كل سنة ، بل ان ماوتسى تونج بعث برسالتين الى الرئيس الاتحادى ، أحدهما أثناء الثورة الثقافية ، وكلف سفيره بمقابلة عمدة المدينة ، ثم تكرر الأمر فى كل سنة مرة ، يتم خلالها الاشارة الى الأثر السلبى لاستمرار الغياب على العلاقة بين البلدين •

تعددت التفسيرات فى ذكر أسباب الالحاح الصينى رغم تبدل النظم والعادات ، فمن قائل أنها العادات الموغلة فى القدم ، وثمة من يؤكد أن الأمير يعرف مواضع ألخفيت فيها كنوز الأسر المتعاقدة • لكن الأغرب بدء ظهور بعض ذوى الملامح الصينية فى المدينة ، جاءوا فرادى على مسافات زمنية متباعدة ، حتى أن وجودهم لم يلحظ الا بعد الاحصاء الجامعى للسكان والذى يتم مرة كل عشر سنوات ، وجدوا شارعا بأكمله يقطنه الصينيون الذين حصلوا على تصاريح اقامة دائمة ، وأتقنوا لغة البلاد ، ولهجة المدينة كأنهم ولدوا فيها ، لكنهم لم يبدلوا أزياءهم ولا عاداتهم ، ولقنوا أطفالهم فى البيوت لغة الآباء والأجداد ، ثم تزايد عددهم ، حتى عرفت المنطقة الغريبة المحاذية للبرج بالصين الشعبية ، وذلك لازدحام شوارعها وأزقتها ، ومعالم الحياة البادية من لافتات كتبت بالحروف الصينية ، وكرات

حمراء معلقة أمام البيوت ، ومداخــل المطاعم ذات الخشب الملون ، هرمية الشكل ٠

يوم اختفاء الأمير ، فى كل عام ، يتوجهــون الى البرج ، يصعدون السلم الدائرى فى هدوء وترتيب ، يؤدون صلاة خافته ، يبدون حزنا وأســـفا ، ثم ينصرفون بهدوء ، أمن البلدية أبدى انزعاجه فى البداية ، لكن العمدة قال ان التقاليد تحرم التصدى لهم ، ماداموا لم يلحقوا ضررا بالآخرين ، ولكن المسئولين عن الأمن لزموا الحذر ، وصدر قرار خفى بتخصيص فرع لشئون الصينيين وأحوالهم . وخاصة بعد معلومات تؤكد أن اختفاء الأمير ، ومجىء هؤلاء له علامة ما بمقبرة كبير الفلاسفة الأربعين ٠

بعض الجامعيين لمحوا الى دفعهم مبالغ كبيرة الى مسئولين فى البلدية للمساعدة على توطينهم ، وأن ثمة هدايا ثمينة تصل فى وقت معلوم من تجـــار أثرياء يقيمون فى أوروبا وأمريكا وبلدان الخليج العربى ، كما أنهم يدعمون تلك الجالية الصغيرة بوسائل شتى ، حتى تستمر اقامتهم الى لحظة موعودة يظهر فيها الأمير المختفى ، والمحتجب لأسباب ربما يكتمها كبارهم ٠

هذا أغرب ما سمعه من حوادث حول البرج ، لكن ثمة واقعة أخرى علقت بذاكرته ، واستعادها فيما بعد مبتسما ، ذلك أنه تولى البلدية عمدة قصير القامة ، بقدمه اليمنى عرج خفيف ، جرى ذلك عقب افتتاح قناة السويس مباشرة ، واتصال البحرين الأبيض والأحمر ، كان رجلا حسن السمعة ، طيب الاقامة ، نظيف اليد ، صارما ، دقيقا ، وخلال ولايته القصيرة حقق مكاسب جمه للبلدية على حساب الجامعة ، ضمن ذلك مسئولية البلدية عن جميع شوارع المدينة ٠ بما فيها المحيطة بالمبانى الأثرية ، وصهاريج الميــاه ، وأضرحة الفلاسفة التسعة والثلاثين ٠ والتى تتصل مبانى الجامعة أو تؤدى اليها ٠

شق ذلك على الأساتذة حتى أقدم أحدهم على اشعال النيران في نفسه ، ولم يستطع أحد انقاذه ، لكن تمت معالجة جمجمته وأضافتها الى الغرفة الخاصة بالمستشفى الجامعي والتي توجد فيها جميع جماجم الأساتذة الكبـــار ، أو الذين نبغوا وقدموا أعمالا استثنائية منذ تأسيس الجامعة .

أدى انتحاره الى أمرين ، الأول ، ايقاف الاجراءات الخاصة بمد سلطة التفتيش المعماري الى المباني الجامعية ، والثاني وضع علامات مميزة في الشوارع والطرقات التي تتبع ممتلكات الجامعة ، اتفق على تمييزها بصف براميل حمراء ، وأخرى بيضاء في كل طرقات المدينة التابعـــة لاشراف البلدية ، على أن تخصص لجمع القمامة ، وهذا فارق دقيق لا يلحظه الزائر العابر ، كما أنه يثير دهشة البعض ، لكن بقاء البراميل مثبتـــة الى قواعدها من عوامل الاستقرار في المدينة ، ومنذ سنوات جرت محاولة استبدال القديمة الخشبية بأخرى من البلاستيك المقوى ، محلي الصنع ، لكن مجلس الجامعة الرئاسي عارض بحجة عدم المساس بالتراث ، فاتفق على اجارء الموضوع الى وقت آخر ، ومرت سنوات بدون أن يتم ذلك .

المهم .. كان عمدة البلدية الأعرج ، مراعيا للتقاليد ، محبا للتفقد ، في زمنه تم تجديد الزي الخاص بحراس المدينة ، وقوات الأمن ، ومن أقواله المأثورة التي كتبت على لافتات ، وطبعت مرارا ، ما ذكره في حفل استعراض قوات المطافيء بعد تغيير أزيائهـــا ، اذ قال انه ليس معقولا دخول القرن العشرين بملابس تمت الى السادس عشر ، عرف في الوثائق بالأعرج ، وبين الناس بالمتفقد ، اذ كان يمر يومياعلى مباني البلدية ، يتأكد من نظافة المكاتب ، وسلامة الأبواب ، والمنافذ ، والمداخن ، ودورات المياه ، وانضباط الأمور ، وحضور الموظفين في المواعيـــد المقررة ، يفتش حرس البلدية مرتين ، الأولى صباحا ، والثانيـــة مســاء ، كان الحرس يصطف في كامل الهيئة في الســاحة المبلطة برخام وردي ، وعندما

يرفعون بنادقهم ، ويشهر القائد علم المدينة ، يبدأ مشيه المتمهل ، البطيء ، لم يقم بمرور شـــكلي ، انما حقيقي ، متمهل ، مرتديا المونوكل فوق عينه اليمنى ، يتوقف أمام تنية القميص ، أو عند بقعة باهتة لا تلحظ الا بصعوبة ، ومما شاع أنه زار يوما مدينة البندقية ، أعد عمدتها استقبالا رسميا جرت مراسمه في ساحة البلدية ، في صفين متوازيين وقف الحرس الايطـــالي المنضبط ، الذى تم اختياره بعناية من جنود متشابهي الملامح ، والأطوال ، يرتدون الزى الرومانى الأصلى ، فوجىء القوم بتوقف الأعرج قبل وصوله الى محاذاة العلم وقيامه باداء التحية ، أبدى التأفف ، أشار الى حشرة في حجم البرغوث ، ميتة ، عالقة بياقة الفرو البيضاء ، تساءل مشمئزا : ما هذا ؟ ونشبت أزمة خفيـــة احتاجت وقتـــا لمعالجتها ·

أسبوعيا يتفقد قوات المطافىء ، خاصة يوم الأحد ، يستعرض العربات ، وأدوات الاطفاء ، يطمئن الى سلامة المضخات ، وخراطيم المياه ، أيضا ·· انضباط الجند ·

فى الأيام الأولى من كل شهر ، يقوم بتفقد مفاجىء لمحطـة السكك الحديدية ، ومحطة تنقية مياه رى الحدائق ، والكهرباء ، ومبنى البريد ، ومركز السيطرة على مصابيح الشوارع ، ودورات المياه العامة ، وسوق الخضار والفاكهة الرئيسى ، والمسلخ اليدوى ، كثيرا ما توقف أمام صناديق البريد العمومية ، ليتأكد من جمع الخطابات فى المواعيد المحددة ·

قبل بدء العام الدراسى يتفقد فصول المدارس الابتدائيه ، والكتب ، والكراسات ، ومن المؤكد أنه تحرق شوقا لتفقد منشآت الجامعة ، لكنه لم يشرع بسبب نصيحة أكبر الأعضـــاء سنا فى مجلس البلدية الذى نصحه بارجاء ذلك ، لأن الظرف غير موات ·

اكتفى بزيارة المجاملة التقليدية ، والتى يتابعها أهالى المدينة والطلاب بسخرية ، كان حلمه - كما يؤكد المقربون - أن يتفقد منشآت الجامعة ، لكن لم يحـدث ذلك قط ، اذ جـرى له مالم يتوقعه أحد ٠

صباح اثنين مشمس ، دافىء ، اتجه لتفقد البرج ، أمام المبنى تمت الاجراءات المعتادة حيث استقبله كبير مهندسى البـلدية ، ورئيس قسم آثار العصور الوسطى بالجامعة ، وهو من الشخصيات المعروفة لارتباط اسمه بالحفاظ على المبانى العتيقة ، وتدبيره الخطط لصيانتها ، والعناية بها ، وابرازها فى أحسن صورة للناظرين ، تشرف البلدية على البرج ، لكن الترميم والحفـاظ على الطابع ، فمن اختصاص الجامعة ٠ طلع الدرج يتقدمه كبير مهندسى البلدية المعتمدين ، فى الضوء الخافت لمح شـقا فى الجدار لم يره من قبل ، توقف ، اتخذ الوضع الصارم للمتفقد ٠ اتجه ببصره الى الأستاذ الجامعى ممهدا لالقاء المسئولية ٠ مد يده صوب الشق ، انتفض بغتة ، صرخة وعرة بددت جموده ، تورمت أصبعه بسرعة ، الحل الوحيد - كما قيل فيما بعد - بترها فى نفس اللحظـة ، لكن ٠٠ أين المعدات ، أين من يمكنه القيام بذلك ؟

حية صغيرة ، دقيقة ، محنطة الآن فى متحف الأحياء الطبيعية بالجامعة ، تنتمى الى فصيلة نادرة جدا لاتوجد الا فى الصحارى الجنوبية ، كيف وصلت هنا ؟

قيل تفسيرا ٠ فى الزمن القديم استخدم المحاربون قنابل تقذف بالمنجنيق ٠ لم تحو حجارة أو بارودا ، انما ثعابين فتاكه تم جمعها من بقاع شتى لقصف القلاع محدودة المساحة عند الحصار ، أو المراكب البحرية عند التلاحم ، ويبدو أن البرج تعرض لحصار

ما غير معروف الآن · وأن منجنيقا محشوا بالحيات انفجر داخله وعشش بعضها فى الزوايا الخبيثة وتناسل حتى جرى ما جرى ·

المهم ·· راح العمدة الأعرج بسبب عضة ، ومع مرور الزمن بهت خبره ، عدا السخرية الهادئة التى تلوح عند استعادة حمه للتفقد ·

البــواباب الســبع ٠٠

٠٠ يمثل البرج الى غير مدى ، الاحساس بحضوره قائم حتى وان أولاه ظهره ، أو حالت دونه جدران ، لانتصـــابه الغاره بعد انسانى غامض ، فكأنه يرقب كل ما يجرى بوسيلة ما ، ربما لهذا السبب تضمن المعتقد القديم عنصرا يجعل أهالى المدينة يتجهون اليه بوجوههم عند نومهم ، أو يتطلعون اليه قبل رحيلهم . والعجائز يلمسون أحجاره ويخاطبون بواباته الصغيرة ، بعبارات متوارثة . أجرى قسم الاجتماع بكلية العلوم الانسانية بحثا حولها ، وأفرد له التليفزيون الاتحادى حلقة خاصة فى برنامج « أمسية ثقافية » ٠

يتطلع اليه بعد تجاوزه ، حجارة صغيرة غامقـة الحمرة . تماثيل دقيقة حول الافريز الرخامى أعلى المدخل ، فتحات دائرية متعاقبة على امتداد الارتفاع ، ثلاثمائة وست وستون ، عند شروق الشمس تنفذ أشعتها من فتحة معينة ، ولا يتكرر الأمر الا بعد سنة ، وهذا عجيب !

طبقا للخريطة يلزم الجانب الأيسر ، منحدر قليلا ، الأقواس تحد جانبية ، أعمدة مرمرية ، لوتسية التيجان ، يتغير لون البراميل الموزعة على الجانبين ، حمراء الآن ، هواء بارد ، منعش ، تفد اليـه رائحة ما ، مبهمة ، مستعصية على الشرح أو التفسـير ، تستنفر لحيظات نائية من ثنايا ذاكراته ، وقت خروجه الصباحي الباكر في سنوات عمله الأولى ، يقف على محطة الحافلات ، يبدأ نوافد طالبات المدرسة الثانوية ، كن نافرات النهود ، خفرهن باد وان بدت عيونهن هجومية ، هكذا يراهن الآن بعد مضى أكثر من ربع قرن ، يلمح اقبالهن على الدنيا ، يقفن متقاربات ، هامسات أو ضاحكات ، متطلعات خلسة هنا أو هناك ، عند لحظة معينة تقبل ، نضرة ، فواحة ، تقف مختالة في سكونها ، فواحة في حركتها ، حتى اذا هزت رأسها لتلملم شمل شعرها ، لظهورها زلزلة ، عند ركوبها المتمهل ترمقه خلسة ، فضولية ، مستفسرة ، تتصل العيون لثوان مارقات ، غير أن الأمر لم يتعد حدود النظـــر ، لم يفض الصمت قط ، خجل أول العمر ، نما عنده وتبدد مع تقلبـــه في البـلاد والسنين ، أثر يبدو منه في لحظات التقارب الأولى مع كل امرأة يشرع لاجتياز عالمها ، لكم دنا ، لكم اتحـد ، بعض من انصهر جسده داخلهن نسى ملامحهن ، عبثا يحاول التذكر ، ولكن اذا هفت عليه تلك اللحيظات النائية ، وأطل الوجه الذى لم يعرف الا النظر اليه من بعيد ، فان قلبه ليدفق ، كأنها ماثلة ، شاخصة اليه ، لحظات نهارية ، لا تواتيه عند مروره بالمكان القديم ، أنما تنتفض حية اذا هب مثل هذا الهواء الهين ، أنوثى الملمس والسريان ، يذكر قامتها ، سموقها ، اهتزاز ثوبها المسدل على أردافها وبطنها الأخمص بدءا من خصرها النحيل ، تدب عنده رغبة ، فكأنه يتمنى مضجعة الهباء ، عناق العدم ، ربما فارقت العالم كله ، ولو ظهرت أمامه الآن ، هل ستعرفه ؟ • يستعيد وقفته في مواجهتها أو بالقرب منها فيرى نفسه مكتملا ، كأنه يتطلع الى ذاته من خارجها ، فلا يرى

الا غريبا عنه ، أحقا يمت الى نفسه ؟ ، تلك الملامح ، هذا التردد ، الأحاسيس البكر الغضة ، النزوع الى انطواء ، الشروع فى الحنين الوعر ما قبل الغيب ، ثقل الوحدة ، السعى الى الصحب .

فترة نائية ، منقطعة ، منبثة ، عمر مكتمل ، معلق ، لا يمكن فضه ، أو التعلق بوشائجه ، تتمهل خطاه عند المنحنى ، يستعيد اللحظات المندثرة فى أرض يطأها لأول مرة ، لم يتخيل أنه بالغها فى هذا الاصباح المزهرية البعيدة . حتى لو أنها تسعى الآن فى مكان ما ، فهى ليست موجودة بالنسبة له ، يتعلق باللامرئى ، وينتشى بالخواء ! يتوقف ..

انه فى مواجهة بوابة حجرية ضخمة تتوسط الطريق ، تقسمه نصفين ، أشبه بقوس نصر ، لكنها ليست كذلك ، لا تؤدى الى شيء ، من فراغ الى فراغ ، كل الأبواب تؤدى الى حيز محدود ، عدا تلك ، فمن أين الدخول ، والى أين الخروج ؟ حجارتها بادية ، مستطيلة ، صفراء ، لون مختلف عن الوردى الغامق الذى يوحد مبانى المدينة ، عددها سبع ، أسهم صغيرة تشير الى مواقعها فى الخرائط والنشرات السياحية ، الغرض من بنائهـــا مجهول ، خاصة أنه لا توجد لوحات تذكارية ، أو أى اشارة تحدد تاريخا أو زمنا بعينه ، لانقوش أو حروف أو نحت ، بوابات صـــارمة ، العارضة العلوية شبه مثلثة ، أطلق عليها السكان أسماء من خلال المعايشة والموقع ، تلك التى مر بها اســـمها « الجامعـــة » ، أما البلدية فترقمها وتعتبرها من الآثار العتيقة التى يمنع المساس بها أو البناء بجوارها ، ويقال أن ثمة خطة للتنقيب عن أسرارها ، لكنها لم تتم بعد .

للمدينة أربع بوابات رئيسية تتخلل السور القديم ، لاتزال بعض أجزائه قائمة ، كل منها تواجه احدى الجهات الأصلية ، منها

تمتد الطرق المؤدية ، وضع أساسها الفلاسفة ، أما البوابات الداخلية السبع فمجهولة المنشأ ٠

يمضى متمهلا ، مسرورا لفرصة المشى المتاحة الآن ، فى موطنه لايمكنه ذلك ، الانشغال دائم ، والارهاق واقع ، أحيانا يمضى اليوم بدون خلوة الى ذاته ، واذ يستعيد أيامه المتتالية لا يلمح حدثا بارزا ، أو أمرا ذا خلاصة ، فيضيق بالرتابة ، وذهاب الأويقات سدى ، يتسع الطريق ٠٠ فيستعيد ساحة فندق قديم اعتاد أن يمضى اليه طفلا بصحبة والده ، ليلتقيا بالقادمين من البلدة النائية ، وبعض الرواد الذين ارتبطت بهم الوشائج وأصول الصحبة ، لماذا تذكـر هذه اللحظات النائيــة الآن ؟ ماذا استثارها ، وما الذى استدعاها ؟ ٠ يعجب لقانون الذكرى ، لماذا تفد لحظة دون أخرى ؟ ، ترد عليه شوارع فى مدن عديدة نزلهـــا ، أنه يمضى متمهلا ، مستكشفا مدينة جديدة ، ربما لن يبلغهامرة أخرى ، ولكنه يطلع فى الوقت عينه على مدينة أخرى تمتد داخله ، من شظايا أماكن أقام بها مددا متفاوتة ، مدينة تواتيه ، تفاجئه فى أى لحظة فتطلعه على شىء من مكنونها ، ثم سرعان ما تحتجب ، الأماكن الحقيقية تلك التى يقدر على استعادتها ، أو تسترجعه هى ، حتى وان نأى عنهـــا وابتعد ، ما يمر به الآن ، يراه من موقع لحظة آتية ، قد يبلغها ، فما الذى سيبقى ٠ وماذا سيمثل ؟

هذا سور حجرى ، ينتهى بقضبان حديدية ، متعانقة ، تتخلله أبراج حجرية تنتهى بقباب صغيرة تتوجها نجوم خماسية مشرعة ، تمتد حديقة من حشائش خضراء ، زاهية ، درجة صافية من اللون الأخضر ، كأنها غسلت للتو بالطل ، بعد صفين من أشجار نحيفه ، مورقة ، يبدو المبنى الرئيسى لادارة الجامعـــة ، قديم ، مهيـــب الحضور ، له وطأة ورصانة ، لا يمكن الاقتراب منه الا على مهل ، بتأن ، وثمة رهبة حذرة ٠

لا يؤدى المدخل الرئيسى مباشرة الى الدرج الرخامى ، انما الى ساحة فسيحة مربعة ، تطل عليها نوافذ مكرورة ، متشابهــة ، لوحات عديدة للاعلانات ، أوراق شتى ، أبيض ، أصفر ، بطاقات ملونة من ورق مقوى .

محاضرة بالمدرج الثانى حول طرق تدوين التاريخ الوسيط .

دعوة لحضور جماعة مناهضة التفرقة العنصرية يوم الثلاثاء .

أمسية شعرية ينظمها الطلبة الوافدون من الغرب .

اعلان عن فقد حافظة نقود بداخلها أوراق هامة .

دعوة أساتذة الدراسات العليا لبحث التطورات المقرر اتخاذها من جانب البلدية بخصوص الحد الغــربى لكليــة الدراســات العلمية .

اضراب يوم السبت لمدة ساعتين احتجاجا على تركيب سقف كهربائى متحرك لمسرح المدينة الصغير بدلا من السقف التقليدى .

دعوة للتبرع بالدم فى المستشفى الجامعى .

بيان من الجماعة المؤيدة للثورة الفلسطينية .

على اللوحة المجاورة لافتة وحيدة مكتوبة بلغة تقليدية حول المؤتمر الذى جاء مدعوا اليه ، الأول فى سلسلة تنظم على مدار السنة بمناسبة مرور تسعة قرون على تأسيس الجامعة .

قائمة المدعوين ، يقرأ الأســماء التى تسبقه والتى تليه ، أمامه وقت . حوالى ساعة ويبدأ الاجتماع الافتتاحى ، نصــحه المغــربى بالتزام الحذر ، فى لهجته ، نظرته عنــد مصافحته ، شىء ما غير مريح ، كيف لم يلحظه فى آنيته ؟ ، ربما غشاوة النبيذ الجيد ، يخفى المغربى أكثر مما يظهر ، يومىء ولا يكسر . يرجىء

جولته بالحديقة وفرجته المتأنيــة على المبنى ، لابـــد من تسجيل اسمه ، حتى الآن كأنه لم يصل بعد ·

في المدخل أبدى الظلال ، المثقل بانبعاثات أعمدة الرخـام الخفية توقف · منضدة مستطيلة · مغطاة بملاءة بيضاء · تدون أوراق وتفتح ملفات وتراجع بيانات ، كتب مصفوفة ، وكوب من خزف تطل منه أقلام ، عندما انحنت بدا ردفاها ممتلئان رغم نحول قامتها ، حافة سروالها الداخلي ، اعتدلت فتلفتت ، تداركت أمرا يجهله فأومأت مشيرة بأصبعها ، عيناها فسيحتان ، تطلعت اليه مبتسمة ، تستمهله حتى تفرغ ، يتخيل ملامحهـــا في لحظـــات الخصوصية ، عند العناق ، بعد اجتياز بوابه عالمهـــا الحسي ، لم تلفت نظره أنثى الا رآها بعيني عقله عند انطلاق أســـارها ، وانفلات عقالهـــا ، كل منهن كون صـــغير مختلف ، الأصـــوات لا تتشابه ، كذا الغنج والرهز ، وفي ذروة الاندماج ، يتبدل الوجه الفتى أمامه الى ما سيكون عليه بعد الطعن في السن ، والامعان في الشيخوخة ، بل يكاد يتلمس الهيكل العظمي الذي سيتفكك ، ويتذرى ، طاويا كل ما ضج حوله يوما من أشواق ، وآلام ومتذات لاتبقى ·

تقبل عليه ، تبدى ودا وظيفيا ، الا أن ثمه مسافة غير منظورة تفصلهما ، تتأمل جواز سفره ، تقلب صفحاته ، تنقل بيـــاناته المكتوبة باللغة الافرنجية · تقدم اليه وريقات أربـــع لابد أن يخطها بنفسه ، عديد من الاستفسارات ، تاريخ الميلاد ، الجهة ، جامعة التخرج ، سنته ، البلاد التي زارها ، الدرجات العلمية ، الحالة الاجتماعية ، هل زار المدينة من قبل ؟ هل يشكو أمراضا معينه ، اذا سبق له المجيء ، فأي جهـــة كانت الداعيـــة ، الجامعـــة أم البلدية ؟

عندما تقدم الى سفارة الدولة للحصول على تأشيرة الدخول ، ملأ استمارة مشابهة تماما ؛ اجراء مكرر ، فيما بعد علم أن السفارة لاترسل البيانات الى الجامعة ، انما الى البلدية . لأن الضيف سينزل المدينة ويقيم بها ، الأمن يتبع البلدية ، به قسم خاص بشئون الأجانب الوافدين سواء لفترات قصيرة أو طويلة ، متصل مباشرة بادارة الهجرة الاتحادية التابعة لوزارة الأمن ، وتعتبر من أقوى الوزارات نفوذا ، ويتولاها عادة أحد عتاة الحزب الليبرالى الحاكم .

عندما مدت البطاقة المغلفة لم ينتبه ، كان يستعيد البوابة الحجرية ، قيامها الغامض فى الطريق ، ظهورها المفاجىء . سيحاول رؤية البوابات الست ، ينزل المقابر الفرعونية ، الأبواب الوهمية ، أحقا كانت لمجرد تضليل اللصوص ؟ ، والأم تؤدى ، أو ترمز ؟ ، هذا محير ، دائما تؤدى الى شيء ، لكن .. هذه ، ما الغرض منها ؟ يتأمل البطاقة . مدون عليها اسمه ، درجته العلمية ، وتخصصه ، توقيع مدير الادارة ، وقائد الحرس الجامعى . لاحظ نقاطا سوداء بارزة غير متساوية ، تتصل مباشرة بمركز الحاسب الآلى فى البلدية ، اذا اعترض طريقه أى حارس أمنى ، فلابد من ابرازها . عندئذ يضعها فى جهاز صغير به شاشة ، يضغط رموزا معينة ، عندئذ تظهر كل المعلومات المطلوبة ، لكن الاطلاع عليها لا يعنى عدم طلب جواز السفر ، خاصة بالنسبة للأجانب ، وهو هنا أجنبى .

البطاقات حديثة ، تعميمها لم يتم الا بعد جدل علنى عنيف ، اعتبرتها الجامعة مساسا بحرية الانسان ، فالمعلومات الجديدة ليست تقليدية ، انما تشمل الحالة الصحية ، والأحوال النفسية ، والمزاج الجنسى ، والقدرة على الجماع . هكذا يمكن لأى جندى الاطلاع فى لحظات على أدق الشئون الانسانية . صحيح .. هناك

قسم خاص بادارة الأمن يهتم بالشئون الداخلية · لكن أفراده غير معروفين ، والمعلومات فيه غير متاحة الا لأهل الاختصاص ، صحيح أيضا ما تردد عن امكان الوقوف على بعض الأسرار مقابل رشوة مرتفعة ، لكن لم يتم هذا الا فى أطر محددة ، ومقابل مبالغ باهظة يعجز عن دفعها سائر الخلق ، أما البطاقات فتجعل صفحة كل انسان مكشوفة ، مباحة ، وهذا صعب ، يتنافى مع الدستور القائم ، وحقوق الانسان التى أقرتها الأمم المتحدة ·

قاد رئيس الجامعة الحملة ، ونظمت اضرابات عديدة ، ورفعت اللافتات الاحتجاجية فوق مبانى الكليات والمعاهد · وعقدت مؤتمرات صحفية ، ونظمت مسيرات ، لكن رئيس البلدية تصدى بحزم صارم ، أعلن أن الاحتجاج موجه فى جوهره ضد السلطة الاتحادية ، وهذا مخالف للمادة السادسة من الدستور ، وأكد أنه سوف يتصدى لأى مسيرة تتجاوز الأسوار الجامعية ، وقال انه تم تزويد الحرس ببنادق آلية تطلق رصاصات مطاطية تصيب الانسان بجروح غير قاتلة لكن من الصعب مداواتها ، واتبع تصريحاته بحضور تدريب لاطلاق هذه الرصاصات جرى فوق تل الفلاسفة المشرف على الحد الغربى ، ويقال أن الأربعين نزلوا عنده ·

جرى تنظيم حملة مضادة ، أوضح خلالها ضرورة استخدام تلك البطاقات ، خاصة مع تزايد أخطار الجماعات الارهابية ، ونمو قوى المعارضة السرية · عمت البطاقات · ولم يستثن الغرباء ، وكل من تزيد مدة اقامته على ثلاثة أيام ، تقول الفتاة أنها لا تغنى عن ضرورة الاحتفاظ بجواز السفر ، هذا متبع مع سائر الأجانب

وما هو الآن الا عابر ، هل رمقته الفتاة بنظرة ود خاصة ، مصادفة ، أو قصد ؟ ، لم يدر ، انما جاوب التحية بأحسن منها ، يمضى صوب السلم العريض ، مستنفرا بهجة غامضة ، متأبطا الحقيبة الصغيرة التى تسلمها ، أوراق المؤتمر وبيانات ومعلومات ارشادية ، ولسبب قديم غامض كنهه ، تساءل ، أين سيكون فى مثل تلك اللحظة ، العام القادم ؟

خـلافات اجرائيــة ..

.. حميمية البدايات ، مجاملة ، حذر ورغبة فى سبر كنه الآخرين ، ما يترتب على دنو أطراف تلتقى أول مرة . كل جاء من مكان قصى ، لأيام متتالية ســتتكرر اللقــاءات صـباحا ومساءا ، اعتادها ، يتبادل العناوين وأرقام الهاتف ـ يمضى متأثرا بلحظات الافتراق ، بعد الأوبة يختفى هذا وبعده ذاك ، تفقد الملامح ، تتبدد الخصائص ، تتداخل القسمات ، ما يتبقى شظايا ، أثر عودة أحدهم الى بلده فى أقصى أمريكا الجنوبية ، أرسل اليه بطاقة يتمنى فيها عاما جديدا ، سعيدا ، وسطرا علق بذهنه يقول فيه ان المسافات قصية ، ولكن اللقاء ليس مستحيلا ، كان أسمر البشرة ، ودودا دائم الابتسام ، والحديث عن طفله الوحيد ابن العامين ، أنجبه بعد عسر طويل ، كان شرقى الحضور والمودة ، يتوافد أعضاء المؤتمر ، يبدى بعضهم الرغبة فى القربى ، يعرف أسماء بعض المشــاركين فهم من أجل الاختصاص ، رجل طويل ذو لحية طويلة مدببة ، يميل منحنيا ليقرأ الاســم المكتوب على البطاقة المعلقــة الآن على صدره ، يعتدل واقفا ، يهز رأســه مرات ، يقف البعض قرب

المدخل ، عشرون دقيقة مضت على موعد الافتتاح ، لم نبدا الجلسة بعد ، علق أستاذ أكاديمي قصير القامة ، دائم الحركة ، قال انها علامة غير جيدة ، أشار الى أهمية انضباط المواعيد ، وعندما فتح الباب الشاهق · المؤدى الى فراغ مؤطر رخيم ، فيما بعد تكشف سبب التأخير ، اذ وقع خلاف ، بسببه ترتيب الجلوس فوق المنصة ، من ·· الى يمين والى يسار رئيس الجامعة ؟ ، التقاليد غامضة ، المناسبة تحل كل قرن زماني ، الرجوع الى آخر احتفال غير مجد . كان الواقع مغايرا ، لم يمض على اعلان الدولة الاتحادية زمن طويل ، كان نفوذ المؤسسة الدينية راسخا قويا ، هذا ضعف خلال السنوات الخمسين الأخيرة التى تم فيها فصل الدين عن الدولة ، لهذا لم يكن أى احتمال لدعوة أحد رجال الدين للجلوس فوق المنصة ، حدد مكانه فى الصف الأول بين المقاعد المخصصة لعمداء الكليات النظرية ·

بدأت المناقشات ليلة أمس ، وبلغت درجة الحدة فى بعض الأحيان ، حتى حسم الأمر بقرار شبه جماعى ، أن يخصص المقعد الأيمن لممثل السلطة المركزية ، أما اليسار فللضيوف ، اذن ·· من ؟ · المحليون أم الأجانب ، اتفق على الوافدين من الخارج ، اذن ·· كيف يتم الاختيار ، من الغرب ، من الشرق ؟ ، من العلماء ، من الأدباء ؟ ، من الكتاب الدارسين ، أم الصحفيين أم المبدعين ؟ ، من ذوى المكانة أم من ذوى الذيوع والانشاء ، أم من الحاصلين على جوائز معترف بها ؟ ان أى خطأ غير مقصود ربما يؤدى الى انسحاب البعض ، أو تقديم احتجاجات من السفراء فوق العادة المعتمدين فى العاصمة المركزية ، تم الاتفاق على تخصيص المقعد لممثل منظمة التربية والعلوم والثقافة العالمية ، كان يونانيا معدنى الصوت ، متوسط القامة ، غليظ العنق ، طويل شعر الرأس ، فى عينيه تعبير مقيم عن الألم أو الشكوى من شىء ما ، دائم التطلع الى

السقف ،محب لاطالة الحديث ، خاصة عند التعقيب ، أو تقديم الاقتراحات ، والاشارة بأصبعه الى غير ذى قصد ٠

هكذا ٠٠ تم تفادى دعوة رئيس البلدية للجلوس الى يمين رئيس الجامعة كما جرى قبل ثلاثة قرون عند الاحتفال بالذكرى المئوية السادسة ، فى السابعة وقع أمر لم يتكرر على امتداد التاريخ المعروف ، كان رئيسا البلدية والجامعة شخص واحد ، استثناء لم يحدث من قبل ولا من بعد ، لم يستمر أكثر من ثمانية عشر شهرا ، عندما أصبح صعبا عليه تسيير دفة الأمور فى الناحيتين ، وعدت هذه التجربة من المستحيلات التى لا يمكن تكرارها ٠

ترتب على عدم دعوة رئيس البلدية الى المنصة الرئيسيه . أن الصحف الثلاث التى تصدر فى المدينة ، والمعبرة كلها عن وجهة نظر البلدية تجاهلت الاحتفال ولم تردد أخبـاره الا فى صفحة الحوادث المحلية والجرائم وبعض الاعلانات الخاصة بالمدينة ٠ أما مراسلو الصحف الرئيسية فى العاصمة فيبدو أن علاقاتهم ومصالحهم مع البلدية ألزمتهم نفس الموقف ، وزير السياحة الاتحادى أبدى قلقه من موقف البلدية ، خاصة بعد منع الملصقات الجامعية من شوارع المدينة ، عدا الأجزاء المحددة بالبراميل الحمراء ، قال ان فرصة ضاعت لا تتكرر الا كل قرن مرة ، كان ممكنا استغلالها بحيث تحدث ردود فعل قومية ، كان ممكنا تدفق آلاف السياح على المدينة ، وحضور الاحتفالات خارج أسوار الجامعة ، والفرجة على موكب الأساتذة بالملابس التقليدية ، لكن للأسف لم يحدث هذا ٠

جانب آخر آثار جدلا ، فطبقا للتقاليد المدونة يتم اخراج المقعد الرئاسى من المخزن مرة كل سنة ، أثنـاء الاحتفال بتخريج

طلبة الدراسات العليا ، عمداء الكليات النظـرية رأوا أن ظهوره يعنى اخلالا بالنظم المرعية ، لكن عمداء الكليات العملية أصروا ، وأبدوا دهشتهم ، ليس معقولا اخراجه فى الحفل السنوى ، وفى الحفل المئوى الذى لن يشهد كل المشاركين فيه الحفـل القادم يتم أخفاؤه ، هكذا انتهوا أخيرا الى فتح المخزن وحمل المقعد منه مباشرة الى المنصة ٠

اغفاءة قسرية

.. قرب نهاية الجلسة ، هما عليه وجد ، اذ حيل اليه أنه مفارق لدياره منذ حقبة طويلة ، لم يستطع تحديد عمقها ، لكنها قديمة ، ذات عمق ، تحوى بعدا قصيا ، مع أن ما أمضاه هنا يعد بالساعات ، سواد ليلة وسويعات نهارية ، فلماذا الاقصاء وشحط المدة ؟ داخله ثقل يستعصى على الفهم ، ويصعب على الاحاطة ، ما مصدره ، ما سببه ؟ لم يدر ، حاول التعلل بهذا السبب أو ذاك ، مثلا .. عتاقة المدينة ، واجهاتها الوردية المتشابهة والأبنية التى تشربت ما يكفى من الوقت ، الأقواس المتوالية ، المتصله ، توحد أطراف المدينة بمركزها ، كأنه ينتقل من فناء الى فناء ، أو من حجرة الى أخرى فى بناية هائلة مفتوحة على الفضاء اللانهائى ، ولأنه اعتاد السهر ، كان يجثم عليه ضيق بعد انتهاء العشاء فى المطعم القريب من الفندق ، خصصوا للضيوف قسما منه ، قدموا لكل منهم عددا من البطاقات ، كتب فوق بعضها : غذاء والأخرى : عشاء . أحصى ما تبقى ، ست فقط ، بقى .. ثلاث ليال فقط ، فى بداية اليوم الرابع يركب قطار العاشرة وخمس وعشرين دقيقة ،

يصل العاصمة ، يمضى ليلة لا غير ، ثم يقلع ، يضيق الآن بالترحال ، خاصة مالا يحدد وقته ، ولا يختار جهاته ، أسفه الممزوج بالحنين الى أيام نأت اشتاق فيها الى رؤية ما وراء الديار ، أماكن لم تقع عيناه عليها ، ومدن تختلف كل منها عن الأخرى ، لا تتشابه . لكن .. ألا يبدأ توقه الى التغرب بعد عودته ، استقرار اقامته ؟ ، لم يلزم جانبا بعينه ، يحن فى ثباته ، وفى خروجاته ، كل هواجسه تشب خلال السنوات الأخيرة ، لا يدرى متى بدأ بالضبط خوفه من اغماض عينيه الى الأبد فى أيام غربته ، تتوالى على ذهنه المكدود تفاصيل ما بعد فناء وجوده ، العثور عليه فى الفراش ، الاجراءات التى ستتبع ، نقل الجثمان ، مكان المواراة ، وقع النبأ على من يعرفونه ، على ذوى القربى الذين انقطعت أو وهنت صلاتهم به ، ثم بدأ النسيان وتدرجه حتى اكتماله ، يذكر قولا قديمـــا ، بنيت الدنيا على نسيان الأحبة ، وما المدينة ـ التى يسمع الآن صوت رياح شديدة ، استثنائية ، فى غير موعدها ـ الا درجات ، وزوايا من النسيان ، تتلاشى من فترة الى أخــرى ، فلا تمت العناصر الى الماضى بقدر ما تنتمى وتنسب الى الحاضر الآتى ، حتى ما يتعلق بالفلاسفة الأربعين ، أو ما سيروى عنه اذا فاجأته المنية أثناء رقاده أو خلال حركته فى أيامه المعدودات تلك .

خواطر لا يقدر على دفعها ، وأخيلة لا يمكنه تبديدها ، وعندما اضطر فى احدى الليالى لبلع نصف قرص مهدىء حتى يرحل الى النوم . بدأ عند صـــحوة أسى ، ومرثيـــة منــه اليـــه ، وكأنه مالك بن الريب ، الذى رثى نفسه حيا ، قبل أن يرقبه الآخـــرون ميتـــا .

مع رحيله يبدأ توقعه لتلك الهواجس ، حتى رقاده فى الفراش يتغير ، يتكوم ولا يتمدد ، يتحفز لصد أذى البغتة ، كثيرا ما يشق عليه الهجوع ، فتطلع عليه شمس نهار جديد بدون اغفاء ولو يسيرا ،

يحاول استعادة ملامح المدينة عبر الجزء الذى يقطعه مشيا ، عند انصراف الجمع رأى الفتاة النحيلة واقفة أمام عربة سياحية ، أشارت بيدها تدعوه ، أومأ الى الطريق ، يفضل المشى ، هزت رأسها مرات سريعة ، متعاقبة ، بدت رشيقة ، واثقة ، عذبة النظرة ، ولى وعنده بهجة خفية وحنين الى أوقات لا يثق تماما أنه عاشها ٠

تنفذ المدينة اليه داخل حجرته المغلقة ، فتلغى تشابهها بغرف أخرى نزلها فى بلدان متفرقة ، يلاحقه ثقل فراغهـــا ، وغموض برجها ، وتوالى الاقواس الحجرية الذى يمنحها بعدا دينيـا ، كأن معبدا غير مسور ، غير محدد يتوزع عليها وينتشر فيها ، الليـــل طويل ، يؤكد ضرورة اســتبعاد النفار بينه وبين الأبنية والطرقات والنواصى ، أن يحاول رؤية ما لم يره خلال الأيام القليلة المتبقية ، خاصـــة البوابات السبع ، دائمـا قبل اقدامه على الرقاد يمتلىء بالمشاريع ، تتعاظم عنده النوايا ، وأحيانا الرغبة فى مضاجعة من لم يعرفهن بعد ، أو يستعيد لحظات متعة مندثرة ، وعند صحوه يتبدد كل أثر ولا يقوم أمامه الا السعى ، لعل وعسى !

يؤدى أفعـــاله الطقوســية متمهلا ، تلك حافظـــة نقوده ، أما جواز سفره فدائما الى جواره ٠ فى المتناول ، كذا كوب الماء الذى يبقيه على مقربة خشية ظمأ يحل ليلا لايبقى الا خفقة قسب أثر استعادة لحظات توهج شاردة ، والتماس الرقاد ، والعبور برفق هين من صحو وتبدد الى غبوق واستكانة ٠

بنـايات ..

.. يرن الهاتف ، جرس قديم ، ينبه بحدة ، فكأنه نذير . المغربى يتحدث ، قال انه علم بخلو وقت ما قبل الظهيرة ، ويقترح جولة بالمدينة ، أبدى شكرا ، سيطلعه على ما لا يعرفه ، فى العاشرة تماما جاء ، نشطا ، أنيقا ، يرتدى قميصا خفيفا يبرز ملابسـه الداخلية ، يحيط معصمه بسوار ذهبى حفر عليه الحرفين الأولين من اسمه ، بدهشة لاحظ شاربه المنمق ، هل رآه أمس ؟ ، ليس متأكدا ، جلس الى جواره ، قال ان المدينة لا توحى بحجمها الحقيقى لمن يصلها بالقطار ، لكن بالطائرة يمكن ادراك مدى اتساعهـا ، المطار على بعد أربعين كيلو مترا من المركز ، تلك مسـافة كبيرة نسبيا ، المدينة اقليمية ، عندما فكروا فى اقامته أصرت الجامعة على اطلاق اسم أحد علمائها عليه باعتبار الجامعة أساس المقاطعة ، وأهم مؤسسة تعليمية وثقافية فى البلاد كلها ، لكن البلدية قاومت واعترضت ، هدد رئيسها بالتوقف عن تقديم أى مساعدة ، وقانون الادارة المحلية يمكنه من ذلك ، هنا قررت الحكومة الاتحادية انشاء المطار فى منتصف المسافة بين المدينة والبلدة التالية جهة الشمال ،

وتشتهر بقنوات المياه والمصنوعات الخشبية المكسوة بالفضة ، يقصدها السياح للفرجة والتسوق ، قال المغربى لو اتسع الوقت سيصحبه لزيارتها ، ان شوارعها الفرعية مائية ، أغرب من البندقية ، ومن البصرة ، أما جسورها العتيقة فتعد منشآت فنية رائعة ، كذلك أعمدة الانارة ٠

قال انه سيغادر بعد يومين ، الوقت المتاح قصير ، قال المغربى ولماذا العجلة المدينة بها الكثير مما يجب رؤيته ؟ قال انه مضطر للعودة بسبب ارتباطات عديدة ، ثم أنه لا يشعر بضرورة للبقاء ، للمؤتمر طابع احتفالى ، وليس علميا ، تساءل المغربى عما اذا كانت الخلافات بين البلدية والجامعة واضحة ؟ ، قال انها تبدوكذلك ، وبالتأكيد لاحظها قبل غيره بعد ان نبهه اليها أثر وصوله ، انها واضحة فى كل الجزئيات ٠ حتى فى توائم الطعام ٠ المطعم المخصص للضيوف يعلن أنه ينفرد بتقديم الوجبات الجامعية ، يرجع مؤرخو الجامعة عناصر تكوين الأطعمة الى الطلبة الأوائل الذين جاءوا من مسافات قصية وحملوا معهم تقاليدهم وأمزجتهم ، اعتادوا الطهو فى أماكن اقامتهم ، ثم بطل ذلك بعد تشييد المطبخ الرئيسى الذى أقيم على نفقة الأثرياء ، وهذا سبب يقوله رجال البلدية ، اشارة الى دورها فى انشاء الجامعة وتدعيمها ، فهؤلاء الأغنياء من أهالى المدينة ، ولولا تبرعاتهم لما نمت الجامعة وتطورت ، المطبخ الجامعى اشتهر باعداده وجبات لكل الطلبة ، وكانت لوازمه مشهورة بضخامتها ، حتى قدرت فى القرن الحادى عشر مثلا بمائة رأس غنم ، وخمسمائة رطل سمن ، وثلاثة آلاف من الطيور ، وطنين من الخضار ، ومثلهما من الفاكهة ، الى غير ذلك من دقيق وسكر وتوابل ، لكل طالب راتب معين يوميا ، وفى البداية أكل الأساتذة من المطبخ ، لكن فى القرن الثالث عشر خصص لهم آخر ، ومعظم الوجبات التقليدية مرجعها طعام الأساتذة الذى بلغ درجة عالية من الجودة ، بعضهم وضع مؤلفات فى كيفية اعدادها وفوائدها ، فثمة

مأكولات مقوية للباه ، مدرة للمنى ، وأخرى تعالج أمراضا بعينها ، وثالثة تشحذ الذهن ، وتذهب بضيق الصدر ، أغرب هذه المؤلفات كتاب وضعه أستاذ في الكيمياء ، ذكر فيه أطعمة تحوى ألوانا من اللحم بغير لحم ، وكبد مقلية بدون كبد ، وعجة من غير بيض ، وثريد بدون خبز أو أرز ، وحلوى بدون عسل أو سكر ٠٠٠٠ يضحك المغربى ، يقول ان هذه معلومات جديدة بالنسبة له ، يصمت لحظات ثم يقول ، ان الخلاف أخطر مما يتصوره البعض ، وانه أشق ما واجهه عندما نزل المدينة منذ خمس وعشرين سنة ، لكنه مع الزمن أصبح يفهم كلا الطرفين ، يقول انه على علاقة جيدة برجال الحكومة المركزية ، ما من وزير يجيء الى المدينة الا تناول الغداء أو العشاء في بيته ، انه الوحيد الذى يمكنه جمع رجال البلدية والجامعة فى مأدبة واحدة ٠

يصغى صامتا ، حتى الآن لا يعرف شيئا عن طبيعة نشاطه ، لماذا يقيم هنا ؟ ، رجل أعمال ، لكن ٠٠ أى أعمال ؟ لم يفصح ولم يفسر ، ومن ناحيته لم يرغب فى الاستفسار ، يقين خفى عنده أنه لن يراه مرة أخرى ، ثمة أسباب غامضة يستمد منها نفوذه ، لكنه لم يستطع تخمينها ٠ يحيد بصره ، يرى جانب وجهه الأيمن ، يزداد يقينا بغموضه ، أنه يخفى أكثر مما يظهر ، ظل ابتسامة ساخرة على وجهه ، ما محور السخرية ؟ هل تتعلق به ؟

تسرع العربة ، الطرقات ضـيقة ، المرور فى اتجاه واحد ، تنتهى الأقواس الحجرية ، لكن على الجانبين تتوالى أعمدة المصابيح ، قديمة الطراز ، على مسافات متقاربة ، تبدو من بعيد متجاورة ، تعرض متاجر العاديات نماذج منها ، نحيلة ، رشيقة ، حوفظ على طابعها وطرازها عبر قرون عدة ، ثمـة مصنع متخصص فى صيانة أجزائها ، واحلال جديد بدلا من التالف منهـا يدور حـول سـاحة مربعة ، تتوسطها نافورة تنفث الماء بتؤدة ٠ عند بداية شارع متسع

نسبيا ، مبنى رخامى قائم على أربعة أعمدة تعلوه بقايا قبة · أحد الأضرحة التسعة والثلاثين ، فيه يرقد واحد من الفلاسفة ، بالرغم من عدم اكتشاف قبر كبيرهم ، يطلق سكان المدينة على كل ضريح « مثوى السيد الأربعين » ، يؤمنون أنهم حماة المدينة ، والذابين عنها كل شر ، يرجعون انحسار الطاعون بسرعة زمن الوباء الأعظم الى بركتهم ، يقول المغربى ، البعض يردد همسا ان عددا منهم أقيم على فراغ ، أو دفن فيه مجهولون ، عابرون ، وربما بعض المجرمين العتاة الذين صلبوا ، أو قطعت رقابهم فى عصور بعيدة لقتلهم بشر لا حصر لهم ، أو لهتكهم أعراضا ، لكن لا يمكن الجهر بذلك فى مدينة تخرج كلها ذات يوم معين فى كل سنة لتضع باقات الزهور على الأضرحة فى ذكرى نزولهم موضع المدينة ، وعند البوابات السبع تحية لكبيرهم الذى ما زال مرقده مجهولا ·

يتجه يسارا ، تتقارب المبانى ، تتضام حتى ليصعب تحديد الفواصل بينها · يطلب المغربى منه التطلع جهة اليمين ولكن ·· بحذر ، ميدان كبير يتوسطه مبنى ممتد ، ضخم ، من ثلاثة طوابق ، لكنها على الطراز القديم ، مرتفعة ، نوافذ مستطيلة ، مغطاة بقضبان حديدية سوداء متعرجة ، تتلاقى عند المنتصف تماما حيث زهرة معدنية صفراء ، الزجاج مسدل عليه ستائر بيضاء ، لسبب ما خمن الطابع الرسمى للمبنى ، يوحى بالسرية ·· نتشابه أجهزة الأمن ، وان بدا هذا ثقيل الوطأة ، مهيمنا طاغيا على ما عداه حتى ليتجاوز حدوده المادية الى سائر الأطراف ·

فعلا ·· لم يخب ظنه ·

يقول المغربى ان هذا المبنى يعتبر أخطر المقـار فى الناحية كلها ، من داخله يمكن رؤية كل شىء ، برغم ارتفاعه المحدود ، أنه الفرع الرئيسى لادارة الأمن الاتحادية ، يتبع العاصمة ، مديره يعين بقرار رسمى ، علوى ، لكن ثمة علاقة قوية بالبلدية ، رئيسها له مكتب داخله ، لكن متى يتردد عليه ؟ أى واجبات يقوم بها على وجه الدقة ؟ ، هذا كله غير معروف حتى ·· لذوى الاطلاع ·

البناية ، وما شابهها ٠٠

٠٠ يقال أن شيخا جليلا مر بفخ منصوب ، واذا بطائر قريب منه ، فقال الطائر ، أيها الرجل الطيب ، هل رأيت أقل عقلا من هذا الصياد ، نصب هذا الفخ ليصيدنى فيه ، أنا لن أطير ولن أقع فيه ، مضى الشيخ الى قصده ، قضى حاجته ، وعند عودته رأى الطائر واقعا فى الفخ ، فقال : عجبا ! ، قال العصفور ، اذا جاء الحين ، لم يبق أثر ، ولا عين ٠

لماذا تطفو هذه الحكاية الى سطح وعيه ؟ يستعيد تفاصيلها لكنه لا يقدر على استرجاع مصدرها ، أين قرأها ؟ متى سمعها ؟ لا يدرى ، ربما خشية غامضة من ظرف قد يؤدى به للتعامل مع هذا المبنى الغريب ، لكن ٠٠ ما علاقته به ، صحيح أن اسمه أدرج فى حيز ما داخله باعتباره ضيفا حل ، وكما تقضى النظم لابد من تسجيل كل العابرين ، للمبنى صلة وثيقة بتاريخ البلاد ، اذ يرجع تاريخ جهاز الأمن الاتحادى الى مرحلة الحروب السابقة على توحيد المقاطعات المتصارعة ، خلالها ظهر شخص لا ينتمى الى أهل البلاد الأصــليين ، تناقضت الروايات حول انتمائه العرقى ، فأمه من

الغرب ، وأبوه من الشرق ، وجده لأمه من الجنوب ، وجده لوالده لا يعرف له أصل ، لكن من الثابت المقطوع به أن علاقته بالاجرام وطيدة ، بدأ صبيا صغيرا فى عصابة من الغجر الرحل تخصصت فى سرقة الأطفال الصغار وبيعهم لمن لا يستطيعون الانجاب ، ثم تقلب به الحال حتى أصبح من عتاة قطاع الطرق ، ورويت عنه أخبار تدنو فى كثير من جوانبها الى الأساطير ، فمن ذلك قدرته على الهرب ، حتى قيل أنه اعتقل وسجن فى كل سجون البلاد وقلاعها ، وأنه هرب منها جميعها ، فاذا كان قد سجن سبعين مرة ، فانه هرب سبعين ، لكن طرأ فجأة تحول غريب ، ماذا حدث بالضبط قبله ، هل جرت اتصالات ؟ هل تمت الاستعانة به ؟ لا أحد يدرى .

المهم . أنه ظهر فى العاصمة المؤقتة ، بالتحديد فى مقر قيادة الجيوش الموحدة التى أخذت على عاتقها مهمة توحيد الولايات المتنازعة بالقوة ، فى هذه المرحلة بدأ تأسيس جهاز الأمن الموحد ، ومما قيل عنه ايمانه أن وحدة البلاد الحقيقية لن تتم الا من خلال جهاز أمن قوى ، جاثم ، يمسك الأطراف ، ويحدد البؤرة النشطة ، مثل هذا لابد أن يقوم على جهد عتاة متمرسين ، قساة القلوب ، وبالفعل أقدم ، بذل نشاطا كبيرا لجمع أهل الخبرة ، هكذا وضع أساس هذا الجهاز الفريد ، والذى حظى فيما بعد بشهرة حتى عد مرجعا لأهل الاختصاص من كل الجنسيات ، توافد عليه رجال المخابرات الأمريكية ، والسوفييتية ، والدول المستقلة حديثا ليتعلموا منه ، ليتقنوا الأساليب المتبعة . جاء المؤسس بنفسه ليشرف على تشييد هذا المبنى ، ويقال أنه قسمه الى ثلاثة طوابق ظاهرة ، وثلاثة تحت الأرض ، وقسم كل طابق الى سبعة أقسام ، وكل قسم الى أربع ادارات منفصلة ، وموه المداخل المؤدية اليه ، حتى يمكن رؤية الداخلين اليه ، أو الخارجين منه ، لم تفتح نافذة ، ولم تهتز ستارة ، أما الأبواب الجانبية الضخمة فموصدة منذ حقب بعيدة ، حتى فى أيام الاحتفالات الرسمية أو المناسبات أو نزول ضيوف مهمين

بالبلاد ، ما من أعلام مرفوعة ، أو شارات بارزة ، فقط ، عدد لا حصر له من هوائيات الارسال والاستقبال ، بعضها مستدير ، والآخر نحيل قاتم ، وهذا الهوائى بالتحديد يتردد بين القوم أنه مخصص للتصنت على النجوم ، وسكان الحجرات البعيدة ، فى الليل ترى أضواء خافتة منبعثة من وراء الستائر ، ويؤكد البعض ان ثمة أصواتا تنبعث فى بعض الليالى ، لكن ٠٠ لا يمكن تحديد مصادرها بالضبط ، اختير موقعه بعناية ، أنه فى المركز تقريبا ، عند منطقة فارقة بين المنطقة القديمة حيث منشآت الجامعة ، والمنطقة الحديثة ، حيث المركز المالى والصناعى ، يشعر كل مقيم أو عابر بوجود المبنى ، اقترب منه أو ابتعد ، أقبل نحوه أو أولاه ظهره ، لا يحيطه أى سور أو حاجز ، فقط رصيف عرضه ربعة أمتار ، مبلط بحجر قديم ، لم يجدد ، لم تجر له أى عمليات صيانة ، مع ذلك يبدو وكأنهم فرغوا منه بالأمس ، وبرغم عدم اعلان أى تعليمات بمنع الاقتراب ، فلا يسعى انسان للمشى فوق هذا الرصيف ، ولا يقربه حتى الأطفال ، أو الحيوانات الضالة ، فكأن سلوكا خفيا يولد مع سائر المخلوقات يقضى بتجنبه والابتعاد عنه ، وعندما عمت البلاد موجة من الحوادث الارهابية ، وتم تفجير محطة القطار الرئيسية فى المدينة ، وضبطت شحنة متفجرات فى مخدع رئيس البعثة التعليمية قبل انفجارها ، لم تتخذ أى احتياطات حوله ، لم يظهر حراس ، ولم توضع حواجز كما جرى عند جميع المنشآت الحيوية ، لم تلح أى بادرة أو علامة تنم عن قلق أو خشية ، عدا ملاحظة رصدها صحفى محلى ـ ولم تنشر ـ اذ ظهر هوائى جديد ضخم عند الحافة الغربية ، يشبه شباك الصيد المستخدمة فى البحار الجنوبية ، أما أغرب ما سمعه ، فهو القول بحركة المبنى ، اذ يؤكد بعض من أهالى المدينة أنه غير ثابت ، يتحرك ، يكمل دورة كل نصف قرن ، الواجهة الشرقية التى تعلوها صورة من جص ملون لرأس المؤسس كانت جهة الغرب منذ خمسين سنة ، يؤكد ذلك بعض المعمرين ،

انه يتحرك طبقا لنظام هندسى بارع ، بحيث لا تلحظ حركته ، ولا يدركها المقيمون داخله ، أو الساعون خارجه ، تماما مثل كوكب الأرض ، يدور ولا يدرك الا العرض الناتج ، ليلا ونهارا ، أما الحركة نفسها فلا تحس ، لا توجد صور قديمة توضح الوضع . بل لا توجد صور على الاطلاق ، ويبدو أن ثمة اشعاعا خفيا ينبعث بوسيلة ما ، يفسد أى عدسة تصوير توجه اليه من بعيد ، من أى زاوية ، أما الصور الملتقطة بواسطة الأقمار الصناعية فلم تتضح بها أى معالم ، مكانه بقعة رمادية وكأنه أرض يباب .

مما يتردد أيضا من غريب القول ، اختفاء المبنى فى ليال غير محددة كل عام ، فى طقس صفو ، خال تماما من الضباب ، ولم يثبت ذلك ، أما أساتذة الجامعة وطلبتها ، فيقولون ان هذا الجزء المهيب ، الظاهر ، ما هو الا مدخل وغطاء لمساحات ممتدة تقع كلها تحت الأرض ، تضم فيما بينها سجنا غريبا ، يتسع باستمرار ، كلما ولد طفل تفتح له عدة ملفات فى أقسام مختلفة من البناء ، وتشيد له زنزانة صغيرة ، معتمة ، خالية من الفتحات ، وربما نزلها يوما .

يضمر الجامعيون كراهية للمبنى وما يمثله ، لكنهم لا يجاهرون ، فجهاز الأمن الاتحادى له منزلة خاصة فى طول البلاد وعرضها ، اذ ينسب اليه ترسيخ الوحدة الوطنية ، وفض الخلافات ، العرقية ، والطائفية ، والدينية ، والقومية ، عدا خلاف واحد استعصى فضه ، انه القائم بين الجامعة والبلدية ، انه خلاف عميق ، بدأ قبل قيام الدولة ، لم يعرف الى أى جانب يميل الجهاز برغم صلته العضوية بالبلدية ، وتداخل وتشابه بعض الاختصاصات ، لكن برغم تعقد العلاقة بين الجامعة والجهاز ، فانه من الثابت تعاون عدد من الأساتذة ، سواء فى تطوير الأجهزة العلمية الخاصة جدا ، أو البحث عن وسائل جديدة فى مجالات الاستنطاق والتمويه وكشف

المعلومات ، وهناك عدد مجهول من الأساتذة والطلبة ينقل أدق ما يجرى فى الكليات النظرية والعلمية ٠

لكن ٠٠ اذا بدا المبنى مصمتا هكذا ٠ فمن أين منافذه ؟ ٠

يقول البعض ان هناك مجموعة من المدربين تدريبا عاليا يقيمون باستمرار داخله ، ولأسرهم أماكن مخصوصة ، وأنهم كيفوا ظروفهم على الاقامة الأبدية ، وهؤلاء هم قوم الملفات . المكلفون بالنظر فى الأوراق ، والأرشيف القديم ، ورصد المعلومات ، وتصحيحها ، وتقييمها ، واضافتها ، أو حذف بعضها ، أو مضاهاتها بعضها البعض ، كذا تحليلها ، ولهم منزلة خاصة ، وعندما تمت عمليات التحديث وأدخلت الحسابات الآلية ، لم يتم الاستغناء عن فرد منهم ، بل اعتبروا هم المرجع والأساس ، فاذا حدث أى خطأ فى معلومة ما ، لا يتم تصحيحها قبل الرجوع الى الأضابير الورقية التى يسهر عليها هؤلاء ، اشتهر عنهم حبهم للعمل ، وايثارهم البقاء داخل المبنى ، وكلهم انحدروا من أجداد تخصصوا فى قطع طريق الحرير ، والاغارة على القوافل المتجهة من والى الصين ، شقوا عصا الطاعة على كل حاكم أو ذى سطوة ، وسكنوا الأماكن الموحشة ، ثم نجح المؤسس فى الاتصال بهم واقناعهم وضمهم ٠

لا يمكن القول بوجود مدخل رئيسى ، للعاملين المقيمين خارجه ، أو الذين يتم احضارهم طواعية أو قسرا ، علانية أو خفية ، هناك عدة مداخل بعيدة ، بعضها عبارة عن مبان صغيرة ، متفرقة ، لا تثير الريبة ، أو الفضول ، عائلية الحضور ، منها تبدأ ممرات متصلة ، ودهاليز متقاطعة ، وصالات أشبه بالميادين الصغيرة ، وقاعات ، وربما يصل الغريب الى صميم المبنى بدون أن يعرف ، لكن العاملين الذين يترددون عليه يوميا ٠ أو الذين يخرجون أو يدخلون فلا يعرف كل منهم منفذ الآخر ٠ لا يوجد شخص واحد يلم بكل الأقسام حتى المسئول الأكبر ، الاتحادى ، أو المحلى ، لكل طريق معروف ،

مرسوم ، لو اتخذ غيره لضل وعجز عن الوصول الى هدفه ، ولا يمكن للقوم سواء من أهل الداخل أو الخارج ، اجتياز مكان الى آخر بدون تصريح مسبق ، ذى لون معين ، مبرمج مسبقا ، لا تفتح البوابات الالكترونية الا بعد دفعه فى مكان معلوم ، أما الأوراق الخاصة بتصميم المبنى ، وخباياه فمن أدق أسرار الدولة الاتحادية ، وكلمة المبنى فى جميع لغات البلاد تعنى مضمونة والاشارة الى دوره أيضا ، لكنه ليس الوحيد الذى يلفه الغموض هنا ٠

هذا مبنى البعثة التعليمية الأمريكية ، أثار تشييده فى نهاية الأربعينيات جدلا ونقاشا فى الصحف والمجالس المحلية ، وخصصت جلسة كاملة فى مجلس الشورى لمناقشته ، يقع قرب المستشفى الجامعى القائم على تل مرتفع مكسو بالأشجار ، أول من اعترض عليه أساتذة الجامعة فلماذا تجىء بعثة أمريكية وتقيم على مقربة من أعرق صروح العلم فى البلاد ، هل يعنى ذلك الشروع فى انشاء جامعة أمريكية ؟ خاصة ان النفوذ الأمريكى فى تصاعد ، اذ انتشرت فى العاصمة الاتحادية مطاعم الوجبات السريعة ، والمشروبات الغازية ، والمحال التى تذيع الموسيقى الصاخبة ، أما المسلسلات الأمريكية فتحتل مساحات زمنية واحدة فى قنوات التليفزيون المختلفة ، وتردد ان ثمة قناة خاصة ستخصص لبث البرامج الأمريكية مباشرة ، بالطبع واكب ذلك ارتباط اقتصاد البلاد بالمعونة الأمريكية ، والدخول فى حلف عسكرى متين ٠ لكن هذا كله فى جانب ، والاقتراب من أعرق مراكز البلاد العلمية فى جانب آخر ٠ أثر تصاعد الاعتراضات هدد السفير الأمريكى فوق العادة ، انه فى حالة تعثر المشروع فلن تتدخل الحكومة الأمريكية لدى صندوق النقد الدولى للمساعدة على جدولة الديون المستحقة ، صدرت بعد ذلك تأكيدات من العاصمة الاتحادية تقول ان تمثيل البعثة سيقتصر على وجود بعض ممثلى مراكز البحث العلمى فى الولايات المتحدة لمتابعة بحوث خاصة لا يمكن اعدادها الا من هذه المنطقة ، نتيجة

لموقع المدينة الفريد بالنسبة الى زاوية ميل الكرة الأرضية ، والحق ان أول من تنبه الى هذه الخصوصية نابليون بونابرت من خلال البعثة العلمية التى صحبته خلال حملته الى الشرق ٠

المهم ٠٠ بدأ تجهيز المبنى بعد اختيار الموقع ، وتقديم تعهد مكتوب الى البلدية بمراعاة الطابع المعمارى العام ٠ ثم اسند الجانب الأمريكى العمل الى شركة مقاولات أمريكية متخصصة فى أعمال التشييد العسكرى فيما وراء البحار ٠ سبب هذا ردود فعل سلبية فى مجالس ادارات الشركات المحلية ، لكن السفير الأمريكى أقام حفلا هائلا فى حديقة السفارة الشتوية ، دعا اليه ممثلى شركات المقاولة المحلية ، المسموح لها بالعمل فى المقاطعات ، انفرد بكل منهم ، سأل عن مقدار الربح فى حالة تنفيذ البناء ، بمجرد سماعه الرقم يخرج على الفور دفترا صغيرا ويكتب شيكا مصرفيا ، مقبول الدفع ، مضمونا من بنك تشيز مانهاتن ، فرع بروكلين ، خرجوا راضين وعند معظمهم ندم لأنهم لم يضاعفوا الرقم المتوقع ، اتفقوا على نشر اعلان يهنىء الزميلة الأمريكية بالبدء ، وآخر عند الانتهاء من البناء ٠

بسرعة ، قامت كتلة خرسانية هائلة ، نوافذها مجرد شقوق مستطيلة تتسع من الداخل ، بحيث يمكن لقامة رجل بالغ الوقوف ، يرى الخارج ولا يمكن رصده أو مشاهدته ، أضيفت جدران خارجية ، تطابق رسم المبانى العتيقة ، رصدت مربعات خرسانية ضخمة ، لا تسمح الفواصل بينها الا بمرور شخص واحد بصعوبة ، اعتبرت مصدا لأى هجوم انتحارى بالعربات المفخخة ، وضع احتمال لكل خطر وارد ، مع ان المدينة لا تقع فى مثلث الاضطرابات الشهير ، لكن بعد ما جرى فى طهران أثناء الثورة الاسلامية وجب اتخاذ الحوطة ٠

كل أسبوع اعتاد الأهالى ، رؤية شاحنة ضخمة تصل فى مواقيت محدودة ، تحوى ثلاجة هائلة ، تقف أمام الباب الجانبى

بضع لحظات ، يسبب هذا ارتباكا فى المرور لدقائق ، تفتح البوابة وتزال الموانع وتختفى داخـل المبنى ، أنهـــا نحوى المأكولات ، والمشروبات والبريد الخاص ، يستغرق هذا ست ساعات كاملة ، جميع اللوازم ترد رأسا من القاعدة الأمريكية ذائعة الصيت فى البلد المجاور ، سبب هذا ضيقا لتجار المدينة ، لكن تبدو الأمور غير مألوفة عند وقوعها ، ومع تكرارها يعتادها القوم ، هكذا أصبح هذا المبنى جزءا من الواقع العمرانى ، وان استمر حضوره غامضا ، يثير التساؤل ، وأحيانا الكراهية ، وربما السخرية ·

يقول المغربى ان الفندق الكبير مبنى آخر جدير بالرؤية ، يقع قرب الحديقة اليابانية ، لكن سيحتاج هذا الى وقت ، تبقى ابتسامة على وجهه ، بين ارتسامها على فمه وزاويتى عينيه صلة ، سرعان ما تبدو تجاعيد عديدة متوالية ، ثمة شىء ما ، لا يمكنـــه الوقوف عليه ، أو تحديده ، لكنه يبقى النفار بينهما ، اعتذر بحسم عن دعوته الى الغذاء ، وعندما اجتاز بوابة الفندق ، رأى الفتاة النحيلة ، الباسقة ، من هيئة وجودها ، من لحظ تطلعها اليه ، من سمات انتظارها ، أدرك أنها تتوقعه هو بالتحديد ·

سعى مرغوب ..

.. ما من أجمل ، وأرق ، وأوحى ، واثرى بالوعد ، والدعة ، مثل أننى تهيأت للقاء ، عندما تشع مكونات حسنها الترقب ، وتشرع نقاط حوافها ، مرسلة عبيرها صوب من ترغب ، ممهدة لحلول اللحظة التى سيصبح فيها المفرد جمعا ، والواحد اثنين .

لا يستدعى امرأة ولجت عمره فى هذا المحط أو ذاك الا ورأى طلاتها الأولى فى افتتاحيات اللقيا ، وبدء لحظات التدانى ، رب علاقة تدوم سنوات ، واذ تغرب شمسها ، تتحلل عناصرها وتذوى ، لا يبقى من حميميتها الا لحظات قلائل ، ومضات تدل على جوهر حقب امتدت وظن عند اللجاج فيها أنها دائمة أبدا ، لكن تفنى التفاصيل ، وتندغم الجزئيات ، ولا يبقى ساطعا الا البداية والنهاية ، مفتتح القوس واغلاقه .

هكذا أيقن لحظة رؤيته تلك البنية الفارهة . ان هيئة انتظارها تلك ستجب ماعداها ، أنها ستبقى فى معيته ، يسترجعها فى اقامته ورحيله ، فى سكونه وترحاله . تبدو مختلفة عن تلك التى رآها

واقفة أمام المنضـدة المسـتطيلة ، توزع الملفات والشـارات ، والبطاقات ، وتبذل جهدا ، وتفنى قدرا من الطـاقة أثار اعجـاب الكافة ، حتى بادر بعضهم بعبارات اعجاب ، وأسفر آخرون عن ود ، اما هو فلزم صمت بدافع من خجل قديم لا يتبدد الا بعد الايغال فى القربى . وها هى تسعى اليه ، وتجهر صراحة ، فلم تأت الا من أجله ، تأسف لأن قدومها بدون مقدمات ، يرفع يدا معبرة عن احتجاج صامت ، لكنها تواصل القول ، حاولت الاتصال به فى الصباح الباكر ولم تجده ، ولأن ما تبقى من ساعات اليوم قليل ، وغدا الجلسة الختامية ، أما جلسة بعد الظهر فلن تحوى الا تلاوة أبحاث مطبوعة ، وزعت على المشاركين ، تبتسم دافقة عذوبة ريانة ، تقول ان من يحملها يثبت اسـبقية الجامعة على البلـدية فى تأسيس المدينة ، وتقترح عليه جولة لرؤية المعالم غير المدونة فى الكتيبات السـياحية ٠

يتبدد ارهاقه بعد صحبة المغربى ، تتلاشى رغبته فى التماس الهجوم قليلا ، حتى يبدأ ما بعد الظهر نشطا ، قادرا ، يبتسم ممتنا ، شاكرا ، يحل عنده ابتهاج ، ويخف أمره ، فما من عامل مبدد للوحدة ، للوحشة ، ليبوسة الوقت ، مثل القربى من امرأة راغبة ، مرحبة ، ما البال اذا شرعت هى ؟ بسط يده فتقدمته ، شعرها مسترسل ، مستمر حتى نتوء رد فيها مثل فكرة سلسلة ، حاذاها . فبدا جانب وجهها الأيمن ، ذو حضور خاص ، فى عينيها اختلاف . وسن متأمل فى اليسرى ، شارد ، تنفرد به ، فيضيق منها ، يوجد اختلاف غريب عجيب عن اليمنى ، لا يبدو الا اذا تطلعت اليها بالمواجهة ، ولكن يوجد المغايرة بين الجانبين الأيمن والأيسر ، فكأنها اثنين فى واحد ، أو شطران مختلفان تضاما معا ، وهذا من اندر ما رأى ، أما ملامحها فتوحى بابتسامة لا تسفر تماما ، لكنها موجودة فى موضع انفراجه شفتيها ، ومن وقت الى وقت يبدى جبينها طيفا

شجيا ، لكنه لا يقطع الأمل من ابتسامتها الخفية ، التى تبدو كوعد قائم بالرسو ٠

مضيا تحت الاقواس الحجرية ، عبرا الطريق ، وعندما أبدى ترددا لحظة اقتراب عربة خاصة ، مدت يدها الى ذراعه ، قالت ان الشباب يقود بسرعة ، يتوقفون فجأة على بعد قليل جدا من خطوط المشاه . هذا لم يكن موجودا من قبل ، سيىء هذا ، لكن ما العمل ازاء تراخى قبضة رجال المرور ؟

فى شارع جانبى ينتهى ببناء أحمر اللون ، نوافذه مغلقة ، توقفت أمام سيارة صغيرة ، زرقاء اللون ، قالت انها استعارتها من صاحبة لها الليلة الماضية ، خصيصا لتلك الجولة ، أنها لا تمتلك عربة ، تستخدم حافلة المكتب فى ساعات العمل الرسمية ، انتقالاتها محدودة جدا ، لا تغادر مسكنها الصغير الا نادرا ، مجرد انتهاء عملها تعود اليه . نادرا ما تقضى الامسيات فى الخارج ٠

تحذير هذا ؟ يقول مداعبا :

ـ ما من صاحب ؟

تلتفت اليه فجأة ، طلة موجزة ٠

ـ نعم ٠٠ عندى صديق ٠٠

بعد لحيظة ، تتابع ٠

ـ أنه فى الهند ٠٠

أوشك على مزيد من الاستفسار ، لكنه ازاء حزمها وايجازها كف ، عاد يفكر فيما قالته عن استعارتها سيارة صاحبتها خصيصا لتلك الجولة ، اذن أضمرت النيـــة من الليلة الماضـــية ، متى بدأ اهتمامها . متى أقرت شروعها ؟ ٠ كانت تبدو لاهية ، مستعصية . أما اخبارها عن صاحبها فلا يدرى كيف يقبله أو يقيمه ؟ أنه يسعى

باتجاه لحظة محددة تتبدد حواجز غير مرئية ، وتحدث الصلة ، اذا تجاوزها فلن تتحقق القربى أبدا ، بعد ساعات سيرحل ، يمضى الى مكان وتبقى هنا ، ربما لن يصيل هذه المدينة ، لن يراها ، وهذا غالب ، ربما تختفى صورته من وعيها بعد حين ، فلماذا يستثار فضوله حول صاحبها ؟ أما محاولته للاتصال بعالمها الانثوى فلها مشروعية ، ما عليه الا تلمس الأطراف والحدود ، ولها القبـــول أو الامتناع .

يركب الى جوارها ، عبيرها الانثوى طاغ ، ما من رجل وقعت عيناه على امرأة الا وشرع ، واذا لم يسفر فأنه ينوى ، ويسأل نفسه ، هل تصلح لى وهل أصلح لها ؟ فلماذا يخرج عما يدركه من الناموس ؟

لم تتردد عند لافتـــة ، أو مفرق ، طرق أضيق ، ذات اتجاه واحد ، لم يسلكها مع المغربى ، تتوالى أبواب خشبية ، ضخمة ، مغلقة ، الأرض أمامها ممهدة لدخول العربات ، علامات منع الانتظار . فى الفراغ الموحى بالسر .

تقول انه الجزء الأقدم من المدينة ، يوازى قدم الجامعة ذاتها . هنا يقيم معظم أساتذة الجامعة ، خاصة الكليات النظرية ، بعض أســاتذة الكليات العملية يفضــلون سكنى المنطقة الجديدة ، فى المواجهة بدأ بناء اسطوانى ، مرتفع ، يؤدى اليه سلم عريض .

ـ انه الحصن المشيد ..

يبدى دهشة ، أى حصن ؟ ، لم يخبره المغربى به ، تتساءل ..

ـ أى مغربى ؟

ينبئها بلقائه ، تهز رأسها ، تقول انها تعرف أهالى المدينة ، خاصة الأغراب منهم ، أو ذوى الأصول الأجنبية ، لا تذكر أن بينهم

مغربيا يطلعها على رقم الهاتف ، تقول انه سبعة أرقام ، وهواتف المدينة ستة لا غير · ربما فى العاصمة الاتحادية ·

تدركه حيرة ، لكنه يترجل مستجيبا لاقتراحها رؤية الحصن المشيد ، تحـرص على أن تتقدمه بضـــع خطوات فيتملى ، تلامس الأرض بأطراف أصابعها ، كأنه شروع فى رقص وليس خطوا ، بهفـــو ·

أين المدخل ؟ ، الجدران مصمتة ، هل سيعبر قنطرة مؤدية ، ويدرك أنه بحاجة الى أنس خاص بعد جدب طال أمده ، يتقدم عند وصولها وانحنائها أمام كوة صغيرة ، واذ تفتح حقيبتها يبادر ، متأهبا لدفع النقود ، لكنها تلوح ببطاقة ، خضراء من ناحية ، صفراء من جهته ، تقول انها تحمل تصريحا بدخول جميع الأماكن الأثرية ، والهامة ، باعتبارها عاملة فى شركة سياحية ·

أين المدخل ؟ ، الجدران مصمتة ، هل سيعبر قنطرة مؤدية ، أو الباب خفى ؟ · يفاجأ بمصعد خشبى ، قديم ، يتدلى من أعلى الحصن ، مشدود بجنازير يصدر عنها صرير ، أشبه بدولاب صغير ، ينزلق بواسـطة بكرات علوية لم يتبينها الا عند وصـولهما الى السطح ، أرهقه صعود الارتفاع الشاهق ، التأرجح ، الطء ، لم يختلس النظر الى الأرض التى راحت تنأى ، خشية دوار مفاجىء ، حتى عندما لاحت له أسطح البيوت المتجاورة ذات اللون الوردى ، متقارب الدرجات ، أما الأفق فبدا نائيا ، كان لابد من اجتياز أعلى الجدار من خلال درجات سلم ثلاث تم حفرها فى القرن الماضى ، وقفا فوق السطح الدائرى ، يبدو الحصن كله أسطوانة ضخمة من الحجر المصمت ، أما القلب فعبارة عن متاهة خفية ، معظمها لم يعرف بعد ، من ممرات ضيقة ، وأبواب حجرية ، حقيقية ، وهمية ، منافذ تؤدى الى نفس الداخل ، أبواب مستطيلة ، وأخرى مربعة أو دائرية ، لابد من اجتياز طريق تشير اليه الأسهم الفوسفورية ، تم تحديده

بواسـطة قسـم التصاميم المعمارية فى الجامعة اختصـارا لوقت الزائرين ، حتى يمكن الوصول الى غرفة الاقامة حيث تحصن واختبأ صاحب البرج ، يستغرق الوصول اليها ثلاثين دقيقة ، الا يغال فى المعمار مرهق ، تميل الممرات ، أحيـانا ترتفع ، تتقدمه المرافقة الباسقة ، رشيقة ، فتية ، تعرف التضاريس ، تحفظ الخبايا ، لا تتردد عند المفارق المتشابهة ، تبدو كينونتها المادية ، الرشيقة ، مصدرا لطاقة شابة ، متجددة ، قادرة على الامعان والتحمل ، حاول مغالبة خفقه المتسارع ، وتوالى أنفاسه ، وضيقه بالهواء الراكد غير المتجدد ، انه على مشارف كهولة ، يجتاز قنطرة فاصلة ما بين زمن الحيوية والوشك على اضمحلالها ، قتامة تتزايد داخله ، رغم ان المبنى كله صمم للهرب من المنية ، تضـليلها ، هذا سبب بناء الحصـن .

متاهة

الحصن قديم ، يرجع الى ما قبل التاريخ المدون للمدينة أو الجامعة ، ربما الى المرحلة التالية لاستمرار ذرية الفلاسفة الأربعين ، من هنا يقول الجامعيون ان أسلافهم لعبوا دورا فى تصميم تلك المتاهة الغربية • على أساس أنهم ينحدرون من صلب الفلاسفة ، ويعتبرونهم النواة البعيدة للجامعة ، والعلوم كلها ، بدأ الأمر عندما تولى محارب قديم الناحية ، كان محاربا ، شجاعا ، عنده اقدام ، وجرأة على الموت ، تلقى فى صدره سبعين ضربة سيف ، نجا منها ، ولكن بعد أن تركت علامات صعب اندمالها ، قضى الخمسين عاما الأولى من عمره فى مطاردة القبائل الجنوبية ، والتصدى لأهالى البحار الشمالية ، واخضاع المتمردين فى الجبال القريبة •

ثم استقر فى الناحية ، أوكل اليه تسيير شئون الخلق ، وتنظيم توزيع المياه ، واستغلالها بواسطة الصهاريج ، مع سكونه وبدء أيام راحته تغيرت أحواله وصارت الى عكس وخلف ، مال الى الصمت ، ثم نقل عن نسائه انه هجرهن ، وزهد فى اتيانهن ، وصار

يختشى النوم ليلا حذرا من طول الهجوع ، وانعدام اليقظة مرة اخرى .
لم يكن يغفو الا مضطرا ولمدة ساعة لا غير كل أربعة أو خمسة أيام ،
صار المحارب القديم الى خشية الموت ، والخوف من الفناء ، الغياب
عن عالم الحس والمعنى ، حاول الحكماء المنحدرون من الفلاسفه
معالجته خفية ، ولهم معرفة بالطب ، وعلم النجوم ، وصنوف المعارك
الكفيلة ، خشوا ذيوع أحواله ، خاصة ان الناحية كانت على وشك
خوض حرب ضد ثلاث مقاطعات متجاورة ، بسبب الصراع على نبع
مائى فى الجبل القريب ، لمائه خاصية فريدة ، عند وضعه فى اناء
يفور ، نسبت اليه فوائد ٠

صارت الناحية الى خطر ، واجمع الحكماء على اخفاء مرضه ،
استجابوا بسرعة لمقترحه الذى بدا غريبا ، وتؤكد الروايات ان واحدا
من احفاد كبير الفلاسفة أوحى به اليه ، وأنه لم يصدر عنه ، لأنه
افتقد القدرة على التفكير بعد انعدام أوقات نومه ، وأخرى همومه ،
فى البؤرة يمكنه القبوع ، درء الخطر ، وتضليل العدم ٠ شارك
صفوة الحكماء فى بنائه ، ويقال انه بدا غريبا بمقاييس الوقت ،
وتنظيم توزيع المياه ، واستغلالها بواسطة الصهاريج ، مع سكونه ،
حتى حار الاعداء عندما رأوه يعلو وعجز رصدهم عن استكشاف
حقيقته ، فظنوه طلسما يدفع الأذى عن أهالى الناحية ، فأحجموا
مكانا بديلا ، متشابها ، وصف الممرات والدهاليز المؤدية يملأ أربعين
مجلدا لم تطبع بعد ، وتعتبر من نفائس الجامعة ، تسجل البعثات
التى نقبت على مدى المائة عام الأخيرة العثور على عدة هياكل عظيمة ،
بعضها لبشر يبدو انهم ضلوا طريقهم أثناء محاولتهم البحث عن
كنوز متوهمة ، والبعض الآخر لحيوانات منقوضة لا مثيل لها الآن ،
ولا يعرف أحد لماذا ولجت المكان ، أو ٠٠ كيف ؟ لكن أغرب ما يتردد
بين رجال المدينة ونسائها القدامى ، أن المحارب القديم لم يمت ،
وانه باق حتى الآن ، حى يرزق ، ويرجع ذلك الى ترتيب محكم أعده
أحفاد الفلاسفة بحيث تدخلوا فى دورة الوقت ، فأوقفوا اللحظة

عند دخوله ، وان سكون حركته تلا ذلك ، فلا حركة الا مع نقله . وتمامها يعنى انقضاء مدة ، تمكنوا من الغاء هذا . وهذا يطول شرحه ، ويصعب تفسيره ، وللأمر علاقة باختفاء الأمير الصينى ، كيف ؟ ، هذا ما لم يلم به أحد ، أما الفارق فيمكن فى انتظار قوم لعودة الأمير ، وانعدام ذلك بالنسبة للمحارب الذى هرب من المـــوت .

بالطبع .. يسخر رجال البلدية من ذلك ، وفى المقابل يتهمهم الجامعيون باشاعة مالا يعقل ونسبته اليهم حتى يستخف الناس بهم ، وتهتز مكانتهم .

عند الحد الأخير المســموح بوصول الأجانب اليه ، قالت مرافقته أن البعض يوقنون بوجوده حيا ، لهم أشياع فى الخارج ، خاصة فى ولاية نيفادا الأمريكية ، يفد القادرون منهم كل سنة فى ميعاد معلوم لقضاء أسبوع على مقربة من الحصن ، يزورونه يوميا ويخاطبون الغائب جماعة باللغة القديمة .

تومىء برأسها : هذا حقيقى .

قالت ان الحكماء نادوا فى الناس بعد دخوله الحصن ، ان المحارب القديم آن له أن يستريح ، أنه احتجب الى حين غير مقدر ، غير معلوم ، سيرجع قويا ، سليما من كل عطب ، متجاوزا كل فناء ، وعنده الحلول للأمور المستعصية ، أما تدبير أحوال الناس فلابد من من اسنادها الى رجل قوى ليمكن التصدى لمصادر الخطر ، خاصة الذين يريدون الاستيلاء على نبع الماء الفوار ، بالفعل ، اختاروا مبارزا شهيرا حارب تحت امرته ، أطلقوا عليه ، نائب الغيبة ، برغم عدة قرون منقضية ، برغم اختلاف الدلالات ، وتبادل المواقع ، فمازال يوجد منصب فى الهيكل الوظيفى للبلدية يعرف بنائب الغيبة ، وهو المختص بالاشراف على المحطة الرئيسية لتنقية المياه ،

وتوزيعها ، وتحصيل الأموال الخاصة بها من البيوت والمصالح ، أما الجامعة فتدفع مبلغا رمزيا ٠

يستفسر عن العلاقة بين الغيبه والمياه ، تلتفت اليه ، ابتسامتها رحبة ، في اختلاف عينيها توافق وتماثل ، يجتــازه وفق ، بتأثير انفرادهما أو ايغالهما في النأى عن الفراغ المنظور ، يخشى ان يبدو منه بدون قصد ما لا يليق ، تهب عليه ريح طيبة من زمنه القديم ، عندما كانت تغمره الرغبة فيبدأ ولا يكف ، حتى يتحول وجوده الى لفظ منهمر ٠ يبدأ اخبارها بنبأ حصن قديم ، مندثر ٠

في الزمن البعيد ، الآفل ، حيث لا يمكن تحديد علامة فارقة ، أو سنوات قاطعة ، أو حوادث معينة ، عاش ملك جبار اســـمه النمرود ، بسط ظل ملكه على فيافى ، ودانت له أمصار قصية ، وأخضع ممالك ، ثم تطلع الى السماوات العلا بعد أن قهر كل ذى سلطان فوق سطح الأرض ، ماذا بعد وصوله الى الجهات الأربع الأصلية ، واجتيازه البحار السبعة ؟ ، في احدى الليالى قرر بدء المحاولة ، على الفور جمع كل ذى علم ٠ أمرهم بتصميم برج يصعد الى مالا نهاية ، يتجاوز الغمام ، يدنو من الافلاك ، يمكنه أسر الشهب والرواجم ، التى تمرق أمام عينيه فى الليالى الغامقة ، ولا يدرى لها تفسيرا ، وجم العقلاء ومنهم أصحاب العلم الغزير ، لكن من يقدر على تحدى ارادة نمرود ؟ ٠

بدأ العمل لتصميم برج يصل الى الســـماء ، حشد أسرى الحروب ، والعبيد ، وجمع بلا حد من الفقراء ، وخلال عامين أمكن له أن ينظر الى السحاب من أعلى ، وأن يرى الغمام من تحته ، بعد أن تجاوزه البناء ، لم يتوقف التشييد ، ولم تهدأ الحركة ، فى صـــباح يوم خرج النمرود ممتطيا صـــهوة جواده الأكحل ليتفقد العمل ، وليتطلع الى سموق برجه ٠ الذى لم يكن ممكنا رؤية نهايه ارتفاعه عند الوقوف تحته مباشرة ٠ أو بالقرب منه ، انما لابد من

الابعاد مقدار غير قليل ، حتى يمكن مشاهدة حافته العليا التى تغوص فى السحاب ، لا يدرى احد ، ولم يفسر المعاصرون أو المؤرخون الذين جاءوا بعد ذلك ما جرى ، ذلك أن النمرود نقض دماغه نفضة هائلة حتى روع المحيطين به ، وجزع المقربين منه ، ومنذ تلك اللحظة بدأت آلامه التى استمرت حتى موته ، قيـل فى تعليلها أن حشرة صغيرة جدا ، مجهولة ، ذؤيبة ، نفذت من أذنه ، واستقرت فى مكان ما من رأسه ، كان طنينها يسبب له آلاما هائلة ، حتى لا تدركه الراحة الا اذا ضرب بالنعال ، نصحه أحد الحكماء بالكف عن محاولة الصعود الى السماء ، فما جرى مجرد عقاب دنيوى من الخالق الجبار . لا تدركه الأبصار ويدرك كل شيء ، غير أن أمره بايقاف البناء لم ينه ألمه الفظيع .

تبدى مرافقته دهشتها ، ملامح طفولية ، صافية ، يبدو جانب منها لم يقف عليه حتى هذه اللحظة ، يهم بالدنو ، ولكنه يحجم . يستبدل رغبته ، وشروعه الوشيك ، بالاستمرار فى اخبارها عن حصن آخر غريب أيضا ، لا يعرف ما يشبهه ، أو ما يماثله ، انه نبأ قديم دونته الكتب ، حول مهندس معمارى بلغ فى فنه مدى لم يسبقه اليه أحد ، ولم يعرف عمن سبقوه ، أو جاءوا بعده ، أنهم طالوا رتبته أو وقفوا على مهارة تماثله ، فمن أعماله التى بقى ذكرها ، بناية تدور مع أشعة الشمس طوال اليوم ، نوافذه تتسع اذا وهن الضوء وخفت ، وتضيق اذا اشتد وسطع ، كذلك المسجد الذى ذكره كل من شاهده ، أو صلى به من الرحالة الغرباء ، والتجار الذين دونوا مشاهداتهم ، والشعراء الساعين ، والصوفية السائحين ، والبلغاء المحدثين ، مسجد تتخلل جدرانه عدة فتحات يدخل منها الهواء ، فاذا اشتد أمر الرياح سمع من على بعد مسيرة ثلاثة أيام بلياليها ، صوتا جميلا ، مختلفا عن النغمات البشرية ، يسبح بحمد الله وشكره ، لا ·· ليس هذا أغرب ما شيد ، انما ذلك الحصن المنيع ، اذ استدعاه ملك البلاد والمتصرف فى شئونها ،

طلب منه اقامة بناء . يتحدث عنه ويعجب منه أبناء الأزمنة المقبلة . على الفور ، بدأ يشحذ أروع ما عنده ، صمم حصنا منيعا ، قويا ، بديعا ، لم يفهمه أحد أثناء العمل به ، ولم يتعرف انسان ، على صورته المكتملة ، لم تتفتح ملامحه الا قبل الفراغ بفترة قصيرة . تحوى فصول السنة الأربعة متجاورة ، من شتاء بارد ، وصيف قائظ ، وربيع وخريف ، ثم أجرى الماء بدون ماء فى مواضع معينة . ونصب مناظر بحيث يرى الجالس فيها القليل كثيرا ، والقطرات المحدودة بحرا بلا حد ، ومحيطا صعب الخوض فيه ، يتخلل الجدران قنوات صغيرة يسرى فيها المسك السائل فى دورة مغلقة بلا حد . أما جدران الحصن فصممت بحيث تبدو للساعين اليه أو حوله فى أوقات الأمان ، وأيام الدعة ، لكن .. اذا لاح خطر ما ، فان لونا معينا ينتشر بترتيب معلوم لقلة محدودة فيختفى المبنى كله عن الأنظار ، وبذلك يصد المدافعين أى هجوم ويمكنهم اتيان العدو من حيث لا يدرى .

يوم افتتاح الحصن ، صحب الملك المهندس الى أعلى نقطة فى الحصن ، قال ان العمل عظيم سيخلد اسمه ، لكن كيف يثق الا يبنى مثله لمن سيأتى بعده ؟ ، تطلع المهندس اليه ، أدرك ما يجول بخاطره ، قال انه لا يمكنه تصميم آخر مثله ، اذ وضع خلاصة عمره هنا ، وهنا أشار الملك الى اثنين من حراسه ، أمسكو بالمهندس الذى بدا مستسلما ، وكأنه توقع ما نزل به ، أوثقوا يديه وراء ظهره وشيعوه فى الفراغ ، قيل للناس أنه أضمر الخيانة ، وقصد الهرب ليشيد برجا آخر يفوق ما بناه هنا . وأنه لقى جزاءه العادل . لكن فى اليوم التالى جرى مالم يتوقعه أحد ، اذ طلع أحد مساعديه الى الملك ، وأخبره بما كتمه المهندس العبقرى ، مالم يطلع عليه أحد ، ما الحكاية اذن ؟ ، لقد أفضى الى معاونيه الثلاثة بسر ، هذا الحصن العجيب ، المنيع ، يوجد به حجر واحد لو دفعه طفل صغير بأصبعه لسقط البناء كله ، يتذرى ولا يبقى منه شيء ، قال المساعد :

أنه ولا غيره على دراية أو علم بمكان الحجر ، وأنهم ايقنوا باطلاعه الملك على كل شيء . بدأ الهم يجثم على الملك ، لم تفلح كل وسائل الاستنطاق والاستجواب مع المعاونين وكبار المعلمين المشاركين فى البناء ، ظل موضع الحجر خفيا غامضا ، مستورا ، كيف تمكن الاقامة فى موضع بقائه مرهون بحجر صغير ، لو تحرك مصادفة سينهار التشييد كله ؟ ، ربما تعثر به هو ، أو أحد الجند أو الخدم وهم كثر ، ربما اتكأ عليه أحدهم ، ربما دفعه طفل بأصبعه ، بمقدمة حذائه ، عندئذ سيصبح اضحوكة الملوك ، ونادرة السلاطين ، أمر باخلاء الحصن ، دخله حذرا منفردا ، توقف أمام الأسوار ، والمطالع ، والفتحات ، والحجرات ، والقاعات ، تساءل المقربون عن سبب تأخره فى الانتقال الى بنائه الاسطورى ، غمغم ولم يفصح ، حتى خمن البعض وجود أمر يشق عليه ، لاحظوا شروده ، وتلفته الدائم ، واتجاهه المفاجىء الى الحصن ، مرة نهارا ، ومرة ليلا ، تفحصه الجدران ، اصغاؤه الى ما قد ينبعث منها ، أمره للعمال بالدخول لتفحص الاروقة ، ثم صراخه المفاجىء فيهم ان يبتعدوا ، ومع مضى الوقت بدأت تنتابه رجفات ، وخضات عجز الأطباء عن علاجه منها ، وبرغم حرصه على ابقاء السر مكتوما ، خشية سخرية الخلق منه ، ولكن من يحيطون به أخفوا عنه ان الأمر ذاع وانتشر ، حتى ان الغرباء صاروا يتجنبون المشى على مقربة من الحصن ، لم يطلع على ذلك حتى احتضاره العسر ، بعده .. امتنع رجال الدولة عن الاقامة فى الحصن ، أو الدنو منه . دام ذلك عددا غير معلوم من السنين حتى نسى الأمر ، وبقى الناس بين مصدق ومكذب لما تردد فى الزمن القديم ، عاد الخطو داخل الحصن ، وبهت اسم الملك الذى أمر ببنائه ، لكن اسم المهندس تناقله الناس ، وصـار ما جرى له مثلا يتردد ، فقيل : جزاء سنمار . طبعا .. نهبت أشياء كثيرة من الداخل ، مثل أخشاب الصندل الهندى التى بطنت بها بعض القاعات ، كما جفت قنوات المسك ، وفسد نظام الفصول الأربعة ،

ثم تحول الى طلل مبهم ، غامض ، لا يربطه الناس باسم المهندس الذى راح ظلما ومازال اسمه يتردد ، آخر من استخدمه ، الجيش المملوكى الذى اتخذه كمخزن للأغراض البالية ، التى استنفدت مدتها ولا تزال بقايا البناء لكن لم يعرف انسان موضع الحجر الخفى ..

ــ حتى الآن ؟

يومىء .

ــ نعم .. حتى الآن .

ترفع يديها ، متماستان ، مبسوطتان ، يضوى ألق الدهشة الطفولية فى عينيها ذواتى الظلال .

ــ رائع ، مدهش .. لم أسمع ولم أقرأ مثل هذا ..

يبدو منها جديدا ، تلك الايماءة الموجزة ، لا توقيت مسبق لها ، ولا نذر بأدبه . قلقلت عنده رواسى قديمة ، وحركت غوامض كامنة ، وأشواقا مجهولة المصدر ، ومرائى مبهمة بلا لفظ ينطق ، أو حس يرصد ، لزمن بديع لم يمر به ، وان حن اليـــه ، ذقنها الدقيقة ، مرفوعة ، شماء ، غير أنها تطرق فجأة ، صمت مباغت لم يتوقعه بعد حماسها الدافق ، بعد صمت يسير تقول انهما أمضيا وقتا فى التجوال . ولابد أنه جائع الآن ، اعتادت أن تأكل شيئا خفيفا عند الخامسة . أما وجبة طعامها الرئيسية فعند العشاء ، لماذا تبدو أكثر نأيا الآن ؟ ، حتى نزولها بالمصعد اليدوى القديم ، وركوبه الى جوارها لم تفه بحرف ، بل بدأت مهمـــومة بشىء ما ، هيئتها ، تحديقها ، الزماه الصمت ، تمضى السيارة فى حركة دائرية ، عند بداية الطريق القصير المؤدى الى الحصن من الجهة الأخرى ، بوابة فى الفراغ ، مماثلة تماما ، النتوء شبه المثلث العلوى ، قبل أن يستفسر تقول :

ـ أنها بوابة الغيبة ..

تجتاز السيارة شارعا مرصوفا بحجارة وردية اللون ، لكنه عريض ، تمضي فيه المركبات عبر اتجاهين ، لكنه بعد لحظات خيل اليه اتساع الطريق مع استمرار التوغل فيه ، يتطلع الى الوراء ، ما هذا ؟ لم ير امتدادا لما يفارقه ، لما تقطعه العربة ، فكأن الشارع يطوى طيا بعد اجتيازهما مباشرة ، ولون الضوء .. أنه مختلف تماما الى الوراء عنه فى المواجهة ، يميل الفراغ الى صفرة قاتمة فكأنه وقت ما قبل الغروب ، لكن فى المواجهة يسطع النهار ، الوقت لم يقترب بعد من العصر ، فأى أفول فى الخلف ؟ يشك فى أمره ، أو يلون الزجاج الخلفى المرئيات ؟ ، لكن .. اذا صح ذلك فهل يخفى الموجودات ، الواجهات ، المعالم ، النواصى ، يمعن حائرا ، لكنها تلمس ركبته برفق ، تقول ان هذا مخالف لقانــون البلدية المنظم للمرور ، يقول انه يلحظ ما لم يعتده ، ما لم يتأكد منه ، تلتفت ناحيته ، تبدو ملامحها جادة ، تماما كما تقف فى مدخل القاعة ، تجاوب الجميع بابتسامة حادة الصد ، قالت ان الغرباء لا يتآلفون مع المدينة بسهولة ، يستمر تحديقها الى الطريق ، مبدية حزما ، وعدم مجاوبة ، ربما تعللا بقوانين المرور التى تحرم الحديث تماما خلال القيادة أو لحرصها على ألا تخوض فى حوار يخص أمورا ، ظواهر معينة فى المدينة ، لكن عندما لاح الميدان ، وظهر المبنى الذى رآه منذ ســاعتين تقريبا ، الذى دار حوله صــباح اليوم بصحبة المغربى ، لم يمنع نفسه من الانحناء الى أقصى قدر يسمح به الفراغ الضيق للعربة .

ـ غير معقول !!

تجاوبه ، غير ملتفتة الى الدهشة :

ـ هذا أخطر مبنى فى الناحية كلها ..

لم ينتبه الى تشـابه ايقـاع لفظها مع كلمات المغربى الا عند استعادة تلك اللحظات فى الليل ، قبل نومه ، لكن ما شد انتباهه ، ما لفت نظره الى حد حبسه أنفاسـه ، تغير المعالم ، الميدان المحيط بالمبنى مغاير لما رآه فى الصباح ، ألم يكن مرصوفا بالحجارة ، آنه مفروش الآن بالقار ، المبانى المطلة ألم تبدو أطول ارتفاعا ، الآن ٠٠ كلها دون المبنى ، بل ان هذه العمارة المستطيلة ، ذات الشرفات الخشبية فى أقصى الميدان ، لم يكن لها وجود بالمرة منذ ساعات ، يقطع بذلك ، لم تقع عليها عيناه ، فى البداية شك ، وربما جاءه من جهة مغايرة . لكنه دار حوله ونبهه المغربى الى الداخل والخارج ، آما ما لم يدع له مجالا للشك فى التبدل ، التغير ، فالمبنى نفسه . الطلاء متغير ، نعم ٠٠ هذا اللون الأصفر الذى تخالطه خضرة لم يكن له وجود ، كذا وضع النوافذ فى الطوابق الثلاثة ، رآها من قبل متجاورة ، متراصة فوق بعضها ، لكنها الآن متباعدة ، مواقعها متبادلة ، فراغ يعقبه نافذة تحت ، خلو فوق ، عجيب ، أما القضبان الحديدية السوداء على هيئة أغصان تلتقى حول زهرة من نحاس فلا أثر لها ، يلتفت اليها ، يوقن أنها تدرك حيرته ، لا تفصح . لا تومىء ، لا تبدى اشارة ، لن تشرح ، لن تفسر ، يخفف عنده تأثيرها الانثوى ، يسفر المبهم فيها ، تتجاوز الميدان بسرعة ، يلتفت بحركة لا ارادية ، ياه ٠٠ يبدو الميدان والمبنى بعيدا ، كأن الزجاج الخلفى من عدسة هائلة ، تقصى الموجودات برغم قربها ، لا يتناسب ما يراه مع المسافة المحدودة التى قطعتها العربة فى الطريق الذى يميل الى صعود ، السيارة تتوقف قرب ناصية رمادية ، يتوقفان أمام مبنى قديم من حجر ، سلالم مرتفعة تؤدى الى ممرات بدون حاجز يؤدى الى درجات أخرى ، تنتهى الى مصطبة حجرية عريضة تؤدى الى مدخل المطعم ، قديم ، رائحة طهو طيبة ، الأبواب خشبية غليظة ، والسقف منخفض ، مدجج بأكواب من خزف ، وأخرى من زجاج ، ومن معدن ، أحجام مختلفة ، ومصادر متعددة ، مصابيح

يدوية في الاركان ، وشموع نحيلة في أطباق من زجاج نقي تتوسط الموائد ، ولأنه جائع فعلا ، ولدنوه من المائدة ، ولطابع العتاقة في المكان ، عاوده حماس ، وانبثت داخله طاقة رغم حيرته ، تساؤله عن الميدان ، كيف سيجده اذا عاد اليه الآن ؟ ، والطريق تطوى بمجرد المرور منها ، وهم ، أم حقيقة ؟ أم شيء ثالث يستعصى عليه ادراكه أو سبر كهنه ، بل ٠٠ هذا المطعم ، المكان الذى يوجد فيه الآن ، هل سيجده اذا جاءوه غدا في التـوقيت عينه ؟ ، أم ان الهيئه ستتبدل ، والمكان سيتغير ، ربما جرى تحول خفي لا تدركه عيناه ، لا يلم به بصره ، المهم ٠٠ هل سيجد الفندق في موقعه ، غرفته ، حاجته ؟ يتحسس حافظته ، ويلمس حافة جواز سفره بأطراف أصابعه داخل جيبه ، يعود ليلتفت حوله ، الوقت بين الغذاء والعشاء، رجلان فقط يجلسان الى منضدة قصية ، أحدهما يرتدى زى البحارة ، لكنه لم يستطع استنتاج ٠٠ أسطول حربى أو تجارى ؟ ٠ ولم يسأل رفيقة جولته ، أحدهما يضرب المنضدة بقبضته بين حين وآخر ، ماذا يفعل ، كيف يتصرف لو قام أحدهما فجأة وهاجمه طلبا للانثى التى تجلس اليه ، لو تحرش به لأى سبب ما ؟ يدركه خوف الغربة ، والوحدة ، وعدم درايته بفنون العراك ، حتى في أيام دراسته البعيدة تجنب الشجار ، ونأى عن العنف ، وان لم يحل هذا دون فورات انفعالية تتفجر داخله حيث لا يتوقع ٠٠ تسعى به أحيانا الى هلاك مبين !

يتبادل النادل التحية مع صاحبته ، يعرف كل منهما الآخر ، يبدو نطقها عند حديثها اليه مختلفا ، أكثر تأنقا ، انثويا ، تحدد ما تطلبه ، مشيرة بيديها ، ترجع من لحظة الى آخرى لتتطلع الى القائمة ، لم تستطلع رأيه ، ربما تخصص المطعم في صنف واحد ، أو تعرف طبقا معينا تريده أن يتذوقه ٠

عندما وضع طبقي المقانق ، الأول أمامها ، والثانى ناحيته ، تطلع الى القطع المبرومة ، المستطيلة ، تذكر باعة السجق الواقفين

بعرباتهم عند نواصى الحى القديم ، وفراغ ليلى مزدحم بأضواء شتى وضجيج قومه ·

الطبق بيضاوى ، المقانق مرصوصة بالعرض ، عند الحافة قطع صغيرة جدا من جبن له ملمس الزبد ، توسطت المنضدة زجاجة نبيد وردى اشاعت عنده بهجة ، يعدل النادى وضع كأسين ليتلقيا الشراب، يفاجا بيدها تلمس يده ، تشير الى كأسها الفارغه ، من الأصول المرعيه ان يقوم الرجل بذلك بعد تذوقه عينه صغيرة وابدائه ايماءة الرضى ، على الفور يبادر ، يصب مقدارين متساويين ، يرفع كأسه مبادرا لسرب نخبها ، بعد تذوقه الحسوة الأولى من المشروب المترف القديم ، تتلاقى نظراتهما ، يقع تماس لحظى مارق ، لكنه لا يصل الى نقطة التواطؤ الخفى ، أو الاتفاق الضمنى على بدء الصلة ، وميلاد العلاقة ، وقوع الخصوصية ، بدت له متوحدة بلحظتها ، تسعى الى صفو لم تصله بعد ، فيها فرادة ، ود لو فض أسرارها واطلع على دخائلها ، نفذ الى قدس أقداسها ، يلوح تورد من خلال شحوب وجنتيها ، يحاول المقارنه بين المذاقين ، نبيذ المغربى النادر ، وهذا الذى يبدأ التعرف اليه الآن · يخيل اليه أم مذاق تلك الزجاجة ألطف وأرق ، أيرجع ذلك الى الجودة ، أو ·· الى الصحبه ؟ · قال القدامى أن المعول كله على النديم ، والنديم مشتق من الندم ، لأن ذلك ما يعقب فراقه وابتعاده ، هل سيندم على فراقها ؟ ، كيف سيذكر صحبتها بعد انقضاء الوقت ؟ ، لا يدرى ، لكن الأمر مشوب بما يحاول نسيانه الآن ، ومن ذلك غوامض المدينة ، ورؤيته ما لم يسمع به من قبل ، وبيقينه الخفى أن ثمة شيئا ما سيقع ، ما هو ؟ · لا يدرى ، ربما خوفه المحدث من مكروه قد يقع فى غربته فلا يمكنه دفعه ، لماذا اختارته هو بالذات ؟!

عند تأهبها لتناول الطعام ، تشير الى المقانق ، تقول ان هذه نوعية لا توجد الا فى المدينة ، هذا الحجم ، وذلك المذاق الناتج عن تركيبة خاصة جدا يقوم بتصنيعها معمل عمره ثمانية قرون ، ومازال

يعمل بالوسائل اليدوية ، أنه متخصص فى تصنيع اللحوم ، جزء من انتاجه يصدر الى العاصمة الاتحادية ، يقدم فى المطاعم الكبيرة والفنادق العريقة . لكن المذاق لا يكفى ، لابد من رصها بالعرض . وتغطيتها بهذا الجبن الخاص .

تتوقف لحظات ، نقطع واحدة الى نصفين ، تغمسها فى الجبن ، تتذوقها متمهلة .

ـ هكذا .. يجب أكله ..

يتبع خطواتها بحرص ، تبتسم مبتهجة ، تقول انه يبدو متقنا للتقاليد كأنه من أهالى المدينة ، تقول .. ان البلدية أصدرت لائحة منذ ثلاثمائة وخمسين عاما تنظم أكل المقانق ، بعد ظهور أكثر من نوع ، تفاوتت الأحجام فى السمك ، والطول ، والمذاق ، كثير منها جاء من مدن أخرى ، ولكن رئيس البلدية وقتئذ ، كان محبا للمقانق ، متعصبا لانتاج هذا المصنع ، أقدم على اجزاء سخر منه البعض وقتئذ ، اذ أصدر مرسوما بلديا بمنع دخول المقانق ، وسرعان ما ظهر تعبير « المقانق الأجنبية » ، فرض عقوبات على أى بائع أو مطعم يقدمها ، شدد الحراس رقابتهم على المداخل المؤدية لمنع القادمين من حمل أى صنف من المقانق ، خلال هذه الفترة كثرت الشكاوى الكيدية ، اذ لجأ بعض من يضمرون غيظا من الآخرين الى ارسال شكاوى يتهمونهم بأكل المقانق الأجنبية أو اخفاء كميات منها ، فى البداية لم تبذل الشرطة أى محاولة للتحرى ، انما تبادر الى مداهمة الجهة المشكو فى حقها ، طبعا .. أدى هذا الى التحرز واتخاذ الحيطة ، حتى تم بالفعل قطع ادبر الحقائق الأجنبية ، وكان البلاء الحقيقى أن تشتهى امرأة حامل نوعا منها ، عندئذ يضطر الزوج الى صحبتها اذا كان قادرا ، والسفر مسافات بعيدة لأكل المقانق المرغوبة ، أو البقاء مع دوام الرعب من ظهور قطعة مقانق فى جسم المولود لعدم تلبية رغبة الأم ، أحيط هذا الصنف الوحيد برعاية

كبيرة ، خاصة بعد مجيء عدد من الرسامين المشهورين وابداعهم لوحات للطبيعة الصامتة ، كانت أطباق المقانق عنصرا رئيسيا فيها ، لكن ثمة اختلاف لا يلحظه الغريب العابر ، ذلك ان اطباق المقانق في تلك اللوحات تحتوى على الأصابع مرصوصة بالطول ، وليس بالعرض ، ويرجع هذا الى موقف التزمته ادارة الجامعة وطبقته بصرامة فى مطاعمها ، ومآدبها ، اذ نصت لائحة البلدية على وضع المقانق بالعرض ، والجبن فى الطرف الأيمن ، لكن فى الجامعة قرروا ، رصها بالطول ، والجبن فى الناحية اليسرى ٠

لمـــاذا ؟

حفاظا على التميز والاستقلالية ، لكن ٠٠ هذا داخل أسوار الجامعة فقط ، وبالطبع كان الفنانون يأكلونها داخل المطـــاعم الجامعية ، المهم ٠٠ طبعت صورها على البطاقات البريدية فى نهاية القرن الماضى بعد ذيوع الصور الفوتوغرافية ، وخصصت لوحات الدعاية السياسية ، طبعا مع صور الفتيات الجميلات ، شاع الأمر ، وقصده الأجانب ، وتضمنت قوائم الشركات الأجنبيـــة وبرامجهـــا تناول وجبة فى المدينة ، وفى الرحلات المرتفعة التكاليف يذكر هذا المطعم بالذات ، اذ انه أقدمها ، وأفضـــلها ، ظهر فى المقاطعات الأخرى ، وفى العاصمة مطاعم تخصصت فى هذا الصنف بالذات ، يعلق أصحابها شهادات تثبت انتماء أصولهم الى المدينة ، ومع زيادة حركة السائحين القادمين من أمريكا انتشرت فى فنادق البلاد التى حرصت فى اعلاناتها على نشر صورة طاه من أهل المدينة متخصص . ويحمل شهادة خاصة من البلدية تثبت أنه اجتاز الاختبارات الخاصة باعداد المقانق ، الآن يعتبر أهم طبق يقدم فى العواصم الأجنبية خلال الأسابيع الاعلامية ، ومن علامات المدينة ٠٠

ـ مثل الكافيار الروسى ، والمكرونة الايطالية ٠

والشمبانيا الفرنسية ٠٠

يبتســـم .

ـ والفول الدمياطى ، والملوخية الصـــعيدية ، والســـمك البور سعيدى ، والفطير الشرقاوى ..

تتطلع اليه جادة ، مقطبة ، مستفسرة .

ـ أطعمة مشهورة عندنا ..

ـ لم أعرفهـــا .

تعود على مضغها الأنيق ، المتمهل ، لم يستطع الوقوف على المذاق الخاص ، لا يأكلها الا نادرا . لكن ما بدا له مثيرا ، حماسها أثناء اطلاعه ، عند خروجهما التفتت فجأة فى لحظة هم فيها بتركيز البصر على ردفيها المتناسقين ، المتناغمين ، البارزين فى غير افراط ، ابتسامة مختصرة تشى بادراكها ما يغمره ، يخجل ، لكنه يفاجأ بقولهـــا :

ـ ترغب فى رؤية بيتى الصغير ؟

يتساءل ، هل تتوالى الأمور بسرعة هكذا ؟

ـ طبعا أرغب ..

يتطلع الى الفراغ والابنية خارج المطعم ، الضوء النهارى مغاير لما كان عليه عند دخولهما ، طبيعى .. ألم تمض ساعة أو أكثر ، يجلس الى جوارها ، يربط حزام الأمان ، احساسه بالمغامرة ضعيف ، أهى الرغبة الخفية المصاحبة للاقتراب من أى امرأة جديدة ؟ ، تماما كهيبة الوصول الى أرض غريبة ، أو التأهب لدخول مدينة مجهولة ، أو بناء مبهم ، لم يشرع مرة الا وتردد ، بل وكاد يحجم ، كيف سيجدها ؟ هل سيمكنه الاستمرار ؟ ، ماذا لو فشل ؟ ، وكثيرا ما جرى له ذلك فى المرة الأولى ، معظمهن يدركن ويفهمن ، بل

يقدمن المعاونة ، مبديات صبرا جميلا ، هل تهيبه هذا له صبه ؟ ، أم لصحبته هذه المرة من تبدو مستعصية ، غامضة ؟ أم لانشغاله برصد تحولات لا يعلم أهى حقيقة أو متوهمة حتى الآن ، داخله أو خارجه ، يلتفت ·· يمتد الشارع راسخا ، متصلا ، يوشك على اليقين أن ما رآه عند اتجاههما الى المطعم كان بتأثير اضطراب ما ربما الارهاق ، تتوقف العربة أمام بناية من خمسة طوابق . عند نهاية الطريق جسر للسكة الحديدية ، نقول ··

ــ هنا يبدأ الجزء الحديث ·

تدور حول العربة ، تنظر الى العجلات ، تشد مقبض الباب ، تتقدمه تجاه المدخل ، تضغط أرقاما فى لوحة مستطيلة ، تصدر تكة معدنية الوقع ، بسرعة تدفع الباب ، يشم رائحة رطوبة ، لكن عبيرها الانثوى يصله واضحا ، يقوى أو يضعف من أنثى الى أخرى ، مجمل لروائح شتى ، لا يتشابه أبدا مع آخر ، كثيرا ما اثاره ، لكنه الآن هادىء ، متهيب ، لا يوجد مصعد ، سلم ضيق الأبواب مصمتة ، ما من أصوات أو اشارات تدل على حركة ما ، عند المنحنى نافذة تطل على المبانى الخلفية ، يلمح أصصا للزهور ·

تقف فى الطابق الرابع ، حلقة مفاتيحها مثقلة ، للباب ثلاثة اقفال ، لابد أن هناك ما يستدعى هذه الاستحكامات كلها ، الأرقام المعدنية ، الاغلاق المحكم ، تبتسم ، تدعوه الى الداخل ، يخطو حذرا ، متطلعا ، مخيفا باحكام أى بادرة ربما تشى برغبته التى تتأجج الآن بتأثير وحدتهما ، وشبه يقين أنهمـــا بمفردهما فى المبنى كله ·

اللون الأبيض غالب ، الجدران ، المكتبة ، المقاعد ، من المدخل يمكن الاحاطة بالمكان كله ، صالة صغيرة ، حجرة داخلية للنوم ، سرير عليه غطاء من الصوف الملون ، ألوان متداخلة ، ممتزجة ، تفيض صخبا صامتا ، الى جوار الفراش مكتب صغير ، فوقه كتب

عديدة . لم يدقق عناوينها ، وصحف مطوية ، جريدة البلدية ، يعرفها اذ راها عند الباعه فى السوق ، اطلعه المغربى على عدد منها عندما حدثه عن تجاهل صحف البلدية للاحتفال الجامعى · فى الصالة مقعد مستطيل ، يمكن أن يتمدد فوقه المرء اذا اضطر الى قضاء وقت طويل ، أما الفراش فمن الصعب اتساعه لاثنين متجاورين ، يفيض المكان أناقة ، وحسن ذوق ، الا ان وحدة عميقه تخيم عليه ، يقول انه مكان جميل ، تتساءل بسرور ، أحقا ؟ ، يومىء مؤكدا فى عين الوقت الذى يفكر فيه ، كيفَ يشرع ، بأى خطوة يبدأ ؟ ، المهم أن يبدى هدوءا ورسوخا ، لا يدرى لماذا طفا على سطح وعيه نغم قديم مصاحب لكلمات تبعث عنده شجا ·

شجنى يفوق على الشجون ··

ألح عليه النغم حتى شرع فى ترديده لكنه كف ، يود أن يلم بعالمها الداخلى ، من هى ؟ · من أين قدمت ، والى أين ؟ ليتها تحدثه عن صاحبها ، عن عائلتها ، عن أشواقها ، ليتها تخبره ·· كيف تفكر ، كيف تراه ، يود أن يفض مغاليقها النفسية والحسية معا ·

يسألها عما اذا كانت تمضى أوقاتا طويلة هنا ؟ ، تقول انها تمضى نهايات الأسبوع هنا ، لا تخرج ، خاصة فى الشتاء ، بعد عودتها من المكتب أو من جولة تأوى الى عالمها هذا ، تسأله عما اذا كان يفضل الشاى أم القهوة ؟ ، يقول انه لا يشعر الآن بالحاجة ، تجلس فى المقعد المواجه أمامه ، يستفسر عن أصحابها ، عن أقاربها فى المدينة ؟ تقول ان والديها يعيشان فى الجانب الآخر من المدينة ، صديقتها الحميمة على سفر الآن ، أما صاحبها فيقيم الآن فى الهند لفترة ، يسألها عما اذا كانت تنوى السفر اليه ؟ ، تتطلع صوبه ، التفاتة حادة مفاجئة ، مصاحبة لتحديق عينيها ، يمنحها هذا تفردا ، وغموضـــا ··

ـ هناك مشكـــلة !

اجابة باترة ، تقطع عليه محاولة للاسترسال ، تمضى الى المطبخ ، يتأمل الكتب ، يسند حقيبته الجلدية التى يعلقها دائما الى كتفه ، يلمح سريرها ، يتخيلها متمددة ، محملقة ، مغمضة عينيها ، فى ثياب النوم ، أو عارية تماما ، لم تلمح أى بادرة استثارة عنده ، خيل اليه أن ثمة رائحة مطهر ما ، يقول دهشا ··

ـ هذه كتب عن مصر ··

يجيئه صوتها قريبا ·

ـ نعـــم ··

يقلب الكتاب ، يحمل غلافه ألوان العلم الثلاثية ، دليل سياحى شامل ، على الغلاف الأخير يلمح خاتما مستديرا لمكتبة شهيرة وسط القاهرة ، هل زارتها ؟ أوشك على استفسار لكنه أحجم ، أنها تقف خلفه تماما ، تمد يدها ، طبق مستدير به ثلاث كعكات ممتزجة الألوان ، قالت انه نوع نادر جدا ، لا يمكن أن يتذوقه الا فى هذه المدينة ، يعجن بالعسل الجبلى ، صينى المصدر ··

ـ مثل المقانق ؟

تجيبه بجدية ·

ـ لكن هذا يخص الجامعة ··

تقول ان هذا العسل لا يستخدم الا لتلك النوعية من الكعك . يفرزه نحل من نوع نادر ، لايمتص الا رحيق ، زهور صينية دقيقة جدا ، ترجع الى زيارة أمير صينى فى الزمن القديم ، غير الأمير المختفى فى البرج ، أهدى الجامعة أبصال تلك الزهور التى تخضع منذ عصور لرعاية خاصة من أساتذة كلية الزراعة ، كمية العسل الناتجة محدودة جدا ، يوجه نصفها لصناعة هذا الكعك الذى لا يخبز الا فى نهاية السنة الدراسية ، والنصف الآخر يعلب فى أوان خزفية ويخصص للهدايا الرئاسية ·

تتدفق بالكلمات ، عندما تصاعد شروعه الداخلي بسرعة ـ لو أرجأ فلن يخطو أبدا ، يمد يديه ، احداهما تتناول الطبق ـ الأخرى ترتفع أصابعها الى شفتيه ، يلثمهما برقة ، غير أنها تنفر الى الخلف ، تلفظ برفض يصعب تصدعه ، أو النفاذ من خلاله ٠٠

ـ من فضـــلك ! ٠

مناقشـــات أوليـة

.. يؤثر المشى ، كعادته منذ وصوله ، من الفندق الى مقر الاحتفال ، يتذوق طلاوة اقبال الصبح ، وبدايات النهـارات التى سيذكرها فيما بعد ، لم ينتظر مع بقية المدعوين المتجمعين بعد الافطار فى الصالة الرئيسية .

اليوم ، يرغب فى الانفراد ، استعادة صـحبتها أمس قبل تكرار اللقاء ، قبل رؤيته لها بعد قليل ، لا أثر لخجل عنده ، لكن ثمة حيرة بعد انصرافها ، ونزوله أمام الفندق فوجىء بمغادرتهـا العربة ، اتجاهها نحوه ، تصافحه بقوة ، بيد ضـــاغطة ، تجذبه ناحيتها ، تقبله ، بمبادرة حادة ، مباغتة ، قبلة خاطفة ، محايدة ، مجرد برقية غامضة ، سريعة ، انحنى ، أبدى امتنانا لحرصها على رفقته ، وأسفه لما بدر منه .

ترقرقت ملامحها ، لاحت نيرة ، بسامة ، غير أن شجنا بدا ، حل به ، لن يراها مرة أخرى ، خطر له هذا ، لماذا أيقن ؟ ، بعد ذهابه انفرد مستعيدا طلاتها ، وصمتها المفاجىء ، والحزن العالق

بشرفتى عينيها ، تأمل بطاقتها ، كان اسمها الأول يخلو من الحروف الثلاثة التى تضاف الى أهالى المدينة الأصلاء ، التابعين تماما للبلدية ، الذين لم تربطهم بالجامعة أى صلة ، وهى حروف السين والكاف والياء ..

أما اسمها الثانى فلا يسبقه حرف التعريف « الـ » ، وهذا ما يميز الجامعيين ، سواء الدارسون ، أو الأساتذة ، أو من كان على صلة وثيقة ، مثل متعهدى توريد الأشياء الضرورية ، من أغذية الى أثاث الى حبر أو ورق .

الى من تنتمى ؟

الى الجامعة ، أو البلدية ؟

ربما كانت مغتربة ، ذات أصول أجنبية .

منذ أن فارقها أمس لم يغادر حجرته الا صباح اليوم ، ها هو يسعى ، بعد ساعة تقريبا تبدأ الجلسة الختامية ، يمشى واثقا ، كأنه عاش عمره كله يجوس تلك الشوارع ويعبر هذه النواصى ، لكنه بعد دقائق يبطىء الخطى . ماذا لاحظ ؟

الا تبدو الأقواس والأعمدة الحجرية أقصر ؟

الا تلوح المفارق أضيق ؟

لن يستفسر ، لن يلجأ الى أى عابر ، بنفسه سيحاول التأكد من عدم تبدل الثوابت ، من امتداد الطرق فى عين مواضعها ، ومثول المداخل فى أماكنها ، مضى الشوارع الى ذات الاتجاهات ، تقاطعهما عند المواضع التى سبق له عبورها المرور بها ، هذا أغرب وأشق ما مر به منذ وصوله ، لولا اصراره على الوصول بمفرده لتوقف ، لانثنى راجعا الى الفندق ، ثمة تبدل مؤكد ، على يقين منه الآن !

هذا عجيب ، صعب ، من الحقائق المفروغ منهـا أن المكان ثابت ، والزمان متغير ، أما الانسان فعابر ، وهو طارىء الوجود ، مؤقت المدة ٠

يسترجع الصـورتين المتضادتين ، المختلفتين للميدان ، ابنى الأمن ، يحار تحوى المدينة أمورا تستعصى على الادراك ، أو النفاذ عبرها ، كاد يمضى ليلة أمس الى الميدان ليرى أى هيئة أمسى عليها ؟ ليتأكد ، ليثبت ، لكنه خشى فقدان الطريق ، وأخطارا خفية ربما تحدق به ، أرجأ مشروعه ٠

عند انتقاله من اليقظة الى النوم ، أومأ برأسه تجاه الفراغ ، لماذا يهتم وكأنه مقيم أبدا ؟ ، كأن الليالى والأيام ستكر عليه هنا ، ليتبدل الميدان ، فليتحرك المبنى المهيب ، قاتم الحضور ، ماذا يعنيه ؟

لن يتبقى من المدينة الا الحيرة ، وصحبة عابرة وأصداء لظلال بعض المداخل المهيبة ، العريضـة ، الرحبة ، خاصـــة المنشآت الجامعية ، ولون السماء عند العصر ، وصوت عصفور غريب وقف مرة واحدة على نافذة غرفته ، والبرج ، وسموق الحصن المشيد ، وانتقال خطو الباسقة داخله ٠

تنتهى الأماكن التى تطول بها الاقامة أو نقصر بعد مغادرتها الى أطياف ورؤى لا رابط بينها ، مروقها يثير معنى ، وقد لا يوحى بشىء على الاطلاق ٠

غير أن هذه المدينة تخلف عنده حيرة ، بل ٠٠ وخـوف ، فما يبدو له كل لحظة محير ، عجيب !

المهم الآن أن يتأكد من الطريق ، يعرف هذه الناصـــية ، والعلامات البيضاء التى تحدد مسار المشاة ، بعدها يلوح البرج فوق المبانى ٠٠ يمد الخطى ، كأنه يخشى اختفاء العلامة الفارقة ، الثابتة التى ألم بها ٠

البرج ..

اذن لم تتبدل الشوارع ، المؤكد أنها أضيق ، لكن يجب أن يطرح عنه الآن انشـغاله بكل ما يلحظ ، موعد رحيله يقترب ، ليؤجل انزعاجه حتى والا سيصير الى ما انتهى اليه عالم الفيزياء المعروف ، حكايته تروى داخل أسوار الجامعة بمزيد من التأسى ، يرددها رجال البلدية بسخرية ، بل أوعزوا الى رسام الكاريكاتير بتناولها فى الصحيفة اليومية الأولى ، لكن أثار ذلك عند الناس استهجانا ، وحرر بعضهم رسائل بدون توقيع فكف ، ذلك أن هذا الأستاذ كان من أبناء المدينة الأصلاء ، ولد بها ، ونشأ ، وتلقى تعليمه بمراحله المختلفة فى مدارسها ، حتى انتهى الى الجامعة . فنبغ ولمع فى علم الطبيعة مع أنه كان أبكما ، أصـما ، لا ينطق ولا يصغى ، وعندما شاع أمره ، وتليت أبحاثه أكثر من مره فى المنتديات والحلقات ومراكز البحث ، أقبلت عليه وسائل الاعلام ، الا أنه اعتذر عنها ، بذلت محاولات عـديدة حتى أن التليفزيون الأمريكى عرض مليون من الدولارات مقابل اجراء مقابلة لمدة ساعة معه ، تحاوره خلالها المذيعة المشهورة بربارة التى يتهافت رؤسـاء الدول على المثول أمامها والاجابة على أسئلتها ، مليون له ومليون للجامعـــة ، ومع ذلك اعتــذر وأيـده فى ذلك المجلس الأربعينى للأساتذة ، مع ان الجامعة كانت فى أمس الحاجة الى المبلغ لتجديد المعامل التجريبية ، والستائر التى لم تتغير منذ القرن التاسع عشر ، البلدية شنت هجوما مستترا ، ثم سـافرا ، فظهور الأستاذ فى البرنامج مع بربارة وبينهما مترجمة أو مترجم يستخدم لغة الصم والبكم فيه خدمة لقضية المعاقين ، ليس فى المدينة فقط ولكن فى العالم كله .

رجال الجامعة أكدوا أن هذا الهدف الانســـانى لا يحرك البلدية ، انما هناك هدفين محددين الأول استغلال البرنامج المقترح فى الدعاية لتنشيط السياحة ، خاصة أن عدد الأفواج الأمريكية

أقل بكثير مما هو متوقع ، الثانى هو المبلغ المعروض ، المليونان سوف يحولان الى البنوك المحلية وهذا يزيد من رصيد العملة الصعبة فى المدينة ، ويوقف الارتفاع المستمر فى ســـعر الدولار ، هذه الأسباب كلها شرحها رجال البلدية بالتفصيل ، ولكنها قوبلت بصد ورفض حازمين ، من هنا يمكن تفســير الشماتة الشديدة العلنية بعدما جرى للأستاذ النابغة ، وتفصيل ذلك أنه خــلال انشغاله بدراســـة حزام الكويكبات بين الأرض والمريخ ، وبعد أن أجرى حسابات معقدة ، أيقن من احتمال اصــطدام أربعة منها بكوكب الأرض خلال المليون سنة القادمة ، خاصة اذا تماست المدارات ٠

النتائج لاقت أصداء واســعة ، وتردد اسمه فى العديد من عواصــم العــالم ، وظهرت شروح عديدة ، ورســـوم توضيحية ، وتفسيرات شتى ، ولكن ما جرى داخله هو كان مختلفا ، لم يتوقعه أحد ، ذلك أن الحقيقة العلمية التى توصل اليها الحت عليه حتى شغلته تماما ، وصار يفكر فى الانفجار المهول الذى سيقع لحظة الصدام ، وما سيحدث من زلازل وفيضانات ، وانقلابات فى الطبيعة بل ان قوة التصادم اذا زادت على حد معين ربما تؤدى الى تفجير الكوكب وتحوله الى حزام جديد من الكويكبات ، وعندئذ تفنى الحياة الحياة التى لا يوجد حتى الآن أدلة مقنعة على ان ثمة قرينا آخر لها فى الكون الشاسع ٠

فى نومه ، فى يقظته ، فى حركته ، فى ثباته ، ألح عليــه الأمر وطغا ، قل وسنه ، وطال سهره ، وعجزت اشاراته عن التعبير عما يمر به من خوف واضطراب عظيمين ٠

ولما بدأ أمره فى الشيوع ، عرض عليه زملاؤه دخول المستشفى الجامعى لبضعة أيام فقط ٠٠ لاجراء فحوص عادية ، أو لالتماس الراحة ٠

رفض ٠٠ وفى احدى الليالى ألقى الحرس الجامعى القبض عليه عند مدخل القبو الجامعى الممتد تحت الأرض حيث الكنوز والنفائس ، اقتيد الى التحقيق ، فهذا موقف لا تجدى فيه شفاعة زملائه ، ولا شفقة الاداريين القدامى ٠ خاصة انه صرح بنواياه ، عندما قال انه يريد الوقوف على سرج الحصان الذى ركبه الاسكندر الأكبر عند غزوه بلاد فارس ٠ كذلك الحصول على كأس البللور الصخرى التى دفعها سليمان الحكيم الى شفتى بلقيس ملكة سبأ وسقاها ماء الورد ٠

كثيرا ما تردد مصادر الجامعة وجود السرج والكأس ، لكن لم ترد أى تفاصيل عنهما فى قوائم المقتنيات التى يسمح باعدادها ونشرها كل مائة عام مرة ٠ لهذا من غير المسموح به مجرد التفكير فى طلب الاطلاع عليهما ، وادرجا فى المقتنيات المحرمة ٠

تأسف الناس على الأستاذ النابغة ، ورثاه بعضهم حبا ، وتذكره أصحاب المتاجر ، وعمال المطاعم ، ومحصلو الشركة المحلية للنقل ، والعاملات فى المسرح الكبير ، ودار السينما الصيفية ، كان لطيفا كريما ، خجولا ، سريع البديهة ، يفهم ما يقال من حركة الشفتين وتعبيرات الوجه ٠

أليس أمرا مؤسفا ان ينتهى الى المستشفى الجامعى ، وأن يوخز بأبر الحقن حتى يمكنه النوم ؟

مصادر البلدية رددت ما يشاع عن مس يصيب الأساتذة فجأة ٠ وذكرت بعض الروايات بمصير الفيلسوف الذى كان أول من نطق عبارة : صباح الخير ٠

ترى من خطا فوق هذه الأرض قبل الف عام ؟ ٠ من سيعبر هذه الناصية بعد قرن من الآن ؟ ٠ أى صور ستتوارد على ذهنه ؟ وماذا سيثيره ذلك الوجود المحيط من تداعيات ؟

يجتاز الباب الرئيسى متسائلا ، هل سيعبره مرة أخرى يوما ما ؟ هل ترقبه الباسمة ، الرقيقة من مكان ما ؟ يمشى متئدا ، متمهلا ، يهفو قلبه الى لا شىء يمكن تعيينه أو تحديده ، بعد لحظات سيراها ، سيتوجهان ، خلف المنضدة المستطيلة ، فوقها مطبوعات شتى ..

أين .. أين هى ؟

فتاة أخرى ، أقصر ، أكثر امتلاء . كان ممكنا له التفكير فى احتمال ذهابها هنا أو هناك ، ظهورها بعد قليل تفيض حيوية ، تتدفق نشاطا ، ترتب الكتيبات ، تخاطب هذا ، تومىء لذاك ، تنتقل من أول المنضدة الى آخرها ، تفتح الدرج الصغير لتبدل نقودا أو لترد ما تبقى ، تعيد ترتيب الأوراق ، غير أن يقينا خفيا أكد له استحالة ظهورها .

يومىء محييا .

تجاوبه القصيرة بتحفظ باد ، هل من اللائق أن يسألها عن زميلتها ؟ تردد .. لكنها عندما خاطبته باسمة ، دهش ، خاصة أنها لم تتجه بعينها الى البطاقة الصغيرة ، المعلقة الى صدره . تتساءل عما اذا كان يحتاج الى خدمة ما ؟ .

ــ أتمنى ابلاغ تحياتى الى زميلتك ، سنرحل غدا فى ساعة مبكرة .

ــ أى زميلة ؟

يتطلع مبتسما ، يشير الى حيث تقف ، تنظر مرتابة ، تشير بكلتا يديها الى صدرها ..

ــ لم أفارق مكانى منذ أول يوم ..

ـ لكنها ..

تشير الى الحاسب الآلى ..

ـ آسفة .. عندى شغل ..

تلمس المفاتيح الصغيرة ، المستديرة ، يبتعد متمهلا ، شاكا فيما عنده . مثخنا بالحيرة . يلج القاعة ، المكان كله فى حالة تأهب لاستقبال الأعضاء .

زجاجات المياه المعدنيــة المعبأة من النبع الفوار الذى دارت بسببه الحروب وسفكت دماء الأطباق المستطيلة التى لا تستخدم الا فى الجامعة ، كل أطباق المدينة مستديرة ، البيوت ، المطاعم ، المقاهى ، أقراص الحلوى المصنوعة من عسل ينتج من مناحل كلية الزراعة ، اشتهر بجودته ، ولسعة مميزة لمذاقه ، تماما كتلك التى تناولها أمس من يدها ، يستعيد اصرارها على أن يأخذ ما تبقى ، عنده واحدة فى الفندق ، تمثل أمامه ، تقف بسموقها ، بجديتها ، بلين ملامحها ، بصرهــا الحازم لمحاولته التقرب ، اقبالها المفاجىء وتقبيلها . لو يعرف الطريق الى منزلها لمضى الآن ، لترك بطاقة تحمل سطورا وداعية . يذكر صندوق البريد الصغير المعلق الى الجدار بعد المدخل ، فتحته ، تناولت خطابات ونشرات اعلانية ألقت بها فى صندوق المهملات المطلى بلون أبيض ، لم تقرأها ، مؤكد ذلك ، لم يقصه انسان عليه ، لم يطالعه فى كتاب ، رأى وسمع ، أين هى اذن ؟ أين ؟

يتأمل السقف ، التماثيل الصغيرة ، أطفال مجنحين ، نساء نصفهن الأعلى آدمى برى ، أما الأسفل فبحرى ، لهن ألقى الهى ، وأوضاع ربوبية ، هذه القاعة للاحتفالات النادرة ، فيها يتم تنصيب رؤساء الجامعة عبر طقوس مهيبة ، فى مبنى البلدية القديم قاعة مماثلة جرى تجهيزها منذ أربعة قرون لتنصيب رؤساء البلدية .

لكنهـــا خصصت لأغراض أخرى ، مثل اقامة المعـــارض الهـامة والاستثنائيـة ، مثل معرض الآثار الفرعونية الذى استمر ثـلاثة أشهر ، وشهده أربعمائة ألف متفرج ، وما زال رجال البلدية يرددون هذا الرقم بفخر ، وان أرجعه الجامعيون الى أهمية الآثار ذاتها ، والدليل تواضع أرقام الزوار المترددين على المعارض الأخرى ، وبالطبع لايخفى الغرض الاقتصادى من استغلال المكان وهذا ما لا يمكن ان تقبله ادارة الجامعة ٠

الأعضـــاء لم يصـــلوا بعد ٠ اعتاد مثل هذه الاحتفالات والمؤتمرات ٠ والأبحاث ، التوصـيات ، القرارات ، تكرار وجوه المدعوين ، بعضهم يقدم بحثه فى أكثر من اجتماع ، يغير المقدمة ويعيد صياغة بعض السـطور ، يتابع ساخرا حماس البعض ، افتعالهم النقاش ، معظم وقته يشرد ، لا يوجد الا بمثوله الجثمانى . أما مشاركته الفعالة فلحظة القاء بحثه ، أو ابداء بعض الملاحظات . يردد أحيانا ، المهم تسديد نفقات الاقامة وبطاقة السفر بالمشاركة . باثارة جدل ما ٠ لا يهتم بما يدور فى خلفيات الحفل ، أولى اهتمامه لتجميع الدراسات المطبوعة بمناسبة تأسيس الجامعة ، أما رغبته فى التطلع الى الفسيفساء الملونة فى سقف المدخل الرئيسى فتتجاوز استعداده للمشاركة فى المناقشـــات أو الاصغاء الى ما يلقى من بحوث ٠

كثيرا ما صد النوم وقاوم الاغفاء أثناء الجلسات المطولة ٠

أمس ٠٠ قالت له الباسقة ــ التى لا يدرى أين مسعاها الآن عندما يلتحق أبناء المدينة بالجامعة يمرون باضطراب ، طوال مدة دراستهم ، ولاؤهم جامعى ، حتى اذا تخرجوا وعملوا فى مصالح البلدية ومنشآتهـا انقلبت أحوالهم ، ولزم جهدهم بمـا يخالف ما تلقوه عبر سـنوات ، يمر الكثيرون منهم بأزمات حقيقية رغم الدورات التمهيدية المكثفة التى تنظمهـا البلدية بغرض معلن هو

التعريف بتاريخ البلدية ونظمها ، ولكن جوهره ازالة أى أثر للولاء الجامعى

قالت أيضا ان مشاكل عديدة تنشب داخل العائلات ، اذا ضمت الواحدة شقيقين ، أحدهما جامعى ، والآخر بلدى ، لا يمكن الا للأسرة الراسخة احتواء مثل تلك الأزمة ٠

أشار المغربى فى حديثه اليه ٠٠ صحيح ، أين المغربى ؟ لماذا اختفى ؟ الليلة سيجرب رقم الهاتف ، سيطلب من بدالة الفندق الاتصال ، سيحاول الاصغاء اليه ، أو أنه وهم لا وجود له هو الآخر ؟ ٠ حدثه عن صلة الجامعة والبلدية بالخارج ، صحيح ان العلاقات بالدول والمنظمات الأجنبية من اختصاص الحكومة الاتحادية ، لكن تراثا طويلا من الممارسات ليس سهلا تجاوزه ٠ البلدية لها علاقات وثيقة بمدن العالم ، وللجامعة صلات قديمة بالهيئات العلمية المماثلة ، وكثير من خريجيها يتولون مناصب هامة فى دول مختلفة ، خاصة فى البلاد النامية ، وأحيانا يذكر لقب الوزير مقرونا بتخرجه منها ، التنافس قديم ، مصادر البلدية تردد دائما أن عدد الملوك والرؤساء الذين زاروا أو كاتبوا عمدة المدينة أكثر من أولئك الذين اتصلوا بالجامعة ٠ لكن الأساتذة يقولون ان عدد الشخصيات العلمية والأدبية الذين أقاموا صلات مباشرة أو غير مباشرة لا يمكن حصرهم ، ثم يتساءلون بترفع : من يذكر الآن اسم العمدة وقت قدوم شكسبير ، وحضوره عرض احدى مسرحياته على المسرح الرومانى القديم الذى توجد بقاياه الآن قرب كلية الفنون الدرامية ٠ من يذكر رئيس البلدية عندما جاء الفيلسوف العربى ابن رشيد ، والقى دروسا فى المنطق لمدة سنة كاملة ؟

التفاصيل عديدة ٠ لو اهتم بكل منها لأفنى وقتا وجهدا ، ان وجوده هنا عابر ، انما جاء ممثلا لهيئته بدلا من زميل أقعده

المرض ، اذا شارك فمن قبيل المجاملة ، والحرص ·· حتى لا يقال بعد سفره أنه لم ينطق حرفا · الحقيقة أنه يقمع فضولا عنده ورغبة فى الالمام ، خاصة بعد تحذير المغربى من أخطار ربما تكون خفية الآن ، غير أنها دانية · تظهر فجأة ، لم يكف عن رصد ما يسمعه ، ما يمر به ، يرجىء كتابة بعض السطور فى مفكرته الصغيرة التى اعتاد حملها فى جيب سترته الى ما بعد اقلاع الطائرة . ربما اطلع عليها أحدهم !

ساعة معصمه ، ساعة القاعة ذات البندول الذهبى ·

ثمة تأخير · لم تفتتح الجلسة فى موعدها · لم يأت بقية أعضاء الندوة بعد ، ثلاثة من ممثلى البلاد الشمالية ، يتهامسون ، فيما يلى ذلك علم أن الخلاف حول البيان الختامى بدأ ليلة أمس ، عند دخوله المصعد لحقه رجل نحيل ، من جزر المارتنيك ، طوال الأيام الماضية لم يتبادل معه الا الايماءات · سأله عما اذا كان سيحضر الاجتماع الذى سيعقد فى الغرفة رقم أربعمائة وسبعة ؟ ·

استفسر عما يجرى ؟

قال المارتنيكى ان بعض الزملاء اقترحوا ضرورة مناقشة النص الختامى للبيان ، بعضهم حصلوا على نسخة منه ، أما الهدف من اللقاء فاتخاذ هدف موحد ·

تساءل : ممن ؟

قال المارتنيكى : من البيان الختامى ·

استفسر : من سيتخذ الموقف ؟

قال مبتسما : ممثلو الجنوب ·

أضاف مبتسما ، هذا تعبير مهذب يراد به بلادنا التى يعتبرونها فقيرة ، فى تعبير آخر يقولون ، نامية ، وبكلمة أكثر صراحة يقولون ، متخلفة ·

قال انه مرهق ، جال اليوم فى المدينة ، أما ما سيتوصل اليه الزملاء فسيطلع عليه صباحا ، تساءل : ألن تتاح الفرصة لمناقشة البيان في الجلسة الختامية ؟ أجاب المارتنيكى أن تقاليد الجامعة تتيح ذلك لكن لابد من اتخاذ موقف ·

رفع يده باسطا أصابعه الخمس عند وصول المصعد الى الطابق الثالث ، « نطقها بلهجة أمريكية · لحظتها فكر : أنه لا يحب هذه التحية ، جاوبه مومئا بدون نطق · علم بما جرى فى النقاش الليلى ، لم يندد ، ذلك أن مضمون ما جرى تردد مرتين ، الأولى عقب الافطار ، والثانية فى القاعة ، أول مرة امتد الحوار الى ما بعد الفجر ، بعض الأعضاء لم يغمض لهم جفن ، ذهبوا الى الجلسة الختامية بدون نوم ·

قال أحدهم أنه لا يتخيل صدور البيان بدون اضافة فقرة مقترحة تتكون من أربعة سطور تضم خمسا وأربعين كلمة ، اغفالها يعنى اهمال كل القضايا الحيوية التى تعانى منها الشعوب النامية ، وعلى رأسها بقايا الاستعمار والاستغلال والقهر · قال ان المناسبة لا تتكرر الا كل قرن ، التالية ستحل والعالم خال من جميع المشاركين الآن ، بل لا يدرى أحد اذا كان الكوكب سيكون سابحا فى مداره ! · أخطار عديدة تهدد البشرية ، منها الأرض ، والكون ، ثقب الأوزون ليس ببعيد وما يترتب عليه من تدفق الأشعة فوق البنفسجية ، وارتفاع حرارة الكوكب ، الأستاذ النابغة لم يكن مبالغا عندما انشغل بخطر اصطدام أحد الجبال الطائرة ، هناك أيضا المذنب هالى ، كل الحسابات تؤكد أنه عندما يظهر المرة القادمة سيقترب الى أدنى مسافة ، هذا لم يحدث فى المرات السابقة ، أما الناتج عن التلوث فأمر ذو مضاعفات بلا حد ·

المهم ، ان يكون البيان الختامي وثيقة شاملة ، بحيث تصبح مرآة ملخصة ، مركزة للعصر ٠

بعد نطقه المقدمة ببطء وتمهل ، تلا نص الفقرة المقترحة ٠٠

غير أن الأمر لم يكن بالسهولة التى لاحت فى البداية ، على الرغم ان المجتمعين فى الغرفة يمتون الى جانب واحد ، بعد طول جدل تم الاتفاق على خطوط عامة ، وتحفظ شخص واحد ٠ أنه سفير سابق تجاوز السبعين ، وان بدا أقل عمرا لسواد شعره ، وهمته البادية ، دبلوماسى قديم ، ومن طبيعته تجنب الانحياز الصريح الى هذا الجانب أو ذاك ، لكن أحد الحاضرين ذكر أسبابا أخرى منها حرصه ألا يغضب الجامعة ، أو البلدية حتى توجه اليه الدعوة فيأتى مرة أخرى ٠

تعرف الى هذا السفير واقترب منه خلال اليومين الماضيين ، بدا هادئا ، حريصا على خفض صوته ، والانحناء مبديا احترامه عند اللقاء ٠ اذا واجه من لا يعرفه يبادر بذكر اسمه ، ثم يقول على مهل : سفير سابق فوق العادة ٠

لمح فى عينيه حزنا قديما ، خاصة اذ يتحدث عن زوجته الأولى التى عاشرها أربعين عاما ، لم يختلفا مرة واحدة ، ولم يرتفع صوت أحدهما فى مواجهة الآخر ، ثم يكرر جملا بعينها ٠

« خطفت منى خطفا ٠٠ »

« مثلها لا يعوض ٠٠ »

« كانت تؤنسنى وتريحنى ٠٠ »

صحبته عندما جاء الى هذه البلاد مطلع الخمسينيات ملحقـا أول ، أمضيا فى العاصمة الاتحادية أربع سنوات من أجمل سنى العمر ٠ أنجبا ولدين ، الأول تجاوز الثلاثين الآن بأربعة أعوام ،

هاجر الى كندا ، وخلال احدى رحلاته الى المكسيك تعرف بأدريانا ، أنجبا طفلة واحدة ، يرسل اليه بطاقة فى رأس السنة تحوى سطرا أو سطرين لا غير ٠

« يكفينى ذلك ، المهم أن أطمئن عليه ٠٠ »

الثاني فى الخامسة والعشرين ، استقر به الحال فى تايلاند ، لا يعرف ان كان متزوجا الآن أم لا ؟ لكنه يدير شركة تصدر العمال الى دول الخليج ،أنهما مشغولان دائما ، لكن الأصغر يتصل به هاتفيا كل شهرين أو ثلاثة ، لوطأة الوحدة اضطر الى زواجه الثانى ، أما امرأته الثانية فكانت فنانة تشكيلية مرموقة ، أقامت معرضين فى أحد مقاهى باريس ، سبق زواجها أربع مرات ، طلبت الانفصال بهدوء ، وعندما سألها عن السبب ، قالت : أنت مهذب أكثر من اللازم ! ٠ قال انه لا يفهم ، اجابته بحدة : تنام معى وكأنك تقدم أوراق اعتمادك ! قال ان كلا منهما تجنب الآخر تماما بعد انفصالهما ، أما الزواج الثالث فتم بعد سنة ، واستمر ستة شهور رغم أنها قريبته ٠

« كانت قاسية ٠٠ قاسية ٠٠ » ٠

سأله عما اذا رأى حفيدته ؟

« صورتها ٠٠ صورتها فقط ٠٠ »

ملامح السفير ، ايقاع صـوته ، حضوره ، استعاده مرات رغم قصر العلاقة ، غير أنه تفهم صمته ، وايثاره النأى عن الآخـرين ، كان يمضى وقتا ! ، كثيرا ما تذكر هدوءه وامتثاله وسعيه الذى لا يرى فيدركه حنين ممتزج بأسى ٠

منه عالم وألم بما جـرى فى الاجتماع الليلى ، حول منضـدة مستطيلة تحلق أربعة ، الآخرون قعدوا فوق السرير ، جاء ممثل عن

الجامعة أستاذ بكلية الطب ، مشهود له بفهم أحوال القلب واجراء الجراحات المعقدة ، خاصة زرع القلوب فى الأجساد العليلة ٠

جاء شاب نحيل ، طويل ، شقرته باهتة ، يبرم طرف شاربه الأيمن بأصابعه ، لم يدر أحد وظيفته ولم يعلن عنها عندما ذكر اسمه وقال انه من رجال البلدية ، يمكث دائما فى قاعة الاجتماعات ملتزما الصمت والتطلع الى المتحدثين بحدة ، وتدوين بعض الملاحظات فى دفتر حجمه مغاير ٠

وصل أيضا بعد بدء الاجتماعات بربع ساعة الرحالة التركى ، شـــاب هائل التكوين ، مترامى الأطراف ، غليظ الرأس ، حلته رياضية بيضاء من قطعة واحدة ، مرصـــعة بعلامات شتى لهيئات ومؤسسات وعلامات تجارية لمنتجات شتى من السيارات الى المياه الغازية ، ورموز مدن ومقاطعات ، لصوته صدى مصاحب له وهذا غريب ٠ بدأ رحلته منذ عامين وسينهيها بعد ثلاث سنوات وأربعة أشهر وخمسة أيام ، حيث يصل فى السابعة صباحا من اليوم الأخير الى مدينة هيروشيما ، هدفه الدعاية لانقاذ الكراكى المهددة بالابادة فى المحيط الهادى ، هيئات دولية عديدة ترعى مشروعه ، وتساهم فى تكاليف سعيه ، يحمل أغراضه على ظهره ، حقيبة من القماش الصناعى المتين ، جيوبهـــا عديدة ، منهـــا المستدير والمستطيل والاسطوانى ، تحوى قائمين من حديد ، يمكن تحويلها الى سرير ، يثبت أعلاها نموذج للكرة الأرضية يعلوه مصباح كهربائى صغير ضـــوؤه أحمر ، يدور كالمصـــابيح المعلقة فوق عربات الأسعاف والشرطة ، وعلى الجانبين بمحاذاة كتفيه تنبثق أعلام مختلفة ، ربما للدول التى مر بها ، أو البلاد التى سيعبرها ٠

ما حير السفير وصـــوله بالطائرة الى العاصـــمة الاتحادية ، وبالقطار المغناطيسى الى المدينة ، أين رحيله مشيا الى هيروشيما ؟

قال التركى أنه كان على مشارف طريق الحرير العظيم عندما وصلته الدعوة لحضور الاحتفال المئوى ، باعتباره رمزا للانسان المدافع عن بقاء الطيور ، بعد نهاية الاحتفال سيرجع ليستأنف رحلته من النقطة التى جاء منها ٠

بعد أن تلا ممثل الجامعة نص البيان ، نقدم عالم النبات الأفريقى وتلا الفقرة المقترح ادراجها ٠ قال انه تم ترجمتها الى خمس لغات حية درءا لسوء الفهم ، وأن التوصل الى هذه السطور تم بعد مناقشات مطولة ٠

قال الطبيب ممثل الجامعة أنه لا يرى أى مانع ، خاصة أن المعنى واضح ، متوازن ٠

رفع الأشقر يده ، بدا هادئا لهجته استنكارية ٠٠

ـ تخيلوا يا سادتى وقع هذا على رجال البلدية ٠٠

ثم قال :

ـ الاحتفال لا يتم فى فراغ مكانى أو زمنى يا سادتى !

السفير أطلق عليه « السيد سادتى » ، اذا بدأ حديثه قال « يا سادتى » اذا أجاب يا سادتى عند القاء التحية ٠ « صباح الخير يا سادتى » « كل شىء على ما يرام يا سادتى ؟ » ٠

قال الأفريقى ، ان تساؤله يفتح بابا لابد من توضيحه قبل عبوره أول الطرق اليه ، فالجامعة لها صورة عامة ، وأخرى خاصة ، الأولى فى العالم كله ، والثانية فى دول الجنوب ، وهناك بعد خفى يربط الطرفين أو الجانبين ، فما يتم الآن محاولة اقرار علاقات متوازية ، بعد ان سيطر الشمال حقبا طويلة ٠ الخطر يطل الآن بعد انهيار المعسكر الاشتراكى وتقدم النظام الغربى ، اضافة الفقرة أمر

مهم للتعبير عن أوضاع جديدة لم تدر بخلد أحد قبل سـنوات قليلة ..

قال الأفريقى أنه يجب أخذ ذلك فى الاعتبار بغض النظر عن دعاوى بعض المؤسسات داخل البلاد .

هنا تردد صوت الرحالة التركى الضخم ذى الصدى .

ـ والكراكى ؟

تطلع اليه الجميع ، تساءل الطبيب ..

ـ أى كراكى ؟

ـ كراكى المحيط الهادى المهددة ..

مد الأشقر يده ، بسط أصابعه ..

ـ أصغوا اليه يا سادتى ..

قال التركى :

ـ انما جئت من أجل هذا .

اتجه الأشقر مباشرة الى الأفريقى

ـ لو فتحنا الباب ، لن ننتهى .. كل منا لديه ما يرغب قوله يا سادتى ..

بعد صمت قصير قال :

ـ يا سادتى ، مثل العبارة المقترحة ستؤدى الى تأجيج خلافات حادة نحاول انقاذ المدينة منها بعد رحيلكم ..

تردد مرة أخرى الصوت العميق المصحوب بالصدى ..

ـ اننى مصر على الاشادة الى وضع الكراكى ..

قام الأشقر بارما شاربه .

ـ سادتى .. هذا ضار جدا !

مناقشــات ختاميــة

.. ثلاثون دقيقة بعد الموعد ، اكتمل الحضور ، مناخ خفى مختلف عن الافتتاح ، ثمة ترقب ، تربص ، رئيس الجامعة يرتدى الزى التاريخى المتوارث ·

ذكر بجلال المناسبة ، وشكر الضيوف الذين قطعوا مسافات شاسعة للمشاركة فى احتفال لا يقام الا كل قرن ·

تمهل قليلا ، قال انه سيتلو البيان الختامى الذى سيصبح من وثائق الجامعة ·

بالطبع .. لن يلم بكل القضايا التى طرحت أو نوقشت ، خاصة ان التنوع فى الحضور غير مسبوق · لذلك يرجو ترحيب الجميع بما سيقال ، وأن يدرك كل من لديه فكرة أو قضية ملحة أنه ليس ضروريا ذكرها بالتفصيل ، بنصها الحرفى ، هنا أفكار عامة تتضمن المبادىء العامة · فى البيان ما يجمع أكثر مما يفرق . وما يقرب يفوق ما يباعد · أما حق ابداء الملاحظات فمن التقاليد الجامعية العريقة ·

بدا الرجل مهيبا ، وقورا ، راسخا مكانه ، ودودا أيضا ، لاحظ البعض جلوس الأشقر الى يمين الطاولة المخصصة للكتبة ، رغم توافر الأجهزة الحديثة لكن الطريقة القديمة حوفظ عليها ، حيث جرت العادة بتدوين ما يلفظ طبقا لطريقة الاختزال القديمة ٠ أما الرحالة التركى فظهر عند طرف المائدة اليسرى ، لم يحضر الجلسات السابقة ، أثار مشكلة عندما أصر على دخول القاعة حاملا حقيبته التى يعلوها المصباح الأحمر الدوار ٠ بعد جهد أقنعوه مخالفة ذلك للنظم المعمول بها ٠ اضطروه الى تركها عند مدخل المبنى ٠

نبرات رئيس الجامعة واضحة ، ثمة نظام خاص لتكبير الصوت فى القاعات ، يعتمد على تصميم المبانى ، نتوءات بمقاسات وارتفاعات محددة ، تجاويف فى الجدران وزوايا تسهل انتقال المويجات وترددها ، لا مثيل لذلك ، ترتيب لا تفصح الجامعة عن هندسته ٠

انه مثقل باغفاءة تراوده ، يحاول استنفاد قواه كاملة ، التركيز على ملابس الأساتذة وألوانها ونقوشها ، محاولة قراءة اللافتات الصغيرة أمام الأعضاء ، اسم الضيف ، درجته العلمية ، البلد الذى جا منه ، أو تسديد البصر الى نقوش الجدران ، الزخارف المتشابكة ، الأغصان المورقة ، تتخللها وجوه أطفال ، عيونهم واسعة ، شبه دامعة ، يستعيد ما قرأه عن هذه التصميمات عن الفنانين الكبار الذين تعاقبوا على نقشها وابداعها ، درجات اللون البنفسجى التى لم يجر توليدها من قبل ولا من بعد ٠

يستنفر من خبايا ذاكرته واقعة جرت فى الزمن الصينى المنقرض ، عندما تبارى فنانان أمام الامبراطورر ٠

شرع الأول فى رسم غصن شجرة ، بعد فراغه منه حام عصفور وحاول أن يحط فوقه ٠

قال رجال الحاشية : لا يوجد أمهر من ذلك ٠

الفنان الآخر رسم بابا في جدار ، كل من يقصده ، يحاول عبوره لكنه يفاجأ بصد مصمت ·

حاد القوم !

مثل ذلك جرى في بلاد فارس ، اذ أقدم رسام على تصوير غصون وزهور وطيور ، يظن الناظر اليها أنها حقيقة · جاء آخر ، اتجه صوب الجدار الأبيض ، الناصع ·· المواجه ، لم يفعل شيئا الا أنه راح يصقل السطح حتى ظهر عليه التعب لما بذله ·

حار القوم به ، لكن ·· شيئا فشيئا اتضحت معالم لوحة ، لم تكن الا المقابلة ·· حتى ليحار الناظر بين الأصل والصورة ، رئيس الجامعة يذكر جملة فيها الجذع والغصن · لم يدر ما سبقها ·

يوشك الوسن أن يدركه ، يرى مدخل المطعم القديم ، صعودها الدرج ، رائحتها الغريبة المتفردة ، تمتمة شفتيها ، اشارة أصابعها ، صندوق بريدها ·

وهم أم حقيقة ؟

أصل أم ظـــلال ؟

الأيدى تصفق ·

لكن الكعكتين في الغرفة ، ما تبقى من هديتها ، مذاق المقانق لم يمح بعد ·

هل غفا ؟

المعاني هائمة ، عامة غير مفصلة ، تتوارد عليه صور عديدة لحظات مارقة ، سرعان ما تنحدر الى المنطقة المعتمة من الذاكرة ، عدا ملامحها المقترنة بقسمات من عيون حياته ، صدى حضورهن

قربه ، جلوسهــا الى جواره ، فى العربة ، فى المطعم ، انفرادهما المؤقت فى البيت ، الطريق الذى يطوى بمجرد قطعه ٠

واقع أم توهم ؟

مبنى فرع الأمن الاتحادى ، الحصن المشيد ، بوابة الغيبة ، بوابة الفلاسفة ، الطرقات التى تضيق اليوم وربما تنسع غدا ، يود مفارقة هذا كله ، لو أن زميله لم يرقد مريضا لما عرف طريقه الى هذه المدينة الغريبة ، المحيرة ، لو يرجع الى غرفته الآن ، يغفو ، لا يفيق الا قبل مغادرته غدا ، يضيق الآن بمكثه ، ثمة ما لا يريح فى المناخ كله ٠

يدنــو كل ترتيب من ذروتــه ، لا ينقض الا الاذن بدخـــول المصورين ، ثم تبدأ المغادرة ٠

لكن ٠٠ ها هو الأستاذ الأفريقى يرفع يده ، متبعا الأصول المرعية ، أى خروج عنها أمر مخل لا يقبله المسئولون ٠ مهما كانت شخصية المتحدث ٠

يمسك رئيس الجامعــة بالجرس الفضى ، المزخرف بعروق نحيلة من الذهب ودوائر صغيرة من الفيروز والمرجان ٠ يهزه بحركة محسوبة ، مقدرة ، ليرن مرتين لا غير ذلك الاذن بالحديث ، ثلاث تعنى الرفض ، أما اذا أصر الطالب فأربع رنات نعنى الاذن للحرس الجامعى بدخول القاعة وارغام المخالف على الخروج ٠

وريقات فى يد الأستاذ الأفريقى ، يقربها من عينيه ، يلتفت الى المنصة ، يبدأ بجملة تتردد كثيرا فى المؤتمرات :

« شكرا ٠٠ سيدى الرئيس » ٠

انه مضطر الى ابداء ملاحظة ، يبدو أن خطأ وقع ، قبل التطرق

الى التفاصيل يجب التأكيد على استثنائية الجلسة ، كل كلمة تلفظ ستصبح موضع بحث وتأمل وتفسير من الأجيال المقبلة ..

البيان الذى تفضل السيد الرئيس بقراءته منذ قليل سيتلى فى مقدمة الاحتفال القادم ، أى .. بعد مائة سنة ، كل من سيصغى اليه لم يفد بعد الى الدنيا ، وكل من سمعه لن يكون موجودا وقتئذ ، ستقوم كيانات ، وتتحلل نظم وتتبدل أوضاع .

يتوقف لحظة ثم يستأنف .

بعد التنبيه ثمة مدخل لابد منه ، تليه مقدمة لايضاح القصد ، واظهار الغاية ، أما المدخل فيتعلق باجتماعين عقدا ليلة أمس وصباح اليوم ، فى الأول تم الاتفاق على صياغة فقرة محددة تتضمن اشارة واضحة الى أمور جوهرية تمس الشمال والجنوب معا . فى الثانى جرى تفاهم ضمنى على التلميح الى مضمونها أو الاشارة اليه ، الأمر اذن لا يتعلق بنص معين ، بمحدوديته أو اطلاقه ، لكن .. الصلة وثيقة بشقين ، الأول يتعلق بجوهر ، والثانى متصل بمبدأ .. يتطلع الى الأشقر ، الشاب يبرم طرف شاربه .

يقول الأفريقى أن أحد السادة الحاضرين جاء قبل الحفل وقال انه أجرى اتصالات مع جهات ذات شأن لم يفصح عنها ، وأن الرأى أجمع على ابداء كل وجهات النظر مع وضع الفروق الجوهرية فى الاعتبار ، وانه لا مانع من ذكر الفقرة كاملة ولكن بعد تغيير صياغة جملة واحدة ، اذ استقر رأى السادة المجهولين على أن تكون هكذا :

« أما عن العلاقات بين الداخل والخارج .. »

بدلا من الصيغة الأصلية :

« وبالنسبة للعلاقات بين الخارج والداخل .. »

يقول ان عددا من الزملاء أعربوا عن تحفظهم ، الا ان الموافقة على التعديل تمت احتراما للمناسبة وحرصا على درء البلبلة ، لكن وقعت المفاجأة بعد تلاوة البيـــان التاريخى ، اذ لم تـــرد من قريب أو بعيد ، وهذا مثير لدهشة جميع الزملاء الذين اختاروه ممثلا لهم ، وناطقا بلسانهم ، اجلالا للحدث التاريخى ..

يتطلع الى المنصة ، يعود الى اطراقة عابرة . يرفع رأسه ، صوته متمهل ، وقور ، كأنه بدل تبديلا .

يقول ان سائر أعضاء دول الجنوب وممثلى جامعاتها يوقفون استمرار مشاركتهم الفعلية على ادراج النص ، وفى حالة الاستجابة فانهم يتمسكون بالجملة الأصلية .

« وبالنسبة للعلاقات بين الخارج والداخل .. »

يتطلع الى المنصة .

« شكرا سيدى الرئيس .. »

سكون متحفز ، مجلل بالنذر تتبدد عنده أى محاولة للاغفاء . ينتهى شروده ، كأنه واصل القاعة للتو ، مع أنه لم يفارق مقعده . فيما بعد علم أن سابقة كهذه لم تحدث خلال الاحتفالات السابقة التى تسجلها الوقائع المدونة ، كتبت صحيفة اتحادية معلقة فى اليوم التالى ، ان تناقضات العصر تعقدت وتشعبت بحيث أثرت على احتفال مهيب كان مخططا له أن يكون الأكثر فرادة ، حيث ان الجامعة ستوصف بعده بالألفية .

يميل رئيس الجامعة الى الامام ، صوته خفيض لكنه واضح ، يبدى الود ، يقول انه ليس ممكنا صياغة بيان يأتى مرضيا للجميع ، لكن الاتفاق ليس مستحيلا .

يرفع الرحالة التركى يده .

يرفع ممثل السوق الأوربية المشتركة ..

يتجاهل رئيس الجامعة يد الرحالة ، يرن الجرس مشيرا الى الثانى . يتطلع الجميع اليه . انه بدين ، عمره متقدم ، عليه هيبة ، جفونه غليظة ، مسدلة ، مما أضفى عليه رخاوة ولا مبالاة .

قال انه أصغى بعناية الى كلمة الزميل االافريقى المحترم ، بداية . يعلن اتفاقه مع الخطوط العريضة بالفقرة المقترح ادراجها . ولكن .. يتمهل أثناء اتجاه بصره الى الأستاذ الافريقى .

يشير بأصابعه قائلا ان ثمة ثلاثة أحوال ، فاما تقييد ، واما تبديل ، واما اطلاق ، فاذا قيل بالتقييد حذفت الفقرة الى حين . بمعنى انه يمكن اضافتها الى النص خلال المائة عام القديمة اما فى المتن واما فى الحواشى ، واذ جرى تبديل يبقى المعنى مع تغيير الصياغة ، أما اذا وقع الاتفاق على الاطلاق .. فلتبق الفقرة .

صمت لحظات ثم استمر .

ان ما يحيره حقا ذلك السطر الذى أشار اليه الزميل الفاضل ، اذ يثير علامات استفهام عديدة بما حواه من اشارة الى الخارج والداخل ، لماذا الاصرار على بقاء الصياغة كما وردت ؟

يتطلع الى المنصة ، نبرات صوته لا توحى بالتوقف ، لم تتغير ولم تهن ، فجأة نطق بعد لحيظات سكوت .

« شكرا .. سيدى الرئيس .. »

يرفع الرحالة التركى يده ، يبدو غاضبا ازاء تجاهله .

تلمع عليه فى هذه اللحظات ملامح المغربى ، خاصة نظراته الجانبية والمعانى الغامضة فى عينيه صمته المثقل بالاحتمالات .

ينتبه الآن الى تطلع الافريقى صوبه فى مواجهته تماما ، لم يتبادلا حوارا طويلا ، التحية وجمل عابرة ، عادية ٠

ترتفع أربع أياد فى القاعة ، يقول رئيس الجامعة مبتسما انه لا يدرى من طلب الكلمة أولا ؟

يشير الرحالة الى صدره بيسراه بينما يمناه مرفوعة ، الأشقر يبرم طرف شاربه ، يومىء صوب التركى ٠

أصوات تؤكد أنه ممثل أكاديمية العلوم الهندية ٠

تعلو نداءات خافتة من نهاية القـاعة ، غير ان ممثل هيئة الفيزياء السوفييتية تلقى الاذن بالكلام ٠

« شكرا ٠٠ سيدى الرئيس » ٠

لم يدر أحد السبب ، هل لقربه من المنصة ؟ ٠ أكد آخرون ان للمتغيرات الجارية فى المعســكر الاشتراكى دخلا كبيرا ٠ قال البعض انما أراد الرئيس احتواء أمر لا مثيل له من قبل ٠ فى البداية أبدى مرحا لكن ردود الفعل هددت باهدار تقاليد حوفظ عليهـــا عصورا متتابعة ، أخـذ عليه كثيرون تبسطه ٠ فيما بعد سخرت صحف البلدية من الادعاء بالحفاظ على التقاليد ٠ انتقادات عديدة وملاحظات معادية أبديت ٠ ما جرى فى القاعة صار موضوعا للجدل ، تخطى حدود الجامعة والمدينة والبلاد كلها ، كل حاضر أثار الأمر بعد أوبته ، اما كتابة واما شفاهة ، كما أدلى الرحالة التركى بتصريحات معادية فى كل مرحلة انتهى اليها ، رغم السماح له بالحديث قرب نهـاية الجلســة بشرط الا يتجاوز دقيقة ونصف ٠ هاجم رئاسة الجامعة وموقفها اللامبالى من حماية البنية وتجاهلها لافتتاح معرض ، واصدار طابع بريد محلى ٠ والاعلان عن مسابقة لتصميم حول ضرورة التكاتف لانقاذ الكراكى ٠

كل رأى قيل برز له مؤيدون ومعارضون ٠ ليس المشاركون فحسب ، انمـا من القرى المختلفة فى المدينـة ، وفى العاصـــمة

الاتحادية ، وفى البلدان التى ينتمى اليها المدعوون ، بل تردد الأمر فى أقطار نائية لم يمثلها أحد ·

فى معظم العواصم الغربية أكد المعلقون والمراقبون للتيارات الخفية أن اصرار ممثلى الجنوب على ايراد الفقرة بنصها انما يعكس جوهر الأزمة بين الشعوب المقهورة والدول الغنية المسيطرة

أشار الناطق بلسان البيت الأبيض الى دور مؤكد للمنظمات الارهابية خاصة العاملة فى منطقة الشرق الأوسط ، وانتهز الفرصة ليهاجم منظمة التحرير الفلسطينية مؤكدا ان ما قدمته حتى الآن من تنازلات لا يعكس الموقف المطلوب منها ·

فسر البعض مقاومة الدول الغربية للسطر الفـائل بعلاقات بين الخارج والداخل ، على أساس الرغبة القوية فى اعلان موقف موحد ضد الحركات الأصولية فى الشرق ، وأشارت وسائل الاعلام الغربية الى اتفاق الاتحاد السوفييتى مع الغرب بوضوح وصراحة وبدون مواربة ·

قيل فى المدينة ، وفى منتديات العاصمة الاتحادية ، وأندية البلياردو الشهيرة فيها ، ان الصراع القديم ، الكامن أيضا · فكلمة الداخل تعنى البلدية ، أما الخارج فتشير الى الجامعة ، هذا معنى متفق عليه ، مستقر منذ القرن الثامن عشر ، وازداد رسوخا بعد تأسيس الدولة ، وأصبح مفروغا منه بعد الحرب العالمية الأولى · صحيح ان البلدية مرتبطة باتفاقيات تآخ مع مدن شتى ، وعمدتها دائم السفر لتلبية الدعوات ، ولكن ينظر اليها دائما باعتبارها من الشئون الداخلية · أما الجامعة فشهرتهـا عالمية ، وطلابهـا من جنسيات شتى ، وعند ورود ذكرها فى أى مكان بالعالم ، انما يعنى كيانا قائما بذاته ، حتى قيل أيهما ينسب الى الآخر ، الجامعـة الأعرق ؟ أو الدولة القوية الأحدث ؟

هذه نقطة تمثل حد الخطر ، مناقشتها أو اثارتها علانية يتضمن محاذير شتى ، صحيح أن البلاد فيها أكثر من عشرين جامعة ، وفي العاصمة كلية شهيرة لدراسة المناظير الضوئية ، يقصدها علماء أمريكا واستراليا ودول الحزام الأمني ، برغم ذلك فان سمعة الجامعة تطغى على هذا كله وتتجاوزه ، وعندما يدعى أحد أساتذتها الى دولة ما يجرى الاعلان عن وصوله قبل مدة كافية ، وتنشر اعلانات عديدة عن المحاضرة التى ستلقى ومكانها ، ويجرى التنافس للحصول على دعوة ، وتتولى السفارات المجهود الأتم · باعتبار وصول الأساتذة فرصة دعاية نادرة للدولة الاتحادية خاصة منتجاتها الزراعية والصناعية · أما زيارات أساتذة الطب العاملون بالمستشفى الجامعى التاريخى ، فيجرى الاعداد لها وتجهيز الحالات المرضية قبل موعدها بخمسة أعوام ·

برغم ارهاقه ، وحاجته الى اغفاءة ما بعد الظهر · الا أن حيوية أينعت ، ورغبة فى الاصغاء استعرت ، وان تجاهل نظرات الأستاذ الأفريقى الحاثة له على المشاركة ، فى لحظة معينة خطر له أن يرفع يده طلبا للحديث ، لكن رئيس الجامعة أعلن فى تلك اللحظة انه سوف يتحدث بصفته أستاذا للمنطق ، وليس رئيسا لهذه المؤسسة العلمية العريقة ·

بالفعل ·· قام ، ابتعد عن مقعده ثلاث خطوات ، أولى ظهره للمنصة ، استقبلها مرة أخرى بعد حسر غطاء رأسه ، يوجه كلماته الى القاعة بصو ت هادىء · يقول انه يتحدث أيضا باعتباره مواطنا يعيش فى هذه المدينة الجميلة ، العريقة ، ان ما يرجوه التوصل الى القاعة بصوت هادىء · يقول انه يتحدث أيضا باعتباره مواطنا أمر لا خلاف عليه ، فاذا قال نفر بابقاء السطر ، وقال آخرون بتحويره ، فيجب الا يؤدى ذلك الى وقوع العناد ، واذا كان الجميع قد تصافحوا فى بداية الحفل ، فما يرجوه أن يودع كل منهم الآخر بدون ضغينة ·

يقف ٠٠ ما رغب قوله كاستاذ للمنطق ٠٠ انتهى ٠ يعود الآن الى صفته الرئاسية ، يتجه الى الموضع الذى استدار عنده ، يرتدى غطاء الرأس ٠ يرجع الى مقعده ٠

مرتان أخريان تخلى عن صفته الرئاسية ، عنــــدما أعلن انه سيتحدث كأستاذ لغويات ، وأفاض فى شرح الفرق بين معنى الداخل والخارج ، لكنه لم يبد رأيه صراحة حفاظا على تقاليد موقعه ، حتى أثناء حديثه كأستاذ للمنطق فى المرة الأولى ، وللغويات فى الثانية ، وبصفته زميلا فى الأكاديمية الطبية السويدية لم يعرف أحد سبب اختياره هذا ، مع انه عضو عامل بعدد من الأكاديميات البارزة ، ومراكز البحث الطبى المتقدمة ٠ علل البعض ذلك بحياد السويد كدولة ٠ ولمح آخرون الى جهوده غير المعلنة للحصــول على جائزة نوبل ، خاصة عندما قال انه سيعلن نبأ لا علاقة له بالنقاش الجارى، لكنه يمس كل انسان ، اذا تمت المرحلة الأولى من مشروع علمى ضخم أنجز فى تكتم ، محوره امكان تحديد الأجل الذى يمكن للفرد من النوع الانسانى أن يعيشه فى هذه الحياة الدنيا ٠

تطلع الجميع بدهشة ، وسمع الجالسون الرحالة التركى يردد بصوت خافت ان هذا كفر وعبث ، بينما نظر اليه الأشـقر مومئا معلنا موافقته لما تمتم به خفية ٠

قال رئيس الجامعــة ان الأبحاث يمكن ان تبدأ عند اليــوم السابع من مولد الطفل ، وبعد فحوص معينة ، واجراء تجـــارب خاصة ، يمكن متابعة وتطورات الجهاز العصبى ، ليست الناتجة عن تفاعلات داخلية فحسب ، انما تلك الناتجة عن هجوم ميكروبى خارجى نتيجة وهن ، تحديد الأمراض المتوقع اصابته بها ، وتغيرات الدم والأنسجة والغدد جهاز المناعة ، سيتم تقسيم العمر الى مراحل، وتحديد المرض الذى يبدأ عند كل منها ٠ وصولا الى اللحظة التى يكتمل فيها مشروع الوجود الانسانى ! ٠ حيث تكف الصور عن

التدفق عبر المخيلة البشرية ، وتنتهى الصور ، وتنطفىء اللمعات المتوارثة ، والمكتسبة ، وتفسد المخيلة الى أبد أبيد ٠

قال انه لا يؤخذ فى الاعتبـــار طبعا الحوادث القدرية مثــل الحوادث والكوارث وبغتات الوقت الخارجـــة عن طـــوع الارادة الانسانية ٠

ثم قال انه سيتم توزيع ملفات على السادة المشاركين يتضمن كل منها تحليلات طبية أجريت بواسطة المستشفى الجامعى ، متبعة وسائل جديدة تماما لاتعتمد على أخذ عينات ، أو اجراء قياسات ، انما تستند الى المراقبة ، والآثار المتبقية ، هذا ما جرى طوال الأيام الماضية بدون أن يشعر أحد ٠٠ انها مفاجأة ، لكنه يرجو أن تكون ســـــارة ٠

بعد انتهائه مباشرة ، دخل القاعة ثلاثة يحملون ملفات أنيقة ، يحمل كل منها اسم عضو مشارك ، عدا اثنين ، الأشقر والرحاله ، أبدى التركى غضبه وقال ان الموقف ضد الكراكى صار سافرا ، ولكن أحد رجال الادارة قال ان التجارب أجريت على الذين التزموا ببرنامج الاحتفال ، خاصة أماكن الاقامة ، مؤكدا ان الرحالة نزل ضيفا فى استراحة البلدية ، وانه لم يكن يأتى الى الفندق الا لتناول الوجبات الثلاث ٠ حيث حصـــــل على دفتر الاذونات الموزع على الجميع ، ويسمح له بدخول المطعم فى أوقات الطعام المقررة ، مع ان استراحة البلدية تتضمن مطبخا يقدم الوجبات الجاهزة !

ينقل البصر بين الرحالة الذى استنفرت ملامحه فى اتجـــاه الغضب ، وبين الملف الموضوع أمامه منذ ثوان ٠

اسمه مكتوب بحروف آلة حديثة جـدا ، البعض شرع فى تقليب الأوراق ، يبدون الدهشة ، لم يقدم على فتح حلقه ، أرجأ ذلك ، لكم تخيل قدرة الانسان على ابصار ما لا يعلمه ، وسبر كنه

المجهول ، وان لم يدر ، كيف ستمضى الحياة فى تلك الظروف ، عندما يعلم الانســـان انه مفارق الى الأبد ، عند حد معين · فرق شاسع بين رحيله بعد خمس ثوان مع جهله بذلك ، وبين عيشــه مائة عام أخرى مع علمه انه راحل فى لحظة محددة ، اذا اطلع على لحظة اكتمال الدائرة وقعت الاحاطة ، اذا تماست البداية بالنهاية كان العدم ، لاراد عندئذ ولا ناجع ، المعرفة الأتم باعثه على القلق . وأحيانا ·· الحيرة ، قيل قديمــا ، لو اطلعتم على الغيب لاخترتم الواقــع ·

يطيل التحديق الى المنصة · رئيس الجامعة يبتسم مرهقا ، كأنه أراد بتوزيع الملفات والاعلان عن هذا المشروع العلمى الغريب أن يفصل بين المتناقشين الى حين ، أو يطوى الخلاف كله ·

يستدعى الى ذهنه ، أو تتوارد عليه لحظات تجواله فى ممرات الحصن المشيد ، صحبة الباسقة ، تقدمها بخطو واثق ، ما البنيان كله الا محاولة تقترب فى جوهـرها من هذا المشروع ، درء خطــر الموت ، اكتشاف أبعاده ، وان اختلفت الوسيلة وتباينت المقاييس ·

فى لحظة معينة أقدم على المشاركة ، طوال الساعات المنقضية تتبع النقاش لاغير ، مضمرا رأيه فى هذه الحجــة أو تلك ، بعــد اتضاح طرفى الخلاف ، مرات عديدة تطلع اليه الأستاذ الافريقى ، حاثا اياه على المشاركة ، باعتبارهما يمتان الى قارة واحــدة ·· وربما ! ، أحد الأسباب المؤكدة كراهية مفاجئة تجاه الأشــقر ، لم يكف عن برم شاربه خفيف الشعيرات ·

طرح لامبالاته جانبــا ، وسخريته من احتدام الجدل حول معنى السطر الذى تركز الخلاف حوله ، بل أوشك على كتابة ورقة يطلب من الافريقى الملاينــة ، فالتاريــخ لن يتوقف ، والواقــع لن يتبدل ، نتيجة ترتيب كلمة الخارج والداخل ، عليه الانتبــاه

الى تبدل المعنى عند ترجمة الجملة الى لغات أخرى ، سيصبح الخارج داخلا ، والداخل خارجا .

هكذا .. في لحظة معينة ، رفع يده ، وبعد سماعه الجرس ، نطق : « شكرا .. سيدى الرئيس » ..

يحرص على ضبط نبرات صوته ، خروجها متسقة ، هادئة ، متناغمة ، مع تصعيد بطىء .

يقول انه سيوضح هدفه مباشرة ، اذ يرى ضرورة الابقاء على الفقرة كاملة بالصيغة التى طرحت بها صباح اليوم قبل بدء الاجتماع الختامى ، واستبعاد أى احتمال للمساومة ، وبالتالى ابقاء عبارة – الخارج والداخل – كما هى .

يتوقف لحظات .

الأشقر يعبث بشاربه فى عصبية وحدة ، هنا يقرر تصعيد حدة لهجته حتى يزيد توتره . يشـــير بأصبعه ، يمعن فى ايراد التفاصيل ، الآثار المترتبة على الموقف المضاد ، تأثير ذلك على العلاقات الودية ، تأويل المواقف بين الظاهر والباطن . بين مفارقات الوقت ، ومتضادات الفهم ، ينحى باللائمة على ممثل الأكاديمية السوفييتية ، يقول ما تحرج الافريقى من نطقه . يلمح الى زمن قريب كانت فيه المنظومة الإشتراكية تناصر أحـــلام الشعوب المستضعفة وتؤازرها .. هنا يرفع العضو السوفييتى يده محتجا . لكن رئيس الجامعة يسمح باستمرار الحديث ، فيمعن فى شرح مصار حذف الفقرة ، أو تغيير الجملة ، ومحاسن الجمع بينها وبين البيان .

« شكرا .. سيدى الرئيس » ..

بعد توقفه ، ساد سكون ، يحاول السفير السابق أن يتوارى

بحضوره ، الابقاء على ملامحه محايدة ، أما الرحالة التركى فيتبادل نظرات حادة ، سريعة مع الأشقر ٠

كما أدرك فيما بعد ، كان الموقف كله معلقـــا بنطقه فطبقا للتقاليد لابد أن يتكلم الجميع ، اذا لزم شخص واحـــد الصمت يستمر النقاش حتى شروعه ٠

يومىء الأستاذ الافريقى راضيا ، مبتسما ، ممتنا ، أستاذة مغربية تفارق مقعدها ، انها دقيقة الحجم ، منمنمة الملامح ، تقترب منه ، تميل عليه ، تحييه بحرارة ، تهمس قائلة انها تعجبت من صمته مع المامها بمواقفه القديمة ، لكن بعد نطقه تدرك الآن أن كمونه تضـــمن قدرا من الحذق والصيانة ، أما هدوءه البـــادى فيخفى تأججا ، حقا ٠٠ انها تحييه ٠

تميل ، تقبله مرتين ٠

يدركه خجل ، يود أن يسألها عما اذا كانت تعرف المغربى المقيم ، لكنه أحجم ، فى عينيها شروع فى قربى ومودة ، الا أن دافعا عنده لم يتحرك ، وحافزا لديه لم ينبض ، ربما لانشغاله باختفاء الباسقة ، أو لفتوره وبدء انزوائه ، تراجعه الى منطقة اللامبالاة التى بدأت عنده منذ سنوات قريبة ، اثر توالى الخيبات العظمى ، وتكاثف الركود ، وتحلل العناصر ، حتى انه يسر كثيرا ويسرى عنده ابتهاج دفين ، لأنه لم يقض فى الحرب زمن اشتراكه واقدامه غير هياب ، غير مبال بالخطر ، بمواجهة الموت من أجـــل معنى أو قضية ٠ غير ان الأحوال مضت بعكس ما قدر لها ، أصعب ما عرفه ما عاناه ، وأضنى مرقده ، وقوع النفار بينه كفرد ، وبين اتجاه خاطىء لمجريات كبرى ، مع ادراكه الأتم لمكامن الخطـــر ، وقلة حيلته ، ومحدودية تأثيره ٠ هذا وعر صعب ، يدركه الكمد اذا شرع التفكير فيه ، كل استعادة لموقف قديم دنا فيه من الخطر بمثابة

مردعة له عن تكرار ذلك . يدرك الآن ان حديثه بعد صمت كان محاولة للثأر من شجون طال تراكمها .

يسعى اليه الاستاذ الأفريقى ، ممثلو الدول الجنوبية ، وحوض الكاريبى ، أقطار الانديز ، جنوب شرق آسيا ، يسعى الى الانفراد فى غرفته ، منبتا عنهم ، مع أنهم تطلعوا اليه حائرين ، متعجبين من صمته المكين الذى تفجر عن حسم لم يتوقعه أحد ، ولم يدر بذهن ..

اللحظة وتداعياتها ..

.. عند استعادتها مرغما ، لايمكنه تحديد ما قبلها أو بعدها حتى لتبدو منفصلة عن كل سياق . منفصلة ، منقطعة ، منتظمة ، تلك لحظات تمثل علامات فارقة ، لا تنسى ولا تمحى ، تؤطر ما قبلها وتحدد ما بعدها ، تشطر الوقت والخطة وتقلب المشروع .

بعد يقينه من حلولها . من اكتمالها ، بدأ هبوط عنده حتى أقصى .

بدت ملامحه موسومة بالواقعة ، ثمة غامض ، خفى ، لا يبين ، يغادره الى الأبد ، وطارىء مجهـول لم يعهـده يحل به اذن .. وقع ما خشيه دائما ، ما احاط منه ، ما أقصـاه بالمخيلة حتى عن هواجسه ، لكنه يعود ليبحث من جديد ، ربما فات بصره ، يحدث أحيانا أن تغيب عن دائرته أشياء محط عناية قصوى ، مع أنها قائمة، ماثلة ، لكن فرط الاهتمام يحجبها وهى فى المتناول .

يرتب محتويات الحقيبة ، يتطلع هنـا .. هناك ، ينفض الأغطية ، يدور مطلا على الزوايا والأركان ، يقف متوسطا الحجرة

مثقلا بالسقف والجدران المتقاربة ، وسكون الجماد ، وانتماء الصديق .

يبذل محاولة للثبات ، لاستيعاب ما جرى ، لاستعادة التفاصيل ، لبدء تصرف أمثل يمكنه من تجاوز المحنة .

عبثا يحاول استعادة آخر لحظة وقعت عيناه عليه ، بالتأكيد كان في حقيبته عندما أطلعت عليه الباسقة في المطعم العتيق ، بعد أن تأملته ، ودهشت لكثرة التأشيرات اعادته اليه مرة أخرى ، نعم.. هذا مؤكد .

ما تلا ذلك ؟

لا يعرف ، لا يدرى ، يصعب عليه استعادة ما كان ، مع أن الوقت دان ، واللحظات لم تنأ بعد ، يمنعه من استعادتها ، من تدقيق تفاصيلها ، شيء لم يقدر على تحديده بالضبط ، كأنه يلغى كل القسمات ، يجتهد ، يسعى ..

لسبب ما تلح عليه قسمات أبيه الراحل منذ عشرين عاما ، اذ يتذكره يرى ملامحه الباقية في الصور المعلقة في البيت ، أو التي يحتفظ بها بين أوراقه ، صور ملتقطة خلال الأعوام الأخيرة من حياته ، لايستعيد حضوره الذى كان ، لمحات ، شذرات هنا ، هناك ، لكن تعجز ذاكرته عن اقتناص موقف يطول أكثر من دقيقة واحدة عبر حياة امتدت أكثر من سبعين عاما ، عايشه واحتمى به وسعى اليه أكثر من ثلاثين ، وعندما قضى فجأة فراه الأسى ، لكنه الآن عاجز عن التشبث بملمح ولو عابرا .

هل وهنت الصلة ؟

هل تقطعت الأسباب ؟

أم يمعن في الايغال نأيا عن الأصول ؟

لماذا يلمح عليه أبوه المندثر الآن ؟ ، ألفقدانه الهوية ؟

بالقطع ، لم تفارقه الحقيبة فى القاعة · أحد المشاركين هندى ، تطلع اليه كأنه يتساءل عن جدوى حمل الحقيبة خلال لحظة يفترق فيها المكان ، الا يعنى اعلانا منه بعدم الثقة فى الآخرين ؟ لكنه فكر وقتئذ ، عليه ألا يعبأ ·· أن يلازم أوراقه · هل كان الجواز داخل الحقيبة عندئذ ؟

لايمكنه القطع ، صعب الجزم ، هنا يبدأ الشك ، يجتهد فى وقف اضطرابه ، تخلخله ، تهمى عليه صور نائية لا تمت الى ما يجتازه بصـــلة ·

رجل يجلس القرفصاء فوق جسر قريب من قريتـــه ، ناحية حارة قديمة ، مصباح قديم يرسل ضوءا واهنا متعبا ، نزول مطر ، رائحة تدفق مياه فى جدول الى أرض زراعية ، خطى أقدام فى شارع مزدحم ليلة عيد ، فتاة تتطلع اليه ، أنفها رومانى ، ملامحها غلامية ، لكن قدها شرقى الأنوثة فى تكوينه وتأوده ، شخص ما يقول ان كل انسان ينتج زمنه الخاص ، عليه أن يوجه وقته ، يقف فى مكان ما ، ميــدان قديم ، لم يستطع تحديده ، ينتظر العبور الى الناحيـــة الأخـرى ·

الى أين ؟

لا يدرى !

كل ما يتعاقب على ذهنه يرتبط بأبيـــه ، حضوره سعيه ، يحاول اقصاء الواردات الغربية ، لا يدرى مصادرها أو بواعثها ، يبدو أن ذلك كان ضروريا ليفصل بين لحظة اكتشاف ضياع هويته وبين محاولته ترتيب ردود أفعاله ، ومواجهة الآنى والآتى ، بل يتجاوز حالة حيادية كأن ما جرى وقع لغيره ، لا يخصه ·

يفارق غرفته بعد تيقنه الفقد ، يجتاز الممر صوب المصعد ، منتبها الى الرائحة الفندقية المتكررة فى أسفاره ، رائحة مفروشات وأثاث واصداء ، وطعام ، وأسرار شتى ٠

يتجه الى موظف الاستقبال ، باختصار شديد يقول انه فقد جواز سفره ، وبطاقة الطائرة ٠٠ ما يريده ، اتخـاذ الاجـراءات القانونيـة ٠ موظف لم يره من قبل ، شـاب ، هادىء ، مهذب ، دبلوماسى الملامح ، يتساءل بثبات عما اذا كان يتهم شـخصا من العاملين بالفندق ؟ ٠

يقول انه لا يعرف بالضبط ، لكن هناك اجراءات معينة يجب اتخاذها ، ثم ان الوقت المتاح له مجرد ساعات ٠

يتطلع اليه متسائلا عن اسمه ؟

ينطق مجيبا بالنص الثلاثى الكامل ٠

ينظر اليـه متمعنا ، كأنه يستوثق أمرا ما ، يضغط أزرار الحاسب الآلى ، حركاته بطيئة ، وجهه كأنه قد من شمع ، يفكر ٠٠ هذا الشخص الذى لا يعرفه ، سيمضى بعد انتهاء عمله الى بيته ، الى صاحبته ، الى امرأته ، الى ركنه المفضل ، الى مدينته ، مكانه ، حيزه ، سترته ، غطاؤه ، أما الاغتراب فعورة ، تجريد من كل واق ، يرفع عينيه تجاهه ، يتساءل :

ـ أنت ضيف الجامعة ؟

يومىء ، يتابع ٠٠

ـ ضيافتك تنتهى غدا ، يجب تسليم الغرفة قبل الثانية عشرة ٠٠

كأنه لم يصغ ، لم يدرك ، لم يفهم ، كل ما يعنيه حد الاقامة ، يعيد ما قاله ، يؤكد على ضرورة بدء الاجراءات المتبعة حتى يمكنه الاتصال بسفارة بلاده فى العاصمة الاتحادية ·

يجيبه باقتضاب ، ان الخطوة الأولى ، ابلاغ الشرطة ، الرقم ·· فى الدليل ·

يصغى الى صوت غليظ ، بمجرد اصغائه اليه قال : ؟ « أهلا » كأنه يتوقعه أو ينتظره ، يقول ان مثل هذه الحالات مسئولية القسم الخاص ، مواعيده صباحية فقط ·

يقول انه مسافر غدا ·

تكة صغيرة تعنى اغلاق الخط ·

فى قاعة الطعام يلمح أستاذا جامعيا ، نشطا ، قيل عنه انه من الشخصيات الهامة التى تلعب دورا وسطا بين البلدية والجامعة بهدف تهدئة الأمور واحتواء الأزمات ، تردد أنه مهدد بالاغتيال من احدى الجماعات الارهابية المتطرفة العاملة بالمدينة ، بسبب آراء يرددها أثناء القائه محاضراته ، لم يفصل أحد طبيعة هذه الآراء ·

يصغى صامتا ، يجيب بكلمة واحدة ·

« مشكلة » ··

ينصح بالذهاب الى القسم الخاص صباح اليوم التالى ، انه الاجراء الوحيد الذى يعلمه ، تلك حادثة غير مسبوقة ، لكنها ·

« مشكلة » ··

يعود الى غرفته ، يتصل بعاملة البدالة ، يملى عليها الرقم ، يقول ان صديقا مغربيا كتبه ، وانه يقيم فى المدينة ، تؤكد العاملة

ان هذا الرقم لا يوجد فى سائر الولايات ، العاصمة الاتحادية خلو منه تماما ، لابد انه فى بلد آخر ٠

اذن ٠٠ في الأمر شيء ، لكنه يعى تماما اللحظات التى أملى المغربى فيها أرقام الهاتف ، لم يخطىء كتابتها ، يحاول اقصاء ملامحه الملحة عليه ، غموض ابتسامته ، يفتش ملابسه من جديد ، محتويات الحقيبة ، متمنيا ، راجيا ، بزوغ اللون الأخضر للغلاف وحافة البطاقة مطلة منه ، يدركه نصب ، يجلس الى حافة الفراش مكتمل الوعى بالفقد ، بالانقطاع ، بوقوع العثرة ٠٠ يردد بصوت مرتفع :

« أين سأكون غدا ، مثل هذه اللحظة تماما ؟؟ ٠٠ »

مفتتح اجرائى ٠٠

٠٠ أدلج فى النعاس بيسر ، بسرعة رحل من اليقظة الى النوم ، عكس لياليه المماثلة السابقة على سفره ، يذكر أرقه ، انتفاء هجوعه ، جلوسه فى الفراش يأسا وانتظارا لانبلاج الصبح ٠

الليلة ٠٠ اختلف الأمر ٠ نوم كمد أوغل فيه كالهرب ٠

لم يتناول افطاره ، مباشرة ٠٠ الى القسم الخاص ، الادارة من الشرطة التى يقع مقرها فى مبنى البلدية ، المدخل من الباب الجانبى ناحية الغرب ، أطلت نذر وضـــعه الجديد ، عندما طالبـه موظف الاستعلامات بما يثبت هويته ٠

يقول انه جاء ليبلغ عن فقد جوازه ، الأمر عاجل ، ساعات قليلة جدا تفصله عن موعد سفره ٠

يردد الموظف كلمة واحدة ، بلهجة مقاربة للاستاذ الجامعى عندما لفظ كلمة واحدة ٠

« مشكلة ٠٠ » ٠

استفسر عما اذا كان لديه أى اثبات للهوية ، أى بطاقة محلية حتى ؟ · عضوية نقابية ، رخصة مرور ، اشتراك نادى ·· أى ورقة عليها اسمه وصورته ·

عند سفره يكتفى بجواز سفره ، لا يحتاج شيئا من هذا ، يطلب منه الانتظار ، يرفع سماعة الهاتف ، يدير رقمين فقط ، من الصعب الاصغاء ، ليس لنطقه اللهجة المحلية الصعبة ، انما لقدرته على الهمس ، يعجب ·· كيف يمكن سماع صوته عند الطرف الآخر ؟، هذا مخالف لخصاله ، يتحدث دائما بصوت مرتفع حتى ليسمعه من يقف على مسافة ، ينتهى الموظف ، لا ينظر اليه ، يراجع أوراقا ما ، ثمة رائحــــة مجهولة المصدر ، مرتبطـــة بالمكان ، تشبه فـراغ المستشفيات ، مطهرات ، محاليل ، طلاء الجدران الأبيض ، لكنه هنا رمادى ، قاتم ، يقف فى مواجهة عجوز ، لابد انه أحيل الى التقاعد منذ زمن ، من أين جاء ؟ ، كيف ظهر فجأة ، ملامحه موصدة ، يشير اليه موظف الاستعلامات أن يتبعه ·

عجوز صامت ، بين الحين والآخر يتطلع ، يومىء ، الأبواب على الجانبين مغلقة ·

يوما أرسلوا فى اســتدعائه ، حددوا الوقت والمكان ، مبنى ادارة المباحث العامة ، قرب ميدان لاظوغلى ، عمارة قديمة ، مستطيلة النوافذ ، كابية الظلال ، كل العاملين يرتدون الملابس المدنيـــة ، غير ان شيئا ما لايبين يوحى بهيئتهم الوظيفية ، فجأة ·· عند منحنى أحد الممرات ظهر اثنان منهما ، يمسكان شخصا معصوب العينين ، موثق اليدين من خلف ، يتعمدان دفعه فى اتجاه الجدران ، بعــــد اصطدامه ، أثر تحقق البغتة يعيدان وجهته صوب الفراغ ، يأمرانه بجفوة أن يمشى · ألا يتوقف ، يمضى رافعا رأسه شأن من لا قدرة لهم على الابصار ، حقا ·· لماذا يرفع المكفوفون رءوسهم دائما ؟

لايدرى .. لكنه جفل يومها ، رؤية القهر أصعب من وقوعه . سماع الانين أوعر من صدوره .

كل خطوة يتوقع فتح أحد الأبواب ، أن يصدر صراخ ما ، أن يبدو شخص موثق ، لكن .. لم يحدث شيء ، وان جثم حضور المبنى عليه . فى المواجهة ساعة قديمة ذات بندول ، لم يتبق على موعد القطار سوى ثلاث ساعات وعشر دقائق ، بدأ سفر المشاركين منذ السادسة صباحا ، حتى الثانية عشرة لن يتبقى واحد منهم ، يعى وضعه لحظة أثر الأخرى ، أمام غرفة مغلقة . يفتح الباب .

ضابط شرطة أو موظف مدنى ؟

لا يدرى ، لم يستفسر ، لا محل لذلك ، بعد اصغائه الى ما قال. امسك قلما من رصاص ، دون ملاحظات ما ، سأل عن الاسم الرباعى وليس الثلاثى ، عن جهة الميلاد ، محل الاقامة الدائم ، الجهة التى يعمل بها ، تاريخ دخوله البلاد ، اسم شركة الطيران الناقلة . البلاد التى زارها خلال السنة الأخيرة فقط ، حالته الاجتماعية ، رقم الجهاز .. جهة اصداره ، وتاريخه .

يحفظ البيانات كلها عدا تاريخ الاصدار هذا ، لم يكن واثقا ، السادس والعشرين أو السابع والعشرين ؟ . أبدى ترددا ، فطلب منه أن يستوثق ، أى خطأ ضار جدا .

لم يفصح عن ضيقة وتحفظه من طريقة توجيه الأسئلة . كأنه موضع اتهام ما ، آثر ألا يجزم .

ـ اذن .. لا تعرف ..

ـ نعم ..

يستفسر عن وسيلة وصـــوله الى المدينة ، ما موعد القطار ، القيام ، الوصول ، أى درجة استقل ؟ هل تحدث الى شخص ما أثناء

الرحلة ؟ كيف انتقل من المحطة الى الفندق ، هل يذكر رقم عربة الأجـرة ؟

ــ لكن الجواز كان معى بعد وصولى ٠٠

بجفاء يقول انه يطلب الاجابة بدون تعليق ، السؤال الذى قد يبدو له بلا معنى ، ربما يكون هاما جدا بالنسبة للاجراءات ، ان كل النقاط لم تحدد عبثا ، بعد لحظات قال انه ملزم بتقديم مثل هذا الايضاح لكنه يقدر ظرفه ٠

ــ اذن ٠٠ لم تأت هنا من قبل ؟

قال انه لم يزر المدينة الا هذه المرة ، لكنه عبر مطار العاصمة منذ سبع سنوات ، لم يخرج من المطار ٠

سأل عن علاقته بالجامعة ، كيف بدأت ؟ متى ؟

يصغى باهتمام الى اسم زميله الذى لم يحضر بسبب مرضـه المفاجىء ، يستفسر عنه ، هل يتشابه تخصصهما ؟ لماذا تم اختياره هو بالذات ؟ هل وصلته دعـوة بديلة ؟ كيف ؟ بالبريد العـادى أو المسجل ؟ أو البرق ؟ ، هل تربطه علاقات شخصية بأحد الأساتذة ، خلال اقامته فى المدينة ٠٠ بمن التقى ؟

يتطلع الى رقم الهاتف الذى أملاه عليه المغربى ، يقول باختصار ان مثل هذا لا يوجد ، يطلب ذكر أوصاف المغربى ، خاصة طوله ، يسأله عما اذا كان مارس الحب مع الباسقة عند زيارتها فى البيت ؟

يطلب منه التأنى والتدقيق ٠

يكف ، يتوقف عن الاجابة ، يردد ضرورة سـفره اليوم ، المشكلة ليست بطاقة الطائرة ، معه ما يكفى للسداد مقابل أخرى جديدة ، لكن الجواز لب المشكلة ، لابد من اجراء بلاغ رسـمى ،

والحصول على صورة معتمدة لتقديمها الى السفارة فى العاصمة الاتحادية ، بعد الاعلان عن الفقد فى احدى الصحف المحليه ، ثم يمر أسبوعان ، فاذا لم يظهر مردود ، يحق له استخراج وثيقة سفر مؤقته ، قال انه يعرف الترتيبات لخبرته السابقة فى السفر ، لو أمكنه الحصول على صورة المحضر الرسمى اليوم يمكنه اختصار الوقت ، سيتوجه مباشرة الى السفارة ، لعلهم يبدون مساعدة خاصة بعد اطلاعهم على مركزه العلمى ٠

يرفع الموظف أو الضابط - لا يدرى - عينيه ، فيهما سخر.

- كيف سيعرفون موقعك وانت بدون أوراق ؟

يقول انه ربما التقى بمن يعرفه ، ان الصحف تنشر عنه أحيانا ٠

يهز رأسه ، يقول ان الأمر ليس بهذه البساطة ، ثم اجراءات عديدة حتى اذا ظهر الجواز الآن فوق هذه المنضدة ٠

يفتح الباب ، يلتفت ، يراه مغلقا ، سمع فتحه ٠٠ هذا مؤكد ، باب أم لا ؟ ، لكنه أحجم ، خاصة عندما قال بتأن رسمى ٠

- نحتاج وقتا ، السفر ومغادرة المدينة اليوم الى أى جهة أمر مستحيل ٠٠

ما طبيعة الاجراءات التى يجب اتباعها فى حالة العثور على الجواز ؟ يجيب بلهجة رسمية ، محايدة ، انها مسئولية القسم ، المهم أن يتجه مباشرة الى ادارة الجامعة ، أن يستخرج منها خطابا رسميا يثبت انه كان مدعوا الى المهرجان أو المحفل كما يطلقون عليه ٠

هذا الخطاب سوف يثبت للشرطة أهم نقطة الآن ، شخصه الذى لايعرفون عنه شيئا ٠٠

عـود غير مرغوب

الى مـن ؟

الى من يتجه بالضبط ؟

يمشى مسرعا ، مقر الجامعة غير بعيد ، الى درجة ما . يعرف الآن المعالم الرئيسية ، ما يرجوه ألا تتبدل ، الا تختفى ، الا تتغير مواقعها ، يعجب للخاطر ، لكنه يوقن الآن ما من شيء ثابت هنـا ! ، مامن أمر مؤكد .

يبدأ عنده حذر ، وخشية ، أن يقع له ضرر أثناء عبور الطريق، أن يفقد وعيه فجأة ، كيف يستدلون عليه ؟

يبتعد اذا حاذى أحد المارة ، يتجنب النظر الى العيون خوفا من تحرش مفاجيء لا يدرى مداه ، يسعى عبر هامش غير مرئى يحيط به نفسه . مصدرها ، من الفندق أو الجامعة ؟ ، لا يهم .. ، يكتب سطورا معدودات . اسمه ، وظيفته ، كيفية فقده الهوية ، عنوانه فى القاهرة ، رجاء الاتصال بسفارة البلاد فى العاصمة الاتحادية .

يضعها فى جيبه ، يتذكر الأطفال الصغار ، الفقراء ، المتخلفين عقليا ، الحفاة ، فوق ثيابهم سطور بخطوط غليظة توضح الاسم والعنوان ، يهز رأسه تأسفا وحسرة ، لكنه سرعان ما يخفى انفعالاته ، ربما لمحها من لا يعرفه فيفسرها بما لا يدريه ، أبواب الاحتمالات لا حصر لها الآن ، انه واثق من سماع صوت الباب فى غرفة التحقيق الكابية ، كيف جرى ذلك ؟ ، ألم يحذره المغربى من عصابات المافيا ، تخصص بعضها فى سرقة الجوازات لاستخدامها فى أهداف شتى • لكن أين هو ؟ لماذا أعطاه رقما غير حقيقى ؟ ، هل قابله فعلا ؟

يبدو السور الخارجى فيشتد كمده ، لم يتوقع أمس العودة مرة أخرى ، وفى مثل هذا الظرف ، حتى الأمس كان ضيفا يقابل بترحيب ، يصغى اليه اذا طلب ، يهتمون به اذا سعى ، الآن •• يخشى الفراغ المحيط به ، انه مجرد ، مكشوف ، مهدد بما يجهله ، بما لا يدرى كنهه ، عرضة للفقد النهائى ، بلا وسم ، بلا رسم ، أما اسمه فلا دلالة له •

الحادية عشر •

ساعة وتحل لحظة مغادرته الفندق • حقيبته فى الغرفة ، مهيأة مغلقة ، توحى لمن يراها بتأهبه ، مع اقترابه من مبنى الادارة يتهيأ للحظات محورية •

يبدو عسر الأمر منذ البداية •

عند البوابة الخارجية أوقفه الحرس الجامعى • ثمة خط فاصل بين الباب والطريق ، غير مسموح بتجاوزه رغم تراص البراميل الحمراء على جانبى الشارع حتى الناصية بما يعنى تبعيته للجامعة ، لكن خروج الحرس الجامعى من البوابات فى الزى الرسمى من الأمور

التي لا يمكن التهاون فيها ، كذلك دخول شرطة البلدية الى الحرم الجامعي ٠

بعد جدل لم يستمر طويلا ، تساءل الحارس ، الضيوف رحلوا والمؤتمر انتهى ٠٠ لماذا بقي اذن ؟ كيف يتأكد من شخصه اذا لم يكن لديه ما يثبت شخصيته ٠

قبل الحارس دخوله الى الحجرة الخشبية المجاورة للباب ٠ يتطلع الى الساعة ، القطار تحرك الآن ، فارق رصيف المحطة ، بطلت بطاقة العودة اذن ٠٠ البقاء محتوم ، كيف ٠٠ أين ؟

هذا مالا يدريه حتى الآن ٠

يدخل رجل مهيب ، يرتدى الزى العـــادى للجامعيين ، فوق العباءة شريط أحمر صغير ، يعنى هذا انه من رجال الادارة ٠ انه مسئول عن نشاط ما ، يبدو وكأنه يرتدى قناعا ، ملامحه الحقيقية مستترة ، أما استفساراته فأشـــد حـــدة من رجـــل الشرطة الذى استجوبه ٠

مرة أخرى ، روى كل التفاصيل ٠

سأل الجامعي عن أول خطوة قام بهـــا عند اكتشـــافه فقـــدان الهوية ؟ ، الى من توجه ؟ من أبلغ ؟ ، اذن ٠٠ من دله على مقر القسم الخاص ؟ من استقبله هناك ؟ هل يمكن أن يصفه بدقة ؟ كيف عومل ؟ ما الأسئلة التي وجهت اليه ؟ ٠

أجاب بهدوء ، لم يبد اعتراضـــــا . لا بالملامح ولا بالنظر ، ولا بنغمات الصوت أو درجاته حتى !

يعود الى الاستفسار عن الشخص الذى وجه الأسئلة ، يطلب منه أن يتذكر بدقة ، هل كان يرتدى رباط عنق أم لا ؟ حـــاول أن يستعيد اللحظات ، بكل ذهنه ، لا يدرى ، لا يمكنه الجزم ٠

منذ أعوام بعيدة سخر أحد طلبته من سؤال أدرج في اختبارات القبول المبدئي حول تمثال رمسيس الثاني ، أي قدم الى الامام ؟ اليمنى أو اليسرى ؟

رغم مروره اليومي بالميـدان ، ورؤيته التمثال الا انه عجز تماما ، قال انه رآه بمخيلتـــه متقدما باليمنى ، ومرة باليسرى ، أكد الطالب أن اجابته الصحيحة كانت مصادفة .

لكن .. الآن في المجازفة مخاطرة ، انه حريص على الاجـابة بدقة مهما بلغت غرابة السؤال ، يؤكد الجامعي أهمية هذه النقطة بالذات ، ليحاول ..

يهز رأسه ، قامعا رغبته في الســؤال عن ضرورة مثـــل هذا الاستفسار السخيف ، يصمت ، بينما يستمر الرجل متوجها اليه بسؤال مباشر .

هل تربطه أي علاقة بأحد رجال البلدية ؟

ينفـى .

هل تعرف الى أحدهم أثناء اقامته المحدودة هنا ؟

مؤكدا ان ذلك لم يقع .

هنا يسدد سؤالا بلهجة محقق ، مدقق ، مستريب .

ـ اذن .. لماذا توجهت الى البلدية ؟

موظف الفندق ، سأل عما يجب أن يفعله ، نصـــحه وذكـر الاجراءات المتبعة ، يمط الجامعي شفتيه ، يقلب بين أصابعه قلما من طراز قديم ، يؤكد تعقد الأمر . يرتفع صـــوته فجأة محتدا ..

ـ من استضافك هنا في هذه المدينة ؟

ـ الجامعـــة ٠٠

يبسط يديه فى اشارة مبهمة ٠

ـ اذن ٠٠ كان يجب ان تجىء الينا أولا ٠٠

يوشك على تبرير وشرح ، لكن الرجل يرفع يده طالبا الكف ، الموقف تعقد الآن ، لا يوجد بين المسئولين الآن من يمكنه البت فى موضوع كهذا ، أو منحه تلك الورقة التى تطلبها شرطة البلدية ٠

يتمهل لحظات ، يرقق لهجته ، انه متفهم تماما للموقف الحرج ، لكن أهم شىء الآن ـ بعد أن أصـــبح الموقف بين يدى البـــلدية ـ الأوراق ٠ ما يثبت شخصيته أمام الشرطة ، فى المطار ، ليس هنا فقط ، انما فى بلاده أيضا ٠

ـ راجعوا البطاقة التى أعدت لى هنا وعلقتها الى صدرى ٠٠

يقول ان جميع البطاقات التى تم جمعها أمس عقب انتهاء الحفل الختامى وضعت فى صندوق متين ، لن يفتح قبل مائة سنة ، لاعلان أسماء من حضروا وعرضها فى لوحة خاصة ، كذلك وثائق الحفـل كلها ، نقلت الى المخزن التاريخى ، تلك ترتيبات لايمكن ايقافهـــا أو تعطيلها أو المساس بها ، الأمر متصل بتقاليد أقدم من أى حضور هنا ، بشريا كان ، أو عمرانيا ، أو اجتماعيا ٠ هناك محاولات قديمة ، قوية ، من جانب بعض الجهات لخرق التقاليـــد الجامعيـة بشكل مباشر أو غير مباشر ، أو احداث أى تراجع ٠

البعض يتساءل ، وماذا لو تغير هذا الترتيب الضئيل ؟ ، لكن أقل تنازل سوف يؤدى الى ما هو أفدح ، بل ربما وصل الأمر الى نفى وجود الفلاسفة الأربعين ٠

ـ أنا لست فى موقع يمكننى أن أعدك باجراء ما ٠٠

يتطلع اليه بثبات ، يتخلى تقريبا عن لهجته شبه الرسمية ٠

ــ اننى مدرك وضعك ، بل اننى مشفق عليك ، اننى ألاحظك منذ وصولك وبداية مشاركتك ، حيرنا صمتك ، وانهماكك فى رسم أشكال غامضة ، حيرت الآخرين حتى تهامس البعض حول سلبيتك ، ثم فوجئوا بموقفك النهـــائى الذى حســـم الموقف ، هذا كله أثار تساؤلات حولك ..

يلاحظ الآن أطياف شبه فى ملامحه بموظف ــ أو ضابط ــ القسم الخاص ، طولهما متقارب ، نحافتهما متوازية ، ايقاع الكلمات، حدة الأنف ، طريقة الكف عن الحديث فجأة .

يستعيد ما عرفه عن خصائص جثمانية تميز رجال الجامعة عن غيرهم ، من ذلك تثاقل حركتهم بعد ســـنوات معدودات من التدريس ، خاصة التمهل عند النطق ، ورفع أحد الحاجبين أحيانا ، أو هز الرأس أثناء الاصغاء ، وبعد تنصيب رئيس الجامعة وعمداء الكليات لا تظهر الابتسامة على وجوههم الا نادرا ، أما كبار المسئولين فى البلدية فان احمرارا خفيفا يكسو وجوههم ، يتزايد مع الايغال فى المناصب ، وطول المكث بهـــا ، كمـــا تظهر على معظمهم أعراض البدانة ، من بروز بطن ، وغلظ رقبة ، وظهور ثنيات بها ، وارتفاع صوت التنفس عند الحديث ، يؤكد الجميع انها علامات فارقة ، ولكن الشبه مؤكد بين هذا الرجل وموظف البلدية .

ــ فى حالة العثور على أى أوراق تخصك ، لابد من انبـــات العلاقة بين الكينونة المادية ، وتلك الأوراق ..

ان ضيقا يجثم عليه ، يقول ان سوء الحظ ألقى به هنا ، لو أن زميله لم يمرض لما جاء أصلا ، ولكن هذا أمر يخصه هو ، ما يجب مراعاته انه جاء ضيفا على الجامعة ، اذن .. هناك مسئولية أخلاقية وقانونية عنه حتى مغادرة المدينة حتى سفره من العاصمة ، اقد تكبد مشاق الرحلة رغم تضعضع صمته و .

يقاطعه بحدة ·

ـ الجامعة مسئولة عمن ؟

يقول باختصـــار ·

ـ عنى ··

تتشابك أصابع يديه

ـ أنت من ؟

يردد بتأن اسمه الثلاثى ، مسبوقا باللقب العلمى ، متبوعا بالمركز الذى يحتله ·

يخبط الرجل المائدة بقبضـــة يده ، تدنو ملامحه تماما من موظف البلدية ، بل ان الرائحة المنبعثة بالحجرة تعيد اليه فراغ المكان الآخـــر ·

ـ أثبت لنـا ذلك ··

ـ ماذا أثبت ؟

ـ إنك أنت من دعوناه ··

يتطلع مباغتا ، مفاجئا ·· يؤكد الجامعى ·

ـ نعم ·· أثبت لنا أنك أنت ·· أنت ··

تضعضعات يقينية

•• يخرج من البوابة ذاتهـــا ، هل الأشجار فى أماكنهـا ؟ ، هل ضاق الطريق الممتد ؟ ، البراميل الحمراء قائمة • لكن المسافات الفاصلة أوسع ، ما من شيء يقينى هنا ، ربما ينظر الى بناء شاخص أمام عينيه ، يحيد عنه لحظات ، اذ يعاود الرؤية تتغير الموجودات •

يسأل نفسه معابثا •

« أحقا أنا •• أنا » ••

يمضى حذرا ، شاكا فى أمره ، على خشيه من ارتكاب خطـــأ ما يعرضه للاحتكاك بالآخرين ، انه فى حاجة الى الهدوء ، الى الاتزان، الى المساعدة •• ، هل أدركه اليأس تمـــاما من لقاء المغـــربى ؟ ، لماذا لا يبذل المحاولة ؟ ، الم يحدثه عن نفوذه فى البلاد ؟ ، يذكر ثقته البادية ، تراثه ، أركان بيته المدجج بالتحف ، مازال النهـــار فى أوجه ، عليه الا يبدد أى لحظة ، اقتراب الليل يخيفه •

عندما نزل عاصمة بلاده شابا ، سعيا لطلب العلم ، منفردا عن الأهل ، سكن غرفة واحدة في الحي العتيق ، كان أفول الضوء وتواريه الهادىء يثير عنده حزنا غامضا ، البيوت متقاربة حتى ليمكنه سماع المتحدثين في الغرف المجاورة ، ومحاولات اشعال المواقد ، أو سقوط شيء ما فجأة ، اصطدام أوان ببعضها ، نداءات مجهولة ، الأصوات الأخيرة للنهار المبتعد · حرص في هذا الزمن البعيد ألا ينزل عليه الليل في غرفته الضيقة ، يخرج ·· يلوذ بزحام الشارع القريب · يسعى منفردا ، لكنه مؤتنس بآخرين لا يعرفهم ، بحركة بيع وشراء لا صلة له بها ، وجمع في المقاهي لايعرفهم ولا يعرفونه ، حتى اذا اكتمل الليل ، وارتفع صوت القارىء يتلو قرآن الثامنة الذي يسبق نشرة الأخبار الرئيسية ، ينسحب راجعا الى مأواه ، مثقلا بالشجى ··

خوفه الآن أوعر ، ليل غريب مقبل ، لا علاقة به أو بمن يشملهم ، ينزل عليه وغربته مكتملة ، هويته مبددة ، يلتمس أدنى عون ، تعاوده خشية اغماء مفاجىء في الطريق أو تمام الأجل ، يتخيل السطور التي ستذكر عثورهم على شخص بلا أوراق ، مجهول تماما ، كيف سيتصرفون ؟ أي اجراءات تتخذ عندئذ ؟ · يلح عليه حضور أبيه المندثر ، عبثا يحاول استخلاص الملامح ، غمام كثيف يحجب عنه ما كان ، ما سعى يوما ·

ما أوهى الصلة كما تبدو الآن !

لينتبه ، ليبذل المحاولة بحثا عن المغربي ، سيبدأ من الفندق ، يستنفر علامات رآها ، يتتبعها ، لكن ·· هل يجدى هذا في مدينة تتغير ثوابتها ، وتتبدل مبانيها ؟

لحظة وصوله الى الفندق لم يتجاوز المدخل ، يدير ظهره المبناء قديم الواجهة ، حديث المضمون ، يمضي باتجاه الميدان ، تماما كما

اتجهت للسيارة التى أقلته · الأقواس لم يدركها تغيير بعد ، عند وصوله الى الميدان الفسيح ، أطال النظر الى البناء الضخم ، القديم ، الغامض ، مركز العمران ، الحد الفاصل بين القديم والجديد · فى موضع ما منه ، يجهله ، أوراق تحوى اسمه ، صفاته ، مالا يعلمه !

لابد أن موضوعه يبحث هنا الآن ، لايدرى اذا كان فى لحظة معينة سيضطر الى ولوجه ، لكن ·· من أين ؟ ، عنـــد الضرورة سيتقدمه أو يتبعه أحدهم ، ربما عصبوا عينيه لحظة اجتياز أماكن محرمة على الغرباء ، لهم اجراءاتهم ، للجامعة تقاليدها ، للمدينـة حركتها وأسرارها ، هذا كله محيط به ، محدق الآن ، عليه المحاولة والامتثـــال ·

هل جرى تغيير ما ؟

صعب المقارنة ، لكن المؤكد ان لون الطلاء تغير الى حـد ما ، طغى الأخضر على الأصفر لغامق ، أما الستائر فلا تدع مجالا للشك ، عندما رآها بصحبة المغربى كانت بيضاء انهـــا بنية قاتمة الآن ، وماذا عن النوافذ ؟ ، القضبان الحديدية المتقاطعة كما هى · لكن الزهرة المعدنية الصفراء لا وجود لها ، ثمة تغير فى الزوايا ، يتابع بحرص أثناء مشيه ، لا يتوقف ، يخشى اثارة الشبهات ، الاقتراب منه الى حد معين غير مسموح ، ربما تعرض لمتاعب لا يدرى كنهها اذا ارتكب خطأ ما بغير قصد ، خاصة هنا ، يتطلع حوله أثناء وقوفه عند الناصية المؤدية منتظرا توقف العربات ·

العربة دارت به هنا حيث ترتفع الأرض قليلا ، يسدل جفنيه مطلا على الصور الداخلية المتبقية عنده ، نعم ·· نعم ، مؤكد من هنا ، يمشى واثقا ، حريصا على ابداء الجدية ، والعزم على التوجه الى قصد محدد ، مازال قريبا من المبنى المخيف ، الباعث على الرهبة ، بصمته ، بأحجاره ، بنوافذه ، فى التسكع مخاطرة ، لكنه بعد حوالى

عشرين خطوة يتوقف . أمامه مباشرة الدرج الحجرى المؤدى الى مطعم المقانق ، لم يتوقع الوصول اليه . موقن انه قطع بصحبتها مسافة أطول بالسيارة ، كيف يصل اليه بسرعة ؟ ، يقوى حضور الباسقة غير المرئى ، أسفرت عن رشاقتها هنا عندما تقدمته كراقصة باليه . أين هى الآن ؟ الطريق الذى يطوى عند النظر اليه قريب .

يصعد السلم ، غير انه لا يؤدى الى المطعم ، ينتهى الى حديقة معلقة ، حشائش مبسوطة ، وشجيرات لم يرها من قبل ، يتوقف ، ألم ير المطعم منذ لحظات ؟ . انه واثق ، لا يشك أبدا .

لا .. انه يبدد وقته . الحديقة مباغتة له ، الوقت يمر بسرعة ، لم يحدثه عنه أحد باعتباره من عمل الفلاسفة الأربعين ، لا يستبعد الآن أى أمر أى طارىء .

كلما تطلع الى ساعة معصمه ، الى أخرى عامة ، أو فى واجهة بيت ، يخطر له : المفروض الآن اقتراب القطار من منتصف المسافة ، من العاصمة ، الطائرة فى الأعالى الآن ، تقلع من القاهرة صباحا ، وترجع ليلا ، تطير بدونه ، سيبقى مقعده خاليــا ، أو يحتله أحــد المدرجين على قائمة الانتظار ، ها هو يضرب فى المدينة مرغما ، يجتاز شارعا بعد شارع ، وطريقــا أثر طــريق ، لكم يشعر انه قصى ، بعيد ، ينظر الى الواجهات القديمة التى تخفى تكوينات حديثة ، لكل شىء ظاهر وباطن ، فى لحظة معينة يتحول ، يتغير ، يتموه ، يخشى ان يضل ، يشرع فى العودة الى الفندق ، بالتأكيد ثمة من يتفحص وضعه الآن ، بعضهم يهتم بأمره وان لم يبد ذلك ، قبل مفارقته الجامعة هدد الرجل الذى حاوره بالاضراب عن الطعام علنا أمام الجامعة ، لم يبد عليه أى تأثر بما سمعه ، لكنه قال بهدوء : ليس هذا من سلوك أهل العلم .

بدت لهجته مغايرة ، غير انه تركه يذهب ، لو استطاع الوصول الى هذا المغربى .

يدخل مقصورة عامة للهاتف ، الحامل المعدنى ، ثلاث أجزاء متوسطة ، كل منها مغطى باعلانات ملونة عن متاجر ومطاعم . يلفت نظره أن الدليل يحوى قسما منفصلا لأرقام تليفونات الجامعة ، ليس الادارات والكليات فقط . انما منازل الأساتذة والعاملين ، كل من له صلة ، الترتيب يوحى كأن الجامعة فى مكان آخر ، الأرقام الأولى متشابهة حتى مع اختلاف مواقع سكنى هيئة التدريس ، هكذا بمجرد أن يبدأ أحدهم في املاء رقمه حتى يكشف عن هويته ، أسماء الجامعة بالتحديد طبعت بحجم أصغر ، البلدية تدير مركز الاتصالات المكون من عدة دوائر .

يقلب الصفحات متمهلا ، متأنيا ، يدقق ، لكن ما من اسم له ملامح عربية ، كيف لم يستفسره عن اسمه ، صحبه وقتا ، جلس اليه فى بيته ، كيف ؟ ، هو لم يطلعه ، وفى خطابه الأول خط سطرين وقعهما ــ صديقك المغربى ــ ، لكن .. ربما ذكر اسمه ولم ينتبه ، هل نسيه بتأثير النبيذ ؟

لا يدرى .. ما من وضوح ، ما من ثبات ، ما من يقين عنده بصحة ذلك ، يفارق مقصورة الهاتف نادما على ما أنفقه من وقت فى البحث ، محاولة فاشلة ، ضيع وقتا ثمينا كان يجب ان يقضيه فيما هو أجدى ، لكن ما الأجدى فى حال كهذا ؟

في مواجهته تقوم مجموعة من المباني الحديثة وان احتفظت بالخطوط القديمة ، لا تنافر بينها وبين العمارات الأخرى ذات الأقواس ، أنها خالية تماما من السكان ، سنوات عديدة لم يقر بها أحد كثرت الأقاويل حولها ، ثمة من يقول أنها تستخدم فى رصد ما يجرى داخل الجامعة ، خاصة أنها تشرف على المنطقة المحددة بالبراميل الحمراء . لكن يرد آخرون ، ما حاجة البلدية الى هذه الوسيلة البدائية من التجسس ، وهناك من البدائل المتاحة ما يفوق الحصر ، الحقيقة انهم شيدوا المباني فى زمن الأسعار الرخيصة ،

ويبقونها خاليـــة لبيعها بعـد تضاعف قيمتها ، ذمم المسئولين فى البلدية خربة ، انهم يحصلون على عمولة معينة مقابل السماح بدفن الميت · يؤكد آخرون ان بعض كبار المسئولين بنوا هذه العمارات · وخصصوا شققها لأبنائهم الذين مازالوا صغارا ، وللأحفاد المحتمل مجيئهم · يحدث هذا بينما أزمة الا سكان فى تزايد مستمر ، ويسوء الوضع جدا فى الحى الصينى · هذه العمارات محور أزمة مستمرة مكتومة مع السلطات الاتحادية ، ولكن الوضع باق على ماهو عليه ، يلاحظ ارتفاع المبانى القديمة المجاورة ·

هل تتغير الارتفاعات ليلا ؟ ، هل تعود أقصر مع ضوء النهار ؟

لم يعد يدهشه شيء ، يقولون انه بعد نزول العتمة تمتد طرق جديدة ، تتوارى مع انبلاج الصبح ، تتبدل ميادين ، وتنشـأ أحياء بأكملها · فى يوم معين من كل سـنة ، فى نوفمبر ، يلتزم أهالى المدينة الصمت ، حتى الجامعيون بمن فيهم الغرباء الذين جاءوا من بلاد قصية للدراسة ، منذ الفجر وحتى منتصف الليل يكف الجميع عن النظر ، لاتتحرك عربات ، ولا يسمح للطائرات بعبور المجـال الجوى ، كما ينهر الأطفال الصغار بشدة اذا عاطوا أو صاحوا ينتظر الجميع تردد أصوات الموتى ، فى الشوارع ، عند مداخل البيوت ، فى الحجرات المغلقة ، فى المتاجر ، المقاهى ، الحانات ، الأسواق ، من الآبار والسواقى التى جفت ، من جذوع الأشجار وأغصانها ، من حيث لا يتوقع الانسان يمكن أن يصغى الى صوت حبيب رحل ، أو صاحب ، أوجد سمع عنه ولم يدركه ، أو مجهولين لا يعرفهم أحد · بينما ينكمش آخـرون خـوفا من تردد أسرار ظن الجميع انطواءها ، أما الجامعيون فيستنفرون قواهم لرصد الأصوات القديمة والتى ينطق بعضها بلغات لم تعد متداولة ، على أمل التقاط حوار دار يوما ، أو جزءا من مناقشة ، أو خطة أثناء اعدادها ، أو خطبة ما ، ربما ساعد ذلك فى كشف أسرار التاريخ الأقصى ، وأهمها موقع مقبرة كبير الفلاسفة ·

ان المحاولات لاتتوقف منذ قرون عديدة ، من الجامعة ، من البلدية من الأمن الاتحادى ، الرئاسى ، الخاص ، الفرعى ، صباح اليوم التالى يسعى رجال البلدية جاهدين لمعـرفة ما توصل اليه الجامعيون أثنـاء اصغائهم الى الموتى ، جهـات شـتى تسعى ، بعض الأفراد ٠

تذكر المدينة هذا البحار الفنزويلى الذى ورث ثروة كبيرة ، وانتقل الى الحى الصينى ، اتخذه مقرا ، حصل على اذن من البلدية بعد دفعه رشاوى وهدايا طائلة ، منها عصا مارشالية صنعت من الياقوت الخالص ، تستقر الآن فى احدى خزائن بنوك سويسرا ، حيث اخفاها رئيس البلدية السـابق ضمن ثروته التى تمكن من تهريبها ، ثم مات قبل أن يخبر أحد أبنائه برقم حسابه السرى ، ان أسرته كلهـا تجتمع وتصغى يوم الموتى بأكمله لعل وعسى ٠ أما البحار الفنزويلى فانفق آخر قرش يمتلكه على تكاليف ما قام به من جهود وحفائر ، أصبح مادة مثيرة للسخرية فى الصحافة المحلية وأحيانا الاتحادية ، لم يفارق المدينة ، يشاهد أحيـانا سـاعيا فى طرقاتها ، لا يدرى أحد اقامته ٠

ضريح كبير الفلاسفة ٠

مطمح الكل ، وغايتهم ، لو أمكنه الوصول اليه ، كل المراجع ، جميع الاشارات تؤكد انه مطمور فى مكان ما ، بما يحويه من أسرار مكتوبة تحوى علوما جمة من معارف الأقدمين ، ومجوهرات وتحف وذخائر ، ولفافات بردى تحوى علوما جمـة من معارف الأقدمين ، تفسر الكثير مما يجرى الآن ، وما يحدث من ظواهر فى المدينة ، كل مقابر الفلاسفة الآخرين اكتشفت ونهبت فى قرون شتى عدا ضريح رئيسهم ٠

يسرع الخطى ، لكن ٠٠ فى غير هرولة ، حتى لا يلفت أنظار الآخرين ، وان بدا كل منهم مشغولا بذاته ، منقطعا عن الآخرين ،

غير انه عند تأهبه لاجتياز شارع عريض يؤدى الى ميـدان صغير تتوسطه نافورة مياه قديمة ، أطال النظر وحد البصر الى لافتة معلقة فوق بناء مواجه .

ثلاثة طوابق ، واجهة دقيقة الخطوط ، منمنمة النقوش ، لها لون الحلوى الممسوسة بالفستق ، كيف لم ينتبه الى البناء ، لم يحدثه المغربي عنه ، ولا الباسقة .

« فندق العربى » ..

هكذا ، فى مركز المدينة وهو لايدرى .

يفسح الخطى ، يتقدم .. لايخشى شبهة .

مربط الفرس ..

.. هذا مبنى قديم بقى على حاله ، لم يلحقه الا تغيير طفيف ، عمره حوالى سبعة قرون ، انشىء كمحط لخيول البريـد ، وفندق لرجاله ، والتجار المسافرين العابرين ، والرحالة ، والأغراب ، ثم مات آخر مالك له فى بداية القرن التاسع عشر ، وأهمل شأنه ، وبان الخراب عليه ، دبت فيه الهوام والجرذان ، كما نهبت محتوياته ، منذ سبعين عاما أبرز أحد رجال البلدية أمام القاضى الفرعى وثيقة تؤكد انحداره من أسرة آخر الملاك ، أظهر أوراقا قديمة ، بها توقيعات شتى ، بعضها واضح والآخر باهت ، أظهر حججا مكتوبة على جلد غزال ، وأوراقا مصنوعة من كتان ، ورسالة ممهورة بطرة عثمانية ، وأخرى مدموغة بختم بابوى ، وثالثة مكتوبة بلغة مندثرة ، غـير منطوقة الآن .

اقتنعت المحكمة فأصدرت حكما نهائيا بتمكينه فوضع يده على المبنى وثبت ، بسرعة بدأ العمل ، أنفق أموالا جمة على التنظيف ، وازالة المخلفات ، والاعداد ، والفرش ، وخلال سنوات قليلة أصبح

من أشهر فنادق البلاد ، وأغلاها ، تميز بمطعم يقدم الوجبات الشرقية المعدة جيدا ٠

نزل به مشاهير وأثرياء وسياسيون وكتاب حصلوا على جوائز عالمية . كما أقام به الفيلد مارشال مونتوجمرى أثناء عودته الى بلاده بعد انتصاره فى معركة العلمين ، وتفصيل ذلك يطول ٠ منذ سبعة وعشرين عاما نزل البلاد أمير عربى ، ومجىء أثرياء الدنيا الى العاصمة الاتحادية أو الى الشواطىء الشمالية أمر معتاد ، لقضاء الأجازات ، أو لعقد صفقات ، أو للقيام بمهام سياسية ، لكن وصول هذا الأمير بدا مختلفا ، اذ طالت مدته ، واشتهر أمره بعد استئجاره طابقين كاملين فى أعرق فنادق العاصمة ، كان ايجارهما لمدة شهرين يكفى لشرائه بيت من طابقين أو ثلاثة تحيطه حديقة ، لكنه لم يقدم ولم يعرف أحد سبب ذلك ٠

كانت تصحبه حاشية قيل ان عددها مائة وأربعون شخصا ، وزعم آخرون أنها تتجاوز المائتين ، أفراد عائلته ، وحرسه الخاص ، والقائمون على ادارة أعماله ، والطباخون ، والسعاة ، وسائقو العربات ، وشخصيات لاتعرف طبيعة عملهم بالضبط ، منهم ثلاثة أو أربعة يقفون عاقدين أيديهم ، متطلعين اليه ، وسكرتيرة انجليزية شابة ، ذات بهاء خاص ، ويقال أنه تعلق بها ، ولزمها لجمالها ، ولخاصية غريبة لم تعرف لدى أى امرأة عداها ، ذلك أنها ترتد بكرا بعد كل مضاجعة !

تنقل فى الولايات حتى نزل المدينة ، ويبدو أن هواءها ناسب أحواله الصحية ، اذ نصحه الأطباء المرافقين باتخاذها مقرا لاقامته ، ولم يعرف السبب بالضبط ٠٠ ، المهم ٠٠ وصل الى المدينة فى يوم مشهود ، خرج فيه الناس وطلبة الجامعة وأساتذتها للفرجة على طرز السيارات الحديثة ، الفارهة ، المزود بعضها بأجهزة تليفزيون وهواتف بعيدة المدى ، ودورات مياه ، ونظم دفاع ذاتية ، تم تخصيص الشارع

الجانبى غرب الفندق لوقوفها ، مقابل رسوم ضخمة تدفع الى البلدية ، لكن الناس تحدثوا عن مبالغ طائلة تقاضاها بعض المسئولين عن الادارات ، وهدايا من أحجار كريمة ، وساعات صنعت كلها من الماس ، ومعاطف من فراء المنك ، والسمور ، وسيارات تتجدد فى المناسبات المختلفة ، من هنا زادت الأعياد التى تحتفل بها البلدية بعد وصول الأمير وبدء اقامته ، كما تكرر الاعلان عن مرض عمدة المدينة أو بعض مساعديه ثم شفائهم بعد أيام قلائل وفى رسالة أعدها أستاذ مادة الاحصاء توصل الى أنهم يمرضون بشكل دورى ، ويتناوبون مناسباتهم السعيدة ، حتى ان أحدهم احتفل بعيد ميلاد ابنته الوحيدة ثلاث مرات فى سنة واحدة ، اقامة الأمير طالت الجامعة أيضا ، لكن فى شكل هبات علنية ، أعلنت الصحف عن تبرع الأمير بمليون دولار كاملة لتجديد بعض المنشآت الجامعية ، كما تبرع بمائة ألف لصالح جمعية مرضى الصدر التى تشرف عليها ادارة المستشفى الجامعى ، وعشرين ألفا لترميم البرج وصيانته ، وعشرين أخرى لتمويل الأبحاث الخاصة بالكشف عن أسراره ، وعشرة آلاف لدعم أعمال لجنة البحث عن قبر كبير الفلاسفة .

هذا ما أعلن عنه ، وما نمى الى علم الناس .

استأجر الفندق كله ، علقت الادارة لافتة كتب عليها « مغلق للخدمة الخاصة » ، لم يعد مقصدا لأحد بسبب الرد الثابت الذى كان يتردد عن الهاتف ، « نأسف الحجرات كلها مشغولة » ، توقفت شركات السياحة عن التعامل معه .

فى الأسابيع الأولى كان المارة يتطلعون الى النوافذ المغلقة دائما ، أى تغيير ولو طفيفا يتناقله الكثيرون ، كظهور شخص ما فى احدى الشرفات ، أو ظهور بعض قطع الثياب منشورة فى الهواء أمام النوافذ ، أو وصول عربات نقل تحمل صناديق مغلقة ، كتب عليها اسم الأمير .

عرف الجميع انه على خلاف مع أشقائه ، وأن ثمة خلافا جرى ، تدخل كبار السن رأوا ضرورة مغادرته البـلد مع احتفاظه بجميع حقوقه وأنصبته المادية فى العائدات الهائلة ، والحق انه تاقاها بانتظام مما أثار انتعاشا فى فرع البنك الاتحادى بالمدينة ، ودفع المسئولين عنه الى التدخل لدى الجهات الأمنية لردع بعض الجماعات المتطرفة التى قررت تنظيم مظاهرة احتجاجية ضد اقامه الأمير ، ومظاهر الثراء الاستفزازية ، ولكن ٠ ٠ لم يقع ذلك ٠

حتى الآن ، لم ير أهل المديرية وجه الأمير ، أو أحد أبنائه ، أو حريمه ، ولا الانجليزية التى ترتد بكرا بعد كل مجامعة ٠ كان المارة يتطلعون الى الطوابق الثلاثة ، المعروف انه مقيم فى الأخير ، يقال انه أحضر أغطية ومفروشات خاصة به ، وأطقم طعام ومقعدا خاصا لجلوسه ٠ أما رياضة المشى اليومى المقـــررة من الأطبـاء فمارسها مطلع كل نهار فى الحديقة الخلفية ، تم تعلية أسوارها وبث خوازيق مدببة ، وزجاج مشطوف وسلك كهربائى لاعاقة أى محاولة للتسلق ، يمشى فى ممراتها جيئة وذهابا محاطا بحراسـة الأمان الأشـــــداء ٠

لم يتحدث أحد من العاملين علانية عنه ، حتى بعد مرور سنوات عديدة على اقامته ، لم يدل أى منهم بتفصيلة ولو ضئيلة ، رغـــم محاولات واغراءات الصحافة المحلية ، والاتحادية ، وعندما اختلف أحد الطباخين مع ادارة الفندق تردد أنه سينشر مذكراته ، لكنها لم تطبع قط ٠

المؤكد ان الأقسام المختصة فى البلدية تعلم كل شىء ، حتى محتويات الصناديق المغلقة التى تصل بشكل منتظم ، تعكس ما يخص البعثة التعليمية الأمريكية التى لم يسمح بدخولها ، أو الاطلاع على محتويات عربات النقل الضخمة التى تصـــل من الميناء أو البلدان المجاورة مباشرة بدون أن يعترضها أحد ، حتى رجال الأمن الاتحادى ٠

حدث أن سرت اشاعات تقول بوفاة الأمير منذ عدة سنوات ، وأن جثمانه أرسل سرا الى بلاده ، أما المقيمون فما هم الا أبناؤه وأحفاده الذين لايقدرون على العودة لخلافات ورثوها ، لكن ثبت عدم صحة ذلك ٠

اذ قام الأمير بزيارة عمدة المدينة ، ورئيس الجامعة في يومين متعاقبين ، بعد منحه لقب المواطنة الشرفية لمرور ربع قرن وقتئذ على مكثه ، وان كان هذا لا يعني منحه الجنسية الاتحادية ٠

مرة واحدة خرج الى مكان عام ، بعض المصريين يؤرخ بهـــا ، يقولون مثلا ، قبل ذهاب الأمير ، أو : بعد خروج الأمير ، ذلك ان أحد رجاله مضى الى مقهى البوابات السبع ، وانفرد بصاحبه ، طلب منه اخلاء المكان كله ليلا ، وان تعويضا مجزيا سوف يدفع له ٠

قبل السابعة وصل ثلاثة من الحرس الخاص ، تفقدوا المقهى ، مخارجه ، ومداخله ، وفحصوا أجهزة الموسيقى ، واعداد المشروبات والمأكولات الخفيفة ، ثم بقوا حتى قدوم سموه ، استقل العربة الرمادية ، عتيقة الطراز ، عرف الجميع انها تخصه ، وان ثمة علاقة حميمة تربطه بها لأسباب لم يعرفها أحد ٠

جلس بمفرده في الشرفة المطلة على الصهريج السابع ، وقف رجال أربعة على بعد قليل منه ، حدق طويلا الى الفراغ ، عدل غطاء رأسه مرة ، أومأ مرتين ، أدار ابهامي يديه حول بعضهما عندما أحاط مقدمة ركبتيه أثناء تراجعه الى الخلف ٠

قام فجأة وعلى وجهه شجى دفين ، ركب عربته ولم يره انسان بعد ذلك في مكان عام ، وجوده أصبح معتادا ، بل ان كثيرين نسوا أمره ، أبطل معظمهم التطلع الى النوافذ والســتائر المسدلة عند مرورهم ، غير ان آخرين لم يكفوا عن ابداء الفضول ٠

رسميا ‥ احتفظ الفندق بالاسم القديم ، « مربط الفرس » ، لكن الناس عرفوه بفندق العربى ، دخل الحوار اليومى عند وصف الطرق وذكر العلامات الدالة ، وفى العام الأخير علقت لافتة عريضة تحمل الاسم الشائع بين الخلق ·

أحيانا يرى المارة رجالا نحافا ، طوال القامة ، أشــــداء ، يرتدون سترات ياقوتية غامقة ، وسراويل واسعة ، وأحذية جلدية لامعة ، يقفون بجوار العربات المصطفة ، يديرون محركاتهم للتسخين، يتفقدونها ، معظمها باق فى مواضع الانتظار منذ قدوم الأمير ، وان تغير بعضها اثر ظهور طراز جديد ، الزجاج كله معتم ، لايمكن رؤية الداخل ، فوق كل سيارة هوائى هاتف ، وثان للمذياع ، وثالث للتليفزيون ، وآخر لا يعرف أحد وظيفته ، يحل جديد مكان القديم « يستمر الانتظار الذى بدأ منذ سبع وعشرين سنة ، الشباب من طلبة الجامعة وأهالى المدينة يقفون على مسافة للفرجة على العربات الحديثة يتأملون ، يقارنون بما اطلعوا عليه من صور فى الصحف ، والاعلانات المرئية ·

الاقتراب ممنوع ‥

يقف حارس من القسم الخاص ، يتبدل ثلاث مرات ، يمنع الفضوليين والمتسكعين وأرباب المقاصد ، وذوى النوايا ، أما دخول الفندق فمستحيل بالنسبة للغرباء ، فقط ‥ يسمح لأصــــحاب العلاقة ·

مجـــريات ..

.. ما من دثار .

ما من ستر ، أو سقف واق ، ما من حيز يضـــم ، يصـــون ويلملم ، انما انفراط وتذرية ، وديمومة فقد ، وقع التحول والتبدل لما عاش زمنا موقنا استحالة تغيره . حل وقت المنعطفات والنتوءات المفاجئة ، كل ما يحيد بالخطة ، ويخترق السياق .

كثيرا ما رأى في مناماته دخوله مسجدا ، وعنـــد فراغه من الصلاة يكتشف فقد حذائه ، يقف حائرا ، وجلا ، يتطلع الى القوم خلسة ، كيف سيطأ الطريق حافيا ؟ ، كيف سيسعى مجردا منقطعا عن كل عون ؟

قبيل مفارقته موطنه ، قبل اقلاعه من وقته ، لو اطلع على رؤيا فيها مجرد اشارة الى بعض مما يمـــر به الآن لسـخر من ذاته ، لردد قائلا « اضغاث أحلام » .

كانت أمه فى الزمن الآفل ، المكتمل ، تقول اذ يواجهها ضيق ، « أين انتظرنى هذا كله ؟ » .

أيـــن ؟

نوافذ مغلقة ، أبواب موصدة ، ستائر مسدلة لاتشى ، طرقات لاتفصح عن أسرار قديمة ، اشارات غير دالة ، تقصيه ولا تدنيه ، أما الأضواء الخافتـــة ، وذبذباتها غير المرئية ، فتضنيه ، تكده ، كذا مداخل البيوت العريضـــة ، بقايا ظلال ، مواضع لاتصلهـا الشمس ، توحى بالكنة ، بالدفء ، بالدعة ، غير انه لايبلغها ، كل لحظة .. منفى يتجدد ويلوح .

بمجرد عبوره الطريق الى الفندق اعترضه الحارس الواقف قرب العربات ، المنتظرة منذ سنوات ، قال ان الفرجة من بعيـد ، فلما أبدى دهشة ، وأطلع الجندى على غرضة ، أطال النظر اليه ، قـــال :

ـ أنت غريب ؟

ثم قال كأنه يردد أمرا يعرفه الكافة : هذا المدخل لم يقترب منه انسان منذ زمن طويل الا فى ثلاثة أحوال ، أن يكون من طاقم الخدمة ، أو من الحاشية ، أو ضيفا من رجال البلدية ، أما اذا كان جامعيا فلابد من حصوله على تصريح من القسم ، لابد من اخطـــار مسبق باسمه وأوصافه معتمد من السكرتيرة الانجليزية للأمـير ، وهذا لايحدث الا نادرا .

أومأ محييا الحارس الذى بدا مرحا ، يمر بنشوة غامضة ، مضى مبتعدا وعنده خشية أن يلق به طالبا منه الاطلاع على ما يثبت هويته ، يمشى متئدا ، مثقلا .

هل يمشى وراءه أحد ؟

هل يتعقبه شخص ما ؟

اذا صح ذلك ، الى أى جهة ينتمى ؟

قالوا له ان العارف بأحوال المدينة المدقق يمكنه ان يميز ملامح الوجوه ، بيسر يتبين له رجل البلدية من الجامعى ·

قال الأستاذ الأفريقى همســـا ان رجـــال البلدية وأســاتذة الجامعة ، يجمتعون ويتزاورون سرا ، وما يقال عن صراعات انما أمور مدبرة لأغراض خفية لا يعلمها أحد ·

لا ·· لن يلتفت خلفه حتى لايثير شبهة ·

شــــبهة ؟

شــــبهة من ؟

الليل شاسع ، المدى بلا حد ، الأمر بلا ضــــفاف ، نفد اليه أجزاء من مدن نائية ، جاس خلالها ، أمضى وأوقاتا ، هل سيبلغها مرة أخرى ؟ ، كل من أقلع أمس عاد الى دياره ، الأفريقى فى موطنه الآن ، كافة من جاءوا ، عادوا ، يتدثرون بحيواتهم عداه !

لكنه مازال يسعى ، قادرا على المواجهة ، تبدو البنايات بعيدة ، متفرقة ، بعد ان كانت متجاورة ، مضمونة ، الشوارع فى الليـــل منقطعة عن بعضها البعض ، الأقواس الحجرية معلقة ، غير متصلة ، فى النهار تضفى على الطابع بعدا طقوسيا ، يستعيد قناطـر شتى عبرها فى حياته ، قنطرة حجرية مشى فوقها طفلا ممسكا يد أبيه . تغمرها رائحة تين عسلية ، أخرى وطئها فى شبابه عند سفره الى بلدة نسى ملامحها وموقعها ومخارجها والمداخل المؤدية اليها، يجتاز احدى البوابات السبع ·

فكرة تومض فجأة ، كيف لم ينتبه من قبل ؟

عند استعادته مواقع البوابات فوق الخريطة ، عند تذكره تفاصيلها المعمارية ، كل منها تواجه الأخرى رغم تباعد المسافات ، لو امتدت خطوط مستقيمة تتقاطع عند موضع محدد . بالضبط .. قرب البرج .

اذن .. هل يستقر ضريح كبير الفلاسفة هنا ؟

هل يمكن هذا ؟

الضريح فى باطن الأرض ، أما البرج المائل فمجرد شاهد هائل الارتفاع فوقه ، لم لا ؟

حدس ، تخمين ، استنتاج ، شبهة يقين ، من أى مصدر واتته تلك الاشراقة المباغتة ، تفسير يدفق عنده طاقة ويبدد وحشة قصوى، اذا حلت مشكلة ، يعلنهم بما فكر فيه . يدعوهم الى بدء البحث .

لكن هذا يستدعى اليقين ، والأمر واهن هنـــا ، يقولون ان الوصول الى الحصن الشيد يصير مستحيلا فى أيام معينة من السنة ، فكلما اتجه اليه من يقصده مسافة يتراجع بنفس القدر ، لم يعاين ذلك ، فهل سيراه ؟

هل ستطول مدته حتى يطلع على ذلك ؟

الأمر صعب !

يعبر مدخل الفندق الذى خشى أن يضل طريقة اليه ، يتجه الى موظف الاستقبال ، انه الشـاب الذى أبلغه ليـلة امس بفقد الجواز ، يقدم اليه البطاقة الصغيرة التى يسلمها مقابل المفتاح ، مدون عليها رقم الغرفة ، يفاجأ بلهجة الموظف الحيادية ، غير المعنيه .

ـ اقامتك انتهت يا سيدى ..

أى جديد مختبىء ؟ ، أى كامن لم يسفر بعد ؟ ، لم يعد واثقا من عبور لحظتين متتاليتين فى ذات الحال ٠

ـ أخبرونى فى الجامعة أنهم مدوا اقامتى يومين ٠٠

يتطلع اليه مرة أخرى ، وكأنه بعيد اكتشاف مثوله أمامه . ينظر الى لوحة الحاسب الآلى ، يضغط مفاتيح عديدة ٠

ـ صحيح ٠٠ من فضلك ٠٠ جواز سفرك ٠٠

ـ الا تعرف انه مفقود ؟ أنت أول من أبلغته أمس ٠٠

ـ صحيح ٠٠ صحيح ٠٠ ألا يوجد خطاب من الادارة ؟؟

يهز رأسه نفيا ، يشير الى أعلى ٠

ـ أنا مقيم ، وبيانات هويتى مدونة وحقيبتى فى الغرفة ٠٠

يقول ان هذا كله صحيح ، لكن المدة الأولى انتهت ظهر اليوم ، لو اتصلت ادارة الجامعة قبل الثانية عشر لأعتبر ذلك مدا لكنهم أخطروهم بعد الواحدة والنصف ، بعد انتهاء اقامتـه طبقا لقوانين البلدية وتعليماتها الصارمة ٠

ـ الآن ٠٠ لابد من تدوين البيانات من جديد ، يعنى

ـ الآن لابد من الاطلاع على الهوية ٠٠

لايدرى ٠٠ هل حاول قمع ضيقه ، تهدئة انفعاله ؟ أم أن هددا بداخله أدى الى اقترابه ، الى ميله قليلا ، الى تضييق الفراغ الفاصل ، الى نطقه راجيا ، طالبا العون والمساعدة ٠

انه يرجوه بشكل خاص ، يعرف محنته ، هو أول من اطلع عليها النهار كله يبذل الجهد ، ثمة بحث جدى يجرى الآن بلا شك ،

الجامعة والبلدية أحيطا علمـــا ، انه متقـــدم فى السن ، معطوب الشرايين ، فليساعده الليلة فقط ، وغدا تنجلى الأمور ٠٠

ـ هل تقبل أن أسجن ؟

ـ لا ٠٠

يشير الى الخارج

ـ على الجامعة أن تساعدك ٠٠

يطلب حقيبته ، يقول الموظف أنها فى الأمانات ، لكن تسليمها اليه صعب ٠

ـ الهوية ٠٠ ما يثبت انك أنت ٠٠

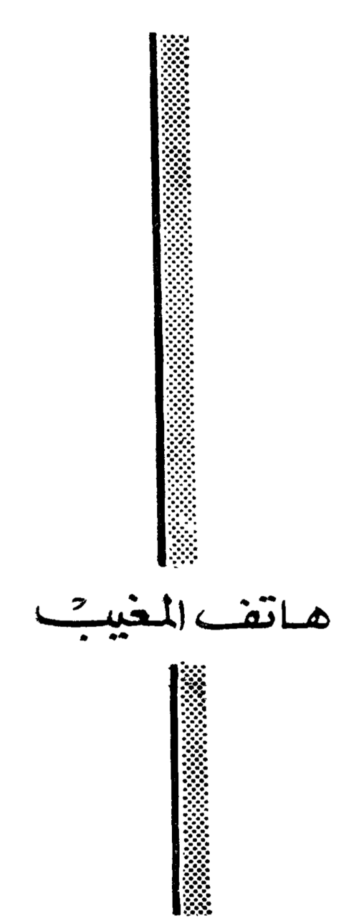
تلك لحظات فارقة ، أيقن من استعادتها مرارا فيما بعد ، هل سيقدر له حكيها لأصحابه فى موطنه ؟

يخرج الى ليل أليل بمفـــرده ، خلوا من كل عـون ، مفتقدا الوجهة والقصد ، ما يدهشه صفاء مفاجىء يحل به ، لايذكر من القائل : عند اكتمال الشوط يستعصى الدمع ، والا ٠٠ هل رأى أحد محتضرا يبكى ؟

مع تبادل الخطى يرحل من صورة الى أخـــرى ، من فكره الى فكرة ، يستعيد تجواله فى مدينته القصية ، الآن توشك سبله أن تنقطع عن مصادرها عصابة تنبت عن ينابيعها ، يتشظى وقته الآنى ، أيامه الأسرية التى لم تدم طويلا ، خلوة ليلية ، جلســة حميمية ، اكتمال ألفة ومودة يستعيد ما أتم كينونته يوما ، يرى ما لم يبصره فى حينه ، تفد عليه دهشة بكر لا يعرفها الا أطفال مازالوا بعد فى مفتتح المواصلة ، كل ما ينطبع فى أفئدتهم مثير للعجب كأنه يكتشف البديهيات من جديد ، مع كل شهيق يفض بريدا من الوجد والشجى٠

يقوى حضور البعد على القرب ، يطغى مالا وجود له على ما يمكنه لمسه ، يمشي متئدا ، مثقلا بهبوب الحنين وعـرا الى مدينتـــه ، الى مدينته ، الى حضورها الآن أول الليل ، نواصيها ، مبانيها ، شورعها، مقاهيها ، أصيلها ، أزمنتها الخريفية انبثاق مآذنها ، تفتح أزاهير أشجارها ، توزع عمره عليها ، ضوء نجومها ، تردد أحلامه فيها ، انبثاق أيامه في دروبه وعند منعطفاتهـا ، حواريهـا ، ميادينها ، أفقها البادى من أعلى ، شب فيها وغض ، وحماه السعى فيها من نوبات القتامة فمن يصله بها الآن ‥ من ؟ ‥

(١٩٨٩)



هاتف المغيب

حدث جمال بن عبد الله كاتب بلاد الغرب فقال :

المؤكد أنه جاء من المشرق ، لم يرد الينا أى انسان من جهة الغرب ، لو وقع ذلك لصار حدثا عجبا ، ديارنا آخر حد العمار اليابس ، نقف على حافة المحيط الأعظم ، بحر الظلمات ، لم يصل الى ضفته الأخرى أحد وعاد ليقص علينا ما رأى ، لكن ٠٠ لم يحل ذلك بين البعض وقصد المجهول ٠

هذا ما ترويه الحكايات عن اخوة سبعة بنوا بأيديهم سفينة متينة ، حملوها بزاد كثيف يؤمن ابحارهم مدة لم يسبقهم اليها أحد ، اختلف القوم فى تقديرها ، ثمة قائل انها شهور ستة ، وآخر يؤكد أنها سنة ، وثالث يجزم أنه أمد غير معلوم ! كان وداعهم مشهودا ، مؤثرا ، قبل طلوعهم ظهر قوم لا يدرى أحد الجهة التى قدموا منها ، أحاطوا بهم وبادلوهم الود ثم أسروا اليهم بما لم يسمعه مخلوق ، وقفوا يرقبون فرد الأشرعة ولحظة استدارة المقدمة واتجاه السفينة غربا ٠٠ اختفوا ٠

عرف هؤلاء برجال البرية ، منها جاءوا واليها مضوا ، وان لم يقطع أحد ولم يجزم ، اما الأشقاء السبعة فغربت أحوالهم · لم يقع بصر عليهم ، تعاقبت أجيال بما يكفى للتأكد من انقضاء أمرهم ، بعض من القوم يشيعون يقينهم بعودتهم يوما ، وأن كل شيء سيتبدل فور قدومهم من جهة الغرب ، تردد هذا خفية ، ولو وقع الجهر به لعوقب قائله وجرى له المكروه ، مولانا اعتبر دعاويهم مخالفة للملة !

صارت غيبتهم مثلا ، فيقال عندنا :

« ·· انتظر اذن عودة المغرر بهم »

أو ··

« اذا رجع الاخوة السبعة »

يقال ذلك في استحالة الأمر ، وصعوبة تحققه ، هذا وارد على الألسنة وان جهل كل منا المنشأ ·

حدثنى ابراهيم الرجراجى أقدم ربابنة البحر فى النواحي ، العالم بأحوال الموج ، وخطوط الطول والعرض ، ومواقع النجوم وطرق الاستدلال بها ، قال ان بعضهم أبحر فى المحيط الأعظم . وصلوا الى حد معين يقوم عنده تمثال من نحاس فوق قاعدة منبثقة من القاع البعيد ، لا يدرى أحد من وضعه ؟ من نحته ؟ من جاء به الى هنا ؟ ولضخامته وغرابته وثق القوم انه من عمل آخرين لا يمتون الى النوع الانسانى ، تمثال له هيئة بشرية ، يستوى واقفا ، مشيرا بيده ، أصابع خمسة مبسوطة ، عليه كتابة بكافة اللغات المنطوقة ··

« لا خطوة بعدى »

أكد الرجراجي أن صوتا يسمع في ليال معينة ، يبدو صادرا من شتى الجهات الفرعية والأصلية ، يتضمن تحذيرا مماثلا ٠

سألت الرجراجي ، هل رآه بعينيه ؟ قال : لا

استفسرت منه عما اذا سمع مباشرة ممن عاينه وتأمله ؟ قال ان الأمر شائع ، وان الربابنة يحذرون الاقتراب منه ٠

لما أوردت هذا لتأكيد استحالة مجيء انسان من جهة المغيب ، بعد أن ردد البعض قدوم صاحبنا عبر المحيط ، المقطوع به مجيئه من المشرق وهذا ما أخبر به ، لم يأت من الجنـــوب لأنه ليس صحراويا ، ولا من الشمال لأنه ليس أعجميا ٠

لم يره انسان من جهتنا لحظة دخوله حاضرة بلادنا ، آخر نقاط الكون المعمور ، عاصمة سلطان بلاد الغرب ، دار العلم ورباط الجهاد ، ديوان الساعين ومقصد السائلين ، مستقر الراحلين ، ومنتهى الآملين خيرا ، حفظ الله واليها وراعيها ٠٠ اليها وصل صاحبنا ، ظهر في حومة السوق وســط المدينة ، قبالة المسجد الجامع ، ارهاقه باد ونصـــبه بين ، تجمع حوله صبية وبعض متسكعين ، صاحوا عليه ، وعندما رفع ولد غر حصاة مستديرة ليقذفه بها تردد صوت مهيب يعرفه الكافة ويخشونه ٠ فوق الدرج المؤدى الى مدخل المســـجد وقف الشيخ الأكبرى المرابط نفعنا الله به ٠

التفت صاحبنا اليه وفي عينيه تعب ورجاء وأمل ممتزج بخوف قديم ، تقدم حاملا خرجه الذى حوى كل متاعه وزاده ، فقط ٠٠ سبعة كتب عتيقة ، سنفصل الحديث عنها فيما بعد ٠ نزل صمت ولزم الخلق سكون ، تقدموا متقاربين حتى وصلوا الى حد غير منظور فكفوا ، انفرد صاحبنا بالتقدم وارتقاء السلم حتى وقف دون الشيخ بدرجتين ، عندئذ سمعه القوم كافة يقول :

« اذن ·· جئت ! »

جاوبه صاحبنا :

« نعـــــــم ·· »

« وكيف الاخوان ؟ »

« يوجهون أرواحهم نحوك ·· »

قال الشيخ هادئا ، واثقا ··

« اذن ·· سيبلغون مرساهم باذنه ·· »

أشار ايذانا بالتقدم ، باجتياز العتبة ، أبدى صاحبنا وجلا فمسح رأسه وملس عمامته ، استدار مواجها الجمع فاطرقوا وبدأ انصرافهم وعندهم خشية !

الشيخ الأكبرى سيد المرابطين ، مهيب الطلعة ، منيع المكانة ، ثابت الجهة ، عالى الهمة ، مسموع الكلمة ، لا يمضى الى عظيم مهما اشتد أمره ، بل يرسل فى طلبه فيمتثل صاغرا ، يزجر الكبير قبل الصغير ، لهذا كله لقبه الناس بالسلطان ، اذا نطق أحدهم اللفظ اياه يعنى ، مع ان سيد البلاد والقائم على تصريف شئونها يتخذ اللقب عينه ، ومنذ حول كامل اضطر الى تغييره خضوعا واضطرارا ، فتلقب بالوالى ، ولم يعد سلطان الا الأكبرى ·

أكثر ما يثير الرهبة منه اشتغاله بالدوائر ، فمرة يتخذ هيئة أسد ، ومرة ينقلب الى فراشة رهيفة ، ومرة يصير سحابة معلقة أو ضوءا ساريا فى العتمة أو زهرة نابتة من الصخر لها ترديد ورجـــع ·

عرف أيضا اشتغاله بالنجوم ، ودراية بحركة الأفلاك البعيدة وتوجهاتها ، خبير بأسرار الحروف وعلاماتها ، ملم بأخبار الذين

غامروا وجاضوا بحر الظلمات ، أو الذين سعوا غربا ، رحلوا ولم يرجعوا ، يقال ان عنده ثبتا بأحوالهم ، ما جرى لهم ، ما انتهوا اليه ، لكنه لا يفضى ولا يبوح ..

لمدة سبعة أيام خلا صاحبنا الى مولانا ، لم يظهر الا وقت الصلاة ، يقف بآخر صف ، خرجه دائما على مقربة منه ، يرد تحية الآخرين بالايماء ، لم يفه حرفا ، بعد تمام الأسبوع ظهر فى باحة المسجد ، متطلعا الى جهة مغيب الشمس دائما ، كأنه يتوقع أمرا ، أو ينتظر اشارة .

عرف بين الناس بالغريب ، فى حضـــوره ، قعدته ، حيرة نظراته ، ما يؤكد أنه عابر ، مؤقت ، مفارق .. الى اين ؟ . هذا ما لم يفصح عنه لمحدثيه ، ولم يصرح به الى بعد بدء جلساتنا واتصال موداتنا ، انما صرت أفهم عنه ، ليس لفظه انما شروداته وسكناته ، أقول ان ثمة اشارات صدرت عنه ، فضضت شيئا من أسرارها ، لكننى ألمحت فى تدوينى ولم أصرح . التزاما بعهد قطعته على نفسى ، بعد بدء تنفيذى التكليف الشريف بتسجيل ما يمليه على ، وهو الا أذكر الا ما صرح به تماما ، ولا أورد لفظا يخل بمعنى نطقـــه .

أعود الى ما بدأته ، وأكف عن استطراد انسقت اليه بدافع الرغبة لشرح الأمور ، والافضاء بما جرى ، أقول ان أمره ذاع خاصة بعد انتهاء عزلته الارادية التى دامت أربعين يوما ، وبدء حديثه الى القوم واخباره عن أمور عاينها وأراض عبرها ، وأزمنة تجاوزته وبلاد اقام بها ، وجاه أتاه على غير توقع ، وسلطة بلا حد زالت عنه ، ونساء عرفهن لا مثيل لهن ، ومشاهدات غريبة لم يسمع بمثلها .

ذاع أمره فى الحاضرة ، وسرى الى النواحى فى البادية ، حتى أصبح ورود القوم عليه من أماكن بعيدة بقصد الاصغاء اليه ،

تلقوا عنه ما بين مكذب ومصدق ، لكن فى كلا الحالتين بدهشة وعجب ٠

ولما فشـا وضعه ، وزاد اللجاج حوله ، أرسل مولانا فى طلبه ليسمع منه بغير وسيط ، لم يلب صاحبنا الأمر مباشرة ، انما مضى الى الشيخ الأكبرى فأعطاه الآذن ، وأبدى الاشارة ٠

هكذا ٠٠ انتقل الى القصر ، آفرد له مكان محفوف بجميع أصـــول الخدمة الواجبة للغرباء من ذوى المكانة ٠ أبدى مولانا اهتماما ، وبعد ثلاث جلسات أمر باستدعائى ٠ فمثلت بين يديه وانتظرت ما سيفضى به ٠

قال ان مجىء هذا الغريب نادر ، مثير ، وانه يمكن نسيانه ، أن يمحى خبره كريح هادئة تعبر المدينة من أقصاها الى أدناها ، فلا تترك أثرا ولا ترسى علامة ٠

توقف مولانا وحدق الى ، جال بأصابعه فى شعيرات لحيته الكثـــة ٠

ــ ما يناسب قولى هذا ؟

أطرقت مقدار لحظة ، ثم قلت ان واحدا من أدباء المشرق أفرد مؤلفا ضخما فى علم الكتابة ، صدره بقوله :

ما هى الأفكار والخواطر ٠٠
انما هى ريح تعبر ٠
وما يقيـــدها ؟
الكتـــابة ٠

استحسن مـــولانا ذلك ، أمرنى بتدوين كل ما يخبر عنه وما يذكره ، أن أستمر حتى يكف ، أن أعرض عليه ما سمعته وكتبته بعد تمامه ، حتى يأمر بنسخه ، حتى تبقى التفاصيل لمن سيحل بعدنا فلا تذرى مع الذاريات ، الى أن يقضى الله أمرا كان مفعـــولا ٠٠

ذكر الهــاتف ٠٠

٠٠ يقول الفقير الى ربه ، الراجى عفوه ، الملتمس حنانه : أحمد بن عبد الله بن على بن عوض بن سلامة ، الجهنى ، الصعيدى ، القاهرى المنشأ ، المصرى المنبت ، ان خروجه عن موطنه جرى يوم الأربعاء ، التاسع من مايو ، منذ خمس وأربعين سنة وربما خمس وخمسين ، أو خمس وسبعين ٠ المدى بعيد والأمر مختلط ، صعب القطع ، وعر التحديد والالمام !

عندما يقول التاســـع انما يحدد اليوم ، لكن مجمل المدة المنقضية غير يقينى ، خاصة أن الشقة بعيدة ، تبدو أحيانا أقل من نهار عابر وتارة أخرى كدهر مثقل ٠

ما يعرفه الآن بعد بلوغه بلاد المغرب أن خروجه تم فجرا ، يتوقف لحظات ، شارد النظر ، غامض القسمات ليتساءل :

لماذا يكون الموت فجرا ؟ كذا الميلاد فى معظم الأحيان ؟

والده أغمض عينيه الى الأبد والخيط الأبيض يوشك أن يبين من الأسود ، أمه ، خاله ، عمته ، نفر من أصحابه المقربين ، اما من ســـمع بمجيئهم الى الدنيا فتمت وفادتهم فجرا بعد أن فارقوا الأرحـــام ٠

لماذا تستعد الجيوش للمنازلة ، فتنتظم الصفوف الساعية الى الهلاك قبل أول ضـــوء ، لماذا يفضـــل أهل العلم بالحرب هذا التوقيت ؟

يطرح السؤال ولا يعقبه باجابة ، ربما ينطق ردودا احتمالية . لكنها غير قاطعـــة ، غير مرضية ، جرى هذا طوال جلوسى معه ، واصغائى اليه ، وتسجيلى ما يمليه على ٠ ومما قاله فى هذا الجانب ان الفجر يعنى دنو اقتران البداية والنهاية ، فثمة ليل ينقضى ، ونهار على وشك !

أقول ، أنا جمال بن عبد الله ، ان القدماء فضلوا البكورة عند السفر ٠ الخروج فجرا مستحب ، ما يمكن طيه صباحا أكثر ، أما الدافع فمتعدد ، من ذلك طلب العلم ، ومطالعة آيات العالم من جمال وتفرد ، ورؤية جبال وبحار وأنواع حيوان وغريب نبات ، وامتزاج لحظات وتفرد أوقات ، يفلت بعضها فيبقى مع صاحبه ولا يفنى الا معه ، سفر من أجل العبادة وزيارة الأولياء ، والأحياء منهم والأمـــوات ، والمعلوم أن زيارة الأحياء مســـتحبة عن زيارة الأموات ، لكن الوقوف على أضرحة الصالحين ومثاوى الغابرين مفضل ، لما فى الأمر من التماس عظة ، أو احياء عبرة ، أو الاقتداء بسيرة ، أو الحنين الى عزيز غاب ، قيل فى الزمن القديم ان النظر الى وجوه العلماء والصالحين والمبدعين فى كل فن عبادة ورغبة فى الاقتداء بهم ، والتخلق بآدابهم ، ثمة سفر للهرب من الفتنة ٠

أسفار أحمد بن عبد الله الجهنى المصرى التى أملاها على لا يمكن توصيفها ٠ أو تحديدها ، لا أخفى حيرتى أنا من لزمت تلك

الديار فلم أفارقها قط ، ليس بسبب تقاعس ، فالشوق غالب ، ولكن الحيلة معدومة ، والاضطرار قسرى !

عظم اشتياقى وقوى فضولى لسماع ما يقول ، حتى انتبهت الى استغراقى ، وطول اصغائى مما يعنى كفى عن مهامى وتعطيل عملى ، فأنثنى مستأنفا ما بدأته ، والمعروف أن لكل أمر ديباجة . والحق أن بداية سعيه من أغرب ما وقفت عليه ، ونمى الى .

يقول أحمد بن عبد الله انه لا يذكر أمرا ذا جلل قبل بزوغ الهاتف وسماع نبره ، لكم حاول ، أجهد الذهن .. لكن عبثا ، لم يبذل الجهد الا ولاقى فشلا ، فراغات ، فضاءات مبهتات لا يدرى من أى الموجودات صيغت ، كل منها مؤد الى الآخر ، متصل ، منفصل ، خيوط واهية غير كافية للفهم ، للكشف . كأن كل ما سبق الهاتف لم يكن مع أنه اجتازه بحضوره الجسمانى وأنفاسه الحرى ، كان فى مطلع فتوته وبداية غايته عندما تلقى الأمر ممن لا يمكن رؤيته أو فهم كنهه أو ادراك سره ، أو الوقوف على مصادره . أرق فى هذه الليلة ، لا يدرى سببا مباشرا ، وعندما بدأ خوض المسافة الفاصلة بين أفول اليقظة والايغال فى النوم ، اذ تتميع الجمادات وتتداخل الأوقات ، تتوالى الصور المبهمة ، يمتزج الحنين بالتوقع بالأمل فى الآتى ، باستنفار العزم وعقد النية ، وبزوغ ندم على ذنب مجهول بدر منه يوما ..

هنـــا ..

خلال اللحظات الفاصلة ، الواصلة بين عالمين ، دوى الهاتف ، برق ، لكم تكرر فيما بعد ، لكنه لا ينسى أبدا المرة الأولى ، هكذا .. لا تمحى البدايات من الذهن ، كذا النهايات ، أما ما يقع بينهما فنســـبى !

ما مصـــدره ؟

لا يمكنه التحديد ٠ نابع من داخله فكأنه صوت آخر طال كمونه ، قادم من خارجه أيضا ، ليس من جهة محددة ، بل من سائر الانحاء ، صادر منه ، هل يمكن لانسان أن يصغى الى صوته لحظة نطقه ؟ ، لا يمكنه تشبيهه بموجع معروف ، يستعصى على كل قياس وينأى عن أى مصدر ، لا يقدر على تحديد وجهته ٠ آت من اللاأينية ، هكذا ٠٠ بزغ !

ـ ارحـــل ٠٠

أمر كونى ، علوى ، سفلى ، ليس بوسعه الا الاستجابة اليه والامتثال ، لم يكن قادرا على الخلاص تماما من الوسن الذى بدأ الدنو منه ، ولا الامساك بضفتى اليقظة غير المؤكدة بعد ٠

ـ ارحل ٠٠

ما من شك اذن ! ، قام مفزوعا ، وحيدا ، مجردا عن أى مساعد ، منفرج الحدقتين ، فى حلقه غصة تتكون ، وعلى شفا حدقتيه مشروع دمع ، ولسوف تلازمه تلك السمة ، فلكم أصغى فيما بعد الى معنى نردد مرارا خلال رحيله ، عندما يقول له من يطيلون التحديق صوبه ، « تبدو وكأنك على وشك البكاء ولكنك لا تبكى ٠٠ » ، حتى بعد بدء الابتسامة الدائمة لم ينمح أثر تلك الدمعة المطلة أبدا ولكنها لا تخرج ٠

ـ ارحـــل ٠٠

وقف متطلعا حوله ، كأن للصوت توابعه ، المكملة له ، معان عديدة تترى عليه بسرعة ، تساءل ٠٠

ـ الى أين ؟

ـ الى موضع تغيب فيه الشمس ٠٠

موضع مغيب الشمس ؟ كيف ؟ أى المسالك ؟ أى الطرق ؟

ــ اتبعهـــا ٠٠

يقول أحمد بن عبد الله ان يقظته اكتملت ، تطلع حوله . الى فراشه ، الى موضع رأسه ، الى دفء المكان ، أيقن أن المقام انتهى هنا ، ما كان لن يكون ، ما استمر حتى الآن انقطع ، ما انتظم اختل ، وما التأم زمنا على وشك الانتشار والتبدد ، الدار الآمنة التى أقام فيها لم تعد له ، لا مفر من فراقها ٠ أيقن أن الرحيل دب داخله قبل سريان حركته ، لكم خشى المفاجأة وبغتات المقادير ، مالا يبين ، مالا يفصح ، مالا يشير ولا يفسر ، لكنه لم يتصور قط ولم يتوقع بزوغ الهاتف الذى قلقل مضجعه ، وقوض أمورا طال ثباتها داخـــله ٠

يقينا ٠٠ ان ما اتصل لن يكتمل ولن يسرى ٠

تمدده ، هجوعه مكان رقدته مستحيل ، فى اللحظات الأولى أشفق على نفسه ، خاصة مع ادراكه الأتم لما يجرى ، وبدء استحالة مقامه ، ليس أمامه الا أن يبدأ ، أن يلبى ، توضأ وصلى ، ثم خرج الى الطريق ، متاعه كله فى يمينه ، مخلاة صغيرة من كتان ، موقن أن الأصداء التى أعقبت الهاتف أمرته بمصاحبته ٠

مضى مضطربا ، قصـــير الخطى ، مودعا بعينيه الجدران والنواصى والمحال التى وقف عندها وتلك التى اعتادها ، لمراحل عده خلت تلك النواصى من مستثيرات الشجى عنده ٠

عامة ٠٠ يعنى الوقوف عندها نهاية شوط واطلالة على مفارق شتى ، أو مختتم مرحلة أو بداية سعى ، وخاصة ٠٠ يهفو قلبه وتغدق عليه المخيلة صورا شتى للحظات مندثرة ، منها الغامض الذى لا يبين ، والجلى السافر ؟

لكم تترقرق كوامنه اذ يستعيد تلك الأبواب المغلقة أو المواربة أو تلك الموشكة ، مر بها كلها وهو يودع مدينته القاهرة ، يخرج

منها وتمضى عنه ، لكم استعاد الواجهات والمبانى والمآذن وظلال القباب وتغيرات الضوء وعبير المقاهى ودكاكين الفاكهة والنقل الفارسى والزيوت النباتية والشموع مختلفة الأحجام وشسوع الميادين ، لم كد ذهنه وقض مضجعه محاولا استعادة مدخل حارة ، أو تفاصيل ممر ، فكأن نسيانها عنده يعنى محو العلامات ٠

فى الضوء الأولى طالع المآذن وافدة من الليل الغميق ، محفوفة بضباب ، أنثوية الحضور ، آدمية المثول فى الفراغ ، فى الشروع الى أعلى ٠

المتاجر لاتزال مغلقة ، لكن الحركة تتنمنم ، لأمد طويل سوف يستعيد خطوة هذا الرجل الطاعن الذى يدلج صوب قصد مجهول ٠ وصبى ينام مستغرقا أمام بوابة قيسرية ، وعربة يجرها حماران ، حزينان ، مستسلمان ، سيذكرهما فيما بعد عندما يدخل حديقة للحيوان فى بلد ناء ويفاجأ بحمار معروض للقوم كأنه أعجوبة ! ، واجهة سبيل منمنمة الزخارف ، لكم مر أمامها ولم ينتبه الى رقة حوافها ، وغنى الأغصان الحديدية ، كم من تفاصيل وعاها لأول مرة فى أثناء مغادرته ، فكأن انتهاء المدة ايذان ببدء جديد ، وتفصيل ذلك يطول ٠

خلف وراءه ضريح سيدنا ومولانا الحسين ، قرأ له الفاتحة ، توسل به واليه ، رجاه ، بثه همه واضطرابه ، مضى صوب الخليج ، الأزهر سامق ، مسجد الغورى وقبته ، البيوت المستكينة ، وذاكرة الحوارى الهاجعة تتململ ٠ أولى المشرق ظهره ، عبر القنطرة الخشبية ٠

جمال مصطفة ، باركة مثقلة بأحمال ، يتوقف قبل أن يقدم ، القوافل لا تنطلق من هنا ، الموضع لم يعرف كمحط للتجار ، هيئة الركب تعنى التأهب للرحيل ، الى أين ؟ ، توقف متطلعا ، مترددا ، حائرا ، عنده خجل البداية وارتباك الخيار ، يبدو أن أحدهم لمحه

أو أن ظهوره استثار فضولهم ، ينفصل رجل فارع القامة ، في حضوره سيادة وقوة · يدنو منه ··

ـ على سفر ؟

يومىء

ـ وجهتـــك ؟؟

يوشك على ذكر عبارة ما خيل اليه أنها أعقبت الهاتف لكنه كتم ، لم يفصح تماما ··

ـ أسافر مع الشمس ··

تهلل الرجل الذى أحاط نصف وجهه بلثام أزرق ، مد يديه مرحبـــا :

ـ أهلا بالكريم ابن الكريم ··

يتساءل دهشـــا :

ـ هل تعرفنى ؟

يقول بلهجة غامضة :

ـ لا ·· ولكننى أتوقعك ··

قال الرجل الذى بدا مبتهجا انهم سيتجهون غربا لفترة من الزمن ، عندما يحيدون سيطلعونه وله الخيار ·

ـ لكنك تبدو وكأنك تعرفنى ·

يشير الى الشرق ·

ـ لكل أمر أوان ، لـــكن الآن علينا أن نتحرك قبل ظهور الشمس ··

لم يستغرق الأمر زمنا طويلا ، عند اطلالة الفرص تحرك الركب ، متفرقا ، متوحدا ، وئيدا ، مبتعدا ، مفارقا ، الى ما قبل ساعة لم يعرف أيا منهم ، ومنذ الآن يشاركهم القوت والمسافة والمصير باذلا الخدمة ، معتنيا بتلك الحيوانات التى لم يرها من قبل الا عابرة بمنأى عنه ، حرص الا يمثل عبئا على قوم لم يعدوا لقدومه الأهبة كما تخيل ، مال الى انفراد ، اذا رأى اثنين يتحدثان نأى ، اذا أفسح الخطى وأوشك على الاقتراب من أحدهم يتجاوزه بسرعة فكأنه يلحق بالوحدة !

تناوبوا الركوب ، كان عددهم ضعف الابل التى قدت ملامحها من مشاق متتابعة ٠ واكتسب جفونها نظرة علوية ، أبدية ، يبدو خطوها وكأنه لم يكف ، عندما دعاه أحدهم للركوب أظهر تمنعا ، قال انه لم يشعر بالتعب بعد ، تبسم الرجل وكان أعرابيا من حضرموت اليمن ، قال انه لا يجامله ولا يتفضل عليه ، لكنه ترتيب متبع ، المشى بقدر والركوب بقدر ٠

لو أمكنه التوارى عنهم لفعل ، تحاشى الاثقال عليهم ، قال الحضرمونى انه مدرك ما عنده ، هكذا الأمر دائما فى البداية خاصة عندما يضطر الانسان الى الرحيل ويرغم على رفقة من لا يعرف ٠٠

ـ كيف عرفت أننى مضطر ؟

تبسم اليمنى ، بدا حانيا ، رقيقا :

ـ لن استفسر عن دافعك وقصدك ، لكن مثل أمرك لا يخفى ٠٠

قال انه من دواعى السلامة ألا يدعهم يغيبون عن بصره ، المخاطر جمة ، أيسرها الفقد ، هجوم الوحش أو الانس ، لا يسهل اقتناص الا الشاردة ، مخاطر الطريق جمة ، وما يخلفه سلوكه من حرقة أكثر مما يتركه من مسرة ، أما أشد المحاذير كافة فداخل المرء

نفسه ، اذا جنح الى انفراد ، وأمعن الفكر فيما يستعصى عليه بلوغه ، أو تستحيل رؤيته ، او اللقاء به ، المفاجآت بلا حصر ، المعلوم منها قليل ، والمتوقع كثير ، وما خفى علمه عند الله !

لم يتوقفوا الا عند ميل الشمس صوب الأفق ، تجاوزوا العمار ، القرى الصغيرة • والمباني المتناثرة ، المنفردة وسط الحقول • كثافة النخيل خفت ، مجرد شجيرات متباعدة ، خط فاصل بين الخضرة والجدب • عند العصر بدأ نزولهم جنوبا بمحاذاة الصحراء ، كأنه التهيب قبل البدء ، المفروض أن يصلوا الى نقطة معينة مرتفعة ، يمكن منها الالمام بالأهرام القديمة جميعها عبر طلة واحدة ، واذا صفا الفراغ وراق الجو يمكن رؤية نرقرق النيل عبر الوادى ، من تلك النقطة يبدأ توغل سـائر القوافل المتجهة غربا الى دروب الصحراء ، المؤكد أن أى عبور من مكان انما يؤدى الى التهلكة •

تعاويذ لابد أن تتلى ، وتمائم تعلق على رقاب الجمال ، وأدعية من المستحسن ترديدها ، واجراءات يجب اتباعها منها ورود الابل عين الماء ، آخر نبع على حافة الوادى ، يترك كل منها حتى يكتفى بما يفى حاجته ثلاثة أيام ، بعدها يبدأ استنفاد مخزونه ، وهذا غير مستحب ، لذا خطت الدروب منذ القدم بحيث تتضمن مراحل تتناسب مع قدرة الجمال والبشر •

لزمن طويل سوف يستعيد مرأى الأعناق الممدودة ، وصوت عب الماء ، ولحظات انفصالها بعد اكتفائها ، فى هذه اللحظات استغرق فى الآتى قدر اسـتعادته الفائت ، وقف عند حد فاصل ، خطر له النكوص ، مازال بوسعه أن ينثنى ، بلوغه داره الليلة اذا شاء • لكن •• الخشية والمثول التام للهاتف جعلا استمراره حتميا ، لا مفر ••.

استعاد بالمخيلة حركة الخلق فى الشارع لحظات الغروب • بلوغها الذروة قبل اكتمال الليل والفراغ المفاجىء ، لم يدركه خوف

من القوم الذين يصحبهم ، ليس لديه ما يخشى فقده ، بل انه فى البداية لم ينشغل بهم الا قليلا ، حتى انه لم يسع ولم يتطلع للقاء أمر الركب مرة أخرى ، انه الآن فرد من الجمع ، وعندما تنشأ حاجة سيرسل فى طلبه • لكن •• لماذا بدا وكأنه يتوقع وصوله ؟ ، تهلل لظهوره لكنه لم يفاجأ ، بل انه لاح عالما بما جرى له ، كان ملثما ، ممشوقا ، يمتطى جملا نحيفا ، نحيل القوائم ، مختلفا لونه عن الآخرين ، موقعه يلى الحضرموتى ، غطاؤه من صوف أحمر ياقوتى ، تتخلله خيوط صفراء ، خضراء ، كان مستغرقا فى أمره •

أين ستطلع عليه الشمس التالية ؟

أى موضع ، آى صحبة ، آى رفقة ؟

ما يعيه تماما أنه مأمور ، ملزم بالاتجاه غربا ، بالمضى الى حيث تختفى الشمس • ما من بديل ، بصحبة من سيصل ؟ • ينظر اليهم ، الى متى •• الى أى حد سيأكل معهم فى الماعون عينه ؟ • من هم ؟ من أين •• الى أين ؟

لاحظ أنهم بعد اطمئنانهم الى وضع الابل اقتربوا ، تدانت رءوسهم ، حوار يجهله • حديث لا يدرى عنه شيئا • برغم حرصه خلال الساعات الماضية على أن يظل بمنأى حتى لا يثقل عليهم ، الا أنه دوهم بالوحدة عند تلك اللحظة ، غص حلقه بمرارة لم يتوقعها ، أدرك وهو على حافة الوادى أن انقطاعه يبدأ عن البلد ، عن الحارة ، عن الأهل • عن مراقد الأولياء ، عن كافة ما عرفه وألفه واقتدى به ، صحيح أن انفصاله جرى فور عبور الجسر وانضمامه • لكنه الآن فى قلب عالم مغاير • مع الصحراء يبدأ لجة مختلفة • عندما أقعوا وتماست مناكبهم ، عندما فوجىء بنفسه منفردا منبتا عنهم رغما عنه ، تذكر صحبه ، وحنو أهله وحدبهم عليه وما بينه وبينهم • وما سيصير اليه من شسوع ، رثى لأمره ، شق عليه حاله ، طفرت دموعه • لقى نفسه فجأة فى الوضع عينه الذى يلحق بعض

القوم ، اذ يخرجون من العمار المأهول إلى الأماكن القصـــية ، الموحشة . يعرف كل منهم بالمطرق ، أي المبتعد عن السكك المأهولة ، في الأغلب يكون مهموما أو منبوذا ، لكنه ليس معتلا وليس معاقبا ، انما هو مأمور ، مدفوع ، مسوق ، مرغم على الرحيل ، وان بدأ عنده تطلع الى ما سيواجه ٠

فوجيء بآمر القافلة أمامه ، باسطا كفه ، ملامسا شعر رأسه ، قام حتى واجهه ، بدا الملثم هادئا ، حانيا ، أشـــار الى الجلد ، الصبر ، مشقة الانتقال من حال الى حال ٠

ــ لا أريد أن يراك أحدنا دامعا ٠٠

أفسحوا له ، ولما رأى وجوههم اليه ناظرة هدأ باله ٠

قال جمال بن أحمد مدون السيرة ان الغربة مرة ٠ ان الغريب ضعيف مهما قوى ٠ هذا ما سمعته عن أهلي ، كل راحل انتهى الى أوبة ، اما أنا فلم أفارق ديار المغرب لأسباب شتى ، منها علة أقعدتني ، ولزومي الديوان السلطاني ، غير أنني عرفت الانتقال في عيون الواصلين والمغادرين ، في تلملمي ، في انطوائي ، عند رحيلي فيما كان مني ، في وصول الأجانب الى المدينة ، تحركهم الحذر ، قعودهم بين الجمع منكمشين ، تأخرهم عن مد أيديهم الى الطعام ، حرصهم الا يزعجوا اذا مضغوا ، الا يتقلبوا اذا رقدوا ، ألا يغطوا اذا هجعوا ٠٠ تماما كاليتامى !

لكم رغبت في صحبة ركب الحج ، تقت الى السعي تجاه المشرق لأجاور في الزيتونة ، في الأزهر ، انتهى الى مكة وأقف خاشعا عند مرقد سيد الخلق في المدينة المنورة ، الطاهرة برقدته ، حيث سعى ، وأولى وجهي الى الجهات التي تطلع اليها ، وأبادل جبل أحد الحب ويبادلني ، ألم يقل : هذا جبل يحبنا ونحبه ٠

لكن ·· شاء ظرفي ألا يكون لي من تلك الجهات الا القراءة عنها، او استماع وصفها · وتنسم روائحها، وتقصي أخبار شيوخها، لم أتجه جنوبا حيث الصحراء العظمى ، لابد من عبورها للوصول الى مناجم الذهب والفضة والعاج وأخشاب الأبنوس ، وغرائب ، الزنج اما الابحار غربا فلا أمل في العودة منه ·

لم أفارق ، لكنني انخلعت من كوني مرتين ، عندما سافر اثنان من دمي ، ابنا شقيقي رحمه الله ، قضى مبكرا وهما بعد طفلان ، تعهدتهما ، واستعضت بهما عن الخلفة من صلبي ، صرت بمنزلة الأب لهما ، خرج الأول حاجا وهو دون العشرين ، ومازلت منذ ثلاث وعشرين سنة في انتظاره · وصحب الثاني رجال البحر ، لم يكن يحط الرحال الا كل عامين أو ثلاثة مرة ، يمضي وقت ، يحدثني عن الهند ومملكة الصين والأفيال الكبار ويرسم خطوطا ليوضح لي ما غمض على استيعابه أو فهمه ، بغتة يمضي ومنذ سبع شتويات لم أقف له على أثر ، مازلت مقيما ·· لعل وعسى ، أحن وأهفو اليهما مهما امتد الوقت وعسرت الأحوال ، دائما أراهما غضين ، صغيرين ، كأنهما مازالا يتعلمان مبادىء النطق ويبذلان الجهد لفك أسرار الحروف ، ومعرفة كنه الأرقام ·

متى نلتقي وأين ؟

هل سيرى كل منا الآخر ؟

السؤال عينه تردد عندي ، لكنه يعاودني دائما ، اما صاحبنا فألح عليه في أثناء تأهبه دخول الصحراء ، حدقت اليه ، لكم بدا متأثرا ، مترقرقا فكأنه يحيى اللحظات من العدم ، وحتى لا أطيل وأحيد فأخل ، أنثني الى ما دونته نقلا عنه ·

الأشـقاء الأربعـة ..

يقول من خبر البرية ، وساح فيها ، أحمد بن عبد الله انه يستعيد الآن زمنه الأول ، وقت غضاضته ، كان يتطلع ولا يلتفت ، يترقب ولا يسترجع ، ما مضى منه أقل ، وما تبقى لا يدرى عنه شيئا ، لم يكن مشغولا به ، وان أدرك فيما بعد أن كل بعيد قريب ، وأن كل ماض ناء جدا ! .

قبل دخول القافلة صحراء الغرب آنس من أمرها ودا ، خفف كربه . دعاه الى الجلوس بجواره ، بدأ بذكر الصحبة ، وطيب الرفقة ، قال انها من أهم أركان السفر ، الرفيق قبل الطريق . هكذا نصح المجربون ، قال انه سيطلعه على بعض من أخباره وقبس من أحواله ، أول ما وعى ، أول ما فتح عينيه على الدنيا فى تنيس ، مدينة فى جزيرة ، والجزيرة فى البحر قرب نقطة التقاء النيل به ، عند ذروة الفيضان يغلب الماء العذب على المالح ، فيأخذ القوم حاجتهم ، عندهم صهاريج كبرى تفى وتكفى لمدة سنة ، لهم نظام دقيق لتوزيع الماء ، لم يحاول أحد اختراقه أو الشذ عنه ، فى أيام

المياه العذبة يتغير لون البحر من أزرق غميق الى أخضر كثيف وتفد أنواع مختلفة من السمك أهمهـا السردين الذى يصيدونه بوفرة وسهولة ويجففونه ليبقى محفوظا ، ويرسلون منه الى سـائر انحاء مصر ، ويتفتح زهر البلسان الذى اختفى من العالم كله ولم يعد باقيا منه الا اثنتا عشرة شجرة يتم استخلاص زيوتها فى ليلة اكتمال القمر ، ويختص بذلك خمس فتيات عذراوات لم يمسسهن رجل ، ولم ينكشفن قط على ذكر ، ولو جرى عكس ذلك تجف الشجيرة وتذبل ويستحيل استعادتها لنضرتها ، هذا معروف ، متبع منذ الزمن القديم ، الأمر مجرب ، يملأ الزيت المستخلص ست أو سبع قوارير ، كل منها فى حجم ابهام اليد ، مصنوعة من زجاج به غبشه بحيث لا ينفذ منه الضوء فيفسد السائل الثمين ، لكن القطرة منه يساوى ثمنها مائة دينار من الذهب البندقى الخالص ، يرسل الزيت كله الى السلطان ، حيث يحفظه فى خزائن لا تفتح الا بمعرفته ، منه يهدى ملوك الأرض ويخطب ودهم ، للزيت فوائد جمة ، وقطرة منه يقال انها تجدد عمر المرء فكأنه ولد من جديد ، عد البلسان من فضائل مصر بعد أن بطل زرعه من سـائر المعمورة ، واعتبرت شجيرات تنيس من ذخائر المملكة ونفائس الديار ، وقد وجد ذكرها فى أقصى بلاد الصين ، وفى بلاد الصقالبة حيث يطول النهار ستة شهور ويستمر الليل الغميق مثل ذلك ، وفى الهند يقولون فى أمثالهم ، اندر من بلسان تنيس المصرية .

قال انه رأى هذه الشجيرات ، متناثرة ، متباعدة ، كل منها محاطة بسياج متين ، لا يمكن مرور دابة بمقربة منه ، أو عربة ، أو احداث ضجة ، الأصوات العالية تؤذيها لهشاشتها ورقتها ، وأهل الجزيرة يراعون ذلك ويلقنون أولادهم أصول العناية بها والحرص عليها مع تعاليم البر بالوالدين وايتاء ذوى القربى ، واقامة الصلاة وتأدية الزكاة ، يخشون نبوءة قديمة تقول انه اذا فنى زهر البلسان من تنيس طغى عليها البحر وغاصت .

عرفت الجزيرة أيضـــا بالحرير الذى لا مثيل له فى رقته ونعومته ونفاسته ، بلغ الأمر حد أن المرء اذا اقتنى ثوبا منه عد ذلك اشارة الى مرتبته ، أو ارتقاء حاله ، واذا خلع السلطان على أحد خاصته أو أركان الدولة ثوبا أو عباءة أو طيلسانا من حرير تنيس عد ذلك من النوادر التى يجب أن يذكرها المؤرخون ، كان قماطه فى طفولته من ذلك الحرير ، ليس عن ثراء ، ولكن لمنزلة والده ٠

لم يأكل السمك الا مقليا أو مشويا فور صيده من البحر ، أما مذاق الأرز ورائحته فلم يلقه فى أى موضع حل به ، السماء فوقها أرحب ، أصفى زرقه وأقرب ، الهواء شفاف ، حانى اللمس ، وعبير نواصيها لا مثيل له ، لكن تنيس ضـــاقت بهم بعد وفاة والدهم ٠ كانوا أربعة هو ثالثهم ، لفهم غم عظيم ، بدأ عندهم توق الى المفارقة ، فاتفقوا على الخروج الى مدى ٠

قال انه تعلق بأبيه ، كان مهيب الجانب ، منيع الأمر ، عارفا بأخبار القدماء والأولين ، لكنه انفرد بعلم نادر أخذه أبا عن جد ، اعتبر الحجة والمرجع فيه ، وقيل انه لا يوجد مثيل له فى ديار الاسلام ، وتردد أن ثمة شخصا واحدا ليس غير حلم ببعض مما عنده، لكنه مقيم فى بلاد الافرنج ، بجزيرة قبرص ، كان الوالد الكريم عالما بالطيور المهاجرة ، التى يبدأ قدومها الى بر مصر مع حلول الخريف ، أرض الجزيرة أول ما تلامس هذه الطيور بعد رحلة شاسعة المدى عبر البرارى والبحار ٠ كان يمكنه تحديد اللحظة التى سيحط فيها أول الطير ، الأسراب دائما تتقدمها فرادى ، لم يخب توقعه قط ، يعرف مواعيد كل منها ، السمان ، السلوى ، القميح المملوح ، والنصطفير ، الزرزور ، الباز الرومى ، الصـــغرى ، الوبسى ، البلبل ، القمرى ، السقاء ، الفاختة ، النواح ، الزريق ، النوبى ، الزاغ ، الهدهد ، الحســـينى ، الجداوى ، الأبلق ، الراهب ، الخشاف ، البزين ، السلسلة ، الدردارى ، الشماحى ، البصبص ، الأخضر ، الأبهق ، الأزرق ، الخضير ، أبو الحناء ،

أبو دينار ، واربة الليل ، واربة النهار ، برقع أم على ، برقع أم حبيب ، الدورى ، الزنجى ، الشـــامى ، شقراق والعميان والمناقير ٠

أكثر من مائتى نوع ، يعرف أصواتها جميعا ، يجيد تقليدها حتى ليبدو كأنه يحاورها ، كثيرا ما رآه عند نوافذ البيت واقفا فى مواجهة هدهد أو بزين أو نصفير ، أعد لكل منها ما يفضله من حبوب قمح أو ذرة أو فاكهة ، يصدر أصواتا مماثلة ، كأنه يستفسر أو يطمئن ، يفحص بعضها ، تستكين له ، تفرد أجنحتها ، يدهن بعض المواضع بمعاجين يمضى أوقاتا فى اعدادها ، أو يسقيها من قوارير مختلفة يحتفظ بها فى غرفة نومه ، لم يمسك أحدها قسرا قط ، بل كان حريصا على حركاته والتفاتاته ودرجات صوته حتى لا تفزع، منذ طفولتهم حذرهم وأوصاهم فالتزموا ، لكنهم ٠٠ لم يأخذوا عنه ٠

كان ملما بالبقاع التى جاء كل نوع منها ، أراض فسيحة بلا حد مغطاة بالجليد . يصعب على الانسان قطعها الا مدثرا بالفرو ، راكبا زحافات تجرها كلاب سلوقية ، مطلعا على توقيتات تجمعها ، بدء اتجاهها جنوبا ، فى أيام معلومات يقعد السطح ناظرا الى الأفق ، يردد :

« القمرى يستعد الآن ٠٠ »

« الباز الرومى على وشك الرحيل ٠٠ »

« الزريق والبلبل والنصطفير تتأهب ٠٠ »

تطير الأسراب عدة أسابيع بلا انقطاع ، ينام قسم منها ، يحمله الآخر ، ترتيب عجيب ونظام رائع ، أما كيف تسلك الطريق عينه فى فراغات تخلو من أى علامة فهذا ما لم يتحدث عنه ، مع أن جميع الدلائل تشير الى علمه بذلك ولهذا تفصيل يطول ٠

كان يبحث بعينيه عن طيور معينة يعرفها من كل نوع ، لم يضطر الى لف سيقانها بخيوط من حرير ، أو حلقات معدنية دقيقة ، فى ذاكرته يستقر كل منها ، يعرف من يصل ، ويكتشف غياب بعضها رغم تشابه الملامح ولون الريش فى النوع الواحد ، بيته أول محط بالنسبة لهذه الطيور التى حفظت مكانه عبر حواسها الخفية ، لم تخطئه ولم تضل عنه ٠

فى زمان وصولها تدب فيه حيوية دافقة ، يرقب كلا منها ، لكل أنغامه ، ودرجات صوته ، وطرق مشى مختلفة ، أو عند الاقلاع ، يدون ملاحظاته فى أوراق ، يرسل بعضها الى ديوان السلطنة ، فى احدى السنوات جاء قاصد خاص من ملك البلغار ، بعد استئذانه أرباب الأمر فى القاهرة ركب الى تنيس ، جاء حاملا قفصا على هيئة قبة داخله عصفور غريب ، صغير الحجم ، منمنم ، نحيل الساقين كعودى ريحان ، زرقة ريشه غامضة ، لم ير مثله فى مصر ، ظهر فجأة هناك ولم يعرف من أين جاء ، ولماذا ؟ ما نوعه ؟ ما وجهته الحقيقية ؟

رغب ملك البلغار فى الوقوف على أمر هذا الطير لأن ابنته هامت به وأحبت لونه وصوته الشجى الهفهاف ، لكنها كلما نجحت فى الامساك بواحد أو اثنين ، لا يمكثان فى القفص آو أى مكان مغلق أكثر من ســـاعتين ، ما الســـبيل الى الاحتفاظ به مقيدا وحيا معا ؟

تأمل الوالد الكريم الطير المحنط ، المتمدد داخل القفص بحنو عظيم ، سعى الى خلوة مقدارها نصف يوم بدأ بعد صلاة الفجر . ثم خرج ليجيب فى رسالة طويلة مكتوبة على ورق بردى ، ذكر نوع الطير النادر الماضى الى انقراض ، ومنشأه الأصلى فى جبال شاهقة تفصل الهند عن الصين ٠ وسبب هجرته ، اذ عاشت أسرابه فى منطقة نائية لم يطرقها بشر ، لكن كبير رهبان التبت أمر بمد جسر

خشبى ليصل حافتى هوة عميقة تعترض طريقا طويلا ينتهى عند السور الأعظم ، كان لابد من جز أشجار عتيقة وتمهيد مساحات من الأرض وتحريك صخور هائلة لم تقلقها الزلازل ، عندما بدأ تدخل الانســـان فى طبيعة المكان ، اختـــل أمر الطير ، هج مع الرياح الموسمية ، حتى استقر فى بلاد البلغار لأسباب غامضة ، هذا نوع نادر لا مثيل له فى الدنيا ، يمكن أن يصير من معالم البلد التى تذكرها كتب الأقدمين ، بشرط ٠٠ ألا يمسه بشر ، وألا يقترب من حركته انسان ، فمن خصائصه أنه يفارق الحياة على الفور اذا لم يستطع الطيران فى خط مستقيم ، اذا قام فى وجهه مانع يصدره احتضر فورا ، وهذا نادر غريب ، غير معاين في أى مصر أو قطر . قال رسول ملك البلغار انهم يطلبون منه عملا يمكن الابنة الغالية من احتجاز الطير ، طير واحد فقط ، وله أن يطلب ما يخطر على بالـــه ٠

قال شيخ الطيــور رحمه الله انه لا يمكنــه الكذب على أى انسان ، صغير أو كبير ، نعم ٠٠ انه قادر على اعداد مثل هذا العمل ، لكنه عاهد ربه والتزم ألا يتسبب فى تقييد حرية أى مخلوق ، خاصة الطيور التى عرف أسرارها بعد أن باحت له بالتفاصيل ٠

هذا عهد متين ، لو خالفـــه لخان جنس الطير كله ، وهذا ما لا يمكنه الاقدام عليه أبدا ، أبدا ٠٠

لم تفلح كل الجهود ، وساءت الصلات بين مصر وبلاد البلغار ، وبطل وصول الجلود البلغارية المشهود لها ، التى يصنع منها سروج الخيول ، وأحزمة الأمراء ، وحذاء السلطان الشتوى ، وتوقف ارسال الصوف المصرى الأصيل وقماش الخيام والسيوف القاهرية المسقية ، أثار ذلك استياء ذوى المصلحة ٠

لكن قاضى القضاة أثنى على الوالد ، وبعد صلاة الجمعة دعا له شيخ المقام الأحمدى بطنطا ـ وله عند الصوفية منزلة عظمى ـ وأهاب

بالخلق أن يهتدوا به ، بالرجل الذى أبى خيانه عهده مع الطير ٠٠ غير أن الابن الأكبر لم يخف امتعاضـا ، لو أن الوالد قبل ما عرضه ملك البلغار لترك لأولاده ما يكفيهم مدى أعمـارهم ومن بعدهم الأحفاد ٠ بدأت الوحشة بين الأب وابنه البكر ، غير أنه لم يتوقف عن ابداء العناية ٠ واعداد الأدوية وتركيبه المواد المعالجة لأوجاع الطير ٠ وفى تلك الأيام كثر الحديث عن صلاته بالطير ، من ذلك معرفته أحوال الممالك والديار القصية ، كل نوع يخبره ، بما يراه هنا وهناك ، بل انه يطلع مسبقا على فيضان النيل القادم ، هل سيكون شحيحا أم غزيرا ، ثمة طير معين يجىء من الشمال ويواصل رحلته الى بلاد الحبشة ، يبدأ رحلة العودة مع نهاية الشتاء وبداية الربيع ومن خلال سلوكه طبقات الجو العليا يمكنه الوقوف على أجنة الغيوم التى تحمل أمطار الفيضان ٠

لكن ٠٠ أغرب ما تردد زواجه من الطيور ، اذ زعم البعض أنه يرسل نقاطا من منيه الى جهات قصية توجد فيها طيور لا تفارق أصـقاعها ذات ملامح آدمية ، منها اناث غاية فى الحسـن والرقة والحـلاوة ، يربط قطعا من الحديد التنيسى الى سـيقان طيور النصطفير التى تحملها لتلقح تلك الطيور الغريبة القابعة على حواف الدنيا ، والمؤكد ، الموثوق به عبر شواهد شتى أنه أنجب أبناء شتى نصفهم طير ونصفهم آدمى ٠

كلام عجيب ، لم ينفه الوالد ولم يؤكده ، كلام لف ودار حتى وصل أصحاب النهى والأمر فى القاهرة ، وتردد أن أميرا كبيرا من المسموح لهم بارتداء فرو الدب القطبى الرمادى نوى ارسال قوة من الجند لاحضاره من تنيس قسرا بهدف استخلاص ما عنده ، لكن تصدى له شيخ مشايخ الصوفية ، أنذر بوقوع بلاء جسيم لو لحق الأذى هذا الرجل وأجبر على مفارقة تنيس التى لم يخرج منهـا قـط ٠

غير أن حزنا نزل بالأب ، لم يفصح عن سببه ، ربما ليقينه أن معارفه الجمة لن تنتقل الى أبنائه الذين عزفوا عنها ، بل أبدى أكبرهم تجاهه قسوة لرفضه عرض ملك البلغار ، وبعد رحيله المفاجيء فوق سطح البيت ، تردد في الجزيرة أنه انفطر حزنا على أنثى طير يعشقها منذ زمن · وتعيش في النصف الشمالى غير المأهول وأن الهدهد تجرأ ، وأفضى اليه بالنبأ بعد تردد النصطفير · واشفاق الزرزور ، وشجن العصافير القشتالية ·

قال آمر القافلة ان الطيور توقفت عن الحط في الجزيرة بعد رحيله ، لم يلمسها أي نوع ، وعد ذلك نذير شؤم ، كانت أسرابها تعبر الفضاء ، تبدو كغمامات سابحة بعيدا في مواسمها المعهودة ، ومن الفراغات العلا يسمع صوت جماعي له وقع مهيب ·

« السلام عليك ورحمته ·· » ·

قال ان الجزيرة ضاقت عليهم بما رحبت ، حتى وصلوا الى لحظة فاصلة اقتنعوا فيها أن المقام صار وعرا ، اتفقوا على الخروج ، على السياحة في الدنيا ، أن يقصد كل منهم جهة مغايرة لجهات الآخرين ، وأن يلتقوا في تنيس بعد سبع سنوات ، وأن يدون كل منهم ما رآه ، ما لقيه ، بالفعل رتبوا أمورهم وقضوا حوائجهم وعزموا أمورهم ، حددوا لحظة خروجهم عند طلوع كوكب المشترى في بيته وطبيعته ، رمز السعد ، عند الميناء دمعت العيون ، تعانقوا ، افترقـوا ·

قال آمر القافلة بصوت يفيض حنانا وتأثرا ، انه ودع عمرا ، واستقبل طورا مغايرا ، غريبا ، الأخ الأكبر كان له ولع مبكر بالنساء ، أبحر في جنك قاصدا بلاد الشمال ، مستهدفا التنقل بين البلدان ، متخذا مهنا شتى ، هدفه الوقوف على جمال الوجوه ، وتفرد القدود ، ومغايرة الأجساد ، أن يعرف أقصى ما يمكنه · عنده شوق طال الى نساء الأرض أجمعين ·

الأخ الثاني ، كانت عنده دراية بحرفة البناء ، وله فى الجزيرة آثار مشـــهودة ، منها قبة ضريح الولى ، بيت المحتسب ، ودار الضيافة ، قال انه سيمضى الى البلدان المختلفة ليقيم فى كل منها بناء يبقى على مدى الدهر ٠

الأخ الثالث ، الأصغر ، قال انه سيطوف بأضرحـة الأولياء ومراقد الصالحين ، وأماكن الأحيـــاء منهم ، سيجمع أقوالهم ، ونصائحهم وما فاه به رجال الله قبل رحيلهم الأبدى من حكم وجمل تفيض بالمعنى ، أما هو فرغب فى رؤية البلاد والأقوام ، وكانت وسيلته الى ذلك التجارة ، يقوم بنقل بضائع الشمال الى ديار الجنوب ، وما ينتج فى أقصى الشرق الى آخر حد الغرب ٠

قال ان الفراق لم يكن سهلا ، أوشكوا على الأحجام والتقاعس ، لولا عزم شقيقهم الأكبر ، أمضوا حياتهم معا ، لم يأكل واحد منهم وجبة بمفرده ، لم يتـأخر أحـدهم عن العودة الليلة فى توقيت معلوم ، لم يقض أحدهم ليلة واحدة خارج الدار ، لكن بعد رحيل الوالد الذى أحبه الناس ولقبوه بشيخ الطيور ضاق البيت بهم ، ومال كل منهم الى انفراد ٠

قال انه بدأ خطته ، مضى الى مشروعه ، أنشأ تجارة فى البداية صغيرة ، شرع فى سفر ، منذ أربعة أعوام لم يتوقف ، لو أفاض فلن يكف ، لكنه بايجاز يقول انه أصبح من العارفين ، الملمين بطريق الحرير الأعظم الذى يبدأ من الصين الى بلاد لم تعرفه من قبل ناحية حد الغرب ، كما أتى بنفائس لا حصر لها من بلاد الزنج ، صار سوقها رائجا جدا فى الأمصار الشرقية ، حتى أصبح موعد وصوله مما تعد له العدة وتضبط به المواقيت ٠ فور دخوله عاصمة بلاد الصين ينزل بيت الضيافة الامبراطورى ، وتعلق على البوابة ثلاثة قناديل حمراء اشارة الى رفعة الضيف ، وصباح اليوم التالى يدعى الى تناول الافطار على مائدة البغبوغ ٠٠ هكذا يعرف ملك البلاد ،

هذا ما يلاقيه أيضا فى الهند ، وبلاد العجم ، والترك ، أما الشام وديار الغرب فيعدها من مواطنه .

بعد أن أطلعه على أصل أمره ، وما كان من أشقائه ، تبسم قائلا : ـ كنت أتوقعك ..

تطلع اليه صامتا ، غير دهش .. قال :

ـ قدرت ذلك ..

قال آمر القافلة :

ـ انما أنت من علامات الطريق فى سفرى هذه المرة ..

قال انه عندما وصل الى مدينة بلخ ، استضافه قاضيها عشرة أيام ، ومن عادته اذا أقام أن يستفسر عن الصالحين ، والعلماء ، وأرباب الفنون والصنائع ، ويسعى الى قبور من خلفوا ذكرا طيبا أو عملا صالحا فيقرأ الفاتحة ويأتنس بوجودهم الأبدى الصامت ثم يقصد من يجهلهم ، من لم يلتق بهم قط ، ولم يتعرف اليهم فى أسفاره السابقة .

فى بلخ أخبروه عن شيخ وصل منذ أربعة شهور ، لزم الشجرة . قديمة ، نادرة ، هائلة الأغصان ، غليظة الجذع جدا ، لابد من أربعين رجلا مفرودى الأيدى ، متشابكى الأصابع ليمكن الاحاطة به دائريا ، ثمارها مختلفة . كل غصن يظهر نوعا ، منها ما يشبه السمسم ، وآخر فى حجم البطيخ ، ثمة حبات صغار فى حجم اللوبياء ، اذا تناول الانسان واحدة صباح كل يوم على الريق لمدة عامين فلا يمرض أبدا ، اذا لحست العاقر لحاءها راكعة فانها تحمل ولدا ذكرا ، واذا مر بها المسافر وألقى التحية فانه يعود الى الموضع نفسه ، لهذا حرص على الوقوف والقاء السلام على أغصانها وثمارها المدلاة وجذورها التى لا ترى ، تحتها التقى بالشيخ ،

ضئيل الحجم ، هادىء الحضور ، بالغ الشـــفافية حتى ليشف عما وراءه ، ولكنه من النظرات ، استفسر منه عن أمور شتى ، جاوبه بكل ما يعرفه ، وكيف يمكنه أن يخفى أمرا فى مواجهة نفاذ نظراته ، عندما حان أوان انصرافه أخبره أنه سيلقى ثلاثة عند اتجاهه غربا ، وجنوبا ، أولهم عند خليج القاهرة ، والثانى عجوز لا يعرف مقدار عمره فى واحة صغيرة نائية ، تعداد سكانها لا يزيد ولا ينقص مع مر الأزمنة ، وتوالى السنين ، والثالث عند جبل تكسوه الثلوج فى بلاد الزنج · الأول سيطلب الرفقة ، عليه أن يبدى المعاونة ، وألا يتردد لحظة ، خاصة اذا ظهر قبل اطلالة قرص الشمس ، الثانى سيبدى النصح ، وعليه أن يعمل بكل ما يقوله ، والثالث سيطلب منه حمل رسالة ، وجب ابلاغها ، ثم أفضى العجوز بعلامة ، ونطق وصايا ، وباح بأسرار شتى ··

قال آمر القافلة :

ـ أنت ·· أولهم ··

الحق أن هذا الحديث خفف عنه ، بدءا من تلك الجلســـة ائتنس ، وخف عنده الحرج فأقبل ، خاصة بعد توغل القافلة فى الصـــحراء ··

ذكر الحضرموتى

٠٠ يقول أحمد بن عبد الله ان مشيهم كان ليلا ٠ مع الكواكب والنجوم التى لم يرها من قبل فى مثل هذه الكثافة ٠ ينتظمون فى قطار متتابع ، أولهم الدليل ، لن ينساه ، انه الحضرموتى ، تقلب فى البلاد وجاس خلال العالم ، أتقن العلم بالنجوم والميقات ، وعنه أخذ ، لم ير مثله فى كل مراحل سفره صوب موضـــع الشمس الغاربة ، كان قادرا على تحديد الاتجاه بالحس ، اذا تطلع الى السماء من أى موضع ، متحرك أو ثابت ، يدرك الموقع حتى لو امتلأ الفضاء بالغيوم الثقال ٠ يعرف حركة الظلال فى العمار المأهول والخلاء الخرب ، وبالتالى تحديد الوقت بدقة ، مواعيد الصــلاة ، اتجاه القبلة ٠

انه أهم رجال القافلة ، منزلته أعلى من الحراس الأشـــداء اللازمين لدفع البلاء غير المنتظر ، والتصدى لعصابات قطع الطرق ، فى كل المراحل ، لا يمكن الاستغناء عن الحضرموتى الميقاتى ٠ بدونه يمكن أن يضلوا ، فقدان الاتجاه فى البرية هلاك مبين ، عرف ذلك

وخبره ، لكم رأى هياكل عظيمة لبشر ، لدواب ، هلكوا من ظمأ ، والماء على مرمى حجر ، رأى أحيانا هياكل هائلة الحجم ، ضخمة ، حيوانات غابرة لم تعد تدب · رءوس بعضها تتجاوز العشرين ذراعا ·

الحضرموتى نحيل جدا ، طويل كأنه نخلة ، بارز عظام الرسغين ، والساقين ، منذ صباه أبحر عبر المحيط فى شتى أنواع القوارب ، الصغيرة والكبيرة · ما بين شواطىء اليمن والحبشة وموزمبيق والهند ، أتقن العلامات الثابتة ورياح البحر الموسمية والدائمة والاستثنائية · ومواضع خطره وأماكن شعابه ، وانعكاس ضوء النجوم على مناطقه ، ثم أوغل فى الصحراء العربية والآسيوية والأفريقية ، الغريب أنه أمضى وقتا لم يحدده فى بلاد النوبة ، كما لم يذكر سبب توجهه اليها أو ظروفه هناك ، ولكنه بدأ متعلقا بها ، حتى أنه حدث عنها أكثر من ذكره حضرموت واليمن ، عرف مراكب النيل التى تحمل الغلال ، والأوانى الفخارية صنع قنا ، وأقمشة نقادة ، وبلح الواحات ، ونسيج أخميم ، وصل النوبة فى مركب البريد السلطانى الذى يبحر من أسوان كل ستة شهور مرة محملا برسائل أميرية ، وبضائع شتى وحيوانات مقيدة ، ومساجين ، رأى تزايد الدوامات واكتمال الفيضان ، وغرق جزر عامرة ، هذا اليم تنتظره الأراضى العطشى النسبقة ، لكم أغلق بيوتا كانت عامرة ، عندما ينقلب قارب صغير يحمل عائلة بأكملها ، وما يأخذه النهر لا يرده · وفى النوبة حط طائر دقيق الحجم ، نحيل الساقين · أزرق الريش ، ناداه باسمه ، حدثه الطائر بلسان آدمى ، قال انه رسول من بنى جنسه اليه ، انما جاء ليأمره بملازمة شاب خرج من تنيس · فليدله وليهديه فى أسفاره ، ولا يفارقه أبدا الا بالموت وليرع شأنه ، ويحرص على أمره ، أنه كان صالحا ، محبا لأبيه مترفقا به ·

اختفى الطائر ، لم يخلف أثرا ، منذ ذلك اليوم انخلع أمره وتقلقل حاله ، هل يمضى باحثا عن التنيسى هذا أو ينتظر ؟ ، وفى يوم جنوبى قائظ جثم فيـه الصمت وهمد · حتى كان بمكنة اثنين أن يتهامســـا عبر ضفتى النهر الفسيح ويسمع كل منهما الآخر بوضوح ، وصل مركب عليه تجارة ، قادم من الشمال الى السودان ، وعندما استفسر وأيقن أن صاحبها من الزيرة التى لم يرها قط ، سمع باسمها من العصفور المنمنم ، سعى اليه منهيا اقامته النوبية الغامضة ، لم يفارقه منذ ذلك اليوم ، التزم بما تلقاه ، ومن أمره الطير عليه أن يمتثل ·

للحضرموتى وقفة مفاجئة ، يتجمد وضعه ، يقدم ساقا ويؤخر الثانية بينما تلامس أصابعه خصره ، يحدث ذلك نادرا ، لكنه اذ يطيل التحديق تتعلق بعينيه المقطبتين وفكه المدلى ســائر الأنظار والأفئدة ، يتطلع الكل نحوه ، باشــارة منه تسير القافلة الى اتجاه محدد ينأى بها عن هلاك مبين ، أو ينكص الجميع ، أما اذا اختلط الأمر عليه ، فالنجاة مشكوك فيها ·

عنه أخذ تلك الوقفة بالترقب والحذر والاستفسار ، من البحار الهندية علم الميقات ، ومن الصـــحارى العربية تمكن من معرفة الجهات ، أتم معرفته بالنجوم فى النوبة ويبدو أنه قصدها لهذا السبب لكن لم يثبت ذلك · صار عالما بمواقع المجرات والظواهر الكونية ، حفظ خريطة ومساراتها ، كان يقدر الوقت نهارا من لون الظل ودرجة سطوع الضوء ، فى الليالى الحوالك يصغى الى صوت الرياح ، من اتجاهاتها يمكنه تعيين الموضع · مع الأسف ·· لم يدون معارفه ، لم يخطها ، كل ما توصل اليه اندثر معه ·

أحب الرحيل · قال انه لم يقم بمكان الا المـــدة التى تلزم القافلة ، للبيع أو الشراء ، للتزود بالمؤن وراحة الدواب ، معارفه

فى مدن متباعدة قصية ، لغاتهم شتى ولهجاتهم متباينة ، يستفسرون منه عن ظواهر شتى يستعصى فهمها . يجيب الحضرموتى من يثق بهم ، من يتوسم فيهم الرغبة الحقة فى طلب العلم .

يقول أحمد بن عبد الله انه كان دائم التبسم له . واظهار الحنو والاشفاق ، مع أنه كثير الصمت ممعن فى العزلة . بل أفضى ذات ليلة برغبته فى رفقته ، لولا لزومه قافلة التنيسى ، لكنه عزم أن يقدم اليه ما لن ينفد الا بزواله . ما سيبقى معـه ما دام حيا ، سيقدم اليه ما ينفعه من معارفه .

كان فريدا فى احاطته . غزيرا فيما عنده ، لا مثيل له فى أدلة البر والبحر ، ورواد الطرق والمسالك ، اذا سئل عن مدينة دل عليها بموقعها وما تنفرد به ، ومن عاش فيها من الصالحين ، واذا حدد مسافة ينصبح بحصر المسير ما بين نجم وآخر .

أطلعه على علامات الجدب والنماء ، وغور مياه الأرض وكيفية الاسـتدلال على شحه أو غزارته ، وثمار الجهات الأربع ومواعيد زراعتها وظهورها ، تفتح أزهارها ونضـج ثمارها ، واختلافها فى المكان الواحد ، ثمة جبال فى اليمن وما وراء النهر تزرع سفوحها بفاكهة الصيف ، وفى الوقت عينه تنبت عند قممها فاكهة الشتاء .

دله على علامات السحاب الممطر ، والغيوم المخلفة ، والبروق الصادقة التى يعقبها قطر ، فى البرية يرقب أهل الخيام السماء ، اذا برقت سبعين مرة فان المطر آكيـد ، شرح له أنـواع الرياح واتجاهاتها ومساراتها عبر أيام السنة ، ودرجات الزوال والفجرين والشفقين ، واحمرار السماء قبل وبعد ظهور الشمس ومغيبها ، علمه كيفية تحديد سمت القبلة أثناء الحركة فى العمار ، أو القفر الخالى من كل أثر أو علامة دالة .

أقول أنا مدونه جمال بن عبد الله اننى أصغيت الى تفاصيل جمة تخص هذا العلم أملاها على ، ذكرها لى ، لكننى خشية الاطالة أوردت بعضا من كل ، غير أننى أضمرت النية بعد فراغى من أخبار رحيله أن أطلب منه اطلاعى على ما أتقنه خاصة أن علم الميقات عزيز فى ديار المغرب كافة لا يعرفه الا أهالى الثغور والموانىء وبحارة السفن ٠ عددهم قليل معرفتهم بدرجات الشروق محدودة ٠ لكنهم يتفوقون على سائر أهالى الأمصار فى معرفتهم بالغروب ، منازل انحدار الشمس وتغيرات قرصها حتى تمام غوصه فى المحيط الأعظم ، سمعت بالساعات المائية فى الأندلس ، خاصة فى غرناطة ، لا تزال تعمل رغم انقضاء السنين وانتهاء دولة الاسلام ٠ حدثنى من ارتحل الى فاس عن المزولة النادرة فى مسجد القرويين ، مثلها كثير هنا لكننى لم أر الأصلية لقعودى وصعوبة ترحالى ٠

يقول أحمد بن عبد الله ان صلته بالحضرموتى توثقت عبر المراحل . رغم جمود ملامحه وجهامة حضوره الا أنه كان يرق ويصفو اذ يجلس اليه ، يجبره ويحنو عليه ٠ يخفف عنه بذكر ما رآه من غرائب وأمور عجيبة فى الجهات التى قصدها ، وكان يبتسم بصفاء نادر لا يبدو الا عند انفرادهما ، ابتسامة وسيمة ٠ طيبة فيها أبوة وتحنان ٠ يقول له : أنا رأيت وأنت سترى ٠ أنا رحلت وأنت سترحل ، أنا عانيت وأنت ستشاهد ٠ كان يقول أنا فى النازل وأنت فى الطالع ٠ فيجيبه قائلا : أطال الله عمرك ٠

يتدفق الحضرموتى فى أويقات صفوه ، يخبر بجزر وصلها فيها ثمار ذات ملامح آدمية ٠ ومواضع غريبة أمضى ليالى فيها ٠ قمم جبال وشواطىء غير عامرة ومعابد بطلت الشعائر منها ، وغابات نخيل ، وأكواخ من بوص ٠ ومبان مكسوة بالمرمر ، وممرات تتخلل جبالا ، لا يذكر الأجناس الذين عرفهم لكثرتهم ٠ أما الطريق الى الصين فمن أوعر مسالك الدنيا ٠

يصغى متسائلا ، أى الجسور سيعبر ، أى البلاد سيصل ؟ فى أى المساجد سيولى الوجه تجاه القبلة ؟ هل سيتاح له يوما الجلوس والحديث عن وقفاته ورحلاته والافضاء بغريب ما جرى له · ينتبه الى الفرق بينهما · يرحل الحضرموتى من تلقاء ذاته · ملبيا حاجة عنده تلح عليه اذا أوى الى الدعة واستكان · أما هو فيرحل مضطرا ، مأمورا ممن لا يقدر على الانباء به · لا يقدر على تحديد طبيعته بالضبط ، صوت ؟ انفجار ؟ صدى ؟ عرض ؟ جوهر ؟ ·

لا يمكنه القطع ·

انه ممتثل ، ساع الى موضع مغيب الشمس ، لا يدرى موعد الوصول لكنه فى تلك الحقبة المبكرة من رحيله ، لم يكن واثقا ، انه ليسأل نفسه الآن ، أحقا مر بها أم أنه سمع من آخرين ؟ · أحقا هو الشاب الذى خرج أول العمر لحظة بزوغ نهار قصى ليعبر الجسر ويلتقى بالتنيسى ، ثم الحضرموتى ؟

الحضرموتى ؟

هل أصغى اليه وأخذ عنه أم قرأ له ؟ ألم يبد تجاهه رقة تفوق وتتجاوز خشونته البادية ؟ ألم يرصد فى عينيه شجى ؟ أصغى اليه وارتبط به ، وأحب حضوره واشارات يده ولم ينس قط تدلى فكه عند توقفه لحظة الحيرة · ألم يبك عندما سمع نبأ رحيله الأبدى فى نقطة متقدمة من سفره جرى عندها ما جرى وما سنطلع عليه فى حينه ؟ هل كان حقيقة أو وهما ؟ هل أقام عنده أو عبر مع العابرين ؟

أقول أنا جمال بن عبد الله اننى كنت أتمهل عند تدوين هذه المواضع ، أبطىء حركة القلم وأتطلع ، أرى فى ملامحه ما يفوق قوله ، وألمح فى عينيه ما يتجاوز وصفه ، ترقرقا يعبر ثناياه ،

حنينا تنضح به ملامحه ، أسى غريبا لم أطالع مثله فى العيون التى تطلعت الى أو رمقتنى عن بعد أو قرب ، أما تلك الدمعة المعلقة ، غير المرئية ، فتثير عندى أسيانا غامضا ، أما صمته فضاج ، مضن ٠٠

هكذا صمت الحضرموتى ، اذا أطرق فجأة فلا يجيب أى نداء ، لا ينطق الا اذا بادر هو ٠ لكن صمته هذا لم يكن صمما أو انغلاقا ، انما يصغى الى مسارات الرياح ، أو بوادر عاصفة مقبلة لم تلح نذرها بعد ، أو سحب ممطرة ، موعدة ، لم تبد ، أو يصغى الى رجات فى باطن الأرض العميقة ، أحيانا يركع فجأة كالمصلى ، يلصق أذنه بالأرض ٠ يعتدل ليقرر فى حسم :

ـ هنا صلصلة ٠٠

تمضى لحظات أو دقائق أو ساعة ربما وتقع الزلزلة ، ترتج الأرض وتميد ميدا ، أو تتفجر نيران أزلية ، أو تقذف ما فى باطنها من حمم مصهورة ، وقذائف كونية ٠ اذا كف تتوقف القافلة كلها ، سكونه المباغت يعنى وقوع خلل ما ٠ أو قرب مفاجأة يعرفها لخبرته وطول علمه ٠

كان معروفا ، كثيرا ما ابتسم اذا استفسر أحدهم عن اسمه ، يجيب قائلا ان أسماءه عديدة وألقابه بلا حصر ، فى كل اقليم مر به اتخذ اسما ، فى كل بلدة ، لكنه اذا أحب انسانا ودنا منه طلب مناداته بالحضرموتى ، مسقط رأسه وملعب صباه ، ومصب حنينه وأشواقه ، مازال هواؤها ورائحة أرضها عنده رغم تعاقب الأقمار والشموس وانقضاء المدة الانسانية !

كان يضع حول خنصره خاتما يتوسطه فص حجر كريم أصفر ، صفرة مشربة بحمرة ، ربما عقيق أو ياقوت هندى ، فى الحجر صورة عقرب صغير ٠ ما دام بقى مرتديا الخاتم فى يده فان الأرض المحيطة به لا يقترب منها عقرب لمسافة أميال سبعة من النواحى

كافة . يعني هذا تأمين القافلة ومن يتبعها ، ما من شيء يثير الرعب في الصحارى الموحشة الا الهواء ، من ثعابين طائشة . وحشرات شاردة . ومما قيل عنه انه يحتفظ بعدة خواتم ، منها ما يبطل ثورة الضواري ويهدىء ثائرة النمر والأسد ويذهل الضبع عما حوله . وآخر يقي الانسان من الغرق ، وثالث يقضي الجوارح الطائرة . هذه الخواتم كلها لا تعمل عملها الا اذا أحاطت أصبعه ولامست مسام جلده .

قال التنيسي آمر القافلة انه أهم رجالها . يحسدونه على صحبته . هناك أدلة وميقاتية يعرفون البر وآخرون خبروا البحر ، لكنه جمع بين الاثنين وزاد علما بأمور يصعب تحصيلها أو تصديقها . بدونه يمكن أن يضلوا ، يضيعوا في المجرة .

في عصر توقفوا فيه التماسا للراحة . حدثه التنيسي فقال ان أشد ما يخافه ذهاب الحضرموتي . أو رحيله المفاجيء . انه يلاحظ المودة المتنامية بينهما وهذا لم يقع لشخص آخر قبله . انه يعرف عزمه على تلقينه علمه . فاذا جرى الأمر بيسر وأفاد منه . فانه يمكنه مرافقته على تلقينه . فاذا جرى الأمر بيسر وأفاد منه . فانه يمكنه مرافقته مدى الحياة . طالما اتصلت رحلاته ، سيأتي معه الى كل جهة ، الى الصين ، الى الهند ، الى جزيرة سرنديب ، الى بلاد الزنج ، الى جزر النساء ، يخطيء من يظن أنها عالم واحد ، انها عوالم مختلفة ، من الحمق الانساني أن يمضي المرء مقيما ، لهذا لزم الانتقال ، القصد الظاهر ، التجارة أو تحصيل العلم ، ولكنه في الحقيقة يريد الالمام بالانسان هنا وهناك .

يقول أحمد بن عبد الله انه أصغى الى ما قاله التنيسي . اشتاقت نفسه الى الوقوف على أقسام الدنيا ، شرقا وجنوبا وشمالا ، استفسر عن الصين ، وآخر حد العالم أو أوله جهة الشرق ، أول شروق على هذا الاقليم ، عندما تكون القاهرة في منتصف الليل

تكون الشمس بازغة هناك ، يسكت التنيسى قليلا ، يبدو فى عينيه تعبير عابث ، غامض ٠

ـ أما النساء فحديثهن يطول ٠٠

يطرق خجلا ، حتى هذا التلميح وما بعده بمسافة لم يكن عرف احداهن ، انما أصغى الى ما يتردد عنهن ٠ ثمة لقاءات عابرة ونظرات متاحة ولمسات لاهثة ، لكنه لم يسع الى بيوت الخطأ التى يقصدها أقرانه ، لم تتح له الخلوة وان دنا منها وأوشك ، سأل عن نساء المشرق وهل يختلفن عن المغرب ؟

قال التنيسى ان كلا منهن كون خاص ، فما البال بمن تعيش فى أقصى الأرض ؟

أصغى وعنده حيرة ٠ ما يقوله التنيسى عن نساء الشرق البعيد مغر ، موح ، مدل على عالم مغاير ، ومباهج يتوق اليها من كان فى عمره ، لا يدرى ماذا يمكن أن يحل به لو أنه ألم يلزم ؟

يقول جمال بن عبد الله انه لابد من اشارة هنا ، فخلال حديثه يتوقف لحظات ، يبدو دهشا ، دهشة لم أعرفها فى غيره ، أقدر على الاحساس بها لكننى لا أقدر على توصيفها أو نسبتها الى نوع معين ربما لما فيها من حزن شفيف وأسينة وتحسر على أمور مجهولة لا أدرى عنها شيئا ، أحيانا تلوح على وجهه أصداء ابتسامة نائية ، بعيدة فكأنه يسعى الى اقتناصها ٠

قال أحمد بن عبد الله صـــاحب الحضرمونى ٠ مكانه يليه مباشرة ٠ عند الراحة يصغى اليه ويأخذ عنه ، عند بلوغ الواحات لم يفارقه ، فى الطريق رأى كثبان الرمال المتنقلة ، تحملها الرياح من مكان الى آخر ٠ أعجب ما رآه عينا ماء متجاورتان فى الواحات الداخلة كما يعرفها أهل مصر ، عين باردة ماؤها مثلج عذب ، لم يذق مثيلا له ، قادم من أغوار بعيدة ، مظلل ، يتدفق فى قناة حفرها

أهالى الواحة ليشرب منه الكافة وفقا لترتيب قديم ، ليسقى النخيل وأشجار التين والزيتون والتوت والنبق · والطيور الغربية المهاجرة ، يتعقبها التنيسى بالرؤية والاهتمام والشجى · لم يقرب أحدها قط . بل كان يجلس القرفصاء ويسند وجنتيه الى راحتى يديه ويمص . الى جوار العين العذبة عين أخرى حمئة ، ما يفصلهما حوالى أربع خطوات · تمضيان متوازيتين ، تفترقان بعد حوالى مائة ذراع ، القناة الأولى تتجه الى الأرض المزروعة ، الثانية تمضى الى حوض كبير من حجر الصوان تتفرع منه قنوات أدق فأدق الى داخل البيوت ·

أخبره الحضرموتى عن رجل جاء هاربا من الوادى · مطلوبا لثأر ، استجار بأهالى الواحات فقبلوه ، لكنهم اشترطوا عليه أن يقيم بعيدا عن البيوت لأنه أعزب ، وألا يستحم فى العين الحارة لأن ماءها يدخل البيوت وتغتسل به العذارى · تحاشيا لأى مشكل عاش خارج النطاق المعمور ، استظل بسقف من جريد النخل العالى ، افترش الأرض ، تكسب عيشــه من الخدمة ، فى الأفراح يحمل صوانى الأكل ، يرش الماء أمام البيوت ، يغسل الأوانى فى المضيفة ، فى المآتم يطوف بالقهوة · فى ليــالى الذكر أول القــادمين وآخر المنصرفين ، أمضى ثلاث أو أربع سنوات لا يسمع له حس ، ولا يرى له خطو ، كأنه لا يسعى بين القوم · الى أن صحا ذات فجر مبكرا وقد غلبه شوق قديم الى حمام الجهات ، خلع ثيابه ، نزل الحوض ، شيئا فشيئا بدأ يعتاد على الحرارة المرتفعة ، تسربت عبر مسامه ، الى عروقه ، الى أقصى شعيراته ، الى مكامن تعبه ، تبدل وضع جسده من انكماش الى تمدد ، تباعدت ذراعاه ، سرى الدفء الى روحه ، فتح عينيه لكنه لم يستطع منه انغلاق جفونه · انبعاث صور جديدة ورؤية ألوان لم يعهدها من قبل ، وأصداء مغايرة للأفق النائى · وسن ·· وعلى مهل بدأ يغوص فى السخونة الوثيرة ، غطى الماء رأسه ، نفذ عبر الفتحات السبع فى وجهه ، استسلم تماما ، انفرط عقده ، حمله التيار المتمهل عبر القناة المؤدية حتى انحشر فى حمام

بيت مأمول . ومنذ هذا اليوم كفت العذارى عن الاستحمام بمياه النبع خوفا من الحمل ، أما المجربات فتغمرهن نشوة اذ تتدفق المياه بين فروج أصابعهن وسيقانهن ، خاصة عندما يتذكرن أن رجلا قويا غريبا سبح فيها حتى الموت . يقول الحضرموتى ان النساء العاقرات لديهن اعتقاد قديم هنا أن من تستحم قبل شروق الشمس بالمياه الدافئة تحمل بعد مضاجعتها زوجها بشرط أن يستمر بلل جسدها بماء العين . لم يعد أحد يذكر الغريب .

لم نطل اقامة القافلة فى الواحة . آخر نقطة عامرة قبل التوغل فى الصحراء العظمى . من هنا يبدأ طريقان ، الأول قديم مهدته الأقدام منذ عصور بعيدة يتجه جنوبا الى بلاد الزنج ، والثانى يمضى غربا ، يصعد شمالا ثم يمضى غربا يقال ان أول من شقه الاسكندر الأكبر بعد أن بلغ واحة آمون والمعروفة الآن بين أهالى الصحراء بسيوة ، الطريقان يتصلان فى أكثر من نقطة بممرات فرعية . بعد مفارقة الواحات تعلقت الأنظار كلها بالحضرموتى ، أى خطأ ولو يسير يؤدى الى التهلكة .

أمامهم مسيرة أربعين يوما ، لن يمروا خلالها على عامر ، عشرون منها يجب أن تقطع نهارا ، وعشرون ليلا . ولذلك صلة بحركة الرياح وانتقال الكثبان وتبدل المعالم . يتقدم الحضرموتى القافلة . يتطلع ممدود الفك حتى اذا رصد عاصفة قادمة يشير بيده فتكف الحركة . يأمر باناخة كافة الجمال . يمر بها واحدا واحدا ، يربت أعناقها بايقاع مخصوص ، تمد رءوسها الى أسفل . يقبع الجميع بجوار أجسادها . لا ينقضى وقت طويل الا ويبدأ سفى الرمال .

يقول أحمد بن عبد الله انه ما من مرحلة اكتملت فيها غربته منذ خروجه مثل تلك الأيام الأربعين ، اذ يستعيدها يخشى ، كأن مجرد احتمال عودتها بالخاطر مما يخيفه ، ما من علامات بادية .

عند حد معين من الوقت والمكان لابد أن تعلو أصوات القوم بغناء رتيب يحاكي خطو الجمال ، الغرض منه كما يقول الحضرموتي اسماع الابل صوت البشر ، لكن الأهم أن يصغي كل انسان الى أصوات الآخرين ، الامتداد اللانهائي والصمت الكوني وغموض النجوم في الليل ، والاحتمالات الخبيئة المفاجئة ، جميع هذه العوامل جالبة للذهول ، عندئذ ربما يضل الانسان ، يتوه عن نفسه ، وهذا من عوارض السفر الطويل ٠ ولولا الشمس لاختلطت المشارق بالمغارب ، وتداخلت الجهات ٠

ازداد قربا من الحضرموتي ، تعلق به ، تبعه كظله ٠ وبدا التنيسي سعيدا بذلك ٠ كان يتأثر بلفتاته نحوه غير المتوقعة ، اذ تطل ابتسامة رقيقة عبر وجهه الجامد الذي قد من صخر خلو من أي تعبير ، لسنوات طويلة تلت كان اذا مرت به أيام عجاف أو عرف ظروفا قاسية فانه يستعيد حنو الحضرمي عليه فيحن ويهفو ، لكم ود القيام بخدمته ، لم يتح له فرصة قط ، كان آخر من ينام وأول من يستيقظ ، لم يره الا ماشيا أو راكبا أو محملقا في النجوم أو متطلعا صوب الأفق المبين ، أومطرقا الى الأرض ناكثا الرمال بعصاه النحيلة الطويلة ، أو بطرف أصبعه ، أو منشدا لأنغام غامضة ، لم يفهمها لكنه أضمر سؤاله عنها فيما بعد ، مع كل خطوة ازداد وعيه وحسه بأنه جزء قديم من القافلة ، ائتنس بهم ٠ قويت رغبته في الوقوف على أقسام العالم المختلفة ، وعبور طريق الحرير والوصول الى الصين ، الوقوف على عجائبها ، قص عليه التنيسي أمورا عجيبة حركت رغباته ، وفضوله ٠

يقول أحمد بن عبد الله انه بعد انقضاء هذه المراحل ، خاصة الأربعين يوما الشاقة توقفوا ، الرمال أخشن ٠٠ لكنهم تمددوا ، لابد من الراحة حرصا على الابل التي فقدت أجزاء غير هينة من أوزانها ٠ بدأ الحضرمي تطلعه الى السماء ، قال ان هذا موضع من الصحراء يمكن منه رؤية نجوم يصعب مشاهدتها من بقاع أخرى ٠

قال ان ما يبدو هنا لامعا يراه الراصدون هناك باهتا ، أطال التصديق انتظارا لبزوغ نجم معين أخبر عنه لكنه لم يفصل · انه يتابعه منذ اتقانه علم النجوم ، أوصاه معلمه به ، أطلعه على أمر غريب ، ولد هذا الرجل وعاش فى بلدة أخميم شرق النيل ، اخذ علمه بالوراثة ، أبا عن جد · أوصاه والده بالانتباه الى هذا النجم بالتحديد ، موقعه الى الغرب ، اذا ظهر فلابد من رصده على الفور ، قال الحضرموتى ان معلمه أفضى اليه بتلك الوصية التى تلقاها عن جدوده الأقدمين ، منذ أن ودعه عند جسر أخميم صار رصد هذا النجم أحد همومه الكبرى ، تعيين موضعه ، مواعيده ، ميله ، لمعانه ، تقول وصية الأجداد ان ثمة تغيرا معينا سوف يطرأ عليه · اذا لاح فانه ينذر بتطورات مهمة فى الكون الأعظم ·

الحضرموتى حفظ الوصية ، لم يصرح بها الا اليه ، قال فى لحظة وهن انسانى نادرا ما تبدو عليه انه خشى المنية بدون أن يوصى الى من يضع فيه ثقته ، ويعطيه مفاتيح علمه ، قال انه لم ينجب ، انه شجرة بلا ثمر ، أشار الى الرجال ، الى الجمال ، قال ان لكل من هؤلاء امرأة وأبناء ينتظرون فى مكان ما ، وأن بعضهم متزوج فى عدة بلدان ومن هؤلاء أمر القافلة المحب للنساء ، أما هو فلن يقص عمن ارتبط بها زمنا جميلا غير مستعاد ، لكن الظرف غير المواتى باعد بينهما ، أنه يرى فيه ما كان ممكنا أن يراه فى ابنه الذى يخرج من صلبه · بعد أن سمع منه صمتا متأثرا ، أغفى وعنده حنين غامض الى منحنى يتخلل الشارع الكبير فى قلب القاهرة ، قبة تحتها ضريح ولى مشهور فى مواجهتها ثلاثة مداخل لثلاثة مساجد كبرى ، كل منها مختلف عن الآخر ، يكاد يرى تفاصيل النقوش والزخارف ، مآذن مرتفعة ، نحيلة رشيقة ، يتداخل الحنين يتوق الى وجه أنثوى جميل ، يتطلع اليه مبهورا ، بعينى طفل ، من ؟ لا يمكنه التحديد · كان عمره عندما تعلق به ، ربما

خمس أو ست سنوات ، طبعت رؤيته ، صار القياس والمرجع الأصلي الذي يعود اليه بدون أن يدري أو يعي ·

ما بين اليقظة والنوم رآها · قاعدا في مواجهتها ، شاخصا اليها ، يتغير الضوء ، تكتمل ملامح الحضرمي · يتأهب لاشهار نيته للتصريح بعزمه انه سيتبعه ، سيقتفي أثره ، يعلمه ما تبقى ، ينطق بما لم يقله بعد ، لن يفارقه ·

هنا أوشك على الوصول الى لحيظات يصعب تحديدها ، اذ تتحول الأفكار الى صور لا رابط بينها ، تبدو متسقة في البداية لكنها سرعان ما يفلت عقالها ، تتضاءل ، تتحول الى مساحات معتمة ، متصلة ، تتخللها رؤى تتلاشى مع اليقظة ، عند قرب تجاوزه تلك اللحيظات برق الصوت مجهول الجوهر والمصدر ··

ــ ارحل ··

ما بين يقظته المفاجئة وانفراجة عينيه ، وانتظاره انجلاء الأمر ، وظهور الغوامض ، تهدج قلبه ، أصغى الى دفق نبضه في سمعه كأنه يسمع قلبا مغايرا ، غريبا عنه ·

قال جمال بن عبد الله انه تطلع الى محدثه عند هذه النقطة لما وقع بصوته من تغير فهاله ما رأى من كدر ملم بوجهه ، كأن مجرد ذكر اللحظة النائية كاف لجلب كدوراتها رغم شسوع المسافة . واتساع البون ، بدا مرجوفا حتى انني طلبت منه ذكر اسم الله ، وشرب كوب ماء ، تطلع الى عندما مددت يدى بالماء المعطر ، قال ان هذا عين ما أقدم عليه الحضرموتى عندما رأى فزعه ورجفته ·

يقول أحمد بن عبد الله انه لم يقدر على المقارنة · هل هو الصوت الذى سمعه أول مرة وبدأ بعده هجاجه ؟

ينظر اليه الحضرموتى ، عيناه حانيتان ، مترقرقتان فيهما سلام مقيم ومس من عتاب ، وحزن عقيم تجرى محاولة لستره ·

ـ رافقتك السلامة فى سفرك هذا ٠٠

هل يعرف ؟ أو مطلع على باعث خروجه ، ودافع رحيله ؟ لم يفض بنبأ الهاتف الى أى انسان ، لماذا يبدو وكأنه عالم بما جرى ، لم يستفسر ، لم يبد فضولا ، لم يذكر شيئا عن أمير القافلة ٠ بل بدا حاضا له على الرحيل ٠ كان الهاتف ملمـا به من جميع الجهات مندلعا من داخله ٠ بدا الحضرموتى نائبا ، ثبوتى النظرة ، مشيرا بيده جهة سفر الشمس ٠ لم يكن بوسعه الا اقصاء نفسه ، تهدئة للزلزلة المدومة داخله ٠

مد الحضرمى يده بكتاب مجلد برق الغزال ، طلب منه حفظه مهما تغيرت الأحوال وتقلبت به الظروف ، وضعه فى المخلاة ٠ لم يكن قادرا على أن يمنع طفرة دمعة وثابة خرجت فى الليل الصحراوى العميق ٠ دفع اليه دفعا وهو مجرد من كل عون ٠٠

الرضاع فى البرية ..

.. حدث العبد الفقير الى ربه ، أحمد بن عبد الله ، المهاجر الى موضع المغيب ، أن كل مرحلة فاقت الأخرى فى صعوبتها ، كل الشدائد تهون اذا تلقاها الانسان بين جمع ، لكنها تعظم اذا قابلها منفردا ، من هنا عرف الحكام القساة قلوبهم ، الغليظة أفئدتهم ، ما يعنيه حبس المرء منعزلا ، ممنوعا من الحوار حتى مع نفسه ، عندئذ تسهل الاحاطة به .

ما البال اذن عندما يجد الانسان نفسه وحيدا ، مبتوتا عن كل عون ، فى مواجهة الكون الخاوى . حتى الآن ، رغم انقضاء مسافات ومراحل وتقلبه فى البلاد ، مروره بأطوار شتى ، فانه لينتابه كدر ، ويدركه نصب اذا تذكر لحيظات من الفترة التالية على مفارقته قافلة التنيسى ، ابتعاده عن الحضرموتى ، ما شرس عليه وشق مفارقة الصحبة ، الوحشة بعد الألفة ، خاصـــة .. ابن حضرموت ، هو بالتحديد .

عندما تطلع اليـه متسائلا بصمته عما اذا كانا سيلتقيان ؟ قال : لا تعلل نفسك بلقاء فى هذا العام ، أو الذى يليه ، بالأمد طويل ، وعلمه عند الله ·

بعد الكتاب مد اليه اناء صغيرا ، قد من مادة تشبه ثمرة جوز الهند ، غريبة الملمس ، قال انه احتفظ به زمنا ، أنقذه من صعوبات جمة ، والآن يعطيه لمن يحتاج اليه بحق ·

هذا الوعاء أعانه وأمده ، فى الصحراء الموحشة التى قطعها بمفرده ، اذا ما أدركه الظمأ يرفعه الى شفتيه فيذوق الماء بدون قطر ، يبل ريقه ويهدىء عطشه ، اذا جاع يشعر بلبن دسم ، طيب الرائحة ، لكن ما من سائل يمكن رؤيته أو مسه ، لم يطلع أى انسان على أمره ، حتى الذين ائتنس بهم ، وصفت أيامه معهم ، مع أن الحضرمى لم يطلب منه كتمان الأمر ، لكنه اعتبر ذلك من خصوصياته التى يجب ألا يشهرها اذا ظهرت اشارة ، لكنه بعد وصوله بلاد المغرب ، وقوفه على حافة المحيط الأعظم ، بعد لقائه الشيخ الأكبر ، وامتثاله له ، وتسليمه كتبه اليه ، وبدء التدوين ، لا يرى بأسا فى ذكر الأسباب ، خاصة أنه تلقى العلامة خلوتهما فى المسجد الجامع ·

عندما أخبر القوم فى الواحة أنه قطع المفازة بمفرده ، بدأ الشك فى عيونهم والحذر ، ظنوا أنه جاسوس من الفسطاط ، أما من أحسن الظن فرأى أنه من جنس مغاير ، منتسب الى البشر بالشكل ، ولولا أن قصاص الأثر استضافه وقربه لما صدقه أحدهم ، عندما استقبل الفراغ الأبدى ، والشسوع اللانهائى ، لم يدر كم سيقطع ؟ ماذا ينتظره ؟ بعد أى مرحلة سيتوقف ؟ · لم يكن أمامه الا هو مكانى ، وأفق كلما دنا منه ابتعد عنه ، لكن الحضرمى كان ماثلا أمامه ، مستعيدا تحديقه ، حديثه عن النجوم ، الظلال ، الرياح ،

كان اذا تطلع الى الأفق اتخذ الوضع نفسه ، اذا تكلم يفاجأ أنه يشير بيديه مثله ، أو يتوقف أثناء حديثه ، مومئا كما كان يفعل ٠

أعاد على ذاكرته كل ما تلقاه عنه ، هكذا حافظ على اتجاهه غربا ، خاصة ليلا ، ما أقضه أن يحيد عنه ، الهاتف لا يدله لكن يأمره فقط ٠

لو أن انسانا أخبره فى اقامته ونشأته القاهرية عن مدته الصحراوية تلك لعده من المجانين ، أو المخرفين ، مجرد الاحتمال كان منعدما ، ما الذى يدفع به الى الصحراء ٠ سعيه كله فى المدينة ، فى دروبها ، فى حواريها ، فى ساحاتها ، مقاهيها ، كان متدثرا بها فمن أين يجىء الاحتمال يوما بولوجه الصحراء والأقفار ؟

يقول أحمد بن عبد الله ان من يتأمل المسارات ، خاصـــة النهايات فلن يجد ثمة علاقة بينها وبين البدايات ، مع أن كليهما طرفا دائرة واحدة ، تنغلق اذا اتصلا ، وتكتمل ان تماسا ٠

قال مدونه : بدا محدثى راغبا فى اختصار حديثه عن انفراده ، كرر أكثر من مرة أنه لا يريد الاطالة ، لو أفضى بكل ما عنده لما وفى فالوقت ضيق ٠

سألته : أى وقت يعنى ؟

تطلع الى صامتا ، متعجبا ، لم أدرك ما يعنيه الا فيما تلا ذلك . لكن ٠٠ لا بأس من اشارة ٠ اذ صحبت منذ سنوات محاربا شجاعا ، سيفا من سيوف الملة الاسلامية ، عرف بشجاعته واقدامه على خوض المخاطر ، كلفت من سلطان البلاد وحامى الديار أطال الله عمره بتدوين أخباره أثناء مرضه الأخير ، كان مقيدا ، كنت مقعدا ، لكنه أفاض وكتبت ، لم يكف عن ترديد ما قاله خالد بن الوليد : ما من موضع يخلو فى جسدى من ضربة سيف أو طعنة رمح ، وها أنذا أموت كالبعير ، ألا فلا نامت أعين الجبناء ٠ كثيرا ما قال لى انه

ميت بالفعل عدة مرات منذ حقب بعيدة ، اذ كان مؤكدا موته يوم اشتباكه مع قراصنة البحر ، ونجاته من طعنة رمح أصابت زميله لأنه مال بجسده الى الأمام قليلا ، ويوم قصف المدافع الكبيرة وتطاير الشظايا الساخنة ، احداها نفذت الى قلب ضابط كان يقف مكانه ثم انتقل عنه قبل ثوان ، مثل هذا كثير ، قال انه فى البداية هاب الموت لكن بعد مواجهته خفت الحدة ، وهانت المدة ، لذلك اعتبر كل ما تلا ذلك وقتا اضافيا ، وعمرا ثانيا ٠٠

أقول أنا جمال بن عبد الله انني سمعت تلك العبارة عينها من أحمد بن عبد الله نقلا عن الحضرموتي ، لهذا تهون جميع الأخطار أمام من واجه الهلاك المبين ٠

قال أحمد انه كان جاهلا بعلامات الطريق ، بتضاريسه ، بما يخفيه هذا المرتفع أو ذاك ، أو ٠٠ ماذا سيبدو عند الأفق ؟ كل ما ترسخ عنده ، الاتجاه غربا ، ما أسهل ذلك نهارا ، وما أصعبه ليلا ، عليه تدقيق النجوم ، والاهتداء بأوضاعها ، مستنفرا كل ما تلقاه ، لو أنه لم يأخذ عن الحضرمي ، لو أنه لم يتقن على يديه علم الميقات ، لاستحال عليه المضي ليلا ، وأمور أخرى جمة ٠٠ لا ٠٠ ليس ذلك فقط ، ثمة أشياء لا تندرج تحت علم ، ولا يمكن تحديدها بمسمى ، لم ولن ينس تأكيد الحضرمي على لا محدودية القدرة الانسانية ، المهم ٠٠ كيفية اظهارها أو بذلها ؟ ، وعلى قدر الغاية تكون الطاقة ، وعلى قدر السفر تكون المئونة ٠ وللنية فى الأمور سلطان عظيم كما قال العارفون ، اذا قدر المرء مشى ساعة ربما يدركه التعب قبل بلوغ تمامها ، لكنه اذا أضمر النية على قطع مسافة مقدارها عشر ساعات فربما لا يشعر بالنصب قبل انقضاء سبع أو ثمان ، قال الحضرموتي ان الجسد يتكيف بما أضمره صاحبه وعزم عليه ، وعن ثقة وتجربة يؤكد أنه لا حد لذلك !

أقول أنا جمال بن عبد الله انني سمعت في صدر فتوتي بنبأ يؤكد ذلك ، اذ حدث أن رجلا وامرأة وطفلا رضيعا من قبائل الجبل الكبير ضلوا طريقهم وهم يتجهون جنوبا عبر الصحراء لسبب لم يوضحه أحد ، ثقل عليهم الأمد وظهرت وعورة الطريق ، لم تحتمل المرأة فماتت ، حمل زوجها طفلها لمدة ثلاثة أيام ، لم يكف خلالها عن البكاء ، كان يسكت لثوان عندما يحمله أبوه في الوضع عينه الذي اعتاد فيه أن يقرب الثدى ، وسرعان ما يكتشف بعده عن الحلمة المشتهاة ، ما من رائحة لصدر الأم ، يعلو صراخه أوعر وأنكى ، لم ينفع معه هز أو هدهدة ، قرب منتصف اليوم الثالث خفت عياطه ، تقطع ، بدا نحيلا ، متسلخا ، ذاهبا ، تتسرب روحه على مرأى ومسمع من أبيه ، شغله حال ابنه عن ظرفه هو فأوشك أن ينسى جوعه وظمأه ، لم يكن لديه الا ركوة بها قليل من الماء اجتهد في الحفاظ عليه ، قطرات للطفل ، أخرى له ، بين الحين والآخر يلتفت الى اللاجهة ، يقال انه صوت الأم يهيب به أن يفعل شيئا ، أن يقدم عونا ما الى وليدها ، لكن ٠٠ كيف ؟ قواه تهن ، زاده ينفد ، الأمر محدق ، لم تلح بادرة خروج من تلك المتاهة ، وعندما أقعى منحنيا ، مستندا برأسه الى يديه وعيناه تحتو ابنه الذواى ، فوجىء بهسيس خافت يسرى داخل عروق صدره ، كأنه طابور نمل دقيق متتابع ، قشعريرة مغايرة ، لم يعرفهـا من قبل ، سرسوب نحيل يخرج منه ، من ثدييه انبثق حليب صاف نادر ، علا صراخ الوليد متنسما رائحة اللبن الطازج البشرى ، أقعى الأب مستعيدا الوضع الذى كانت تتخذه امرأته جالسة عند الارضاع ٠

أقول ان هذا خبر متناقل ، معروف ، ولهذا الطفـل عقب الآن في قبائل الأطلس ٠

كم طالت المدة ؟

يقول أحمد بن عبد الله ان انفراده دام ثمانية أسابيع ، لو قص ما مر عليه لحكى عجبا ، لكنه أضمر العزم على مواصلة الخطو ، كان واثقا أن ثمة نقطة ينتهي عندها انفراده الكوني هذا ، لم يكن بوسعه الكف حتى لو غلبه نصبه ، التوقف يعني الفناء المؤكد ٠ قال الحضرموتي ان أخطر ما يمكن أن يواجهه المسافر بحرا أو برا هو التوقف ، الكف ، قال انه ركب سفينة كبيرة قاصدا بر الهند من بر عمان ، كان غضا فتيا ، وخلال الرحلة ، واجه العاصفة لأول مرة ، رأى الموج كالجبال حقيقة وليس تشبيها ، وفي لحظة ارتفعت فيها مقدمة السفينة ثم هوت ، انحنى مرجوفا محاولا الامساك بالحافة ، زعق بحار من فقراء الهنود :

ـ « لا تخف ما دام المركب يسير ٠٠ »

فيما بعد قال له ان الخشية كلها عند توقف السفينة عن الاندفاع الى الأمام ٠ لم ينس ما سمعه ، كما ترسخ عنده أنه لكل عاصفة حدا تنتهي عنده ، ولكل شدة لحظة زوال

لن يغيب عنه أبدا وقت رؤيته النخيل فوق المرتفع ، توقف في المدى المترامي ، محاطا برمال ناعمة كالدقيق ، لم يصدق في البداية ، فلكم رأى بحيرات عذبة مترقرقة في ذروة الهجير ، وطرقا ممهدة عند الأفق ، وقوافل تمضي ، وأسراب طيور ، وقطعان غزلان ، وظلال أناس لا يدري مقصدهم تماما ٠

توقف ٠٠

لم يندفع ، لم يجر ، بل انتظر ، مر عليه نهار كامل بتقلب ظلاله ، وتغير درجات ضوئه ، مما أتقنه أثناء عبوره المفازة أن لكل لحظة قوامها ومحتواها ، لم يخبره الحضرموتي بذلك ، لكن ٠٠ لولا تلقيه علم حركة الظلال عنه لهلك ٠

لم يهرع ، بل نزلت عليه سكينة ، استوقف ذاته حتى يمكنه تفسير ما بزغ له ، سعف ، جذوع نخيل ، شجيرات ، ذاك طريق مؤد .

انه فى مواجهة واحة ..

قبل الغروب بساعة تقدم متمهلا ، متأنيا ، عنده استكانة ، كأنه راجع الى موضع خرج منه ، توقف لحيظات قبل ارتقائه المرتفع الرابى ، أخرج الاناء من المخلاة ، رفعه الى شفتيه ، لكن .. ما من قطرة ماء أو لبن ، مع أنه استمد منه ما مكنه عبور هجيره الوعر ، أدرك أنه قاب قوسين ..

أم الصغير ..

.. يقول انه ارتقى بخطى متمهلة ، راسخ الداخل مع أنه لم يعرف ما ينتظره أو ما سيلقاه ، خاصـــة عندما رأى الواقفين بانتظاره ، رجالا ، نساء ، أطفالا ، هم كل سكان الواحة عدا اثنين لزما أماكنهما فى المرقب الرئيسى لمتابعة ما يجرى فى الفسطاط ، هذا ما عرفه فيمــا بعد ، كل البشر هنا مائة وأربعون لا يزيدون ولا ينقصون ، تعرف الواحة بين أهلها بأم الصغير ، حتى ذلك الحين كانت مجهولة لسائر الأقطار القريبة والبعيدة ، حتى عتاة الأدلة فى الصحراء لا يعرفون بوجودها ، عندما دنا من نهاية المرتفع ، حفت به رائحة النخيل ، وبسوق الخضرة ، هسيس السعف ، رائحة التين البرى ، لسنوات طويلة تالية ظلت رائحة التين من مثيرات كوامنه ، أما النخيل فاكتسب عنده منزلة خاصة وهوى !

وقف الرجال فى ناحية ، النساء والأطفال فى ناحية ، الجمعان متساويان ، أوضاعهم متماثلة ، قاماتهم مفرودة ، رءوسهم منحنية الى الأمام ، كلهم ســافرو الوجوه ، فى البداية اتجه بالبصر الى

الرجال ، وعندما حانت منه لفتة الى النساء لقي منهن جرأة وتطلعا ، نظر متمهلا ، كلهن فارعات ، مشرفات على الوجود من عل ، لم يتوقف عند واحدة بالذات ، لكن علقت بذهنه ملامح متناسقة ، أهم ما فيها الوضوح الجلي ، ثمة رعشة رفت ، لن ينساها أبدا ، كأن ماء الحياة اندفق عبره من حيث لا يدري ، انبعثت عنده همة غير منتظرة ، توق وشوق ليس الى امرأة بعينها ، ولكن ٠٠ الى جنس ! توقف ، لا يدري ما سيقول ، ما يجب التفوه به ، نطق بالسلام فانحنوا ، جاء صوتهم جماعيا . ارتاح عندما سمعهم يردون عليه . ينطقون العربية بايقاع سريع ، واتكاء على مخارج الحروف ونهاياتها . في البداية لاقى صعوبة ، فيما بعد أمكنه المتابعة والاصغاء ، فوجيء بتقديم امرأة أربعينية ، على جبهتها وشم وعلى ذقنها آخر مثلث ، تحمل وعاء من فخار ، عندما جلست القرفصاء أمامه تحددت معالم أردافها العريضة القوية ، ضاق الثوب بها ، ولولا ارتفاع ياقة الثوب لرأى منبت النهدين الخصبين ، المشرعين ، كانت قوية المعالم ، فياضة التضاريس ، أشارت الى حذائه المصنوع من جلد الابل ، خلعه ، وضع قدميه في الماء الدافيء الحنون ، وعندما لامست أصابعها جلده أوشك أن ينحل الى عناصره الأولى ، في الوقت نفسه بدأ ادراكه لمدى تعبه ، ألم يؤجل ارهاقه ؟

تقدم رجل صوبه ، أشار الى المخلاة التي حوت كتابه والاناء ، هز رأسه ، لن يتخلى عنها أبدا ، ويبدو أن الرجل أدرك مدى تعلقه بحاجاته فلم يكرر المحاولة ، ولكنه أومأ ايماءات غامضة ٠

يقول أحمد بن عبد الله انهم لم يستقبلوا ضيفا منذ سبعة آجيال ، لم يصل اليهم أي مخلوق من البر ، عبر هذه المدة الطويلة ، هذا ما تحفظه ذاكرة مؤرخهم العجوز ، لكنهم يتوارثون تقاليد خاصة بهم ، تنتقل من طور الى طور ، ومن ذاكرة الى أخرى ، حتى وان استمرت العزلة قرونا طويلة ٠

عند ظهور الضيف الغريب ، وبعد التأكد من أنه لا ينوى الأذى ، يخرج الجميع لمقابلته ، لبث الطمأنينة عنده ، لا يصل اليهم الا ضال أو رسول قادم من بلاد الصين ، لا يعرف الواحة الا ملك هذه البلاد ، ولذلك سبب سيتضح فيما بعد ، آخر رسول وفد اليهم من الصين جاءهم منذ ثلاثمائة ربيع ، عاشوا بمفردهم تماما ، نائين عن كل غريب ، حتى ظهر الفسطاط جهة الشرق .

المهم أن يلقى الغريب كل عناية ، خاصة اذا كان بمفرده ، أول خطوة لبث الطمأنينة أن تقوم امرأة كريمة السلالة بغسل قدميه ، اذا كان راجلا ، وتقديم الكلأ لراحلته اذا ظهر راكبا ، الماء أندر الموجودات هنا ، والعين الوحيدة فى الواحة لا مثيل لها فى أنحاء المعمورة المعروفة حتى الآن ، لمياهها قدرة على شفاء أمراض شتى ، ولأن درجة حرارتها تتغير ثلاث مرات يوميا ، فهى فاترة فى الصباح ، دافئة فى العصر ، ساخنة حتى الفجر ، وهذا غريب ! ، توزيعه يتم وفقا لطقوس وتراتيب صارمة ، بعد أن أمضى عدة أيام عرف قيمة هذا الاناء الذى حملته المرأة وغسلت قدميه بما حواه من ماء .

أقول أنا جمال كاتب عموم بلاد المغرب ، اننى عانيت مثل ذلك فى غير هذا المقام ، اذ ألمت بى محنة أول فتوتى ، دفعت بى الى السجن السلطانى ، فى اليوم الأول لتقييدى وضعونى عند المدخل المؤدى الى غرف الحبس المعتمة ، رأيت رجلا عجوزا ، نحيلا ، منحنى الظهر ، رأيته فى طفولتى يجوب شوارع المدينة مناديا على قماش مصرى الصنع كان يحمل لفائفه فوق كتفه اليمنى ، لطالما شاهدته عندما صحبت أبى لزيارة مراقد الصالحين ملتمسا شفائى وصلاح أمرى ، كنت أعده من معالم طفولتى ، كان معروفا بدقته وحنكته فى جلب الأقمشة النادرة ، من أخميم ، من حلب ، من انطاكية . كيف .. لا أحد يدرى ، صار من موردى الملابس الى القصر ، لكنه كف فجأة عن حمل اللفائف الطويلة ، المغطاة بعناية ، صار يظهر

أمام المتاجر مشعثا ، هائش الشعر ، منكوش الثياب ، استقر أمره ناحية الحده الغربى للمسجد الكبير ، يغيب أحيانا بالأسـابيع ، فلا ينتبه أحد ، وربما سأل أحدهم ولكن ما من اجابة · لهذا لم أدهش عندما لاقيته فى السجن ، تطلع الى ·· ناداني باسمى ، تعجبت ، كيف بدا للقوم تائها ، شاردا خلال السنوات الأخيرة ؟ . المهم أنه تقدم منى ، تلفت حوله ، أخرج من جيبه قطعة خبز طرية . مقدار ربع رغيف ، ألقى بها تجاهى ، قلبتهـا بين أصـابعى ، تشممتها ، دهشت عندما بدت هلعة قصوى على ملاحه ،أشار كى أخفيها ، ابتعد مجرجرا الثقل الحديدى المربوط الى ساقه ، جميع المحابيس يلزمون أماكنهم عداه ·· ينتقل فى السـاحة الصغيرة المستطيلة أو عند المدخل ، استعدت فزعه · تساءلت مستنكرا : من أجل قطعة خبز ؟

عندما خبرت الطعام خلال الأيام التالية ، خاصة الخبز القديم العطن الجاف ، أدركت ماذا تعنى تلك القطعة الطرية ، الطازجة التى ألقاها عند دخولى ، كان ذلك تحنانا منه على ، وتطمينا لروحى ومؤازرة لعجزى فى لحظات ولوجى الأولى هذا العالم المقيد ·

يقول أحمد بن عبد الله انهم قدموا اليه المرق واللحم عند الغروب ، هذا موعد الوجبة الرئيسية ، مع ميل الشمس يتصاعد دخان الأفران ، رائحة الخبيز ، والشواء ، وخصوبة ما ، وتقارب سعف النخيل ، لم يسألوه عن اسمه ، ولا الجهة القادم منها ، أو الغرض من ظهوره بينهم ، تلك تقاليدهم القديمة فى الضيافة ، ثلاثة أيام كاملة لم يزعجه أحدهم بسؤال ، أبدوا العناية القصوى ، نوعوا له الطعام وقدموا اليه أعشـابا مغلية ذكية الرائحة ، فى صباح اليوم الثالث يستدعيه كبير الواحة ليسأله :

— من أين ، والى أين ؟

خلال أيام الضيافة كان مضجعه تحت سقيفة مظللة بخوص النخيل ، مفروشة بحشائش خضراء ، على حدها الأيمن حجاب مثلث به كتابة ومواد تمنع اقتراب القوارض والزواحف الضارة ٠

التقاليد توارثها القوم ، قاموا على حفظها ، لكنهم لم يطبقوها منذ سبعة أجيال ، منذ نزول آخر غريب على الواحة ، وكان يمتطى دابة غريبة وسطا بين الجمل والحصان ، عدت من الأعاجيب التى وردت عليهم لم يكن ضالا ، أو فاقدا لطريقه ، بل كان رسولا يحمل رسالة من ملك بالمغرب الى ملك بالمشرق ، كان هادئا ، حزينا ، لكنه داعب الأولاد وأعطاهم حلوى غريبة ، قطعا صغيرة صـــلبة تستحلب على مهل ملفوفة فى رقائق ذهبية ولكنهــا ليسنت من الذهب ، علمهم لعبة لا تزال متوارثة حتى الآن ، اذ خط مربعات متساوية فوق التراب ، فى كل منها قطع صغيرة ملونة من الحجارة ، من هنا عرف الأهالى لعبة السيجة ، يتقنونها ويمضون أوقاتا طويلة فى ممارستها ، لم يفصح عن الطريقة التى وصل بها الى أم الصغير ، هل اتبع خطا معينا ؟ هل عرف بوجودها مقدما ؟

على أى حال لم يبد أنه مفاجأ بوصوله اليها ، تساءل البعض بعد مائتين وثلاثين سنة : هل كان طليعة مبكرة للفسطاط ؟ ، غير أن العقلاء استبعدوا ذلك ، لم يظهر الفسطاط الا منذ سبعين سنة لم يحدث أن اقترب أحدهم من الواحة ، لم يقع أى تماس أو حوار بين جنده والأهالى ، كل ما يعرفونه توصلوا اليه بالرصد والملاحظة ٠

أقول اننى راجعت جميع الســـجلات المغربية ، لم أقف على خروج رسول من ديارنا الى بلاد الشرق خلال تلك الحقبة ، كما لم أعرف حيوانا يشبه الموصوف ، حيرنى أمره ، رجعت الى مؤلفــات الأقدمين ، الجاحظ ، الدميرى ، لكن ٠٠ عبثا حاولت التوصل اليه ٠

حدث أحمد بن عبد الله فقال انه مثل صباح اليوم الثالث عند كبير الواحة ، لم يكن هرما ، أو متقدما فى العمر ، دون الخمسين ،

رائق الوجه ، صافى التعابير ، على رأسه طاقية خضراء اشارة الى انحداره من نسل الرسول الكريم ، عنده لفافة من رق الغزال خط عليها سطورا تحوى نسبه · بعد أن سأله عن جهة البدء ومقصده · قال انه يرجو البقاء مدة لا يدرى مقدارها ، ربما يرحل بعد ساعة ، أو يومين ، أو سنة ، لا يمكنه القطع ·

لم يذكر شيئا عن الهاتف ، لم يصرح أو يلمح باتجاهه غربا ، قال انه سائح فى البرية ، يتبع مسار الشمس بغرض الفرجة على البلدان ، ومعاينة أحوال العباد ·

أصاخوا السمع وهم جمود ·

مشكلة !

هذا وضع لم يعرفوه ، منذ أمد بعيد لم يتغير عدد السكان ، لم يحدث فى أى وقت أن نقص العدد أو زاد · مائة وأربعون ، اذا مات أحدهم ولد طفل على الفور ، لا يتأخر وصوله أكثر من أسبوع · اذا حملت امرأة فهذا نذير برحيل أحدهم ، لا يثير ذلك جزعا ، يخفى كل منهم ما عنده ، لا ترتبط الوفاة عندهم بمرض أو طعن فى السن ، انما قد يرحل الصحيح المعافى وينجو العليل ·

اذا مكث سيزداد عددهم واحدا ، لكنه غريب ، اذن ·· هل يتوقعون رحيل أحدهم ؟ · أو يحيد عنه الناموس القديم ، ماذا سيجرى ؟ الأمر ليس سهلا ، أول ما تعلموه وتلقوه فى صغرهم نقلا عن الأجداد ، ألا يردوا غريبا عبر الصحراء ، خاصة اذا كان أعزل ، لا يضمر أذى ، ساعيا الى العون ·

بعد أخذ رأى ونقاش شارك فيه جميع البالغين وتابعه القصر صامتين ، انتهوا الى اعتباره ضيفا عابرا ، ألم يؤكد أنه راحل مهما طالت المدة ؟ · سأله كبيرهم عما اذا كان يعرف أحكام الاسلام

وشرائعه ؟ • أومأ مجيبا ، سأله عن علمه بجهة الكعبة ؟ • أكد اتقانه لعلم الميقات وتحديد الأوضاع والجهات فى الخلاء والمعمور •

أبدى استحسانا ورضا ، قال انه سيعمل نهارا بجوار الضريح المجاور للمسجد الوحيد المطل على عين الماء • سيلقن الكبار والصغار أحكام الصلاة ، يقرأ عليهم ما تيسر من القرآن الكريم ، لكن •• قبل أى شىء يجب أن يحدد القبلة ، فالناس يجهلونها بالضبط ، أما المحاذير المطلوب تجنبها فسيطلع على كل فى حينه •

قال ان القوم عرفوا الاسلام منذ أمد غير بعيد ، أربعة عشر جيلا ، من قبـل عبدوا دورتى الشـمس والقمر ، ظهـورهما ، اختفاءهما ، يقولون ، ما يهلكنا وما يشقينا وما يسعدنا الا تلك الحركة • وما يترتب عليها من مرور وقت •

من حكاياتهم المتوارثة أن أحد عقلائهم شرع فى تدبير يبطىء به حركة الفلك تمهيدا لوقفها عند حد معين ، وبالتالى تحقيق الأزلية لسائر الموجودات • أعد أحجبة مثلثة وأخرى مربعة ، ودفن فى الرمال أوانى صغيرة ضمت أجزاء من أجسام حيوانات وخصلات شعر اناث لم يمسسهن ذكور ، تلا تعاويذ وتمائم ، ولم يكن هذا كله الا مقدمة لعمل كبير لم يفصح عنه يؤدى الى ما عزم عليه •

اتخذ مقرا له عند الحافة الجنوبية ، وقتئذ •• كان السهل خاليا ، لم يظهر أى أثر للفسطاط أو أى شىء آخر ، أمضى أوقاتا طويلة محدقا الى الكواكب ، متلقيا اشارات لا يدركها غيره ، ناطقا تعبيرات بلغات شتى • يؤكد القوم أنه أوشك ، كان قاب قوسين أو أدنى ، لكن وقع أمر ما ، شىء لا يدرى كنهه أدى به الى صمت دائم وتحديق الى اللاجهة والكف عما بدأه ، الى هذا يرجع الأهالى اضطراب الفصول عندهم وشذوذ الأوقات •

هنا تنقسم السنة الى فصلين ، شتاء وصيف ، ما من فترة محددة لكل منهما ، أحيانا يجيء الشتاء أثناء انتظارهم أيام الدفء والقَيظ ، أو ·· يحل الصيف فى شهور البرد ·

الليل ينزل بغتة ، ربما تبدأ العتمة فى ذروة الضوء ، عند الظهر تلمع النجوم ، لا يعرفون الضحى والأصائل ، أو الشفق ، الحدود قاطعة ومتداخلة أيضا ، اذ ربما يبدأ الغسق عقب الفجر مباشرة ، أو يستمر النهار بضع دقائق ، ما من ترتيب كونى يتبعونه فى أمور زراعتهم أو اعداد محاصيلهم لضبط مثل تلك الأمور ، خاصة زمن الحمل اللازم لتوقع وصول المواليد ، يختلف من امرأة الى أخرى ، فثمة من تنجب بعد تسعة شهور ، وأخرى بعد أحد عشر ، أو عشرة ، لكن لم يحدث أن قلت المدة عن أربعة شهور وهذه مدة نادرة تعاقبت خلالها الفصول فى الشهر الواحد مرتين ، وتمددت بعض الليالى حيث أيس القوم من طلوع النهار ، وقصرت أيام أخرى ، حتى أن الشروق والغروب كانا يتلاحقان ، لا يفصلهما ما يكفى لشرب كوب ماء ·

يعرف كل منهم بمدة حمله ، فيقال : «هذا ابن سبعة » أو « ابن خمسة » أو « ابن عشرين » ، وتذكر الروايات المتناقلة أما بقى جنينها خمس سنوات ، ونزل مكتمل الأسنان ، وعد من الخوارق الغريبة لأنه مشى على الفور وقبل ضريح الشيخ ، وفى اليوم نفسه ماتت طفلة جميلة فى السابعة من عمرها ، كانت خضراء العينين ، ذهبية الشعر ، صامتة دائما ، أحاطها والداها برعاية ويقظة لأن قصاص الأثر تنبأ لها بعمر قصير ، وسماها « ابنة الموت » ، لم يتوقع انسان أن تذهب بدلا عن المولود الذى طال حمله ، وجدها والداها نائمة ، مسبلة الجفنين ، كأنها نائمة ، غير صفرة خفيفة تغشى حضورها ، لم يكن بجسدها أى أثر لقرصة حشرة أو عضة حيوان ، الغريب أن ابن خمسة بكاها طويلا وكثيرا ما امتنع عن

حليب الناقة معلنـــا حزنه كأنه كان يعــرف ، وأكسبه هذا رهبة لزمته طويلا ٠

يقول أحمد بن عبد الله ، ان رسول ملك المغرب الى ملك المشرق لم يتم رحلته ، انما أقام ، هل طاب المقام له ؟ أم أن رؤيا عرضت له ؟ أو مكث بسبب امرأة ، فالمقطوع به أنه ما من سبب يبدل المصير ويحيد بالنوايا مثل ظهور امرأة فى الأفق ٠

المهم ٠٠ أنه هداهم الى الاسلام ، علمهم الصلاة ، وتلا عليهم صحفا قرآنية ، فبدأت هداية القوم ، لم يفارق الواحة حتى دنو أجله ، وانقضاء أمره ، دفن قرب عين المياه ، مســاحة مشرفة ، مرتفعة ، بحيث يمكن للواقف عند أى زاوية من ضفاف العين رؤية الضريح ، يعلوه بناء أسطوانى ، صاعد الى أعلى ، لم يستطع أحدهم محاكاة القباب التى وصفها لهم وحكى عنها ٠

انه الضريح الوحيد هنا ، الكل يسعى اليه ، المرأة عند زواجها لابد أن تأتى مع أقرب صاحباتها وتشرب أولا ، ثم تستحم عند مدخل الضريح ، ترتدى ملابسها وتدخل منفردة لتتلو الشهادتين ٠ كل ما يتقنهما الأهالى ، بعضهم يحفظ الفاتحة ، ولكن ٠٠ كل بصيغ مختلفة ، سمع عن أمر غريب ، اتجاه العذراوات منهن بعد البلوغ الى الضريح ، والبقاء بعض الوقت حتى يزيل الشيخ بكارتهن بنفسه فتقع البركة ! ويؤكد الجميع أنه فى حالات معينة وظروف خاصة يجيب على من يناديه ، أو يمد يده خارج التربة المرتفعة حوالى متر عن الأرض ليصافح المستجير به ، أو القادم لأمر ما ٠

يؤكد أحمد بن عبد الله أنه رأى سحابة تظلل الضريح ، وينزل منها ما يشبه خيوط الحرير ، يصعد عليها شخص لم يتحقق من هويته ، وفور اكتمال طلوعه ارتفعت الغمامة ، ومضت بعيدا ، هذا ما عاينه بنفسه ٠

بعد يوم واحد من انتهاء فترة الضيافة جاءه شيخ الجماعة ، اختار له مكان اقامته ، لا يقيم شخص واحد بمفرده ، ليس بسبب أمور أخلاقية ، فللرجال والنساء أحوال عجيبة ، ولكنهم يعتبرون كل من ينفرد أو ينزوى بعيدا مريضا يجب معالجته بوسائل شتى ٠

صحبه كبير الواحة الى الحد الجنوبى ، فى موضع يشرف على السهل ، ويمكن رؤية الفسطاط منه ، توقف أمام ثلاث نخلات تحت أوسطها كومة لم يتبين الملامح الآدمية فيها ، الا بعد حركة واهنة وصدور صوت لم يسمع مثله من قبل ٠٠

قصاص الأثر ..

.. لم ولن يرى هرما مثله ، ملامحه تبدلت عبر أزمنة شتى ، عيناه أطلتا على أماكن قصية ، حاجباه كثيفان ، أسنان مثلثة ، دقيقة ، متلاصقة ، كأسنان الحنش ، مثلها ينبت لمن تجاوز المائة ، لكن أهالى الواحة يقولون انها غريبة ، لم يعرفوا مثلها حتى عند المعمرين .

يتكلم فتصدر عنه همهمات ، لا يفسرها الا عجوز من نسله ، حفيدة لأحفاده .

عندما رآها قدر تجاوزها المائة بكثير ، كم يبلغ عمر الشيخ اذن ؟ هذا ما حار فى معرفته ، يرددون محاربته تحت لواء الصحابى أبو لبابة الأنصارى عند زحفه غربا ، بل انه عاش زمن الرسول الكريم ، سمع عنه مباشرة .

اليه سعى فى القرون التالية البخارى ومسلم وابن حنبل الدراقطنى وأبو زرعة ، أبو اسحق الجوزجانى ، والنسائى ، وابن خزيمة والجامى ، والعطار وغيرهم ، بل ان أبا هريرة نفسه سأله

استوثق منه ، أما البخارى فسافر من سمرقند الى مرسية فى بلاد الأندلس حيث أقام مدة لا يعرفها أحد · جاء من أقصى المشرق الى المغرب ليستفسر عن صحة حديثين منسوبين الى الرسول ، اختلف الرواة حول موضع لفظين فيهما ، قدمهما البعض وأخرهما ثقاة ·

حارب فى بلاد ما وراء النهر ، قاد جمعا من الصوفية اندفعوا لقتال التتار ، وهم ينشدون ذاكرين اسم الله ، بينهم الشيخ نجم الدين كبرى الذى اشتهر أمره ، وقتل فى هذه المعركة ودفن فى الصحراء الآسيوية وقبره قائم حتى الآن يزار ·

يؤكد آخرون أنه كان آخر المنسحبين من غرناطة قبل تسليمها الى ملك قشتالة ، كاد يلقى حتفه فى مرج دابق شمال حلب ، لكن لم يعرف موقعه ، الى جانب سليم العثمانى أو قنصوة الغورى ؟

حتى زمن قريب كان يحدث عما شاهده ورآه عبر قرون عديدة ، من عاصرهم وحاورهم وحضر مجالسهم ، خلفاء وفقهاء وأرباب جاه ودراويش جوالة ، وبناة عمائر ومزخرفو مساجد ، بنايات ، جال طويلا قبل استقراره فى الواحة ·

كيف جاء ؟

كيف استقر ؟

هذا ما لم يطلع على سره أحد ، ما لم يتكلم فيه مخلوق ، انه وافد من زمن قديم ، أكبر المعمرين منهم ينقل عن جده لأمه قوله انه عندما كان طفلا رآه على الهيئة ذاتها التى يبدو عليها الآن ·

المؤكد أنه وافد ، ليس من أهالى الواحة الأصليين ، لكنه منسوب اليهم لقدمه ، معدود منهم لطول عهده ، اذا لاح ميلاد طفل ، يشمله التفكير كالآخرين ، ولكن معظمهم يخشون رحيله الأبدى ، عند زمن بعيد نشأ معتقد يقول انه من حفظة الواحة ، وجوده يضمن

تدفق الماء من العين ، ويدرأ عنهــا الأخطار المجهولة القــادمة من الصحراء ، كثبانا رمليه كانت أو قطاع طرق ، او جيوشا مجهولة الهويه ٠

منذ ظهور الفسطاط تغير محل اقامته ، هل بادر هو أم اقترح عليه الأهالى ؟ ، لا أحد يدرى فالعهد بذلك بعيد ، ولكنه راض ، قابل ، كأنه خلق من طين هذا الموضع النائى عن بيوت القوم ، الواقع الى جوار نخلتين صــــنوان ، عند بداية المنحدر المؤدى الى السهل ، حيث الفسطاط ، على مدى الرؤية من « المرقب » الذى يرصد الأهالى منه ما يجرى بالتناوب ٠

يقول أحمد بن عبد الله انه مهد مكان اقامته على مقربة منهما ، يمكن لكل منهم رؤية الآخر ، فى البداية حار فيما يمكن أن يتحدث عنه معهما ، لكنه سرعان ما أنس الى الرجل القادم من عصـــــور مجهولة ، لا يعرف عنها شيئا ٠

لم يكن يقبل مساعدة أثناء حركته البطيئة ، المعرجة ، ينفر من أى يد تمتد نحوه ، يمكنه الانتصاب على قدميه اذا استند الى عصا موسى التى انقلبت حية تسعى ، وصلت اليه بتدبير خفى ٠

لا يتحرك الا بعد توافد جميع نجوم السماء ، عندئذ يستدير راجعا الى مأواه ، تحت النخلتين التوأم ، لا يأكل الا البلح ، واحدة فى الصباح وأخرى عند الغروب ، كل مدة غير معينة يرضع النخلة القبلية ، وحيدة ، مستقيمة الجذع ، يمضى اليها ويلصق شفتيه بحراشيفها ، يمدهما بينما تحيط يداه بها ، بعد لحظات يبدو كأنه جزء مكمل لها ٠

يقول من رأى الغرائب انه شاهده يرضع النخلة ، لا يسمع له صــوت ، اذ يفرغ يبدو على شفتيه المبلولتين ما يشبه الحليب المخفف بالماء ، هذا أغرب ما عاينه منه ٠

كثيرا ما تطلع اليه أثناء هموده ، خاصة عند الأصائل ، لا يحرك عضوا من جسمه ، يتطلع الى جهة واحدة ، يبتسم فجأة ، أو يضحك مهتزا ، حتى لتتبدل ملامحه ، أو يطيل الاصغاء ، يشير بأصابعه الى طرف خفى لا يبدو ٠

فى الصباح يتفرغ تماما لغزل الصوف ، يمسك طرفى المغزل بيديه ، يلفه بسرعة محدقا فى الخيط الدقيق ، المتين ، بعضهم يجيئه بصوف الغنم المجزوز ، آخرون يأتونه بأنواع شتى من البلح ، منه الأصفر المستطيل ، حلاوته كالعسل ، وآخر صغير مستدير مريح المذاق ، أصناف أخرى شتى ، يأخذ ما يصله ، لا يأكله ، بل يسلمه الى حفيدته ، لم يطعم الا ثمر هذه النخلة التى كان يستند اليها ويرضع رحيقها ٠

برغم ما تردد بين الجماعة حول محاربه تحت لواء الرسول ، وخروجه غازيا فى الجيش الذى فتح المغرب ، لكن لم تحطه تلك الهالة التى لزمت المغربى الغائب ، ولكن هناك جماعة فى الواحة تؤمن سرا أنهما شخص واحد ، وأن العجوز ، الضارب فى العمر ما هو الا رسول ملك بلاد المغرب الى ملك الشرق ، وأن الضريح القائم على البحيرة خاو ، مجرد رمز ، وأن هذا جرى فى زمن بعينه لتدبير خفى يتعلق بسلامة الواحة واستقرار أمورها ٠

قال أحمد بن عبد الله انه سعى الى مقابلة أحد أفراد هذه الجماعة لكنه لم يتعرف الى أى منهم ، المؤكد أنه جلس الى بعضهم ، ان لم يكن معظمهم ، عدد الأهالى محدود ، لكن الجماعة أوتيت قدرة على اخفاء أمورها ، معتقدهم ناشز عن الجمع ٠

النساء عامة يتبركن به ، يسعين اليه ، خاصــة العاقرات ، الآملات فى الانجاب ، أو يعانين من مشاكل مع رجالهن ٠ الطريف أن حيوية تسرى عنده فورد اقترابهن منه ، يستقيم أمره ، ويحاورهن ضاحكا ،متقربا منهن ، باذلا جهده لتوضيح ملامح ألفاظه ، ومخارج

حروفه ، أما اذا كانت المرأة شابة ، فواحة ، فانه يزداد اقترابا ، يمد يده أو أصابعه ملامسا جسدها فى مواضع مختلفة بينما ترقبه حفيدته صامتة ·

ثمة يقين عند الكثيرين انه قادر على الانجاب اذا ضاجع امرأة ، لكن ·· ربما يعوقه الوهن ، وما جرى منذ ستة أجيال منقرضة كما يذكر الرواة ، اذ ظهرت غمامات طائرة ، أسراب من حشرات صغيرة ، دقيقة ، لم يعهدها أحد ، ما من سابقة مماثلة ، احتاط القوم لأنفسهم بعد ظهور قروحات عديدة ، على أجسامهم · يبدو أن حشرة تسللت تحت ثيابه ، قرصته فى مقدمة ايره ، قيل انه تضخم مما سبب له ألما شديدا مدة خمسين سنة متصلة ، اختفى الألم لكن بقى الحجم الهائل لهذا لا يرى الا منفرج الساقين ، حتى عند قعاده ، هذا ما يمنعه من مجامعة النساء . وهذا أيضا ما أجج فضولهن تجاهه ، وشبقهن أيضا ·

المؤكد ·· أنه غريب ، هذا ما يقطع به حافظ الأنساب الذى يتوارث مهمته أبا عن جد ، اذا سئل عن نسب أحدهم يتلوه بسرعة كأنه يقرأ من صفحات لا يراها غيره ·

من أنجب من ؟ من تزوج بمن ؟ متى مات هذا ؟ متى مرض ذاك ؟ لكن عندما تجىء سيرة العجوز لا يقول الا : قصاص الأثر ، ثم يبدأ ذكر ما يتردد حوله من أقاويل ، أكثرها تواترا أنه قديم جدا ، أطول عمرا من أى تقدير ، وعندما حارب فى بدر وأحد لم يكن غضا أو فى مقتبل العمر ، انما كان مكتملا ، قادرا ، يبدو أنه شهد عام الفيل ، ونام ليلتين فى قصر غمدان ، كما رأى العمال يضعون أساس الخورنق ·

يعرف بين القوم بقصاص الأثر ·

هو الذى أنشأ هذا الفن ، وسار الناس من بعده ، لم يجددوا ولم يضيفوا الى سننه وأساليبه ، وله فى هذا الباب تفانين غريبة ٠

كان باستطاعته التعرف على آثار الأقدام فى الصخر او الرمل ، فى الأرض اليابسة أو اللينة بعد مرور ثلاثة شهور على حدوثها ، حتى مع هبوب الرياح العاتية التى تنقل ذرات الرمل وكثبانها من موضع الى آخر ، كان قادرا على رؤية آثار الحشرات والهوام والزواحف ومعرفة أنواعها واتجاهاتها ، لكن اهتمامه بالبشر أكثر ، يستخدم حواسه كافة ، النظر ، اللمس ، الاصغاء ، يتعرف الى الجنس السابقَ مروره ، هذا رجل هذه امرأة ، هذا أسمر ، هذا أبيض ، هذا قصير ، هذه بدينة ، هذا أعرج ، هذه عذراء ، هذا قادم من مسافة ثلاثة أيام ، هذا من أربعة ، هذا مسرع ، هذا مبطىء ، هذا صحيح ، هذا متعب ٠

يعرف الحالة المزاجية من فرح وأسى ، من بهجة وحزن ، من خلال المسافة الفاصلة بين القدمين واتجاه أصابعهما وانفراجاتهما ٠

أمره عجيب ، لكنه منذ قعوده وكفه عن التجول لم يعد يقص الأثر ، كما أن الواحة لم تعرف حادثا يقتضى الاستعانة به ، غير أنه بحاسة سمعه كان ينذر بالعاصفة قبل وقوعها ، ويحذر من رياح الهبوب قبل وصولها ، ويحدد أشد الأيام حرارة ، وليالى الصقيع غير المتوقعة ، وأحيانا تنطلق حفيدته فى أنحاء الواحة ، تأمر الجميع بالكف فيلزمون الصمت ٠

ثمة ما يجب أن يصغى اليه فى الفسطاط ، لا ينطق صغيرهم أو كبيرهم الا بعد اشارة من الحفيدة ، لكنه لا يخبرهم ولا يطلعهم . ربما تصدر عنه اشارات فيها بعد ، يثق القوم من قدرته على العلم بما يجرى هناك ، لكنه لا يكشف ٠

مسافة غامضة تنأى به عن القوم ، عن كل ما يحيط به ، ربما لخوفهم منه باعتباره نائيا عن كل مألوف بعد عبوره تلك الأزمنة كلهـــا ، وصوله الى ذلك الوقت مثخنا بآثار خفية غـيرت هيئته وملامحه ، جعله هذا كله متفردا عن سائر الخلق ٠

لحفيدته رواية تختلف عن سائر ما يقصه الآخرون ، تؤكد أنه اختص بقص الأثر فى جيش عقبة بن نافع ، وعند حد معين فى الصحراء ضل ثلاثة فتية من خيار الجند ، أوغل مقتفيا وجهتهم ، لكن الغريب انه لم يرجع بهم ، ولم يعد هو أيضا ٠

هل هبت عاصفة مباغتة ؟

هل ظهرت علامات لا يمكنه مخالفتها ؟

ما من اجابة محددة ، لم يفض بما يشفى الغليل ، المهم ٠٠ أنه وصل الى الموضع ، لم يكن هناك شىء على الاطلاق ، للرتفع فقط ، أما الرمال فتمتد آلى الآفاق المدركة ، من لونها ، من تموجاتها ، من علامات يعرفها هو أيقن بوجود الماء ، بدأ الحفر بعد سماعه أصواتا من وراء الغمام تقول :

ـ لا تخف نحن معك ٠٠

أنجز فى ساعة واحدة حفر عمق لا يقدر مائة رجل على بلوغه فى المدة نفسها ، وهكذا تفجرت عذارى ٠ أول نخلة زرعها من نواة بلحة حجازية تزود بها قوتا للصحراء ، تعهدها ورعاها حتى أينعت فرعين ، أحدهما أنثى والآخر ذكر ، انها المجاورة لمأواه ٠ اليها ينتمى سائر نخيل الواحة ٠

كيف جاء القوم ؟ ، من أتى بهم ؟ لا أحد يعى وما من مرجع يذكر ، عددهم ثابت بتأثير طلسم خفى مدفون فى موضع ما ، تؤكد الحفيدة أنه حفر القنوات ورتب الفروع بحيث تتدفق المياه

الباردة فى فرع ، والساخنة الى قناة أخرى ، كما حدد مواقيت البذر والحصاد عبر تقلب الطقس وتعاقب الفصول المفاجىء

يبدى القوم احتراما مشوبا بخوف غامض ناحيته ، صلاتهم به ليست في مستوى ما يرددونه عنه ، غير أن شعورهم تجاه ضريح المغربى فجلل ، كل منهم لابد أن يتوقف مرة يوميا ويتلو الفاتحة التى لا يعرفون غيرها من القرآن الكريم ترحما عليه ، ولكن الجماعة المؤمنة بأن ساكن الضريح وقصاص الأثر شخص واحد ، تؤكد أن تلاوة فاتحة الكتاب انما مقصود به هو لا غيره !

يقول أحمد بن عبد الله انه سأل عن أمور عديدة ، لاحظ مرحه ورغبته فى المهارشة ، كان يجيب عبر حفيدته ·

أجيبك فى مقابل أى شىء ؟

يقول :

ـ سألبى ما تأمر به ··

يضحك كاشفا أسنانه ، ولسانه الصغير ، الأبيض تماما ، تنطق ملامحه كافة بالسخرية ، أخبره عن رجال قدامى سعوا فى الواحة ، لم يقترب منه الا الأطفال ، يسمح لهم بالاقتراب ، بمداعبته ، يبدى صبرا جميلا تجاههم ، عامة ·· يعتبر الأهالى وجوده علامة وضمانة ، صار مثلا ، يقولون : اعطنى عمرا كقصاص الأثر وارمنى فى الصحراء بلا علامة !

حفيدته تقوم على خدمته · تدرك لفتاته ، والمقادير التى يمكنها بمفرده · تلبى ما يرغبه دون الاصغاء الى نداء ، لكنه اذا أبدى الجفوة أو النفاد ، تميل عليه تقول ··

ـ « وحياة اسحق عندك ·· »

عندئذ يرق حاله ، تلين جفونه ، يلبى ·

من اسحق ؟

لا يدرى ، لكنه ما أن يصغى الى الاسم حتى يلين ، هل يعيش اسحق في مكان ما ؟ أو أنه يمت الى زمن بعيد ؟ هل كان من سكان الواحة ، أو يمت الى مدينة أو محلة قصية ، ما أفضت به حفيدته يسير جدا ، كان اسحق متخصصا فى العطور والأعشـــاب زكية الرائحة ، جمع غريبها واستخلص جوهرها ، يبدو أن بعضها أفاده ، ان رائحته الطيبة التى يدرك بها من مسيرة ساعة نتاج عطر تطيب به منذ ثلاثمائة عام ، ولم يفن عبيره بعد ، أحيانا يجهد حتى يرفع رأسه ، يصيح مهمهما ، مغمغما :

– اسحق ·· أين أيام اسحق ؟

لو سأله أحد عنه يكف على الفور ، يلزم السكون مرة أخرى ، لكن تغييرا لا يخفى كان يلحق صوته ، وهيئته اذ يرد اسم اسحق هذا !!

يقول أحمد بن عبد الله انه لزمه ·· جلس اليه أوقاتا طويلة ، والغريب أنه لم يكن مفاجأ به ، انما تعامل معه وكأنه نما على مقربة منه منذ مولده ، أتقن عاداته ، بل ان فك طلســـمات همهماته ، وحروفه المدغمة ، لم يفارقه حتى ليلا ، حفيدته تغيب عنه أحيانا ، تمضى الى دروب الواحة وممراتها ، تساعد فى خبز الأرغفة ، أو اعداد أقراص الوقود من لوث البهائم ، وتملأ أوعية الماء من عذارى لهذا البيت أو ذاك ، أو تساعد فى تخزين البلح للشتاء الذى قد يحل فجأة ، ترجع الى مأواها بخرج ربما يحوى كسر خبز ، حذاء قديما من ليف النخل ، بلحات جافة ، قطعة قماش من الكتان ، النبات الوحيد فى الواحة الصالح لاستخلاص الثياب منه ، يزرع حول عذارى ، تقعد وتصف أمامها بعناية ما رجعت به ، ترتبه بعناية ، أحيانا يتطلع اليها بعينين مغمضتين · أيام عديدة تمضى ، لا يطل عليه أحد ، كان ماثلا بوجوده المادى بينهم ، لكنه خارج

الزمان ، لا يطل عليه أحد ، المألوف الانسانى . حضوره قائم بذاته ، فلا يقارن به أحد ، ولا يقاس بعمره زمن أو ظاهرة نادرة الحدوث ، أو ميلاد طفل أو موت عزيز . عموما لدى الجماعة يقين أن وجوده يقى الواحة ثلاثة أخطار .. أولها نضوب عذارى وجفافها ، ثانيا ، ضمان عمل طلسم خفى يحميها من سفى الرمال المتحركة ، كم من مدن ، ومضارب ثابتة ، وقوافل هلكت تحت هذه الكثبان التى لا تثبت على حال ، ثالثا أنه يقى الواحة المخاطر الطارئة . وأهمها خلال العقود الأخيرة ذلك الفسطاط ، طالما بقى بينهم فان رجال الفسطاط يلزمون أماكنهم ، لا يقدرون على اجتياح الواحة أو الحاق الأذى بهـا ، هكذا أنبأهم عرافهـم ، صحيح انه ما من صلة ما من همزة وسط بين الواحة فوق المرتفع ، والفسطاط فى السهل ، لكن عبر ثلاثة أجيال من المواجهة ، من الحذر ، من الترقب ، من الرصد المتبادل ، تراكمت معلومات لدى كل جانب ، لا يمكن ارجاعها الى مصدر بعينه ، أو لحظة محددة انجلت فيها الغوامض ، ولأن أمر الفسطاط غريب ، لم يسمع بمثله ، فانه يستدعى وقفة ..

ذكر الفسطاط ..

.. يقول مدونه جمال بن عبد الله ان بلاد المغرب آخر حد دار الاسلام جهة الغرب ، يحدها المحيط الأعظم ، لذلك عرفت الأربطة والزوايا ، فالخطر يجيء من أفق البحر ، عزم المجاهدون ، الصابرون ، الغيورون على دين أمة محمد أن ينقطعوا بصفة دائمة عند الأماكن والثغور المتوقع وقوع المفاجآت منها ، جاءوا من أقصى الشرق ، من بلخ ، من سمرقند ومرو ونيسابور ، والقاهرة ورشيد وقوص وتعز وحضرموت وساحل عمان وحلب ، وقونية ، والكوفة ، وسائر الأمصار ، انقطعوا تماما فى الأربطة المزودة بالعتاد والمؤن ، فارقوا ملذات الدنيا الفانية ومباهجها العابرة ، ونذروا أنفسهم لمواجهة الخطر وصده ، لا يغمض لهم جفن ، ولا يهن لهم نبض مهما طالت سنوات الدعة .

أمضيت قدرا من عمرى فى الرباط الكبير ، نظمت أموره ضبطت أحواله ، كنت الواسطة بين رجاله وسلطان البلاد . عندما بدأ حديثه عن الفسطاط ظننته شبيها للرباط ، لكننى أدركت خطئى ، لهذا تفصيل أورده لأنى لم أسمع بمثله من قبل .

يقول أحمد بن عبد الله ان كل فرد تحاشى ذكر الفسطاط على الرغم من وقوعه فى دائرة البصر ، مثوله داخل كل منهم أيضا ٠ لكن الاقتراب منه مكروه ، الذين مضوا تجاهه لم يرجعوا ، ولم يأت عوضا عنهم أى مولود ، حدث ذلك منذ جيلين ، وما زال القوم يذكرون الشابين المغرر بهما اللذين استيقظا فى بداية نهار ومشيا معا صوبه غير مصغين الى أى نداء أو رجاء ، كلما سألوا قصاص الأثر عنهما أشار الى الفسطاط ، كبير الواحة يتدارس أمره فى مجلسه الذى يحضره سبعة من عقلاء القوم ، يبحثون بصبر وعلى مهل كل التفاصيل التى أفضى بها الأربعة عشر المكلفون برصده ، والتحقق مما يجرى فيه من خلال مرقبين ، متقدمين ، مموهين بسعف النخيل ، عبرهما يتم النظر الى التحركات والصفوف التى تتراص ثم تتفرق ، أو الخيام التى تنصب وتزال على مدى الأوقات المتعاقبة كافة ، لابد أن حصيلة متوارثة خصبة ، تجمعت عندهم ، لكن لم يتح له الوقوف عليها ، التدوين لم يعرف هنا ، أبعد الأمور وأدقها محفوظ فى الذاكرة ، تنتقل شـــفاهة من جيل الى آخر ، تماما كالأنساب والألقاب ، والظواهر العجيبة ، سماوية أو أرضية ، فى البداية عندما أصغى فى الليل الى صيحات حراس الليل انكمش مترقبا وقوع أمر جلل ظنا انها اشـــارات هجوم ، تأهب لوقوع المكاره ، منذ خروجه من القاهرة لم يصغ الى أصوات كهذه ، فيها الحضور البشرى لكنها ممتزجة بأبعاد غريبة لم يعهدها ، الفراغ غير المحدود ، الأصداء المصحوبة بصلصلة معدنية ، تصادف اتصال تلك الليلة بالليلة التالية لها ٠ لم يطلع النهار الفاصل الا لعشر ثوان ، مجرد لمحة ، ثقل عليه الأمر ، واشتد به التوقع ، وتكأكأت عليه غربته !

فى البداية ظنها أصواتا غير بشرية ، آتية من الفضـــاءات البعيدة ، أو الآفاق السحيقة التى يقصدها ٠ تبدأ من قريب ، قوية ، نافرة ، حادة ، خاطفة ، كأنها نابعة من داخله ، ولكنهـا

سرعان ما تستقل بوجودها فتاتيه من نواح يمكن تحديدها وهذا خلاف الهاتف ، مع تمعنه وطول اصغائه اكتشف تلونها وتدرجها ، بقدر ما تحويه من انذار وتحد بقدر ما تشي بحذر ، كأن مطلقها يرمي الى بث الخوف وهو متوجس ، هياب ٠

يتردد مرة أخرى من مسافة أبعد ، أمكنه الليلة الأولى احصاء سبعة عشر تدرجا ، من وضوح الى خفوت ، مجرد ترددات واهنة ، فى الليلة التالية رصد ثلاثة وثلاثين ، آخرها اشارة باهتة ، بعد التلاشي فى المدى ينبثق من جديد ٠

يطيل الاصغاء ، يكتشف المزيد ، كما يحدث عند التطلع ، كلما أطال التحديق تكشف له ما لم يره ، من طرقات هندسية متقاطعة ، صفوف خيام أخرى ، بل فى بعض الأحيان ، عندما يترقرق الضوء وتنكسر حدته يمكنه رؤية بعض ما يخطر بباله فى الفسطاط ، فاذا استدعى الى وعيه قنوات مائية فانه يراها مترقرقة ، سيالة ، اذا حن الى أشجار طالعها يوما وأصغى الى وشيش أوراقها أو تتخللها الرياح أو النسمات الهينة فانها تنبثق للتو ، تغرسها الخاطرة ، مظللة الخيام المثلثة والمربعة والمستديرة ٠

عندما بدا الضوء الصباحي فجأة أثر ليلتين متصلتين تقريبا ، استفسر ، استقصى وعنده شجن ، ما أصغى اليه غامض ، والأرض المحيطة نائية ، هذا ما لم يتصوره يوما أثناء اقامته القاهرية ٠

قالت الحفيدة انهم حراس الفسطاط ينادون بعضهم ليلا ، اما تأنيسا لأنفسهم ، أو لبث الرهبة ، أيضا ٠٠ لاحصاء عددهم خشية اختفاء بعضهم وقد جرى ذلك ٠٠

فى الليالى المتعاقبة أطال السمع ، كان ترديد الصيحات القصيرة ، المركزة ، الباترة ، الحذرة ، يعنى أن ثمة حياة على

حقربة ، دانية لكنها قصية ، ثمة وجود ما ، الصحراء ليست قفرا ٠ يبث الحذر عند الأهالى منذ زمن لايمكن تعيينه ٠

بعد انقضاء وقت أدرك أن النداءات ليست عشوائية ، انما تنطلق بترتيب بين ، أما تدرج الأصوات من العلو الى الانخفاض فلوقوف الحراس متباعدين ، متساوين ، خطوط مستقيمة يتوزعون عليهم تبدأ ناحية الواحة وتمتد الى حيث لا يمكنه التحديد ، طال اصغاؤه الى النداءات ، بل أصبح يتوقعها ، ينتظرها ، يفتقدها بعد أن كان يخشاها ، تختلف الأصوات ، فتية أحيانا ، مرات تبدو دانية من الهرم ، فى معظم الأحيان رجولية مكتملة ٠

نداءات متغيرة ، فالأصوات هذه الليلة غيرها بالأمس ، بل ان ما يسمعه أول العتمة مختلف عما يصله آخر الليل مع ثبات المصدر ، يعنى هذا تبديل الأشخاص ، لغة مدغومة ، حروف لا تفصح عن نفسها ، لأنه لم يستطع تفسيرها ، لم يطلعه أحد على طبيعتها ، بدأ يفسرها كما يشاء ، يسمع منها ما يوده ، ما يدركه ، مرة يصغى ٠٠

« انتباه »

« الأول ٠٠ تمام »

« الثانى ٠٠ تمام »

الشطرة الأولى ثابتة ، متشابه نطقها . الثانية ممدودة ، متغيرة ، منغمة ، بعد عدة ليال أدرك صوتا معدنيا يتردد ثلاث أو أربع مرات ، ربما جرس ، أو مطرقة تقع على درع نحاسى ، مكان ثابت ، لا يتغير ولا يتبدل ، لا يدرى لماذا كان موقنا من صدوره عن مكان دائرى ؟

لا يفصح الضوء النهارى عن مصـــادر النداءات ، دائما ثمة ضباب خفى المصدر ، يموه وأحيانا يحجب • النظر الى الفسطاط ليس محظورا على أهالى الواحة لكنه مكروه عند الكافة عدا المكلفين بالمراقبة ، عددهم لا يزيد ولا ينقص ، تربطهم قرابة ، لبصرهم حدة ولسمعهم رهافة ، ينبئون بما يرونه بدقة الى كبير الواحة ، أو أحد عقلاء مجلسه ، لكنهم متأهبون للصـــياح محذرون من أى تحرك مفاجىء تجاه الواحة ، المتوارث عند القوم أن الفسطاط لن يبقى على حاله هكذا ، فى لحظة معينة ستنزل البيارق ، وتطوى الخيام ، وتنتشر أعلام أخرى مطوية الآن ، وتنتظم صفوف لا حصر لها ، تتقدم صوب الواحة ، بعد ذلك لن يبقى شىء على حاله •

لم يفصح قصاص الأثر له عما يمكن أن يشفى غليله ، مع أن القوم يؤكدون قدرته على اقتفاء أصداء الأصوات وردها الى أصولها ، من أين صدورها ؟ ، عمر أصحابهـا ، أحوالهم عند الحديث أو الصراخ ، بل يمكنه تحديد أمور تتعلق بصاحب النداء ، جنوبى أو شمالى هو ؟ مولده فى صحراء أو حضر ؟ ، كان قادرا على تعقب الأصوات والأصداء حتى بعد اختفائها ، الى جيلين اثنين فقط كان يخبر عما يراه ، لكنه يلزم الصمت الآن مع ثقة الكافة بسلامة سمعه وابصاره وشمه •

يقول أحمد بن عبد الله ان موضوع الفسطاط هذا من الأمور التى شغلته وأخذت من فكره مقدارا غير هين ، فى لحظة سكون اختلط فيها النهار بالليل مال على قصاص الأثر ورجاه بحياة اسحق أن يخبره بما يعرفه عن موضوع الفسطاط •

رفت عيناه ، اختلجت ملامحه ، لم ينطق كلمة ، لم يفه حرفا ، مع أنه شهد ظهوره · وتابع نموه وامتداده ، وألم بتطوراته ، يتبارك القوم بضريح المغربى ، يثقون بوجود صلة بينهما ·

كانوا فى شك من الأمر ، ما المغربى وهذا العجوز الذى تجاوز الأزمنة الا شـــخص واحـد ، لكن معظمهم لم يجهر بذلك خشية احتسابه من هذه الفرقة المارقة ·

وصـــف الفسطاط ..

.. يمتد الفســطاط حتى أقصى ما يمكن للبصر القوى أن يدركه ، بالمواجهة ثمة ما يشبه السور ، يحد الأرض ، يقيم فاصلا ، لم يعرف من الذين أمضوا زمنا فى الرصد والمراقبة من أى مادة يتكون ، تتخلله فتحتان ، واحدة فى الشرق وأخرى فى الغرب . لكن لم ير انسان خلالهما ، الى الوراء على مسافة تقدر بحوالى ثلاثين خطوة تبدأ الخيام الهرمية ، تليها المربعة ، فى المنتصف خيمة كبيرة مثمنة الشكل من أسفل ، ثم تكتمل فى شكل أقرب الى الدائرى ، حولها مجموعة أصغر حجما ، تبدو أحيانا سبعا وفى أيام أخرى ثمانيا ، وهذا من الأمور المحيرة .

الى الشرق تتراص صفوف متعاقبة يصعب حصرها ، الى الغرب وعلى المسافة نفسها تنتظم مجموعات أخرى ، بالقرب من الســور بناء مستطيل ، شيد من مادة تختلف عن الخيام ، لا تتماوج عند هبوب العواصف ، أو الهواء الصحراوى العنيف ، من يدخله يكون معصوب العينين ، مقيد اليدين ، مدفوعا بحارسين ، لأن مثل ذلك

لم يعرف فى الواحة فلم يدرك أحد وظيفة المبنى الا بعد اطلاعه · الحفيدة أخبرت النساء وشاع الأمر فتعجب القوم من ذلك !

دائما يقف اثنان حوله ، يطوفان باستمرار ، أحيانا يقتربان من جدرانه ، ينحنيان ، يبدو أنهما يقومان باختبارات ما ، فى أوقات معينة يصطف كثيرون ، يقف ثلاثة فى مواجهتهم ، يليهم اثنـان ، بعدهما يقف عظيم مهاب ، ما يؤديه من حركات يقلدها الجميع ، من رفع اليد اليمنى وملامسة الجبهة بأطراف أصابع اليد ، أو ضرب القدم بشدة مرات متعاقبة بالأرض · يقول بعض الأهالى ان هذا ليس كبيرهم ، انه داخل الفسطاط الرئيسى ، لا يفارقه ، هناك من يحل محله ، يماثله فى الهيئة والقوام ، لكن تختلف الأزياء ، بالطبع من الصعب تبين ذلك على هذه المسافة ، انما يظل الأمر كله مجرد تخمينات وظنون تصل الى حد اليقين ويطالها الشك ··

مما حيره أيضا عدم وجود أى اتصال بين الفسطاط والواحة ، لمس الحدود الفاصلة عندما اشترطوا عليه ألا يقترب جهته وألا يقصده أبدا ، وألا يتجاوز حد المرقبين ، فليتطلع كما يشاء ، فى أى وقت ، تماما كأى انسان هنا ، لكن اذا خطا خطوة واحدة أبعد مما هو مسموح به ، فالواحة كلها فى حل من أمره ·

لم يحدث قط أن بلغ أحدهم الفسطاط ، ولم يقع فى أى وقت وصول أحد من هناك ، ثمة اشارات غامضة الى تجاوزات ، لكن ما من تفصيل ، يبدو ذلك مكروها ، غير مستحب ذكره ·

مواجهة غريبة ، صعبة فى هذا القفر ، مثل التقاء اثنين فى الصحراء بعد سفرهما زمنا طويلا كل بمفرده ، حتى اذا بدا أحدهما للآخر مضى بدون كلمة ، بدون تحية أو سلام ·· معقول هذا ؟

الكافة يؤكدون ان مكانه كان رمالا ناعمة جدا ممتدة يصعب السير عبرها • أما تلك الشجيرات المتناثرة هنا أو هناك بين الخيام فهم الذين أتوا بها وغرسوها •

كيف ، بأى الوسائل ؟

ما من اجابة وافية ، شافية •

من أى نبع يستمدون حاجاتهم ؟

المؤكد أنه ما من عيون عذبة على مسيرة شهور ، بل ان بعض الأهالى لا يثقون بوجود عين أخرى فى العالم غير عذارى ، كان ذلك الاعتقاد فيما مضى ، تغير بعد ظهور الفسطاط ، يؤكد كبير الواحة أنهم يحتفظون بحاجتهم من الماء والغذاء وسائر أصناف المئونة فى فى خيام خاصة لا تبدو للناظرين من هنا ، عندهم امداد متجدد يصلهم بوسائل شتى من الجهة التى قدموا منها ، من أين ؟ ، لا أحد يدرى •

برغم الحد الفاصل ، وتحريم الاتصال ، فان مؤثرات جرت وتراكمت لا يمكن تجاهلها ، بعد وقوع الصدمة الأولى بدأ الترقب ، هذا خطر مباغت لم يعدوا له العدة ، لم يتوقعوه ولم يخطر لهم ببال ، كل ما يعرفونه من سلاح لا يتعدى عصيا متخذة من جريد النخل لطرد أى وحش ضال ربما يظهر فجأة فى هذه الناحية من الصحراء ، أو لقتل الحيـاة الصـغيرة ذات القرنين التى تختفى تحت الرمال متكورة وتنطلق فجأة صوب فريستها لتشيع سما فتاكا عبر لدغة خاطفة ، لا نجاة منه الا بربط العضو المصاب فورا وعزله عن بقية الجسد حتى يضمر ويسقط منفصلا • أو يبتر فورا ومثل هذا صعب لعدم وجود قواطع حادة فى الواحة ، عدا سكاكين حجرية عتيقة تذبح بها الجمال التى خارت قواها ، والماعز التى يضحون

بهـا قربانا للمغربى ولعين المـاء ، وفى هاتين المناسبتين يأكلون اللحم ، ولم تجرب قط فى الجسد الآدمى ٠

حتى لو توافر لديهم السلاح الصقيل ، فماذا بوسعهم أن يفعلوا وهم عدد ضئيل ازاء هذا الجيش الجرار ، يمكن حشرهم فى عدد قليل من تلك الخيام المتراصة الى نهاية المدى ٠

لا تسجل الذاكرة الجماعية صراعات حادة ، ولم تنشب معارك فيما بينهم ، وأى مشكلة لم تستمر ، بل حلت ولم تخلف أثرا ، ثمة حساسيات غير منظورة ، غير ماثلة فى الحياة اليومية ، مثل التمايز بين القاطنين غرب عذارى والمقيمين شرقها ، أهالى الغرب يقولون انهم أنقى دما ، وانهم ينتمون مباشرة الى قصاص الأثر الذى حارب تحت لواء النبى ، فهم من نسله جميعا ، أما أهالى الشرق فدماؤهم ليست خالصة ، ذلك أنه منذ زمن بعيد لا يمكن تحديده ظهر قادم من الجنوب ، غامق البشرة ، طويل القامة ، نحيلها ، بارز العظام ، غليظ الشفتين ، قال انه من بلد مطل على الماء الأعظم الذى لا يحده حد ، أرضه مغطاة بالأشجار ، يتخللها نهر عظيم عذب المياه ، خرج منه وحيدا ، منفردا لأمر لم يفصح عنه قاصدا الحج والوصول الى مكة بعد أربع سـنوات ، لا يدرى كيف وصل الى الواحة ، لم يخبره أحد بوجودها ، لم يتوقعها فى طريقه ، لأسباب شتى لم يتم رحلته ، استقر هنا ، ارتبط بشـابة جميلة عظيمة العجيزة يبدو أنها موافقة تماما له !

أحبها وعشقته ، أنجب منها ، وعند ميلاد أول أطفالهما مات شاب فجأة ، فاعتبر الغريب من الأهالى ، بدأت اقامته وتناسلت ذريته فى المكان الذى أقاما فيه شرق عذارى ٠

هل أدى ذلك الى اعتبار الشرقيين أقل مرتبة ؟

نعم ·· بيوت الغربيين أفسح ، النخيل أكثر عندهم ، محصوله أكثف ، بلحه أجود ، لكن الأحوال عموما متقاربة ، عدا أن سقوف بيوتهم من جذوع النخيل ، وفي الشرق من الجريد ، أما الزيجات بين الضفتين فعادية غير محرمة · لكنها غير مستحبة ، ربما يرجع ذلك الى وضع المرأة المتميز ، الغريب ، هي من تختار وتقرر ، تقوم بكل ما يؤديه الرجل ، وفي الملمات والمشاكل لها الكلمة المسموعة والرأى النافذ · كلهن سافرات ، جمالهن نادر ، لا مثيل له ، لم ير شبها لهن في القاهرة أو البلاد التي مر بها وتقلب في أرجائها · تعدادهن اثنتان وسبعون ، لا يزدن ولا ينقصن ، يسرى عليهن هذا الوضع الغريب ، الثلث في طور الطفولة ، والثلث شابات ، أما الباقيات فعجائز هرمات ، انهن المختصات بالولادة ، وعلاج الأمراض ، وصحن الأعشاب وخلط مقاديرها وتحديد جرعاتها ، والصلح بين الأزواج ، ومراعاة الصبية ، والعجيب أنهن يحضن حتى التسعين وبعضهن ينجبن في هذه السن ، لكن لا تضع أي منهن أكثر من مرتين مدى عمرها كله ·

الرجال يرهبن النساء ويقدسنهن ، فمن الأرحام تخرج الحياة وفيها تتكون ، وفور الولادة يبدأ الرحيل صوب الموت ، لهذا يقبلون الفروج قبل الجماع ·

يعود أحمد بن عبد الله الى ذكر الفسطاط فيقول انه مع انقضاء الأوقات أصبح جزءا من حياتهم اليومية ، اى تغيير فيه ينعكس بالخوف أو التوق أو الدهشة أو الهلع ، كما حدث ذلك منذ جيلين عندما ارتفعت رايات صفراء فوق كل الخيام ، ورفرف بيرق أحمر كبير فوق الخيمة الكبرى ، ولم يتوقف قرع الطبل نهارا بأكمله ، ظنوا أن هذه العلامات نذيرا بالأذى لم يعهدوها فيما لاحظوه ورصدوه من عادات متغيرة أو ثابتة ، لكن توقف قرع الطبل ، وبقيت الأعلام

مدة ثم اختفت ، خمن البعض بموت أو مولد عظيم عندهم ، أو وقوع حدث جلل ، أو فرح لكن لم يجزم أحد بشيء ·

مواعيد الطعام معروفة هناك حتى أن الأهالى ضبطوا حركتهم عليها ، خاصة العشاء الذى يبـدأ فور اتضاح المجرة فى السماء ، رتبوا أحوالهم بحيث يتناولون وجباتهم فى التوقيت نفسه ، ومن قبل لم يعرفوا الا الافطار والعشاء ، كأن انشغالهم بالطعام يعوقهم عن ابداء الأذى ، وعدم وقوع الهجوم المباغت الذى يؤمن كل فرد هنا أنه واقع لا محالة يوما ، وان مداه لا يمكن تقديره أو التكهن به ، تماما مثل الأهداف الغامضة التى أتت بهم الى هنا ، والمرابطة فى مواجهة الواحة بدون التقدم ناحيتها · أصبحوا على علم بأيامهم ، ومناسباتهم ، قادرين على التمييز بينها ، وصف فروقها بدقة ، بل والمشـــاركة فيها بشكل غير مباشر ، اذ يخرج الرجال والنســاء والأطفال عدا قصـــاص الأثر ، ويصطفون وراء المرقبين ، وأحيانا تستغرقهم الفرجة حتى ليبدوا وكأنهم هم المشاركون ، بل ان الأطفال ينتظرون والكبـــار أيضا ، تعنى هذه المظاهر عندهم الاطـلاع على الغريب ، وكسر المألوف ، وتغير الايقاع الرتيب ، فكأن التضـــاد يولد الاتحاد ، وهذا عجيب !

أقول أنا جمال بن عبد الله ان ما أملاه على بخصوص ذلك لم يثر عجبى ، يبدو أنه لم يمض مدة طويلة فى برج مشيد أو رباط حصين · لذلك لم يعـرف جوهر المواجهة بين فريقين متحاربين ، ضدين ، حدث أن عرفت بلادنا خطر الحرب عندما حمل علينا ملك البحر الأفرنجى وتمكن من ثغور شمالية ، ودامت المواجهة ثمانى سنوات لم يهدأ فيها التربص يوما ، واشتعل القتال دوما ، معارك كبرى حصدت فيها الأرواح حصدا ، ومناوشات فيها كر وفر ، استهدف كل جانب الوقوف على دخائل الآخر ، والاحاطة بما يتعلق به ، عاداته ، أمزجته ، أسلوبه فى الدفاع والهجـوم · أوقات

الاعتكاف هنا وفترات الحميمية هناك ، لغـة الخطاب المبـاشر ٠ وأساليب المناظرة ، كيفية صدور الأمر ومساره ٠ كل طرف يهجع وفي الذهن شئون الآخر ، يستدعي بالذاكرة ما جرى ، ويتأمل بالمخيلة ما يمكن أن يقع ، شيئا فشيئا ، ومرة بعد أخرى أخذ كل جانب من الآخر ، حتى قطع القوم الفاحصون بانتقال خصال من هنا الى هناك ، وعادات من هناك الى هنا ، فكأن المواقع يتم تبادلها بغير حركة ٠

يقول الثقاة ، ما تخاصم قومان الا وجرى امتزاج بينهما ، وفى وقت معين ربما يستكين المغلوب للغالب حتى ليعجب بخصاله فيسعى الى تقليدها والتمثل بهـــا ، ولذلك شواهد شتى يمكننى ايرادها وتفصيلها ، ولكننى أخشى أن يفيض ذلك على ما كلفت به ، تدوين مشاهدات أحمد بن عبد الله ، وما جرى له من وقائع غريبة لم يسمع بمثلها ، مع انتقاله من موضع الى آخر ٠ ومن بلد الى بلد ، ومن أفق الى آخر ، ومن زمن الى زمن ، مدفوعا بما لا يمكن رده ، مســوقا بما لا يجدى الحوار معه أو التوسل اليه ، أو بسط الشرح له ، ذلك الهاتف الخفى ، والذى غاب عنه حتى الآن ، حتى ذلك الحد من اقامته فى واحة أم الصغير كما سماها ، تلك التى لم نسمع بها ، ولم ترد فى ذكر من رحلوا الى الشرق وسلكوا دروب الحج والطرق المعروفة ، الحق ٠٠ أن ما أفضى به مثير ، خاصة عندما لحت فى عينيه لمعة ، واتقدت فى ملامحه أصداء جـذوة ٠٠ هذا ما يصاحب ظهور المرأة فى الحاصل المعتاد ٠

بـدء زمنهـــا ..

يقول أحمد بن عبد الله ان الوقت توزع ما بين قصاص الأثر الذى بدأ يفضى اليه فى لحظات اشراق مباغتـــة بما أتقنه وبهر به القوم ، وما أخذه عنه أتقنه ، ولزمه ، حتى صارت قدرته على قص الأثر متفردة ، باهرة لمن يعانيها أو يقف عليها . شـــغل أيضا بالفسطاط وما يجرى فيه . لكن .. عنـــدما ظهرت اختلف الأمر وأعيدت صياغة كل ما رآه ، وما سمعه ، وما خبره ، فكأنها مفهوم جديد .

ظهورها لم يكن مصادفة قط كما أطلع منها فيما بعد ، لا يذكر أنه رأى ملامحها ، ولا يعى أنه التقى بها ولو مصادفة . فى الواحة أربع وعشرون شابة مقاربات لعمرها ، وقفن كلهن يوم وصوله ، كأنه يراها أول مرة ، فهى اضافة وتجديد ، متفردة كأنها لم تكن متوحدة فكأنها لم تجتمع بمخلوق ، متميزة فلا شبيه ، وما من حضور يقارب حضورها .

يمكنه تحديد الموضع ، بالضبط .. قرب عين عذارى ..

الوقت نهاري متقد ، اذ تعاقب نهـاران طويلان لم يفصلهما الا ليل قصير حتى أن الشمس أشرقت في لحظة غروبهـا كما بدا للبعض · كان يقف قرب الماء الذى بدا صافيـا ، شفافا كالأفكار الناصعة ، الجلية ، تابع سمكة وحيدة تماما ، زرقتها مغايرة لرمادية الماء ، محفوفة بلون أصفر يبدو كهالة ضوئية ، وجوده غير مادي ، تسبح فى كبرياء عجيبة ، حتى اذا وصلت نقطـة معينة يصعب تحديدها انثنت فى خيلاء أملودى ، لماذا رجعت عند هذا الحد ؟ . لكن الأهم أنه لم يتوقع رؤية مثلهـا فى تلك العين الصحراوية ، من أين ؟ الى أين ؟ ، عندما اختفت شك فيما رآه ، انحنى محدقا حتى أوشك على السقوط فى الماء ·

تلك اللحظة غمره وجودها قبل أن تدخل دائرة بصره ، شمله طنين غير مسموع ، غير مدرك ، التفت ·

أصل ، ليست صورة ··

مصدر ، لم تكن ظلا قط ··

هكذا تبدو له حتى الآن اذ يستعيدها ·

فارهة ، منبثقة ، ماضية الى علو ، صعب ادراكها باستمرار ، غير مؤطرة ، فى ثباتها تمضى من شرق الى غرب ، ومن شمال الواحة الى جنوبها ، تسرى الى كل صوب ، تسعى الى كل اتجاه فى اللحظة ذاتها ، تلوح ولا تدرك ، تعبر دائما فهى غير مقيمة ، هى هنا وهناك ، غطت ما عداها بملامحها الدقيقة ، المحددة ، المراوغة ، عيناها المطلتان على عالمين مغايرين ، الأول خارجهـا حيث المحسوسات المنظورة ، والآخر داخلها حيث المكونات الخفية ، فهى مبصرة ، مبصرة ·

هى عرض ديمومى ، مستمر ، لا يكف ولا حد له . مشع دائما بالأنوثة الفياضة ، بقدر انبثاقها يشرع صدرها ، ينفلت اسارها ، أما عيناها فلهما خاصية مغايرة ·

تلك الفورة ، المتدفقة ، أتسعى فى هذا القفر المجهول ؟

حقا ٠٠ جل من سوى وأوجد ٠

استمراريتها سارية ، قدرتها على التوصيل بغير لفظ ناصعة ٠

عند اقترابها منه نفذت اليه ، تخللته ، امتزجت به من سائر جهاته ، رست فى أقصى أغواره ، شملته رعدة ، خاصة ٠٠ عندما تطلعت ! ترتدى ثوبا شفافا ، غامقا ، مسدلا على كنوزها ، ينبىء بايجاز ، يشير ولا يعين ، فيما بعد عرف أن هذا النوع الذى لم يقف على مصدره لا ترتديه المرأة الا فى حالة سعيها الى لقاء رجل وقع عليه اختيارها ٠ رأى أعمدتها ، بهوها ، ارتواء فخذيها الخصبتين ، تمكن منهما بالنظر حتى رأى الانفراجة الضئيلة ، الفاصلة الواصلة ، لكل منهما مطلع ومرتقى ، ألم بانبساط بطنها ومركزها ، وهن من نفور ثدييها وشروعهما ٠ مضى مع عنقها صعدا ٠

تجاوزته ، التفتت ، اكتمل تأهبه للملاقاة مع أن اعياء أدركه وكأنه قطع شوطا طويلا فى ثباته ٠ استدار ليتابعها ، اطلع على تكوينهـــا الخلفى فكاد يشهق ، انبساط ظهـــرها ، واستدارتيهما المكتملتين ، الصلبتين ، المومئتين ، الداعيتين ٠

عندما غابت كانت مستقرة عنده فى مكان مكين ، فى المساء اقتربت منه حفيدة قصاص الأثر ، ابتسمت مرحة ، غامزة ، تطلع اليها خائفا يترقب ، لكنه فوجىء بها وكأنها كانت بصحبتهما ٠ الحق انه لولاها لما فهم أمورا عديدة ، مثل ارتداء البنية ثوبهـــا الشفاف المصرح بعالمها الحسى ، ليست المرة الأولى التى رأته خلالها ، ظهورها مختتم المراحل بعد أن وقع اختيارها واكتمل قرارها وأفضت به الى ذويها . وفيما بعد علم أن مشكلة ثارت لأنه غريب ، والغرباء رغم ندرتهم فى زمن الواحة المنقضى الا أنهم أثاروا القلاقل بدخولهم العالم المحدود المستقر ٠ ويبدو أن الأمر نوقش فى مجلس العقلاء ، وازاء

اصرارها اضطروا الى القبول ، خيار المرأة لا يرد ، لها أن تسعى ، وأن تبدأ المحاولة فاذا تم الأمر ، لا يحق لها الالتفات الى رجل آخر الا بعد وقوع الفرقة التامة ٠

البداية والنهاية مرتبطتان بعذارى ، على ضفتيها يتم العرض فاذا طقت الشرارة واتقدت الجمرة ، يبدأ وقوف كل منهما على خبايا الآخر ، هنا قرب الماء أصل كل حى ومنشأ الواحة ٠

عادة تمضى الأنثى بصحبة أغنامها فاذا رجع القطيع بمفرده الى بيت الأهل يخرج الأب أو الأم أو الأخ أو كلهم معا ، يجلسون القرفصاء متطلعين جهة عذارى ، هناك تجرى بداية الاتحاد تمهيدا لقدوم مخلوق جديد ، أيضا ٠٠ لغياب أحد الساعين فى الواحة ٠

غير أن صاحبتنا سعت بمفردها ، بلا قطيع ، وهذا نادر ، غريب ، مخلوقاتها الأليفة والمتوحشة داخلها هى ٠

كيف علم الأهل بتمام الاقتران ؟

الحقيقة أن الواحة أدركت فى اللحظة عينها ، بل زعم البعض أن صرختها بلغت الفسطاط ، والا ٠٠ فماذا تعنى هذه الطبول التى تردد صداها فى اللحظة عينها ، وكأنها مشاركة غير مرئية ٠

صباح ذلك اليوم قطع الطريق مبكرا ، متمهلا ، خافقا بالرجاءات ، متطلعا الى ما سيكون ، مزودا بما أفضت اليه الحميدة العجوز ، شرحت له العادات والأصول ، وعندما بدأت الحديث عن اللقاء الحسى تمهلت وأفاضت فى صراحة تامة ، رغم خجله ومحاولته مداراة نظراته فلم يفته ارتعاش صوتها ، وكأن العجوز تجدد رغبتها اذ تتحدث عما سيجرى ، أكدت أنه بعد شربه ثلاث جرعات من حليب النوق الطازج يسهل عليه قطف ما يشاء من ثمارها ٠٠

غير أن ما جرى جاء مخالفا لكل توقع سمعه ، أو تصور جال بمخيلته ٠

أقول أنا جمال بن عبد الله أنه عندما هذا الحد هام محدثي فيما لا يمكن رؤيته أو وقوع النظر عليـــه ، بدا مستسلما لرعدات تسري ، فترجفه اذ يستعيد ما كان متمهلا ، مدققا ، وعندما لج لسانه وكف ، كان أول نطقه ٠٠

« اعطني قرطاسا ودواة ٠٠ فهذا ما يجب أن أخطه بنفسي » ٠

امتثلت ، وفيما يلي ما خطـــه بيـــده ، ورغم اهتزاز حروفه لاعياء بأصابعه ورجفة ، الا أنني لمحت آثار تمكن قديم من فن أمضيت عمري في اتقانه ، وحفظ صنوفه وأشكاله ٠

تدوين الخصـوصية ..

أقول أنا أحمد بن عبد الله ان هذا أول عهـدى بالمرأة ، أول ايقاظ حسى . وسعيى تجاه أفقى الذى لم ألم به ، ورغـم ادراكى المبكر لعالم الأنثى ومنزلتها من الوجود ، وتوقى اليها ، وسعيى ، ولكن ما عرفته منها قبل بزوغ الهاتف ، وخروجى من ديارى ، وبدء ترحالى ، كان تعسا ، مخيبا ، ولا أريد أن أفصل حتى لا أحيـا ، ولكن أقول ان ما مررت به فى الواحة لم يكن البداية فحسب ، ولكنه صار القياس والمرجع فى كل ما عرفتـــه بعـد ذلك ، رغـم التنوع واحاطتى بما لم يخطر لى على بال ، كما سأذكر كلا فى موضعه .

أما تلك فأمر آخر !

كأن برودة هذا الصباح لاتزال سارية ، بل أكاد أرى حمرة الفجـر المتلاشـية ، ترقرق مياه عذارى فى مطلع الضوء ، ورائحة النخيل الراسخة ، أما تطلعى الى الجهة التى اعتادت المجىء منهـا فلهفتى المصاحبة له باقية وما عداها نفد ، دائما كانت تجىء من المشرق ، لكنهـا هذا الصـباح جاءت من الغرب ، لخطوها حفيف

همسى ، عبرت أمامى متجاورزة بثلاث خطوات ، بدا تكوينها متصلا ، منفصلا ، ضاجا ، يحمل الى رؤى عجيبة ، كذا فراهتها ، بسوقها ، تطلعها الى الكون من عل ، انسدال شعرها ، أسود فلفلى ، ناعم ، حريرى ، يتجاوز مغرق ردفيها المتضومين بوقيد الرغبة وتأجج القدرة ، لم ألق الا وصفا اكتمل لحظتها وكان لابد من نطقه والا تمكن منى العته .

« مهرة سماوية »

كأنها أدركت ترديدى القصى ، استدارت متمهلة ، مؤطرة بالنعيم ، بين يديها وعاء فخارى ممتلىء الى الحافة بلبن لم يفقد حرارة الضرع الحلوم بعد ، تناولته ، رفعته متمهلا كما أوصت الحفيدة .

نظراتها فى هذه اللحظات مصوبة ، حاضة ، محرضة ، راغبة ، قدمت اليها الاناء فارغا ، خطت فتبعتها ، متأودة ، متأملده ، كوامنها مستنفرة ، خبيئتها مشهرة ، تعرف مواقع خطوها ، انتهت الى دغل كثيف تحيطه نخلات متوسطة الطول وشجرتا تين عسلى ، منه يمكن رؤية مياه عذارى .

لسنوات طوال استعدت طلعها الفائر . استحضرته عند خفوت الرغبة لحظة مضاجعة عابرة ، اذا رغبت فى انعاش روحى أتخيلها ، فانشطر الى جزأين متنافرين ، مخيلة معها وجسد مغترب عنها .

لا أدرى كيف خطت نحوى ، دفعتنى فى صدرى بقبضة يدها ، استدارت تواجهنى بنظرة جانبية حادة ، يمتزج فيها التحدى بالدعوة وكأنها بادرة العراك واشارة الالتحام .

الحق اننى فوجئت ، دفعتنى مرة ثانية أشد وأقسى ، بسرعة تخلصت من نصائح الحفيدة الهرمة ، بدأت أستجيب من تلقاء ذاتى ،

أتخلص مسرعا من وجلى وحدرى ، وعدم درايتى ، قبـل آن تطالنى قبضتها للمرة الثالثة ، أمسكت معصمها ، لويت ذراعها ، ثنيته بحيث اضطرت الى الانحناء ، الى الدوران حـول نفسها ، أولتنى ظهرها منحنية ولقربها لامس ردفاها المقبيان جسمى فدبت القشعريرة وتأجج عمود النار ، تأوهت متألمة لشدة مسكى ولوضع ذراعهـا المنثنية ، ومن هنا جاء اقتران أهة الألم بتأوه المتعة عندى ، أحطت بها وتمكنت منها ،انتفض نفارها لكننى حرصت ألا تفلت ، خاصة بعد خمشها صدرى ، وغوص أظافرها فى جلدى الذى كان آسنا ، راكدا حتى هذه اللحظة ، عند حد معين بدأ همودها ، ولين حركتها ، واجهته بعينين فسيحتين ، راغبتين ، متلهفتين ، حتى الآن لا أعى كيف ولجت دفأها ، ولكننى أذكـــر مفاجأتى بصرختها الداوية أو شهقتها النابعة ، رميت أحمالى فأمعنت !

توهجت الشمس ، سرت الحرارة ، بدأ دبيب الموجودات ، ولم يقع انفصالنا ، فض اقفالها ليس بالهين ، كانت فوارة ، ضاجة ، كينونة من الرغبة ، دارت بى حتى واجهت كل الاتجـاهات ، مرة رأسها باتجاه العين ، صوب الفسطاط ، مرة تواجهه ، وأخـــرى تتنحى بنظراتها فلا تزداد الا قربا ، لحظة تنأى بنفسها حتى ليبدأ محاولة اللحاق بها ، سرعان ما تعقبها لحظة اتحاد صارم ، تام ، حتى لا يدرك الفاصل الرقيق اللامرئى بين وجوده وكينونتها المادية .

كيف تغيب عنى لحظات بلوغها الأوج ، تهيؤها لاطلاق زفراتها وشهقاتها الجمرية ، عندها يكتمل اتصالها بالأرض وذرات التراب ورائحة النبات الغض ، وعبير عذارى الغامض ، ومثول ضريح المغربى

الغامض ، بقدر تأججها واتقادها بدا همـــودها ثقيلا ، حتى أننى جزعت فسعيت الى تقبيل جيدها لاستثير رد فعلها ، ألممت بحساسية موقعه عندها بعد تحريضها لى على مداعبته .

انفرجت جفونها ، كيف أنسى صفاء نظرنها وارتواءها ، تطلعت الى ممتنة ، راضية ، مرضية ، تفاهمنا بالصمت ، منذ هذه اللحظة حقت لى وصرت لها .. » .

اكتمـال الدائـرة ..

فرغ أحمد بن عبد الله من خط السطور التى مازلت أحتفظ بها ، لم يفه حرفا ولكنه لزم الصمت ، نأى عنى فاحترمت انفراده بما كان منه ، أطرقت ، مر حوالى الســاعة كدت أغفو رحلت الى الحد الفاصل بين اليقظة والوسن ، انتبهت الى تطلعـه الى ، بدا مبتسما ، مستكينا ، راغبا فى استمرار الحديث عنها وعنه ، حدثنى فقال انه انتقل من موقعه عند تصاص الأثر اليها . تعيش شرق العين فهى ممن يجرى فى عروقهم دماء الجنوبى ، والدها خفيف المعشر . لطيف الحضور ، تام المودة ، يداوى العلل ، يشذب الشعر ، يسوى اللحى ، يداوى الجروح ، يغطى بعضـــها بذرات تــراب منخول ، أو نسيج عنكبوت ، أو أنواع من أعشاب تنمو فى الواحة أو الصحراء القريبة ، يعالج آلام الأسنان ، وعدم القدرة على الانتصاب وارتخاء الأعصاب ، يخط كلمات غامضة بمدار أحمر . يلصقها على الجبـــاه تخفيفا للصداع ، أو على البطون ليوقف الاسهال أو ليفك عسرا ، كان طويل القامة ، منه أخذت بسوقها ، كذا شقيقها المتخصص فى تقليم النخل وتلقيحه ، أما والدتها فلا تذكر ملامحها الا غائمة ،

ماتت شابة ، رحلت فجاه بدون ســـابق علة وهى تـرتب مخزون البـلح .

يمتلك أبوها آلة موسيقية غريبة الشكل ، صندوقا مستطيلا عتيقا ، عليه أوتار ، داخله أوتار ، يطرقها بعصاتين صغيرتن لكل منهما مقدمة مستديرة ، ورثهـــا أبا عن جد ، يقال انها كانت مع المغربى ، وأنه أوصى بها لمن لزمه وأدى أصول الخدمة ، هكذا جاءت الآلة الى الواحة ، قادر على اصدار أنغام شجية ، مطربة ، عند العزف تتبدل ملامحه ، تتغير ، حتى ليحلو للبعض الفرجـــة على انفعالاته وطرق ابدائها .

يوما بعد يوم أوغلت روح كل منهما عبر الآخر ، حتى لينسب بعض لوازمه الآن اليها ، مثل ايماءاته المختصرة عنـــد الاصـغاء ، والتفاتاته المفاجئة . وهز رأسه المستمر عند الحديث ، هذا كله مصدره هى ، بالتأكيد .. أودعها ما لا يدرى ، وما لم تتح له الفرصة لتبينه أو الوقوف عليه .

أول من أدرك حملها منه حفيدة قصاص الأثر التى لم تتوقف عن التردد عليهما ، واحضار ما تيسر من خبز أو لبن أو فطائر تعدها لهما ، كانت توده وتحنو عليه وتجد فيه عوضـــا عن أبنائها الذين رحلوا فى عمر واحد ، عنـــدما بلغ كل منهم أربعـــة عشر عاما ، خمسة مضوا ، بعدهم زوجها ، منذ زمن طويل أصبحت أرملة يخشاها القوم ، تفرغت تماما لرعاية جدها القديم ، مازال قادرا على المجادلة الشفهية اذا رغب ، الحنين الى اسحق صاحبه الذى لم يعرف أحد الزمن الذى عاش فيه بالضبط . هى التى دفعته الى تلقينه خبـايا قص الأثر .

كان العيش طيبا ، والحياة تمضى ميسرة حتى وهنت نوبات حنينه الى أيامه القاهرية ، وان لم يفارقه الأمل فى بلوغها يوما بصحبة

امرأته وطفله القادم ، لم يقلقه منها الا سرحاتها وايماءاتها الغامضة المفاجئة ، خاصة انشغالها بالفسطاط وتطلعهـــا جهته لحظـــات انفرادها ، وقولها الموجز ..

« ان ما يجرى هناك لمقلق .. » .

هل كانت مطلعة على أمر ما ؟

ربمـــا .

هل ألمت بأشياء لم تفصح عنها ؟ أم انه شـــأن الأهالى كلهم لكنه لم يلحظه الا مع اكتمال العشرة ودوام الصحبة ؟ . لم يفتـه أنها صارت أهدأ بعد تأكد حملهـــا ، وبدء تنفيذها الى ما تشير به الحفيدة ، تجنب حمل الأثقال ، والتمدد فترات ، والأكل كفاية ، ان طعامها يخص الآن مخلوقا آخر هى مسئولة عنه ، كمـــا جرت العادة أفضى بنبأ حملها الى مجلس العقلاء ، ذاع الأمر ، سر أبوها وجلس يتلقى الأمنيات من القوم ، عزف ليلة بأكملها سهر فيها حتى الأطفال الصغار ، ويبدو أن الأنغام استنفرت جند الفسطاط فسمعت هذه الليلة نداءات طويلة ، وعند الفجر تردد قرع طبل .

بقدر سرور والدها ، وسعى النســـاء اليها لابداء العناية ، اذ انها يتيمة الأم ، خيم ظل غير مرئى ، قرب ميلاد طفل يعنى رحيل أحد أفراد الواحة ، رجل أو امرأة أو طفل ، هذا ناموس قديم أزلى ، لا يجىء واحد الا ويرحل آخر ، اما قبله بأيام معدودات أو بعده . هكذا احتفظت الواحة بعدد لا يزيد أو ينقص . ان جـــوا متناقض المشاعر يسرى ، فيه سرور وحذر ، أمل وخشية ، يصبح المرضى أشد توجسا وأكثر حيطة ، يزداد قلق من اعتادوا الاستسلام للوهم . لكن العقلاء يقطعون بحدوث النقصان فى الجانب الآمن ، كم من صحيح معتل همد فجأة ، كم من عاقل متزن شـــط به الحال على غير توقع .

وقوع حمل يصحبه حذر وخشية ، مع الأيـام يتراوح القلق ما بين الشدة والخفض ، لكنه يتزايد مع اقتراب الوضع ، تتأهب الواحة كلهـا ، لايدرى أحد أين سيقع النقصان بالضبط ، اذ يتم الأمر تسرى راحة ، يسود هدوء داخلى حتى عند أقارب الراحل ، يعنى ذلك أن ثنائية الحياة والموت قد اكتملت وأن باب الاحتمالات أغلق ٠

يعتبرونه الآن واحدا منهم ، يسرى عليه ما يعرفونه وينظمون أمورهم فى اطاره ، ألم يقترن باحدى نسائهم الأربع والعشرين ؟ ألم يقم بينهم ويمارس كل ما يفعلونه ، بدءا من المرور أمام قصاص الأثر ، بل زاد عليهم فى هذه النقطة جلوسه اليه واصغاؤه وتعلمه منه ، الا يزور المغربى ويقف عند الضريح ٠ ويطل على عذارى فى أوقات معلومة ، ويتطلع بخشية الى جهة الفسطاط ؟

يقول أحمد بن عبد الله انه سئل كثيرا فى أطواره التى مر بها عن أحب مراحل رحلته ، وأكثرها اثارة للحنين عنده ، لا يتردد فى القول ٠٠ « أيامى فى الواحة ٠٠ » ٠

كانت تمضى هادئة ، ميسرة ، اعتاد امرأته واعتادته ، لا ينام الا متوسدا ذراعها ، مستنشقا عبيرها ، حل داخله رسو ، ونزل عندها ، عرف كل منهما رحيق الآخر ، وان ظل اتحادهما قادرا على تجدد باهر حتى لتفاجئه بما لم يتوقعه من رد فعل ، أو نظرة مغايرة ، أو لفتة لم يعهدها ، دائما توقع منها ما لم يعرفه ، وما لم يسمع به ٠

عند الشهر السابع من حملها ، اشتدت هموم القوم ، وبدا اطراقهـــم ، زادوا من التطلع الى الفسطاط ، لم يعد الوقوف فى المرقبين مقصورا على المكلفين ، الكثيرون يمضـون لمتابعة ما يجرى من طى خيام ونشر أخرى ، وارتفاع بيارق لم يعهدوها ، واصطفاف جند فى صفوف تتغير بتبدل خطوهم ، وبدأ قرع طبول أضخم حجما

وآلات أخرى ، أصواتها تثير الانقباض والحيرة ، حيرة تقول امرأته انها لم تحدث منذ اختفاء الفسطاط يوما عن أهالى الواحة ، كأنه لم يكن مع استمرار سماعهم النداءات ، جرى ذلك جيل كامل ، وبلغ الخوف أن الرجال مضوا قبل النساء للاعتصام بضريح المغربى مع التوسل لقصاص الأثر .

لم يتبق الا شهران على الوضع ، لن ينسى أبدا ما أحاطه من حذر وخوف متعدد المصادر ، من الميلاد المرتقب ، والاختفاء الموازى له ، من أحوال الفسطاط المستجدة ، من الصمت التام لقصاص الأثر ، حتى انه لم يعد يصغى الى أى نداء ، ولا يسفر عن أى انفعال حتى لو زعقوا باسم اسحق على مقربة من أذنيه . بدا ملموما ، مضموما ، أما ما أثار الخشية أكثر فبكم حفيدته وكفها عن التنقل وجمود نظراتها وتوقفها عن السعى مع أنها أقسمت دائما !انها ستتلقى المولود على يديها وتبسط له غطاء من أوراق التين فوق الأرض ، فى هذه الليلة تمدد الى جوارها بعد أن أصغى بيده الى رفسات الجنين لجدار الرحم ، أغفت ، ولكم بدا وجهها كمثرى التكوين طليا ، منذ وقت قصير كف قرع الطبول الفسطاطية ، أصغى الى أنفاسها الهادئة ، لو أنهما فى القاهرة ، لو أنهما فى مصر الآن ، لمضيا معا الى أضرحة آل البيت والأولياء والصالحين .

شاء الله يا سيدنا ، شاء الله يا ست ، يا امام ، يا سيدى زين العابدين ، أغمض عينيه مستدعيا أماكنهم ، وعبير مداخلهم ، وحلاوة الطواف بهم ، كلا .. لم ينس .. لم تمح التفاصيل بعد . لكم تبدو مصر نائية عنه ، لو أنه بدأ الآن ، فمتى يصلها ، لو أن ابنه خرج الى الدنيا هناك ! ، أى أمان ، أى دثار ؟

فى هذه اللحظة والليل ساج غميق ، انتفض جالسا فى البداية ..

ــ قم .. وارحل ..

التصريح بالحلـول ..

.. حدث جمال بن عبد الله فقـــال : حرك حديث صاحبنا عن امرأته عندي رغبة ، وأرسل في مسرى عروقي نشوة ، فأقدمت على اخباره بمواقعتي لبنية عبرت ديارنا يوما ، ولم يعد مقامها بيننا . لكنها أودعتني ما طغى على ما عداها . حتى انني لا أقدر على القيام بالفعل تجاه أي أنثى الا بعد استحضارها بالمخيلة بعد أن صارت بمنأى .

رغبت في ذلك أيضا لاطلاعه على بعض دقائقي ، ونفيـا لظنه عجزي بسبب قعادي ، وملازمتي الســـكون بعد أن لحقني المرض الغريب ، ويوما كنت مثله ، أمشي وأركض ، أركب وأترجــل ، لم يهن أمري الا بعد تجاوزي الثلاثين ، هنا وجب التنبيه الى انني أماثله عمرا ، خاصة بعد أن استفسرت منه وأستوثقت ، لم يقدر على تحديد ميلاده بدقة صائبة ، نقل عن والديه انه جاء الى الدنيا قبل عام الزلزلة التي رجت القاهرة وقصفت عددا من مآذنها وقضى فيها عدد من المغاربة ورد الى ديارنا خبرهم ، وسجل ذلك الناصري في مؤلفه الاستقصا في أخبار المغرب الأقصى .

هكذا حددت السنة ، سنتي أيضا ، كنت موقنا اننا ولدنا في شهر واحد ، ربما في أسبوع واحد ، أو ٠٠ اليوم نفسه ، هذا حدسي وتخميني ، أما عن تعيين ميلادي فميسور ، ما من مولود يفد الا ويكتب اسمه في سجل ، ومثل ذلك متبع في واحة أم الصغير ٠ لكن شفاهة ٠ حيث يقوم كبيرها بذكر الميلاد والموت ٠ أي ٠٠ من رحل مع ميلاد امرأته وطفله القادم ، لم يقلقه منها الا سرحاتها وايماءاتها الغامضة من ؟ ٠ يتتبع تطورات الأفراد وتغير أحوالهـم من طور الى طور ، كذا تواريخ الاقتران والانفصال ، لهذا كان من ألقابه « الحافظ » ٠

أخبرني محدثي أن مثل ذلك متبع في القاهرة ، عاصمة الدنيا وبستان الكون كما يصفها ، لكن ٠٠ سادها وهن واضطراب وعمت قلاقل بسبب تولى أمور البلاد سلطان ضعيف ، شاحب التجربة ، واهن العزيمة ، مال الى مصاحبة الفساق ، وتدخين الحشيشة في القوارب النيلية ، أولع بتربية الحمام ٠ انشغل بأبراجـــه وأنواعه وأفراخه عن تدبير المملكة ، وبلغ من هوسه انه منع المؤذنين من رفع أصواتهم حتى لا يزعجوا الأسراب في أثناء طيرانها ، في زمنه سرى الانحلال في البر ودبت الفوضى في البحر ، أهمل الناس ما اعتادوه ودرجوا عليه ، ومن ذلك تدوين المواليد والوفيات عند نواب المحتسب وشيوخ الحارات ٠ قال ان بلاده قديمة الأركان ، راسخة الأعمدة ، بديعة الترتيب ، لكنها تدور حول الفرد المتمكن وتستمد منه صيغ الوقت ، فاذا كان قويا ذا ارادة وشكيمة ، انتعشت الأحوال وراجت أمور الخلق ، وهابها القاصي والداني ، اما اذا تولاها مـن ليس أهلا لها ٠ فسرعان ما تشحب أيامها ، ويختلط أمرها ، وتهوى في قرار سحيق ، واذا صح الراعي سلم الوقت ، واذا خاب ماعت الفترة ودنا كل بلاء ٠ هذا بعض مما أفضى به الى ــ وهو كثير ــ خـارج التدوين ، واني مورد شذر منه كلما سنحت فرصة ، ولكنني أبادر فأنثني الى ما بدأته ، افضائي وتصريحي بما جرى مع تلك البنيـة الهندية ٠

ذلك أن أحد ملوك الهند وهم كثرة ـ أرسل بعثة الى ديارنا ، لا نعرف حتى الآن الغرض الحقيقي منها ، ثمة قائل انهم جاءوا لتبادل المنافع ، وآخر يؤكد أنهم أضمروا معاينة المحيط بغرض الوصول الى طرق لم تسلك بعد ، لهذا تعددت مرات خروجهم الى شواطئه وتوقفهم عند نقاط عديدة ، ومعاينتهم للصخور والمغارات ، ومراقبة غياب الشمس فى الماء الأعظم ، وتنوع درجات الشفق ، وحتى الآن يتوجس عقلاء قومنا ، ويخشون أن تسفر الأيام القادمة عن أمور لم يتوقعها أحد منا ٠

بعض الناس يؤرخون بقدومهم فيقولون ، قبل مجيء الهنود أو فى أثناء اقامتهم أو ٠٠ بعد رحيلهم ، يتحدثون عن هداياهم ، عرضت لمدة ثلاثة شهور فى ساحة القصر السلطانى ، عدا الفيلة التى تظهر فى ديارنا أول مرة وخصص لها مكان فسيح فى الحدائق السامية أربعة ضخام الحجم ، لكل منها غطاء من حرير شاهاني ، وعليها مظلات من خشب الصندل الفواح بعطر قوى ، بين الهدايا صناديق عاج عليها تصاوير لمجالس أنس وطرب ، وأشجار ، وأنهار جارية وساعة مائية ، وسروج مطهمة ، وقوارير صغيرة بها عطور فواحة ، وسبع جوار أبكار ، مقيمات بيننا ، ولهن ذرية من أبناء السلطان ٠

بعد وصولهم ، كنت واحدا ممن كلفهم مولانا بملازمتهم ، ونقل أحوالهم ، ذلك اننى ملم باللسان الفارسى ، واللسان الأوردى ، وقادر على فهم السنسكريتى ، نصحنى سيدنا بمداومة الحوار معهم لتمتين لغتى واتقانها ، وبالفعل أكثرت من الاستفسار عما يغمض على ، وتدوين ما لم ألم به ٠

بعد تسليم الهدية بما فيها من الجوارى الحسان ، لم ينبق مع الجماعة الا بنية هيفاء ، نادرة التكوين ، لا أستعيدها الا ذكرت عصفورا رهيفا دقيقا ، تظهر أسرابه فى خريفنا وشتائنا ، يتجاوز

حجمه راحة اليـــد ، لكنه مجمع لألوان الطيف والمروج وزمن تفتح الأزهار فسبحان من سوى !

هى ابنة الشاعر والكاتب المكلف بتلاوة الرســائل وتدوين ما يراه ، طالعت وجهها فقدرت زمنها الطفولى بثلاث عشرة أو بدايات الرابعة عشرة ، لكننى عندما رأيت قوامها تجاوز تقديرى العشرين ، ثوبها الهندى المحكم ، يكشف البطن ، وينسق الارداف مع مطلع النهدين ، عندما مشت فى السوق كادت تقوم فتنة فمثله غير مألوف عندنا .

لم أرها مرة واحدة ، انما كنت أكتشفها متمهلا ، شيئا فشيئا خاصة بعد مفارقتهـا مدى بصرى ، كنت استرجعها بطيئـا فأدرك ما لم أطلع عليه بالمواجهة ، وأقف على ما لم ألحظه عنـــد تبـادل النظـــر .

مصاحبة لأبيها دائما ، قريبة منه ، عدا الأويقات التى يمضى خلالها لمقابلة كبير من أصحاب الأمر ، أو شيخ جليل ذائع الصيت ، لزمتها بعينى ، واذ أنثنى مبتعدا لا تفارقنى ملامحها ، أقضى الليل مستعيدا حضورها ، أئز بالرغبة الولهى ، مبهوتا بما أثارته عندى مع أننى خبرت النساء وعرفتهن قبلها .

لكنها لاحت مغايرة لكل أنثى سعت أو ستجىء ، قدومها من بعيد زادها تفردا ، عندما خرجت من ديارها كانت فى الثانية عشرة ، وصلت ديارنا بعد عام من السفر ، نضجت فى الرحيل ، فى أثناء الانتقال من بر الى بر ومن بحر الى بحر .

اذا حضرنا فى جمع ، فى أثناء حفل ، أو اجتماع ، أو حول مأدبة ، سددت البصر الشره باحثا ، منبها ، راغبا ، عند حد معين انتبهت ، وقعت الخصوصية ، جاوبتنى ، فى البـــدء دهشـــة ، متسائلة ، لم أحد ولم أنثن ، ازداد امعانا ، أملس بعينى على عنقها ،

أنحدر الى جيدها ، صدرها الى اخمص بطنها ، حتى اذا استويت مقيما بالبصر على فخذيها ، على تكوينها الأمثل بدا منها تململ ·

لسان من لهب يصلنى بهـــا ، مجرد مثولها يؤججنى ، حتى خشيت أحيانا انكشــاف أمرى ، لم أدير ·· هل توقى موجه الى شخصها بالذات ، أو أننى أتطلع عبرها الى ما لا أقدر الوقوف عليه !

صباحا مبكرا لمحتها تمشى فى حديقـة القصر · الى جـوار والدها ، عند حد معين ستنفصل عنه ، فى ساعة معينة سيتجه الى مقابلة الوزير ، لم يكن أمامها الا البقاء فى الفناء المبلط بالحجر · تتوسطه نافورة قديمة من مرمر ، ترسل الماء عبر الفراغ بارتفاع قامتى رجلين ليلا ونهارا ، وفى الســكون يسمع صوت ســقوط القطرات واصطدامها بعضها ببعض من بعيد · ابطأت خطوى ، عندما أصبحت بمفردها تقدمت غير مبال بأى مراسم أو أعراف ، متأهبا لبلوغ نهاية المدى ·

فوجئت بنظراتها ·

حذرة النظرات ، جانبية التطلع ، اختلاسة انثوية ، أســفار مستتر ـ تواطؤ متوهج ، استقرت فوق مقعد حجرى محمول على أسدين من صوان أسود ، يتطلعان بماقيهما الفارغة صــوب الحديقة الفسيحة الممتدة بأسفله ، لابد من نزول درج مؤد اليها ·

لم أمض الى الداخل ، أضمرت ابداء العذر فيما بعد ، يمكنهم الاعتماد على المترجم القــادم معهم ، يعرف العربية جيدا ، بدأ يتقن لهجة بلادنا ·

عندما عبرت الساحة المكشوفة المرصعة بالفسفساء الافرنجى الملون ، كانت تدير ظهرها الى الكافة ، على الجانبين اصطف حراس طوال القامة ، من بلاد الزنج ، قساة المظهر ، لا يعرفون الحوار مع

من يدنو من المقار الشريفة ، حرابهم مشهرة ، لا يلتفت كل منهم الا بقـدر ٠

لم أتطلع اليها ، انمـا سددت البصر تجاه الحديقة ، كثيفة الأشجار ، ينبثق من أرضها أشجارنا المغربية ، وأخرى افريقية ، ونخيل الجوز الصينى ، والجميز المصرى ، والبـلوط العثمانى ، والأرز الشامى ، والصنوبر الأفرنجى ، زهور نادرة بعضها لا ينمو الا فى بلاد الصقيع ، تتخللها ممرات مغطـاة بحشـائش قصيرة ، ناعمة ، تتسع أحيـانا وتضيق فى معظم المسافات ، فور التوغل بضعة أمتار يختفى الانسان عن كل بصر مسدد فكأنها نسقت ونمت لتفى بغرضى وتتستر على مرامى ٠

حاذيتها مبتسما ، مستنشقا رائحتها القصوى التى نفذت عبرى لأول مرة ، عطر أنوثة مخملى ، مصدره الشعر ؟ ربمـا ٠ الزيوت العطرية ؟ ممكن ثناياها الخفية ؟ يجوز ٠٠ غير أنها شملتنى ٠

أبديت الحنو ، جاوبتنى مبتسمة ، انحنيت باسطا يدى صوب الأشجار والزهور ، لم أكد أشير لها بقدر ما كنت حريصا على صورتى وكيف تبدو فى عينى أى بصاص لئيم ، مبرزا عنايتى بصبية صغيرة أكبرها على الأقل بعشرين وربمـا أكثر ، اما وضعى كمترجم فخير مبرر ، وأسمى جواز !

شبت فبدت أسمق مما توقعت ، هدأت ملامحى ، واستكانت سماتها وأجهدت نفسى لأخفى انفعالات تتوالى ، ألم أخط الخطوة الأولى ، لم يبق الا اكتمال الانفراد ، الخلوة ٠٠ وتندلع نيرانى ٠

عند حد معين أيقنت خروجنا عن دائرة المبصرين لطول خبرتى ومعاينتى المكان ، لم أشأ فقدان لحظة ، شرعت فورا ، أحطت خصرها على الفور ، لم تبد النفار ، انما دنت ، مشت متمهلة ، راضيه بل اختصرت ما بينى وبينها بمبادرة منها ٠

استكانت ..

أوينا الى مكان مظلل ، مطوى ، توقفنـــا ، تتطلع الى بعينين فسيحتين ، بقدر ما فيهما من خجل وخشية ، تحويان جرأة ورغبة طازجة ، تلفت يمينى ، شمالى ، أمامى ، خلفى ، فوقى ، استوثقت خلو السماء ذاتها .

تقدمت ..

دفعت بها حتى لامست جذع الشـجرة ، تسارعت أنفاسى ، اتقدت مراجلى ، ها هى دانية ، أحطتها فتدفق منها رخصها ولدونتها ورحيق أمدنى بما لا يفنى واستمر حتى الآن ، ضممتها وكأنى أريد تثبيتها داخـلى الى أبد أبيـــد ، أمطرنى عبيرها فسعيت مباشرة الى مصادره ، لم أقبلها انما كنت استنشقها ، أتنسمها ، تدفع كينونتها تجاهى ، كنت راغبا فى تسريب بهائها الى أدق خلاياى ، اضاء ملامحها فرح ، اكتشاف قدر ما تحويه الدنيا من متعة لا عهد بها من قبل ، اما شفتاها فبللهما ندى البداية ، هكذا يؤكدون عندنا ، أول قبلة تحرك الأنثى ، تفرز ريقا عسليا لا يتكرر ، بكارة الشفتين تنمحى على مهل ، حوطت بفمى على فمها ، دفعت لسانى كله ليجول فى حقها الصغير ، المندى .

ربتت كتفى .

أفقت ، انتبهت ، تشير الى ما حولنا ، دفعتنى قليلا ، أدركت أننى مغمور بعطرها ، حل بى ولم يبهت بعد .. هزت رأسها .

« لا .. ليس هنا » ..

هل تعرف المكان ؟

تتقدمنى عبر ممراته وتلافيفه ، كدت أسألها : هل جاءت من قبل ؟ خشيت أن يفسد ذلك ما بيننا ، استمرت باتجـاه شجيرات

متكاثفة ، تجاوزت شجيرات القنب الهندى ، والريحان الفارسى ، افترشت مساحة مستوية من شقائق النعمان ، نوع نادر ، عجيب ، لاينمو الا فى ممر جبلى هائل ، يصعب عبوره ، مؤد الى موطنها ، به بين جداول وشلالات هادرة ، وصخور مغطاة بالحشـــائش ، وبحيرات قرب القمم ، واحتمالات انهيارات مفاجئة ، حمى المضيق الهائل ديارها من هجمات الغزاة ، اقتفت رائحة الزهور ، تلك نبوءة عرافتها .

« لن تفض بكارتك الا قرب مغيب الشمس ، وعلى فراش من الشقائق » .

هكذا .. واجهتنى سافرة ، حسرت ثوبها عن منحنى كتفيها ، الملساوين ، لاكتمال عريهما عندى رعدة ، أصخت السمع الى فورة تفتحها . هدير التقلب والاكتمال ، رفرفة القربى ، شب عندى حريق ، لم يحدث قبلها ولم يتكرر بعدها اندلاع رغبتى وتوقى الى الاندماج كهذه اللحظات ، بل صار كل ما تلاها كأنه ترديد لها ، أو اصداء ساعية عبر أخريات للبحث عن الأصل المكين .

جرى توحدنا حتى صرت لا أدرى أطرافى من أطرافها ، لا يبين جسمى من جسدها ، عبيرها من عبيرى ، امتزج ظـــلانا ، اســتحال التفريق والتمييز . كانت مكتملة النسق ، عطـــر أنوثتها يحب أريج الزهر ، وفواح الأرض ، وشذا النسيم أحاول لملمتها خشية انفراطها ، لشهقاتها ، وفرفرتهـــا ، وتقلبها فى الوقت . تقبل فتتوحد وفجـــأة تنثنى راكضـــة فأقفو أثرها سعيا ولا أدرك حتى لأجثو مقبلا حدود دنياها الحسية ، وبواباتها المؤدية ، ساعيا الى كافة مشتملاتها والامساك بكافة مضمونها ، اذ تلتفت صـــوبى ، تكفى اشارتها لنشورى فأنثنى مقدما وكأننى للتو أبدأ .

احتسيتها وتنسمتنى ، ادركت فيها البعد والقرب ، المشرق النائى والمغرب الدانى ، المسافة القصية والركن القريب ، والبحار الفاصلة والجبال المعيقة .

« يا هندية .. يا هندية » .

كأنى أريد المجاوبة لتحقق التأكد من مثولهـــا بين ضمتى ، هى القادمة من الأقاصى لتزول بكارتهـــا على وســـادة من شقائق النعمان ، تماما كما قضت النبوءة .

مرات سبعا ضاجعتها ، مرغت وجنتى على صدرها . أطدمت زفرات حـرى غير عابىء بافتضـاح أمرى ، سـعيا الى التأكد . الى الاستيثاق من قربها ، من تداخلها بى ، كنت أعى مغادرتها ، ذهابها ، تأوهت عندما ضغطتها محاولا الصاقها بالأرض ، مستميتا كى تدع أثرا لا يمحى ، أو تخلف بذورا لعلها تنبت مثلها ، لعل وعسى !

حاولت التزود منها بكل ما أستعين به على خواء أيامى المقبله ، ولكم استعدتها ، ولكم حاولت خلقها من عدم المخيلة ، خاصة بعد أن شطت وانثنت راجعة الى موطنها ، وبعد أن ادركتنى العلة ، حتى لأطلب حملى أحيانا الى تلك المساحة المغطاة بالزهور الدقيقة ، ذات الألوان الحمراء الياقوتية ، الشفقية ، والصفرة الشمسيه ، أخلو الى نفسى ، راجيا كل من يقدم الى مساعدة ان يعيننى على الخلوة ، التوحد ، فور مغادرتهم أسدد حواسى كافة الى الكوكب لعلى آت منها بقبس ، ورغم البعد السحيق أكاد أشم رائحتها .. هكذا .. صبح ذلك الوقت القصير ، الممتد ، علامة عمرى ، وصارت هذه اللحيظات مقصدى وملجىء ، أمضى صوبهـــا فى تعبى ، مستجيرا بها اذ تهن

همتى ويتقل أمرى ، وأحيانا اصير نوقا خالصا فأتلظى رغم انقضاء المدة وبعد الشقة ٠

سألت ميقاتى مولانا عن جهة الهند ، أشار الى نقطة قرب مطالع الشمس ، صارت وجهتى ، أخرج الى الخلاء ، قال ان الشمس تطلع هناك قبل ظهورها فى أفقنا بعشر ساعات ، اضبط لحظاتى على زمنها ، أدرى توهجها فى ليلنا الساجى ، تشرق فى أفقى الخاص ٠

أقول لنفسى ،لابد انها تستيقظ الآن فلا أهجع ، انما أبقى شاخصا أترقب ، أمضى بجوارها خطوة اثر خطوة ، أراها متثائبة تتمطى ، وسنى لاتزال ، أرقبها ساعية ، برغم كر الأعوام ألمحها فى صورتها التى عرفتها ودنوت منها ، مع امعانى أوشك على استنشاق رائحتها ، اذ أدرك عدم يقينى من بقائها حية تسعى ، من شسوع المسافة ، وعجزى عن اللحاق أنوح معولا كالنساء !

هذا مجمل أمرى مع الصبية الهندية ، انما رويته تخفيفا على صاحبى ، وترديدا لما قصه على وتعزية لنفسى ، فللمرة الأولى اشرك آخر من بنى جنسى ، لم أفض قط بما جرى لمخلوق ٠

أصغى أحمد بن عبد الله متوهجا ، مستزيدا ، مستفسرا عن التفاصيل ، مدققا ، مجريا المقارنة بمرجعه الانثوى ، من أرغم على فراقها بغتة ، أجرى حساباتها وقاس الظل وارتفاع المدى ليحقق الجهة التى أتطلع اليها ، استنفر معارفه التى تلقاها عن الحضرموتى، أكد الوجهة بما يختلف نصف درجة عما حدده ميقاتى ديارنا ، أعدت النظر ، أمعنت الفكر ، وعندما طال صمتى خشيت الانشغال والتقصير ، أبدى ترفقا ، وتفهما ، لكننى طلبت الاسترسال فبدأ ، ولكم ظننت ان ما جرى له مع القافلة ، وفى الواحة غريب ، لكن ما قدر لى تدوينه فيما بعد أعجب !

الخروج من التـدبير ..

.. يقول أحمد بن عبد الله ان الأمر له من قبل ومن بعد ، اليه تصير البدايات ، ويرجع الأمر كله ، له التدبير ، فهو على كل شىء قدير .

لم يكن قادرا على البقاء ، أو العصيان ، اذا عزم فمن سيواجه ؟ من سيتحدى ؟ ضد من سوف يشهر المنازلة ؟ اذا كان أمره لايرى ، ولا يمكن تحديده أو تعيينه أو ادراكه .

ليس أمامه الا الامتثال ، ما من مفر ، هكذا خرج من الواحة الى الخلاء قبل استيقاظ امرأته الحبلى ، وانتباه القوم ، لم يحمل الا ثلاثة كتب وقربة صغيرة من الجلد وركوة ، اما الكتـاب الأول فخرج به من القاهرة ، والثـانى تسلمه من الحضرمونى ، أقرب الى الكراسة ، خال من الكتابة ، لكن الرجل نصحه بامعان البصر فيه يوما فسيجد ما يطلع عليه . الثالث أخذه من قصاص الأثر بعد يوم اختفى فيه الفسطاط تماما ولم يعد ممكنا رؤيته بالبصر مع استمرار سماع النفير وقرع الطبول وصيحات الحراس ، غلاف من الجلد ،

يلفه شريط أحمر ، مكتوب بلسان غريب ، قالت الحفيدة انه سيدركه يوما ، كل شيء بقدر وأوان ·

ملأ القربة بماء عذارى ، اما الركوة فخبر أمرها من قبل بعد أن أعطاها له صاحب القافلة ، الشاب التنيسى ، ابن عاشق الطير ·

لم يدر المقصد ، أو المسافة التى سيقطعها بمفرده ، كل ما ألم به ، ما صدر عن الهاتف ، ما اطمئن الى اتباعه ، الامتثال له ، أن يسعى حثيثا فى اتجاه واحد ، الى موضع مغيب الشمس ·

هكذا ·· عين جهة خروجه من الواحة ، الفسطاط جهة المشرق، سلك المدق الترابى شبه الدائرى المؤدى الى الصحراء من الجهة الأخرى ، عند موضع معين يمكنه رؤية الفسطاط ، والجانب الأيسر منه · يصطف الرجال في هيئة لم يعهدها ، فى المواجهة يقف رجال فرادى متباعدون ، أغطية رءوسهم معدنية ذات بريق ، لم يقدر على التأمل ، أو التمعن فيما يجرى ، يجب أن يبتعد قبل بزوغ الشمس فى الأفق ، لا يعرف المحط الآتى ·

لكم يبدو الفراق القسرى وعرا . صعبا ، بل انه سعى وعنده ادراك بظـلم خفى حـاق به ، لم ير بعـــد ، لم ير قدوم ابنه من المجهول ، هل سيقابله يوما ؟

وهل لحق بشيء مما فاته ؟ ، ليس أمامه الا السعى واستقبال ما هو مغاير لما عهده وخبره ، واذا قاده الطريق الى الواحة ، كيف سيرى امرأته ؟ هل سيعرفه ابنه ؟ ، هل سيقبله مصادفة يوما ؟ هل يحن الفرع الى الأصل ؟ ، أم يستعصي ذلك ، فالابوة معايشة ، والبنوة محصلة كر الأيام وتواليها ، لو انهـا صحبته ، لكن ·· كيف ؟ الهاتف جلى ، الأمر قاطع والقضاء نافذ · الرحيل دائمـا وبمفرده ، لأنه أودع قدرا غير هين من روحه وأيامه فى الواحة ، بذل جهدا وعناية بتثبيت كافة العلامات التى يمكن أن تعينه على العودة ،

موقعها بالنسبة لطلوع الشمس ، حاول استعادة مواقع النجوم فى السماء ، بالنسبة للنخيل ، للبيوت ، لضريح الشيخ المغربى ، لمأوى قصاص الأثر ، لعذارى ، الفسطاط ، للمرقبين المتقدمين ، استعاد لحظات عديدة وحاول تثبيت العلامات بعد استنفاد كافة ما لقنه الحضرموتى من دقائق علم الميقات وتعيين الجهات ، على أمل وقوع اللقاء يوما بمن أنجب ومن أحب ٠

متى يمكن ان يقع هذا ؟

واذا جرى ٠٠ كيف سيلتقى بهما ؟ ، هل ستفهم ، هل ستغفر له اختفاءه المفاجىء ؟ ، ذهابه سيظل حديث الواحة لسنوات قادمة ، ربما أصبح حكاية تروى ، يضاف اليها مالا يخطر بباله الآن ٠

يتخيل ملامحها اذ تستيقظ فلا تلقاه ٠ عندما نهرع باحثة عنه ٠ شيئا فشيئا تكتشف خلو الواحة منه ، ستلجأ الى ضريح المغربى ، الى قصاص الأثر ، ترتجى منهما العون رغم غيبتهما ٠ هذا بالموت وذاك بالحياة ٠

كيف ستواجه الخلق ؟ ماذا سيقولون عنها ؟ ، بعضهم ستدركه راحة ، فميلاد طفلها لن يصحبه نقصان أحدهم ٠ ذهاب الأب مقابل ميلاد الابن ، ربما تكون تلك المعادلة الأولى بالغياب ، ما من مولود الا سبقت أو أعقبته وفاة ، هكذا يبقى العدد ثابتا ٠

سيتحدثون عنه ، يستدعون صورته ، يحاولون تفسير ما صدر عنه ، كافة ما لفظه على مسامعهم ، ربما نسبه بعضهم الى الفسطاط ٠ يقلقه ما رآه عند خروجه ٠ هذا الاصطفاف ، هيئة التأهب ٠ لو جرى مكروه ربما نسبوه اليه ٠

يقول انه لم يدر كم قطع ، لكن النهار لم يكتمل ، عندما تطلع الى الشمس بدت نائية جدا ، أشد بعدا مما تبدو عليه فى الواحة ،

تبدو الرمال مستوية ، ممتدة ، ناعمة ، لكنه مجهد ، كأنه لم يكف عن ارتقاء كثيب ، لاحظ ذلك الوهن الذى بدأ يسرى عنده ، مع بذل مجهود كان يقدم عليه من قبل بيسر ·

كم استمر سيره ؟

لا يمكنه القطع ، مع ان الليل لم يقبل بعد فكأنه أمضى زمنا طويلا يسعى ، هل طال النهار من أجله ؟ ، هل توالت ليال لم يلاحظها لقصرها الشديد ، هل اتصلت النهارات ببعضها ؟ ، بدا له الوقت غريبا لم يعهده ، لا يمكنه قياسه ، يستعصى على كافة ما لقنه الحضرموتى من علم الميقات ·

ليس بوسعه الا الامعان فى الابتعاد ، لم يدركه بعد وهن يجبره على التوقف ، لكن ثمة تغيرا محسوسا ، مدركا ، وان صعب عليه تحديده ، الضوء أوهن ، والهواء أبرد ، كان تواقا للوصول الى حد ، الى علامة ، الى نقطة فارقة ، مرتفع ، شجيرة ، نبات صحراوى ، داخله تنمو قوة دافعة ، لو توقف لتزايد الضور ·

قال الحضرموتى انه ركب سفينة يوما تنقل البضائع والمؤمن من البصرة الى الهند ، اشتدت الرياح فى بحر العرب ، علت الأمواج ، خرج مع ثلاثة حديثى العهد باليم ، عليهم ذعر ، وعندهم خوف ، لاقاهم الربان فوق السطح ، تتطاير حوله قطرات الماء الناتجة عن غمر الموج ، تطلع اليهما زاعقا :

« مادامت السفينة تمضى فلا تقلقوا ·· الخطر كله اذا توقفت فى العاصمة » ·

قال الحضرموتى :

« لكن فى الصحراء يختلف الأمر ، اذا بدأت العاصفة فلابد من التوقف ، واناخة الجمال ، انها تميل برءوسها من تلقاء أنفسها ملامسة الأرض ٠ وعلى الانسان أن يحتمى بها ٠٠ »

لكنه بمفرده فى البرية ، بمن يحتمى ؟ ، تبدو الصحراء أبدية بصمتها وامتدادها ، وهنا يدرك الشبه القوى بالبحر ، هذا السكون ، ذلك المدى !

كأن كل ما حوله صيغ من الضوء ، صفرة الرمال المائلة الى حمرة ، زرقة السماء الزجاجية ، حتى آثار قدميه على الرمال ؟ الى متى ستدوم هل يمكن لأهالى الواحة اقتفاؤها ؟ ، يعرف أنهم منذ ظهور الفسطاط كفوا عن الخروج ، عن مفارقة الواحة ٠ اذ يبدأ استعادة نخيلها وأشجارها يرى ما لم يره عند سعيه بينها ، انحناء السعف والغصون فى اتجاه عذارى ، لم يكتشف ذلك الا بعد ابتعاده ، مع ادراكه أن واقعه اليومى الذى دام زمنا أصبح ماضيا الآن ، لا يستحضره الا بالمخيلة ، لابد أن امرأته يائسة الآن من ظهورها ، محبطة ، مثقلة ، ربما تلزم ضفة عذارى اليمنى التى تفضل الجلوس عندها ، أو ترجو قصاص الأثر ، انه الوحيد الذى يمكنه السعى فى اثره ، لكنه ملازم مكانه منذ قرون ، هل سيتحرك اليـــوم ؟

أصبح متأكدا من تغير الضوء ، كأن ستارة شفافة هائلة أرخيت على الكون كله فباعدت ما بينه وبين الشمس ٠

يقول أحمد بن عبد الله ان النهار وصل الى نقطة لا يمكنه تحديد الوقت بدقة ، ظهرا أو عصرا ، اصيلا أو ضحى ؟ ، عندما رآهـــم ! ٠

ما بين خروجه ورؤيتهم بضع سويعات بحساب الزمن المعهود . بما قطعه لكنه ماله يشعر وكأنه امضى سنوات يمشى ؟ ٠ فى البداية

خشى وقوفهم · غرباء لا يعرفهم ، ربما يقصدون الأذى ، ربما بعض أهالى الواحة خرجوا لتعقبه وسلكوا دروبا يجهلها حتى تراصوا فى مواجهة ، لكن هيئة الوقوف ، أغطية الرءوس ، ادرك ان عينيه تقعان عليهم لأول مرة ، مع انعدام المعرفة تتعدد الاحتمالات · ينشأ الخوف وربما ينعدم أيضا !

لم يكن بوسعه الاختفاء ، اذ وقع كل منهم فى نطاق الآخر ، ثم ·· كيف يخطر له أن يتوارى حتى لو أضمروا الأذى ، هم أولا وأخيرا بشر ، يمكنه ان يشرح لهم حاله ، لكن ما ألقى فى قلبه الخشية ظهورهم المباغت فى البراح الفسـيح ، وقوفهم وكأنهم يتوقعون وصوله ، كأنهم يرصدون خطوه منذ خروجه · يقول أحمد بن عبد الله ، انه مهما أوتى من فطنة ، وقدرة على التخمين ، فلم يكن باستطاعته التنبؤ أو تخيل ما ينتظره !

المملكة ..

اذن ..

كانوا ينتظرونه ، ليس هو بالتحديد ، لم يعلموا شيئا محددا ، مسبقا عنه ، لكنهم توقعوه ، كانوا يترقبونه ولا يتوقعونه ! . ليس شخصه تحديدا ، انما القادم من تلك الجهة ، المشرق . بالرغم من انعدام طرق القوافل ، ودروب السفر . ونقاط عبور محبي الرحيل واكتشـــاف الأقطار . هذا مما يطول الحديث فيه . وسيحاول توضيحه بقدر الامكان .

كانوا سبعة . أعمارهم ما بين الأربعين والخمسين ، تلوح مهابتهم ، ورفعتهم ، الى اليمين سبعة آخرون أكبر سنا ، ما بين الستين والسبعين ، يتوسطهم طويل القامة ، كث اللحية ، بيضاء تماما ، يرتدى عباءة حمراء ، حول خصره حبل من حرير أصفر مجدول ، قميصه أخضر عليه نقش . سرواله أزرق . الى اليسار سبع اناث . ثلاث هرمات ، وأربع متفرقات ، أوسطهن باهرة الطلع . برغم غرابة الظرف . وغموض الحال لم يغب عنه الاحاطة بقوامها

اللدن ، وثدييهـا المشرعين ، الأشـمين ، أحدث هذا عنده يسرا ونشـوة ·

تطلع اليهم · ما يفصله عنهم حوالى عشر خطوات · توقف عند حد معين قدره ، لا يدرى لماذا طافت بذهنه صورة السمكة الوحيدة السابحة فى مياه عذارى · لم يدر ما يجب فعله أو قوله ، لكنه رأى فى وقوفهم وتطلعهم اليه بهدوء ما طمأنه ، بهدوء لفظ :

ـ السـلام عليكم ··

تطلعوا جميعا الى مرتدى العباءة ، بعد لحظات رددوا خلفه ، أجابوا التحية بأحسن منها · وبلسان واضح ، لكن مخارج ألفاظه ثقيلة الوقع ، غريبة النبر ·

تقدم نحوه مرتدى العباءة ، على يمينه ثلاثة ، والى يساره مثلهم ، مادا يديه حاملا وسادة من حرير أحمر عليها منديل أصفر ، فوقه تاج ذهبى مرصع من الزمرد الأخضر ، والمرجان الأحمر ، لم يدر متى تناوله الرجل · أو من قدم اليه الوسادة · شغل بما يجب عليه فعله · بدأ يتقدم بمفرده ، توقف الستة ، فى اللحظة ذاتها تقدم أكبر المسنين السبعة · والفتاة البهية · تحمل عصا من خشب أسود ، مقبضها من العاج الناصع · فرد الشيخ عباءة صفراء ، ركع أوسطهم على ركبتيه ، استدعى الى ذهنه أو وردت عليه طقوس تولية سلطان مصر ، ومدبر أمورها · على مهل مد يديه متناولا التاج ، قبله ، وضعه فوق رأسه ·

بدا الجمع مسرورا ، مستبشرا · أحاطوا به بينما العجوز يساعده فى ارتداء العباءة · والفتاة راكعة بعد أن سلمته العصا ·

فور احكام رباط العباءة الذهبى حول عنقه · خروا جميعا راكعين ، باغته ذلك ، وأدركه خجل لتعب المسنين منهم ، وارتعاش ركبتى اكبرهم لانثناء مفاصله ، وارتعاش أطرافه ، حتى أوشك على

منعه لكنه كف عندما رأى الجميع فى وضـع واحـد ، عند قدميه .
لم يفته سجود البنية ، لاحظ ثقـل صدرها وامتلاءه عندما اندلق متفجرا وبدا فتيا مشرعا ، أعجبه ذلك ، انتبه الى سكونهم · انتظارهم وقوع شيء ما · قال بصوت مرتفع :

ـ تفضـــلوا ··

كأنه يدعوهم الى تناول طعام ، أو دخول بيت ، وقفوا منكسى الرءوس ، عاقدين أيديهم أمام صدورهم · أمعن فى الدهشة · لم يدر كيف يواجه تصرفاتهم وأوضاعهم التى اتخذوها فى مواجهته · حار ·· كيف يتصرف ؟ كيف يبدو أمام هذه العيون كلها ؟ كأنه تجرد فجأة من ملابسه · لم يعتد قط الوقوف موضع الآمر ، مدرس ، خطيب مسجد ، أو قاض يفض المنازعات ، فكيف والحال تبدل ما بين اغماضتى عين ، فى الخلاء جاءه تاج الملك وصولجان الحكم على وسادة من حرير لم ير مثله · اجتهد لدفع اللحظة بمنأى عنه حتى يمكنه تأملها وتفحصها عندما يستعيدها فيما بعد اذ يخلو الى نفسه ·

لكن ·· ماذا ينتظره ؟

لا يعرف ·

الأرض غريبة · والمحيطون به من ســكانها أغرب · كلهم ينتظرون منه اشارة · ايماءة ، يجهل ما يجب أن يقدم عليه ، أو يبديه ، أى ألفاظ يجب التفوه بها ؟

لكن ·· لابد أن يأتى بتصرف ما ، لن يستمروا فى أماكنهم الى الأبد ، كلهم شاخصون ، متطلعون اليه ، اذا استشار أو استفسر ·· ألن يتناقض هذا مع هيبته ومكانته التى لقى نفســه فجأة ملتحفا بها ؟

لا ·· لن يحيد ·

سيستمر في تلبية امر الهاتف الخفي ، تطلع الى الشمس ، مالها تبدو أبعد مما كانت عليه في سماء الواحة ؟ يمكن لبصره أن يحدق صوبها مع أنها تتوسط السماء تقريبا ، كذا لون الضوء والظلال والفراغ وطبيعة الخطو ٠

الى جهة المغيب ، ليس بحاجة الى من يدله اليها ٠

على مهل رفع العصا تجاه مسار القرص المشع المتوحد ، العابر دائما ، أبدا ، تراجعوا متأهبين ٠ تقدم يحمل العصا في يد والمخلاة التي لم تفارقه منذ خروجه عن القاهرة وفيها كتبه والركوة في اليد الأخرى ٠

بعد تجاوزهم بأربع خطوات تبعوه ٠ أولهم مرتدي العباءة الحمراء ، يليه النساء مباشرة ٠ يود لو نظر الى الفتاة الأخاذة في اثناء انحنائها ، لكنه يرجيء ذلك ، لا يليق أن يبدو منه تلهف ، أو تصرف لا يعرف صداه عندهم ٠

لم يعد يترك أثرا لقدميه فقط على الرمال ٠ العصا تخلف نقرة خفيفة قريبة ، لو تبعه قصاص الأثر ، هل سيدرك ما مر به ؟ في تلك اللحظات فكر فيه ٠ في حاله عند وصوله الى تلك البسيطة من الأرض ٠ انطباعه عندما يرى اختلاط آثار قدميه بأقدام أخرى ثم تقدمه عليها ٠ يثق أنه سيدرك ما جرى له ٠ وانه بعد المامه بما وقع ٠ سيتخلل لحيته بأصابعه مبتسما ، ويهز رأسه مرتين ٠

استعاد قوله ٠ لكل أرض رائحة ٠ ولكل مدينة عبير ، ولون ، ودرجات من الظل واختلاف وقع الشمس ، كان باستطاعته أن يعرف دخيلة المرء من هيئة أثره حتى لو انقضى عليه أجال طويلة ، لكم اشارت اصبعه الى بقايا باهتة فوق الصخور أو على الرمال وقال هذا انسان ألم به ضيق ٠٠

هذا مرء استخفه الفرح ..

يتذكر أمر القافلة ، قبل رحيل والده قال له : ستراني هناك ، يعني الدار الآخرة .

أجابه حزينا : قبل ذلك يا أبي .

قال : اذن .. نلتقي في منامك ثالث ليلة تالية على رحيلي ..

لكنه لم يجيء ، تأخر . لم يظهر الا بعد ثلاثة شهور من سفره الأبدي .

سأله : لماذا غبت عني ؟

قال انه كان يحاسب على طائر حط على نافذة البيت ظامئا ولم يقدم اليه الماء فور نزوله .

لا يدري لماذا تذكر هذا بالذات . وهل ما تقدم له علاقة بما تأخر ؟

لا يدري متى قرأ أو سمع قائلا يقول : الهدف بعيد . والطريق مشكل ، والموت كامن في أول منازلة .

آخر قال : ان نفسي هو العدو ، فكيف أمضي ورفيقي هو قاطع الطريق ؟!

لا يمكنه الالمام ، مهما استنفر مهارة سنيه فلن يتوصل الى حقيقة ما جرى ويجري ، كأن ما يحدث يمت الى آخر لا يمت اليه ، انما هو متفرج ، محايد .

فجأة .. ترفرف فوقه أربع يمامات . تطوف حوله ثلاث مرات ، جفل ، بوغت ، من أطلقها ؟ من علمها الدوران المتقن ؟ . تطلع حذرا ، الجمع مطرق . هل لاحظوا تراجعه المفاجيء الى

الخلف ؟ . استمر تقدمه بخطى راسخة ، قوية . عندما حانت منه التفاتة ولمح الاجهاد البادى على العجائز . اشار مبديا الترفق ، عندئذ سجدوا شاكرين ، الحقيقة أنه تطلع متجاوزا لهم الى النساء ، الى المليحة الخافضة وجهها حياء ورهبة .

يقول أحمد بن عبد الله انه بقدر استجابته لما يتطلبه الوضع المباغت الذى لقيه ، بقدر تعاظم حيرته وحاجته الى الانفراد ، حتى اللحظة لم يدرك أى نوع من الرئاسة لحقه ؟

أمير هو أو ملك أو سلطان أو شيخ ؟ . انه حاكم .. لكن لمن ؟ من أى نوع ؟ ان خوفا غامضا يحل به . لم يلم بعد بما جرى ، ما دوافعه ؟ بواعثه ؟ ما المحرك الدافع لهذا كله ؟ . ربما لحق به أذى ما مجهول ، لكن .. من أى نوع ؟ الى أى مدى ؟ . حدثه الحضرموتى عن قوم فى احدى جزر البحر الشرقى الكبير يعظمون كبيرهم ويسجدون له عند ظهوره ، لكنهم فى لحظة معينة ينقضون عليه . يقتلونه ، يتسابقون الى شرب دمه تبركا والتماسا للحكمة .

نوى الاستجابة واضمار الحذر ، غلب عليه التوجس حتى أن اطلاق الحمام اسرع بدقات قلبه . حرك روعه ، استمر متقدما ، متمهلا ، لا يمكنه تحديد الوقت الذى استغرقه حتى ظهور أسوار المدينة . تماما كالزمن الذى قطعه من الواحة حتى ظهور القوم بغتة ، كأن الساعات مغايرة لما مرت به من قبل . كذا تقديره للمســـافة .

أول ما رآه الأسوار ، فى البداية لاحت كخط نحيل ، وهم غير مؤكد ، مع كل خطوة تبرز التفاصيل ، الأبراج ، النتوءات الحجرية ، البوابات ، البيارق المرفوعة ، القباب المتباعدة .

تتكاثف الأشجار المرصوصة بفعل انســـانى ، يبدأ ظهور البشر ، رجال ، نساء ، أطفال ، يصطفون جماعات ، تفصل بينها

مسافات متساوية . الرجال متوسطو القامه ، عراض الاكتاف ، ناهضو الصدور ، متشابهو الملامح ، أو هكذا بدول له عند النظرة الأولى ، فطس الأنوف ، ليس بينهم من يدانى قامة مرتدى العباءة الحمراء الذى اتضح له فيما بعد أن عينيه عميقتا الزرقة . كلهم يرتدون زيا متقاربا ، تختلف الألوان من رجل الى آخر ، عباءة مشقوقة من الأمام ، الأكمــام طويلة تغطى الأيدى وينثنى ما تبقى منها متدليا ، تحت كل منها سراويل تغطى الأحذية المدببة المقوسة الى أعلى ، أما النساء فيرتدين ما يشبه الجلابيب ، يحيطها عند الخصر حزام عريض مذهب أو مفضض ، على رءوسهن طواق صغيرة، مربعة ، أما ملابس الأطفال فلا تختلف الا فى المقاس .

بعض الرجال يحملون فوق صــدورهم ما يشبه الحلى . منها المستدير ، والمسدس ، والمثمن . والمتدلى من أشرطة ذاهبة ، هؤلاء يتقدمون الآخرين ، ومعظمهم كبـار السن ، منهم من يتكىء على عصا ، لكن ما من واحدة تشبه تلك التى يقبض عليها .

فور اقترابه الى حد معين ينحنى الجميع . يخفضون عيونهم ويميلون الى الأمام ، كأنهم انتظروا أمدا طويلا ، فيما بعد عرف الوقت ، لم يكن قليلا ، تعم فرحة ، فى الفضاءات بهجة .

تظهر صفوف من الجند ، ملابسهم من جزأين ، سترات علوية حمراء ، سراويل صفراء ، أحذيتهم جلدية مرتفعة ، يشهرون حرابا نحيلة ، والى أكتافهم شدت بنادق ، بعضها مزدوج الفوهة . والآخر مفرد ، يمسك المتقدمون بلطا قصيرة . حادة النصل ، يقول أحمد بن عبد الله . الراجى حسن العاقبة ، ان ما أحاطه بدا غريبا ، عجيبا ، بالقياس الى ما مر به ، يتزايد شعوره بوجود زمنين منفصــلين . أحدهما يخصة يحاول ارجاع الأمور اليه . والآخر منفصل عنه ، كأن أحدهم يحكى له عما يمر به ، ويخبره .

كيف لا يدرى أحد من أهالى الواحة بوجود هؤلاء القوم كاملى الأبهة ، وهم على مسافة نصف نهار أو أقل ، لو أن امرأته وصلت الآن لولت فرارا ، ولادركها هلع ، هو من تمدد حتى الفجر الى جوارها فوق فراش خشن . تحيطه هذه الأبهة ، وتنحنى له الرءوس . ولا تجرؤ عين على النظر اليه مباشرة .

مرة أخرى ارتبك عندما فوجىء بغتة بقرع الطبول ، وصدح الموسيقى النحاسية ، وانطلاق قذائف المدافع الكبار المنصوبة فوق السور . بقاء الدخان معلقا فى الفراغ .

يصطف رجال ، على هاماتهم قلانس أطول ، يمسك أحدهم بمقود جواد أبيض . لجامه جلدى أسود . مرصع بدوائر مستديرة من معدن لامع جدا لم يره من قبل . فيما بعد علم أنه لا يوجد الا فى هذه الجهة وأنه وسط بين الذهب والفضة .

تقدم مرتدى العباءة الحمراء ، تجاوز موضعه . أمسك مقود الجواد . تطلع اليه للحظة ، أدرك أنه يثبت أمره بالنظر ، فيما بعد قال له انه أثبت ممن بهذا الموقف . بدا راسخا ، واثقا . كأنه تربى فى الرئاسة ورضع أصول الامارة .

لأول مرة يركب جوادا لا يشبه ما عداه ، اذ ينتمى الى أب لم يروض . طليق . جرت العادة على خروج القوم بفرس عذراء لم تمس الى موضع معين فى البرية ، تعيش فيه قطعـــان جياد قديمة ، وحشية ، تترك لمدة ليلة ، عند عودتها تحاط بعناية ، حتى تلد مهرا نادرا لا مثيل له عند الملوك والسلاطين وأصحاب الأمر .

عندما امتطى ظهره استدار كأنه يعرف طريقه ، بدا قويا ، مزهوا ، متينا ، تقدم صوت الباب الرئيسى للمدينة . هكذا أصبح الرأس الأعظم كما يسمى القوم كبيرهم .

ماذا جرى ؟

هنا أقول أنا مدونه ، وحتى لا يبدو الأمر غامضا ، مبهما ، ان صاحبي صار رأسا لاقليم شاسع حدد لي أطرافه بدقة . وان لم نسمع عنه فيما هو معروف لنا من المعمور ، لم تكن المدينة التى دخلها الا نقطة حدودية ، يمتد الاقليم شمالا حتى شاطىء البحر ويتجاوزه الى الجزر السبع المأهولة · وجنوبا حتى جبال النحاس · وغربا الى الغابات المتحجرة ، التى مسخ سكانها من طير وانس وحيوان وهوام أحجارا فى لحظة معينة ، فترى كل شىء على حاله وكأنه ينتظر سريان الحياة · كيف ومتى جرى ذلك ؟ · هذا مالا يعرفه الا من يرجع اليه الأمر كله · وشرقا الى عمق الصحراء التى توغل فيها ·

اقليم يحوى سبع مقاطعات ، وسبعين مدينة ، وسبعمائة محلة ، وثماني واحات · أصبح متصرفا فى شئون هذا كله ، مدبرا لأموره ، مسيرا لشئونه · يطيعه جند أشداء ، ورجال لهم ترتيب ، وقوم لهم هيبة ، وأثرياء وعبيد ، وقبائل ، وجماعات لاجئة ، وفروع شـــتى ·

كيف حدث ذلك ؟

هذا ما استبق الأمور التي رواها لكى تتضـــح الدقائق ، ولا تغمض المواقف · أخبرني أن أهالي هذا الاقليم اتبعوا سنة قديمة منذ زمن بعيد ، انتقلت جيلا عبر جيل ، لم يغيرها تبدل الأزمنة وتغير العصـــور · ذلك أنه لم يكن لديهم أسرة أو فئة تختص بالرئاسة · هنا قيمون علي الطقوس العبادية ، والعادات · والتعليم، وحراسة الثغور ، والدور · وضبط المعاملات ، أما الرأس الأعلي فيختارونه بالمصادفة ، بعد وفاة من يشغل هذا المقام أو اختفائه لسبب ما ، يخرج القيم الأول ـ مرتدى العباءة الحمراء ـ وصحبته ثلاث جماعات ، جماعتان ذكور والثالثة من الاناث ، يمثلون أصول الاقليم وجهاته · يقصدون جهة طلوع الشمس ، ناحية الصحراء ،

وعند نقطة محدودة . لا يمكن الاخلال بموضعها ، يصطفون وقوفا منذ شروق الشمس وحتى اكتمال مغيبها في انتظـار أول قادم من دروب الصحراء غير المطروقة ، فالجهة كلها لا يخرج اليها أحد منهم أبدا . عندئذ يتقدمون منه ، ينصبونه رأسا ، يطيعونه في كل كبيرة وصغيرة . يلبون أي اشارة تصدر عنه ، ويرفع ويخفض ، ويأخذ ويعطي . تتفاوت مدة انتظارهم . منذ خمسة قرون انتظروا في الخلاء تسعين سنة بالتمام ، تبدل القيم ست مرات لرحيله بالوفاة . وصول قادم من تلك الجهة أمر نادر . ما من طرق للقوافل ، أو البريد ، ما من معمور قريب ، أما الواحة فأمرها سيأتي شرحه ، تصادف قدوم زنجي من أهالي السودان العميق ، تولى أمرهم ثلاثين عاما كاملة ، وتروى الحكايات تفاصيل شـــتى عن حلمه وعدله وفطنته ، وفي الاقليم الثالث قوم غامقو البشرة . غلاظ الشفاة . يقال أنهم من نسله ، ويبدو أنه خلف ذرية كثيرة . اذ كان شرها الى النساء . راغبا فيهن ، قادرا على مضاجعة سبع أو ثمان يوميا ، وهذا عجيب .

منذ ثلاثة قرون انتظروا أربعين سنة وكانت المفاجأة عندما رأوا القادم عبر الصحراء . امرأة شابة ، نحيلة ، طويلة الشعر ، فسيحة العينين ، لم يســألها أحد عن الجهة التي بدأت منها ، ولا السبب الذى دفعها الى قطع هذا الجانب المجهد ، المقفر ، تقاليد القوم وطقوسهم وآدابهم تمنع ذلك تماما ، أسلموا زمامهم اليها . كانت من بعيد ، من بلاد نائية جهة المشرق . من بلاد الأوزبك المتاخمة وقتئذ لاقليم فارس ، هكذا صرحت من تلقاء نفسها ، لكنها لم تفض لمخلوق قط بالدافع الذى جعلها تفارق ديارها . أو السبب الذى جاء بها الى اليباب ، الغريب أنها كانت على دراية تامة بفنون الحرب والقتال . هي التى أضافت الخنادق العميقة حول الأسوار كما أضافت الأبراج التى تتخلل جدرانها الفتحات الضيقة ، لكنها كما جاءت فجأة ذهبت على غير انتظار وفى ظروف غريبة ، اذ تقول

الرواية التي لاتزال متداولة ان جيشـــا معاديا هدد حدود البلاد الغربية • وأنها خرجت على رأس جيش كثيف ، مزود بأسلحة شتى من ابتكارها ، بعضها مازال موجودا حتى الآن منها قاذفات النفط المشتعل • ومرايا الحريق ، وقنابل الحيات الفتاكة ، وآلة بث الخوازيق المدببة المسمومة • الى غير ذلك • تواجه الجيشان في وادي السباع • وعند حد معين قبل وقوع الاشتباك تم اتفاق ما على ترتيب اجتماع بينها وبين قائد العدو في خيمة منفردة نصبت في المنطقة الحرام • على أن يجرى بينهما حوار ، ومن يقنع الآخر عليه بالتسليم ، قسم من أهالى الاقليم يقولون ان قائد العدو هيأ المكان ودس في الخيمة نوعا من البخور يوقظ الباه ويضعف المرأة في مواجهة الرجل ، لهذا حدثت المواقعة وسمعت أصوات رهزهما وغنجهما من قبل الجيشين المتأهبين للقتال والمتواجهين ، وبعد أن ساد همود خرجا معا ، وفي اتجاه واحد سعيا ، الى فسطاط القائد المنصوب بالمواجهة ، وفي الصباح بدأ رحيل العدو غربا ولم يظهر قـــط • •

طبعا هذا القسم من الأهالى يعتبرها خائنة ، اتبعت رغبتها وتركت مكان رئاستها شاغرا ، أما البقية فيعتبرونها مباركة ، ذات منزلة خاصة ، اذ أسرت قائد العدو بفتنتها وذكائها وآثرت أن تمضى بصحبته عندما استجاب لشرطها أن يتراجع بجيشه ولا يقترب أبدا من حدود الاقليم •

بعدها انتظروا ثلاث سنوات حتى ظهر رأس لا يتحدثون عنه كثيرا • الغريب أنهم دونوا سير الأقدمين • ولكن آخر ثلاثة لا ترد سيرهم على الاطلاق ، وكأنهم لم يمثلوا ، ولم يحكموا ولم يغيروا ويبدلوا ، هكذا هم ، لا يطلعون الرأس الجديد على السابق ، لا يدلون بأى تفاصـــيل ، لا يذمون ولا يمدحون ، لا يصرحون ولا يومئون ، لا يذكرون الا الأقدمين ، وبحساب ، وبهذا الصدد لا يستجيبون لأى ترغيب أو ترهيب يصعب استنطاقهم أو اختراقهم ،

تلك أصول رضعوها مع لبن امهاتهم ، هذا ما خبره بنفسه فى أثناء محاولته التعرف على قبس من أخبار الرأس الذى حكم قبله مباشرة ، ولكن ·· عبثا !

يقول أحمد بن عبد الله · ان أقصى ما أطلعه عليه القيم ، مدة انتظاره · الفترة السابقة على ظهوره أمامهم قادما من عمق الصحراء ، قال انها أقصر مرحلة زمنية قطعوها منتظرين منذ أمد سحيق · فقط ·· سبعة وأربعون يوما ، حتى أنهم خصبوه بما لم يحظ به رأس من قبل ، ونسبوا اليه ما لم يتصوره أو يتوقعه يوما ·

ماذا يجرى اذا تأخر الرأس حقبا طويلة كما جرى فى الزمن القـــديم ؟

أوضح القيم ذلك ، قال ان الأمور تمضى كما هى · يشرف على تدبير شئون القوم مع مجلس يضم ممثلا لكل ناحية من الاقليم ، لكن ·· لا يستحدث جديد ، لا يمد جسر ، ولا يرتفع بناء ، ولا يشق طريق وتجرى مراسم الميلاد والموت فى صمت ، لا زغاريد فرح ، ولا نواح حزين ·

أكد القيم أن مجيئه بدون تأخير عد من علامات سعد الاقليم ، استأذنه في أن يكون بين ألقابه المائة والأربعين · ابن الشمس ، قاهر الأفق ، أمير البرارى ·

أصغى دهشا · طوال الأيام الأولى لم يفارقه خوف غامض · كلما دخل عليه القيم أوجس شرا ، مع أنه يواجهه الا منحنيا ، ولم يجلس فى صحبته الا متطرفا ، ويداه مبسوطتان على ركبتيه ، أو معقودتان أمام صدره ·

كل هذه الأسماء تطلق عليه هو ؟

أعجبه لقب أمير البرارى ، طلب أن ينادى به ، وأن يتصدر المراسيم ، والمكاتبات ، هنا خفض القيم صوته ، وقال ان حاكم الديار وربها لم يتغير لقبه منذ أمد بعيد ، انه الرأس ·· وحتى يلبى رغبته يقترح أن يكون النعت المفضل « رأس البرارى » ·

قال انه لم يناقش القيم ، لم يعترض على ما اقترحه ، كان فى حاجة اليه ، ليفهم منه ، ليأخذ عنه ··

أصــول الامارة ..

حدث أحمد بن عبد الله ، سدد الخالق ، البارىء ، ما تبقى من خطاه ، أن النقلة وعرة ، شديدة ، ليس بالنسبة لما كان عليه فى الواحة ، أو مصر التى أقلع منها ، انما بالنسبة لأى خيال شطح به يوما ، بهر فى البداية بمقره الحدودى المقدس ، أول مكان يمدد فيه جسده بعد ظهوره عبر الأفق ، وبعد أيام ثلاثة فارقه فى ركب عظيم . جرار ، متجها الى عاصمة الاقليم ، وصلها بعد أسبوع ، كل ما تحويه مهيب ، الطرقات عريضة . لا نهائية ، الأشجار لم ير مثلها من قبل ، جذورها عميقة ، وجذوعها باسقة . أعمدة المبانى ضخمة . بوابة القصر الرئيســـية هائلة الارتفاع ، خشب مصفح بالنحاس المنقوش ، والذهب والفضـــة ، وقطع خزفية زرقاء ، أما الأسقف فمكسوة بنوع نادر من الزجاج النقى ، الشفاف .

لكم سمع فى القاهرة ما يرويه العامة والخاصة عن القصر الأبلق ، وقاعة الدهيشة ، وقصر الحريم ، فى قلعة الجبل ، وقصر جزيرة الروضة وقصر عابدين ، وقصر خانقاه سرياقوس ، وقصر

القبة . وقصور مدينة الاسكندرية المطلة على البحر ، عن أماكن النزهة والفرجة ، عن المناظر التابعة للأمراء ، لأرباب الدولة .

عندما كان صبيا غضا ، كانوا يجتمعون فى الحارة ويتخيلون السلطان ، أو أمير الأمراء ، يتحدثون عن قوته البدنية ، وقدرته على غلبة جمع بأكمله ، وقدرته على الجماع أكثر من عشرين مرة فى الليلة الواحدة ، وأكله خروفا محشوا بالدجاج ، وشربه صباح كل يوم كوبا فيه خلاصة مائة خصية غنم . لكم تساءلوا : هل يقضى السلطان حاجته مثل بقية البشر ؟

كان عالم ما وراء أسوار القصور مبهما ، غامضا ، ينتمى الى الخيال أكثر من الواقع .

الآن تبدو له جوارى القاهرة ، أزقة طفولته ودروب صباه ، نائية ، قصية ، قال قصاص الأثر لكل مدينة رائحة وعبير ، تماما كالمخلوقات الحية الساعية ، يبهت أثر مدينته الأولى فى حواسه فيحزن ويأسو ، لكن سرعان ما يأخذه ما يمر به . أو ما يحيط به عن البعيد المتخيل ، فيرتد منثنيا ، عندما بدأ رحيله تلبية لأمر الهاتف ، هل تصور أنه سيلقى ما قابله حتى الآن ؟ . مهما أوتى من وهج المخيلة ، والقدرة على التخيل لما خطر على باله عنصر واحد مما أحاط به وعرفه .

هكذا تطلع الى فراغ المضـــجع الرئاسى ، متمعنا ، متأملا ، مستقصيا ، متوجسا ، تواقا الى الوسن ، أغلق الباب الفسيح ، يقف عليه جنديان متشابهان ، فى الطول ، فى الملامح ، كأنهما تكونا فى رحم واحد ، انهما لا يتكلمان على الاطلاق الا بأمر . لا يعنيهما ما يجرى حولهما ، حتى لو ظهر الرأس عاريا تماما كما ولدته أمه فلن يطرف لهما جفن ، ولن يرف رمش ، انهما ينتفضان عند حالة معينة ، اقتراب الخطر منه ، يتأهبان لصده بشراسة

لا مثيل لها ، انهما حراس المخدع ، الأقرب اليه ، يحفظون نومه ، وزمن خلوته ، يتم اختيارهم من ناحية قصوى فى الاقليم ، أهلها شداد ، غلاظ ، من مفاخرهم اختيار أبنائهم حرسا خاصا للرأس الشريف ·

المخدع فسيح ، مفروش بأبسطة تبدو كالحرير · ولكنه عندما دقق وتفحص واستقصى فيما بعد اكتشف أنها من ريش نوع معين من طيور الشمال · أيضا الجدران مغطاة بنسيج من ريش نوع آخر يعرف بالأنيس · تبين له أن الملابس متخذة أيضـــا من زغب العصافير ، وهذا أمر يطول شرحه ، سنأتى بما تيسر منه عندما يسمح المقام ·

زخارف السقف توحى بالسماء فى ليال تتضح فيها النجوم وضباب مجرة درب التبانة ، فى مضجعه عناصر الكون ، حداثقية الأبسطة ولا نهائية الفضاءات العلا ·

لم يتمدد فورا فوق الفراش الفسيح ، المرتفع عن الأرض مقدارا غير قليل · جلس على حافته ، يقين خفى عنده أن ثمة من يرقبه · لا يدرى من أى جهة بالضبط ، حتى الآن لا يعرف أركانه ، جاهل بمفرداته ، بأسراره ، بأصواته الخفية ، بمداخله ، بمخارجه ، أما الرائحة الخفية فى الفراغ فبعثت عنده خدرا لينا ، لطيفا ·

حركة خفيفة ، خافتة ، يتحرك جزء من الجدار ، باب خفى لا يمكن رؤيته الا بعد معرفة مكانه مسبقا · يد مغطاة بقفاز شفاف · قدم يمنى · تظهر الأولى تتبعها الأخرى · يقف منتبها · تتقدمان صوبه على أطراف أصابعهما ·

زهرتان بشريتان ، دقيقتا القوام ، كأنهما صيغتا من عناصر حلمه زمن مراهقته · متشابهتان · اذا تطلع الى الأولى ثم الى الثانية

فلا يمكنه تفرقتهما ، تماما كحارسى المخدع ولكن شتان ، بين خشونة الرجولة ورقة الأنوثة .

فواحتان بالحيوية ، كانتا ترتديان ملابس لم ير أشف منها ، كالطيف يمتزج بلون بشرتهما ، رأى اضـــمامة الصرة ، حدود النهـدين ، هشاشـة الخصر . اســتدارة الردفين ، انضــباطهما وانفلاتهما معا . تردد .. لا يدرى ما يجب أن يقدم عليه ؟ . لم يوضح القيم بعد الأصول والعادات المرعية ، كل ما طلبه وكرره ألا يصدر يوما أمرا بازالة رسم طير من أى مكان فى الاقليم كله ، على أبواب المدن . وأســـوارها ، ومداخل بيوتها ، والبنايات الضخمة . والحدائق الفسيحة ، رأى رسوما وأشكالا مختلفة ، كثير منها لا يعرفه ، تعجب عندما رأى لوحات لطيور ذات وجوه آدمية ، وملامح انسية ، أومأ برأسه مستجيبا .

انحنى ، بعد أن قبل الأرض ، استفسر عما اذا كان هناك شىء ما يرغب فى ألا يسأله انسان عنه أو ينازعه فيه ، على الفور أشار الى المخلاة ، لم تفارقه قط طوال مدة ترأسه ، دائما على مقربة منه ، أعدت لها أمكنة مناسبة ، فى سروج الجياد ، فى المركبات ، فى المقاعد الوثيرة ، فى قاعات اجتماعات ، وحولها نسجت الأخيلة حكايات وأمثالا وأشعارا تفيض عن الحد ، فى لحظة حيرته تذكر آمر القافلة التنيسى ، اخوته ، والده العالم ، الملم بدنيا الطير ، هل ثمة صلة بينه وبين هذا الاقليم ، أين آمر القافلة الآن ؟ . فى أى موضع من طريق الحرير الآن ؟ ، الحضرموتى ... لكم يهفو الى وجهه الطيب .

تقتربان منه ، تطوفان به ، فى حضورهما شىء ما ، غامض ، يذكره بحمام الظهيرة الذى يهدل فى الصمت فيلون فترة ، ويميز حقبة ، كل منهما تلثم طرفى كتفه ، تبدآن فى حركات منسقة ، محسوبة ، فى خلع عباءته ، برفق ، بخفة ، عندما فكت احداهما

قميصه جفل متراجعا ، بتأثير أمرين ، أولا ، خجله ، اذ لم يحدث من قبل أن ساعده أحد على خلع ملابسه ، فى الواحة لم تلمس زوجته ثيابه ، زمان ٠٠ فى طفولته المندثرة ، كانت أمه تضعه فى الاناء النحاسى المفلطح ، تصب عليه الماء ، تدعكه باللوف والصابون ، تساعده على ارتداء ملابسه الداخلية ٠ لكن جلبابه كان يرتديه بنفسه منذ أن كان غضا ، طرى العود ٠ رغم تعثره عند ادخال يده فى كم ثوبه ٠ ثانيا ، خجله من ملابسه القديمة التى لم يبدلها منذ خروجه من الواحة ، خاصة القميص الخشن الملاصق لجلده ٠ حاول منعهما ، لكنهما لم تكفا ، لم يقدر على تجنب النظر الى حضورهما المشع ، أملودية قواميهما ، عطرهما الفواح ، استنفر هذا رغبته ، رغم تعبه ومحاذيره العديدة ، احتد أمره خاصة بعد تجريدهما له من ثيابه تماما ، لاحظ تطلعهما الجانبى اليه ، تماما كمـــا ينظر الحمام ، شيئا فشيئا استعرت نيرانه واتقدت حتى أنه لم يستطع صبرا ، فأقدم !

فكر فى اخراج احداهما والانفراد ، مضاجعة انثى على مرأى من أخرى أمر لم يعرفه ولم يخطر بباله ، غير أنهما متلازمتان ، فور تلقيهما الاشارة بدأتا ايتاء حركات منغمة ، متوافقة ، كأنها رقصات معروفة ، خلالها كانتا تتجردان من ملابسهما الرهيفة ، لكنه لم يمهلهما ، طرح الأقرب اليه ، بينما راحت الثانية تداعبهما مستثيرة عنده أحاسيس جديدة ، مصادر للمتعة كادت تذهب بصوابه ، حتى أنه أوشك على اغماء اللذة ٠

بدا الأمر جديدا عليه ، حتى المتعة ذاتها ، والاستجابات ، استعاد لحظاته مع امرأته فى الواحة ، هذا عالم وذاك آخر ، صحيح أن شعورا بالذنب يطارده ، ينبض أحيانا بقسوة ، لكن ما يمر به عجيب ٠ غريب فى كل شىء ٠ كون آخر ٠

أغفى ، لا يدرى كيف ولج الوسن وكيف خرج منه · تاه عن الوقت ، أى ساعة ، ليل أو نهار ؟

طرق خفيف لا يدرى مصدره ··

باب آخر يفتح ، فتاتان تبدوان من جنس مختلف ، عيونهما منحرفه ، كأنهما من بلاد الصين أو التتر ، رأى الملامح من قبل فى أسواق القاهرة قبل وبعد موسم الحج ، اذ تمر مختلف الأجناس بالمدينة العظمى فى طريق رجوعهم أو ذهابهم ·

تتقدم الأولى منه ، تحمل صينية ذهبية فوقها كأس بللورى يحوى شرابا يشبه اللبن ، لا يقدم الى غيره ، اختص به هو ، نتاج ثمرة تشبه اللوز ، تنمو فى منطقة مرتفعة من شمال الاقليم ، أثرها منشط ومثرية للدم ، تذكر حديث آمر القافلة عن شجر البلسان ودهنه النــــادر ، وغرابته ، وتنافس الملوك فى الحصـــول على قطرات منه !

لم يذق البلسان ولم يعرفه حتى يمكنه القول ان هذا السائل يمت اليه بصلة أو لا ؟ تنتظران على مسافة منه ، انهما متشابهتان · اميل الى التحفظ والرزانة من السابقتين ، لكنه كان قادرا على رؤية ما خفى منهما لرقة أثوابهما وشفافيتها ، ظنها فى البداية حريرية ، لكنه عرف فيما بعد أن سائر ملابس العاملين فى القصر ، تصنع اما من ريش طيور معينة ، أو الجلد الرهيف المتخذ من مناطق الصدور أو الأعجاز منها ·

بعد أن فرغتا من مساعدته على ارتداء عباءة منسوجة من ريش الطاووس · تراجعتا مقدار خطوة كأنهما تتأملان · علا الطريق مرات ثلاثا ، من الباب الرئيسى دخلت امرأة ترتدى ثوبا حشما ، غامقا ، تضع فوق رأسها ما يشبه الطاقية ، ربما تجاوزت الأربعين ، مشدودة القوام ، متماسكة الطلع ، انحنت حتى أوشك رأسها أن

يلامس ركبتيها أشارت الى الخارج ، تقدمته ، بدا واضحا أن كل خطوة مقدرة من قبل ، لم يكن هناك مجال ليبدى رأيه • مضى الى بهو ملحق بالمخدع أو متصل به • أرائك ، حشايا ، مقاعد مستديرة ، صوان ذهبية ، مستديرة ، أخرى مستطيلة ، شمعدانات منبثقة من أفواه طيور ، مصابيح ومشـــكاوات متدلية من السقف ، مزينة بتصاوير عصافير دقيقة وأنواع نادرة من الحمام ، ما من رسم طير الا وله أصل واقعى ، أما الألوان فتحاكى البواشق والعصـــافير والببغـاوات •

كافة ما يمت اليه متخذ من ألوان طيور الماء ، ملابســـه من الغطاسيات ، عرف فيما بعد أن اسمه فى مصر « الزهوت » ، يجمع ما بين الطيران فى الفضاء ، والغطس تحت الماء • اليه يمت سواد العباءة العجيب ، أما الصديريات والسراويل فمن الشهرمان • فيها حمرة القدم والمنقار ، وبياض الغطاء ، وسواد الظهر ، وخضرة الحواف البراقة ، اللامعة ، وهذا طائر جميل ، وقور ، يجمع ما بين البر والماء ، ويظهر فى بلاد المغرب شتاء ، ويحط أحيانا على شاطىء المحيط الأعظم ، وداخل الصحراء وفى كهوف الجبال ، ومما حبب اليه أنه يزور اقليم مصر لمدة ثلاثة شهور فى السنة ، وينتشر من جزر البحر بما فيها تنيس الى واحات الغرب وشلالات الجنوب •

أما ملابسه الداخلية فمتخذة من ريش النعام أو الغرنوق ، ولونه أبيض مشوب بحمرة ، ويوجد على مدار العام فى بحيرات مصر ، البردويل والمنزلة والفيوم ومريوط ، وحول عيون الماء فى واحات الغرب ، أما اثاث القصور فمغطى بقماش متخذ من ريش أخضر مشوب بحمرة يمت الى نوع صغير من البط ، يعرف فى كل موضع باسم ، هنا فى الاقليم « الحذف » وفى مصر « الشرشير » ، وفى بلاد المشرق « الحذاف » ، كافة ما يريد الاطلاع عليه أو معرفته عن أى نوع ، يسأل عنه القائمين على ديوان الطير ، أهم دواوين

الاقليم · فهو القائم على رصد الهجرات ، وتصنيف الأنواع ، ومراقبة العادات ، واجراء التجارب باستمرار لاستخلاص أفضل الطرق الممكنة لتحويل الريش الى أقمشة مختلفة أنواعها · أو جلود يتخذ منها الأحذية والحقائب والصديريات ، والألجمة والسروج ، وبعض أنواع الأسلحة ، هذا مقطوع به ، وقد رأى نماذج منها . أما أنواع الأطعمـة والمشروبات المتخذة من سـائر الأصـناف فلا حد لها ·

أما أرباب الدولة ورؤساء الدواوين والقائمون على النواحى فيتخذون ملابسهم وفرشهم من نوعين لا غير · أولهما الحجل · وهو طائر معروف بالمشرق وديار المغرب ، الواحد منه على قدر الحمام أحمر المنقار والرجلين · منه صنفان ، نجدى أخضر اللون أحمر الساقين ، والتهامى فيه بياض وخضرة · وهذا طائر شديد الاندفاع عند التحليق ، يحسبه الانسان حجرا خرج من مقلاع اذا لم يتحقق منه ، أما النوع الثانى فينسجون من ريشه ملابس نسائهم ، وهو الحسون · صغير · دقيق ، فيه من الألوان الأحمر والأصـفر والأسود والأزرق ، والأخضر والأبيض · اسمه فى سائر المغرب أبو الحسن ، وفى الشرق أبو زقاية ·

أما سائر الناس فيتخذون من ريش الحمام أغراضهم ، بنوعيه البرى والأهلى · وكل نوع توجد منه أصناف عدة ، مثل الورقاء ، واليمام ، والورشان ، والقلاب ، والمنسوب ·· الى غير ذلك · ومما عرف عن طباعه أنه يطلب وكره ولو أرسل من ألف فرسخ أو أكثر ·

الخلع والهدايا الرئاسية تتخذ من طيور الصفارية ، تتميز بصفرة زاهية مع سواد · وفى اناثها شىء من الخضرة ، تغريده رقيق ، عذب ، والأماكن المخصصة له فى الاقليم مزروعة بأشجار التوت التى يحب التخفى فى أعاليها ، ويقصدها القوم للفسحة

وللاستمتاع بصوته العذب ، هنا أنواع لا حصر لها • يمكن رؤيتها في كافة أوقات السنة ، يتحدثون عن طلسم قديم أعده القدماء جاذب لكافة الأنواع ، ومع الوقت خبروها وعرفوا عنها ما لم تعرفه أمة من الأمم • وهناك طيور مشهورة بعضها له مزارات يقصدها القوم للتبرك والطواف بها ، وثمة مبان مهيبة تضم جثثا تم حفظها بعناية وتدبير منذ حقب بعيدة ، معروضة للناظرين ، يحسبها الناظرون حية ، أما سكونها فلفترة وجيزة ترفرف بعدها محلقة ، بعضها انقرض جنسه ولم يعد له وجود •

قال أحمد بن عبد الله انه لو أفاض في وصف منزلة الطير وما يستخدم فيه ، وما يحظى به لضاق المجال ، لكنه شغل بأمر تحقق منه فيما بعد ، هل ثمة صلة قامت يوما بين عاشق الطير في تنيس وبين الاقليم ، وسيرد ذكر ذلك في السياق !

يقول انه خرج الى البهو الملحق بالمخدع • يقف القيم في المنتصف تمـاما مرتديا عباءته الحمراء المتخذة من مناقير الحجل • بعد معالجتها بطرق لا يعرفها الا بعض من القوم الموكل اليهم اعداد ملابس القصور ورجالها • بدت لحيته أطول قليلا عما كانت عليه في الصباح ، لكن • أي وقت الآن ؟ كم نعس ؟ ، المخدع والبهو ضوؤهما خفي المصدر ، لم تكن هناك مصابيح أو ثريات أو شموع •

أي فترة من النهار ؟ • صبح أو عصر ؟ • هل أغفى وقتا قصيرا حقا ؟ أم أن زمنا طويلا مضى عليه وهو لا يدرى ؟ ، تذكر لحظات استيقاظه من النوم وانعدام معرفته بما يحيطه تماما ، حتى لا يدرى شيئا عن ذاته هو ، جرى له ذلك مرات ، ولكن تيهه عن نفسه لم يدم الا أوان ، كأنه يمر بحالة مشابهة ، ولكنها جديدة عليه تماما • ما كان منه جد بعيد بدأ القيم حديثه بعد انحناءة عميقة ، بعد جلوسه الى مقعد منخفض قليلا في مواجهته ، أفاض في التحية • وذكر الافراح القائمة في الاقليم كله بعد وصوله وظهوره ، قال انه

تم اطلاق البريد الى كافة الجهات الأصلية والفرعية لاخطار الجنس الانسانى كله بمجيئه · قال ان الجميع ترتفع دعواتهم ليكون زمنه فياضــــا بالخير والبــركة فى الاقليــم الذى لم ينكس راياته قط ، ولم تغلب جيوشه ·

كان صوته هادئا ، ذا نبرة واحدة ، لا يعرف عينيه الا فيما ندر ، مخارج ألفاظه واضحة ، جمله مرتبة ، أحيانا يطرق بعينه اليمنى عندما يريد التعبير عن أمر معين يرى حرجا فى ابدائه ·

تلك أولى الجلسات اليومية التى تكررت بانتظام لمدة أربعين يوما احتجب خلالها عن الخروج بعد ظهوره · والحق أنه كان يجرى اعداده ليتكيف مع تقاليد القوم وعاداتهم وطقوسهم وزمنهم المنقضى والآتى ·

رســـوخ الأركان ..

.. حدثنى أحمد بن عبد الله ، خفف الله غربته ، قال : أدركت منذ لقائنا الأول أنه مسئول عن تبصيرى ، أضمرت الامتثال ، فمن أين لى معرفة الأرض التى آلت أمورى اليها ؟ رغم حديثه عن قدسيتى ، والنفحة السرية السارية فى كينونتى . لم أر نفسى الا مغتربا عنهم مهاجرا على غير طوعى .

لم أكن يوما آمرا أو ناهيا ، أو متصرفا فى أمور أى انسان ، حتى عندما اقترنت بامرأة لم أكن صاحب تدبير ، وهكذا قضت نظم الواحة وأعرافها التى أضمرت النية على العودة اليها وصحبة أم ابنى كى تقر عينا على مقربة منى .

عندما وجدت نفسى صاحب حل وعقد قررت أن انثنى عائدا الى الواحة لصحبتهما ، ولكن غرابة ما انتظرنى جعلنى أرجىء الأمر بعض الوقت ، وعندما أطلعنى القيم على الطقوس القاضية بعزلتى عن الخلق أربعين طلعة شمس ، صرحت له بنيتى ، أبدى دهشة ، قال انهم يعرفون كل حبة رمل على مسيرة شهر فى كافة الاتجاهات ،

وأنه لا يوجد أى مكان فيه دبيب حياة ، لا انس ولا وحش ولا جن ، فأى واحة تلك التى تقع على بعد ساعات لا غير من مكان الظهور ؟

أبديت استياء ، كيف يظهر الشك فيما أقول ؟ • الواحة حقيقية ، أمضيت فيها مقدارا من زمنى ، لى فيها قرينة تسـعى وداخلها جنين منى ، من صلبى ، والفسطاط الممت بكافة ظروفه وتطوراته ، كيف أصدق تأكيداته وأكذب أيامى وحضورى ؟

كان سريع الانحناء ، مع ابداء الأسف ، ولم يخف على تكلفه فى هذا كله ، رجانى الانتظار حتى نهاية المدة التى سأطلع فيها على أسرار الاقليم ، اتجول فى حدائق القصر كما أرغب ، وأختار من أشاء من النساء والنهود الأبكار •

قال القيم عند هذا الحد أن الرأس المعظم ، رأس البرارى وأميرها ، له كل ما يسعى حيا على أرض الأقليم ، كل ما يطير فى هوائه ، أو يسبح فى مائه ، وأول المخلوقات النساء • كلهن ملك يمينه ، صروحهن المردة مباحة له ، أسرارهن المغلقة مفضوضة عنده ، عوالمهن تجرى فى مداره ، اذا نظر أجيب ، واذا لمح لبى الكافة ما يريد ، واذا أفصح تهاوت عند قدميه القامات والقدود ، فى الاقليم مناطق مشهورة بجمال اناثها ، لا مثيل لهن فى العالم المعمور . بعضهن كالطيف ، ولشفافية خصورهن يمكن للمرء أن يرى من خلالهن ، سيتنافس القائمون على النواحى فى ارسال الهدايا اليه ، ومنها عذارى أبكار ، اذا رغب احداهن فتلك منة منه ، وبشارة سعد لها ولأهلها ، أما اذا اعترض فيكفيها مثولها فى حضرته وطلته عليها ، قال ان نفحته القدسية مباركة ، يجب ألا تحظى بها الا صاحبة منزلة ، برغم طول حديثه ، وذهابه شرقا وغربا فى تلوين المعانى ، لم يخف على أنه يشير من بعيد الى مضاجعتى الوصيفتين الجميلتين فور دخولى المخدع ، بهرت بهما ولكن ما رأيته فيما بعد جعلنى ألوم نفسى لتسرعى ولتبديد طاقتى ، بل أن ما سمعته عن النفحة

القدسية جعلني أقلب النظر داخلي ، وأتأمل ملامحي طويلا في المرايا ، غير أنني أبديت العزم وأكدت تصميمي على العودة الى الواحة ، انحنى القيم مؤكدا تنفيذ كافة ما أرغبه ٠

مع توالي الأيام والليالي ، وادراكي مرور أوقات خلوا من اى تفكير في الواحة وأهلها ، ينشب داخلي ذنب ، فأقول للقيم محتدا ان نيتي في الذهاب قائمة ، خاصة أن شوقي يتزايد الى امرأتي ، وأول أبنائي ، ثم أهمس لنفسي مرددا : ألا يكفي انقطاع أمري ونأيي عن مصر ؟ كنت أرقب وخزا يتجدد فجأة ، يباغتني ، رغبة تعتريني ، أود المشي في مناطق معينة اعتدتها ، وعرفتها ، مسافات وظلال وأصداء ، وروائح ، خاصة الطرق المؤدية الى ضريح الامام الحسين ، أو تلك المسافة الممتدة بين خارج باب زويلة وداخله ، وأسبلة المياه ورائحة القرب الجلدية على ظهور السقائين والدواب ، وبقايا الماء في قاع الأواني النحاسية ٠ المربوطة بسلاسل الى قضبان الأسبلة ، وأشجار الحديقة داخل مسجد المؤيد ، وأصداء أذان العصر ٠٠ ألا يكفي انبتاتي عن أصلي ، ونأيي القسرى عن منبتي . وارغامي على الامعان صوب موضع مغيب الشمس ، في البداية ظننت أنني بالغه عند حد معين ، وأنني يوما سأنثني عائدا الى مدينة أخذت منها وأعطيت ، لكنني ٠٠ لا أزداد الا بعدا ، ومن طور غريب الى آخر أغرب ٠٠ أرحل ٠

لابد من العودة الى الواحة ، أدرك بعضا مما كان مني ، يقولون انها غير موجودة ، وأقطع بمثولها ، وما من قوة يمكن أن تثنيني !

هذا ما رددته عند وقوفي على وهن عزيمتي ، واستغراقي في دنياي الجديدة ، على الرغم من أنني لم ألم بها بعد ٠

صعب وصف ما مررت به على وجه الدقة ، عشت عمري كله بين الصامتين ، التابعين ، المتوجسين من السلطان وكافة المقربين منه ، في القاهرة البعيدة عني الآن سمعت عن فلاح فقير اعترض

موكب سلطان البلاد عند مروره بالقرية يوما ، ألقى أمامه بحاله . باس الأرض ، رجاه أن يتوسط بينه وبين خفير القرية حتى يرضى عنه ويكف عن اضطهاده ، السلطان بالنسبة له مجرد كبير عابر ، أما الخفير فهو الآمر الناهى عنده ·

كنت مثل هذا الفقير ، المجهول ، أعلى ما أتصوره من الحكام مقدم العسس فى الجمالية من لى وسكان القلعة ؟ ، ولكن ·· ما بين عشية وضحاها أجد نفسى رأسا لاقليم شاسع ، تلحق باسمى صفات شتى · تنحنى أمامى قامات محاربين ، وعلماء ، وأجواد ، أما الجميلات فهن ملك يمينى ·

بعد اصغائى الى القيم وقفت على ما أحيط به ، ما توليت عليه ، قال ان الاقليم الشاسع فسيح ، نصفه المزروع عامر ، ونصفه صحراء شبه خالية ، فيه بحيرات كبيرة لكنه بعيد عن أى شاطىء بحر ، فى الصحراء جبال داخلها مناجم ذهب ، وماس ، وأحجار أخرى باهرة مثل الكركند الأحمر ، والأفلوج الأسود ، والزمرد الأخضر ، واليشب ، والدهنج ، واللا زورد ، والمارينج ، والعقيق ، والفيروز ، والكبريت الأحمر ·

أما الرخام فرأيت فى قصورى أنواعا لم أكن أتصور وقوفى عليها ، ولا أظنها موجودة فى اقليم آخر ، فمن ذلك رخام أخضر مختلط بعروق بنية اللون ، اذا دققت فيه تلقى تصاوير شتى ، وآخر أسود · سواده عميق عجيب ، لامع فكأنه مبلول ، بماء سلسبيل ، وثالث أزرق فى لون السماء الرائقة ، يخالطه بياض حليبى ، وهذا أحبهم الى قلبى ، وقد أقررته لونا رسميا شائعا للأرضيات الداخلية فى سائر قصورى ، وسرعان ما حاكانى الولاة والمباشرون والأثرياء ·

على الحدود تسعون قلعة حصينة ، ومدن أربع حدودية ، محصنة ، تواجه كلا منها جهة رئيسية ، وأربع فرعية ، البحر يقع

على مسيرة ستة شهور الى الغرب · مؤكد أن المحيط الأعظم الذى نجلس على مقربة منه الآن · لكن أى نقطة من ساحله تقابل عاصمة الاقليم ؟ هذا ما لم أعرفه · رغم بعده الا أن بعض المخاطر لحقت القوم عبره فى الزمن القديم ·

الجيش هائل الحجم والقوة ، نصفه راجل · ونصفه راكب ، عاينت من سلاحه وعتاده ما لم تقع عينى على مثله ، ولم أره من قبل ولا من بعد ، بل اننى لم أطلع عليهــا كلها ، انما شاهدت بعضها فى التمارين التى تقام فى الخلاء ، أمضى اليها مرتديا زى الحرب التى لم أخضها يوما ، رداء نسج من ريش عقاب منيع ، لم يكن عندى أى احاطة بأمورها أو تدبيرها ، لم أخضها عن قرب ولا عن بعد ، لكننى وقعت مراسيم الاستعداد لها وحشد الجند ، وشن بعض الغارات على جهات قريبة لا أعرف قاطنيها ، لكنهم يطلبون ذلك ، ويشرحون الأخطار المتوقعة ، وضرورة شن بعض الهجمات مع ظهور نجوم معينة فى السماء ، طبعا لم أوقع مباشرة ، انما كنت استفسر ، وأظهر التدقيق والمجادلة قبل أن أمهر المرسوم بخاتم الحرب ، وعليه كلمة أمرت بنقشها « التأنى » ·

أمتع أوقاتى عند ركوبى الى ســاحات التمارين حيث تجرى المعارك الوهمية ، أمضى مشدود القامة ، بادى التجهم رغم ابتسامتى الأبدية ، محــاطا بالأبهة الكاملة ، ظاهر القســـوة رغم ابتسامتى الدائمة أحيانا أشير بأصبعى مستفسرا ، مدققا ، فيتقدم القــادة الكبار ، ينحنى كل منهم يقبل الأرض بين يدى ، ثم يتسابقون الى شرح ما تتضــــمنه أوراقهم وخرائطهم · مســتخدمين عصى نحيلة طويلة ، يشيرون بها الى علامات حمراء وزرقاء ·

فى النهاية أبدى الملاحظات المقتضبة ، المختصرة للغاية ، مع أننى فى الأغلب الأعم لم أكن أفهم شيئا مما يقولونه · لكنهم مع بدء حــديثى يحنون رءوســهم ، يرفعون أيديهم بسرعة ، معلنين

الامتثال والطاعة ، تلك لحظات ممتعة أستعيدها ، أحن اليها ، عند اجتماعي بهم ، لحظة وصولى ميادين العرض ، وتفقدى فيلة الحرب ، وتلك غير أفيال النزهة ، وأفيال الهيبة !

قال القيم فى ثالث جلسة ان كل مدينة أو محلة لها نموذج مصغر بالقصر الصيفى ، تراه فتحسبه حقيقيا لدقته واتقانه ، تنظر فيه الى الشوارع والزنقات وترى مداخل البيوت ونوافذها ، كل شيء فى موضعه ٠

ثمة ترتيب قديم ، يمكنه من زيارة مدينة مطلع كل شهر ، كل أسبوعين محلة وكل ثلاثة شهور واحة ، هكذا يطلع على ملكه ٠ قال ان الديار قديمة ، متينة ، قوية الأساس ، راسخة البنيان ، لا ينافسها فى العالم المعمور الا زمن الفراعنة ، بناة الأهرام ، قال ان لديهم علما بهــا ، وأوصافا دقيقة لما خفى وظهر منها ، شيد المهندسون نموذجا مشابها لها فى الجنوب ، تراه فتحسب نفسك فى هضبة الجيزة ، ولكن مواد البناء تختلف ، وان تشابهت فى الظاهر ٠ قال انه يوجد نموذج لحدائق بابل المندثرة ، للنافورة التى كانت تتوسطها ، وآخر لمئذنة سامراء ، ومعبد بوذى ، ومسجد على الطراز الفارسى ، وايوان كسرى ، وقبة الصخرة ، وكنيسة القيامة ، وكنيس يهودى بما حوى ، وسائر ما اشتهر من البنايات قديما وحديثا ، تراه فكأنك تطالعه فى زمنه وموضعه ٠

سألت عما ينفرد به الاقليم فى البنيان ؟

تبسم ضاحكا ، متلطفا ، قال ان ما لا يمكن رؤيته فى أى مكان آخر حققه بناء من بر مصر ٠

مصرى ؟

أومأ القيم برأسه ٠

نعم ٠٠ دخل الاقليم بعد خروجه للسياحة فى الأرض ، ناذرا نفسه للبناء ، جاء الينا عند نزول الشمس برج الثور ، وهذا برج مبارك ، له تحاويط ، وترتيب ٠

فور وصوله جرى ما تعجب له القوم ، اذ ظللته أسراب من طيور القطا والمازور البحرى النادر وجوده ، والنقاذ ، والهدهد ، والهزاز وأنواع شتى يستحيل اجتماعها فى وقت واحد ، فما البال عندما تتقارب فى سرب ؟ يتبادل بعضها الحط على كتفه ، والالتصاق بوجنته ، والهمس فى أذنيه وتنقية شعره مما علق به من شوائب الطريق ، عندما سرى خبره ، وتناقل القوم أوصاف ما جرى عند اجتيازه أفق الاقليم ٠ أطلق حفظة الطير النفير الذى لا يدرى الا عند وقوع أمر جلل ، مثل ظهور نوع نادر غير مدون أو مترقب منذ أجيال ، أو بدء وباء فتاك ، أو موت طير فريد لا مثيل له فى الأقاليم الأخرى ٠

لكن النفير فى هذا العصر لم يكن لسبب من تلك الأمور ، انما لظهور هذا البناء العظيم ، ليس لأنه تفوق على غيره فى المعمار ، انما من أجل والده ، سمعته وصلت الاقليم مع أنه لم يدخله قط ، وربما لم يسافر خارج الجزيرة التى أمضى فيها عمره ، لكن ثمة صلة ما قامت ، اعتبر وليا صالحا أوتى من العلم بالطير ما لم يقع سليمان الحكيم ، ذاع أمره وانتشر خبره فى أركان الأرض ، يوم رحيله تناقل جنس الطير كله الخبر ، حلقت أسراب كثيفة فى لحظة واحدة ، فى الخرب والمعمور ، تقاربت حتى شكلت غمامة كثيفة حجبت قرص الشمس ، تآلفت أنواع متنافرة وهذا لم يقع الا عند دخول الابن بر الاقليم ٠

سرى خبر وصوله ، احتفى القوم به ، صحبوه الى ضريح رمزى أقيم لوالده الذى عـرفه الناس بلقبه الذائع هنا « المصرى حافظ الطـير ٠٠ » وطوال مدة مكثه لم يفارقه اليمـام الأبيض والقطا

والسنونو · وكانت تظلله أينما ولى وجهه ، وترقبه عند نومه ، وتنتظره اذا ولج مكانا مغلقا ، وتهش عنه اذا ركد الهواء وعلق الهوام ·

حدث الناس عما شيده فى البرارى والأمصار منذ خروجه بعد وفاة والده ، ميناء يتبع السفن ، ينتمى الى أى موضع وأى مكان ، يمكن أن تركن اليه فى العاصفة ، وعند انقطاع الأمل من الوصول الى البر ، وأقام سقفا لا يستند الى أعمدة ترى ، وبيتا يستدير مع حركة الشمس ، يتبعها ، أما مقصده النهائى ، وطموحه الحق ، فيتمثل فى محاولة بناء فنار شاهق فى قلب المحيط الأعظم يمكن رؤية ضوئه من أى نقطة فى البر أو البحر · من أى موضع فى الدنيـا ·

ماذا بنى للاقليم الذى أنزل والده درجة رفيعة ، وأبدى ترحيبا يجعل عن الوصف به ، بسائر مخلوقاته ، الناطقة والصادحة ؟

قال القيم ان ما شيده البناء المصرى ابن حافظ الطير عجيب ، غريب حقا لم يسـمع بمثله من قبل ، لا فى الأزمنة الحاضرة أو الماضية ، اذ شيد مدينة جميلة ، صغيرة ، معلقة فى الفراغ ، وفى الوقت عينه فوق الأرض ، والبحر ، فى كل الجهات ، مدينة فريدة ، لا مثيل لها ، تبدو لكل شخص فى أى وقت سواء كان فى الصحراء المقفرة ، أو البقاع العامرة ، فى البحار والأنهار ، فى أى مكان ، أى جهة ، أينما وليت الوجه يمكن استحضارها ثم دخولها والاقامة · لكن ·· هذا غير متاح لأى شخص ، انما لابد من توافر درجة معينة من المعرفة والالمام بأجناس الطيور · ليس العلم المجرد ولكن المقصود هو الاحساس بها وادراك كوامنها ··

عند استحضار تلك المدينة المعلقة فى الفراغ يمكن لكل امرىء أن يراها كما يشاء ، وأن يجد فيها ما يتمنى ، ما يرغب ، وممن

بلغوا حدودها وأوغلوا فيها سمع القوم عن أمور عجيبة ، وشئون غريبة وأوصاف لم يعهدها انسان . وهذا كله يضيق عنه المجال ، المهم .. بعد أن أنجز مدينته التي لا مثيل لهـــا فارق الاقليم - مستأنفا رحيله ، ولم يبلغنا الطير عنه خبرا حتى الآن .

حدثني أحمد بن عبد الله ، أكرم الله مرساه ، وخفف هجيره ، قال : طوال افضاء القيم بمكنونه كنت أتطلع اليه متفحصا ، متعجبا ، أما تفرسي فلرغبتي في الوثوق من أنه لا يعرف صلتي بالمعماري الذي بهرهم ، وشيد الغرائب ، صحيح أنني لم أره ، لم ألتق به قط ، ولكنني أعرفه من خلال صحبتي لشقيقه آمر القافلة ، حافظ طريق الحرير ، أول من رافقت ، وقطعت بداياتي بصحبته ، أما تعجبي فلأمور عدة ، أولها حديث تلك المدينـــة التي لم أسمع بمثلها ، لم أنطق برغبتي في رؤيتها ، أرجأت ذلك ، حتى لا أفاجأ بجواب لا أتوقعه ولا يتناسب مع مقامي ، وكينونتي الجديدة فأي درجة تلك يجب أن يبلغها الانسان حتى ينتمي الى تلك المدينة أو تنتمي اليه ؟

أطرقت مضمرا الاستفســـار يوما ، واســـتدعيت الى خاطري ملامح آمر القافلة ، ترى .. الى أي جهة يولي الآن ؟ . هل يسلك موضعا بعينه على طريق الحرير ؟ هل ينزل جنوبا أم يصعد شمالا ؟ ، والحضرموتي .. لكم يبدو بعيدا . نائيا . وكأن شخصا غيري تلقى عنه علم الميقات والنجوم ، ترى .. هل سألتقي بالشقيقين الآخرين ، الأكبر .. المولع بالنساء ؟ من عرف ؟ ، وكم ضاجع ؟ . الأصغر .. هل حقق رغبته في زيارة أضرحة الأولياء كافة ؟

توالت على الملامح والوجوه ، ثقل على الذنب عندما اشتدت حدة وعيي بمرور وقت لم أر بعيني مخيلتي وجه امرأتي في الواحة ، لم أردد استفساري عنها ، وانشغالي بها ، رحت أستدعي حضورها ، طلاتها ، أحاديثنا الليلية الهامسة .

انتبهت الى تطلع القيم ناحيتى • لم يجرؤ على النطق احتراما لصمتى ، ولم ألفظ حرفا حتى لا يستنتج الموضوع الذى تدور حوله خواطرى ، انما أومأت ثلاث مرات ، بينما تحديقى كله متجه الى امرأتى الحامل منى ، مضمرا ، مصمما على الخروج الى الواحة بعد انقضاء المدة •

أومأت • فانحنى ثلاثا قبل استئناف حديثه •

الابتسامة الدائمة ..

.. لابن الشمس ، صاحب النفحة ، رأس البرارى ، طلعة خاصة ، وهيئة فريدة ، لا يشبهه فيها أحد . يواجه بها الحق بدءا من رجاله المقربين وحتى عامة الخلق الذين سيقفون أياما فى انتظار بهاء خروجه عليهم ليؤرخوا أعمارهم ، بلحظة مثوله فى مآقيهم .

قال انه من العناصر الأولى ، التأنى ، الحديث الصـــادر عن شفتيه المقدستين يجب أن يكون متمهلا ، بطيئا فى اعتدال ، مختلف النغمات ، واضـــح مخارج الكلمات . هذا فن قائم بذاته ، له سدنته وهم من خدام البلاط ، وهم على أهبة للمثول والافضـــاء بالخبرة .

التمهل عند اختيار الخطاب أمر اتبعه أســـلافه العظماء ، الرءوس ، الأجلاء ، ولا تتم الحيدة عنه حتى عند اعلان الحرب ، أو درء فتنة . وتلك أمور نادر وقوعها ، عسر ظهورهـــا ، الجيش قوى مهاب ، والتقاليد تمنع الخروج عن المتوارث والقديم ، ولكن . ربما تقع فورات عارضة من جانب ذوى الأهواء وأصحاب الأغراض ، انما هذا كله مجرد سحابات ، لا بأس من اطلاع رأس البرارى على الأصول المرعية ، من ذلك درجات الصوت ، ونوعيات النبر ، ايقاع اللهجة ، متى يعلو ، ومتى يهمس ، متى ينذر وكيف يتوعد ، وعند أى موضع يمكن لاشارات أصابعه أن تعبر وتصحب منطوقه ؟

أومأت موافقا القيم على ما قاله ، كنت راغبا فى استيعاب كل ما يبوح به الرجل ، حقا .. انه معبر عن جوهر الوضع ، أمين على الموروث كله ، قال القيم ان أمراء الاقليم ، اعتادوا مطالعة شعبهم ورعاياهم من انس وطير وحيوان بابتسامة دائمة ، صافية ، جميلة ،

لا تغيب حتى عند الاســـتغراق في النوم ، أو عند المرور بحالة غضب ، تؤطر الوجه كله تحير كل من يراها باستمراريتها وثباتها وسموها ٠

تساءل عن امكانية اطلاعي على صور بعض الأسلاف الكرام ، الذين حكموا وترأسوا منذ حقب بعيدة ، حتى أرى ما يوحد بينهم جميعا ٠

الحق أنه لفظ اقتراحه بتواضـــع جم ، غير أنه كان يقول ما لا يمكن رفضه ، أو دفعه ، خاصة خلال تلك المرحلة الأولى التى اشتدت فيها المعميات ، واحاطتنى الغوامض ، كما أن صوته الخافت حوى أمرا خفيا بضرورة اتباع ما يقال ، ولكن فضولى أقوى دافع لتعجلى الاطلاع على تلك الصور ٠

قام منحنيا ، راجيا أن اتبعه الى احدى القاعات المقدســة ، لا يطؤها الا ذوو المكانة وباذن خاص منى ، حتى أنه سألنى السماح له بالمضى ، مع أنه يصحبنى ، فاستجبت !

عبرنا ممرات خفية الضوء ، كافة الأبواب المطلة على جانبيها مغلقة ، محفوفة بستائر مسدلة ، منسوجة من ريش الطاووس الذهبى الذى انقرض من الدنيا وبقى فى هذا الاقليم بعد أن أوصى رأس قديم بحمايته وعدم التعرض له ، وخصص أرضا فى الجهة الشمالية يمرح فيها ، درجة الضوء لا تختلف من قاعة الى حجرة الى ركن قصى ، ثمة مصدر خفى محير ، لم أستفسر حتى لا أكثر من الأسئلة عما لا أعلم ! توقف القيم أمام باب منحن ، لا يسمح للانسان بالمرور منتصبا ، يضطر الى الانحناء مهما بلغ قصر قامته ، كأن ذلك مقصود ٠

أدركت ذلك ، وخطر لى أن اجتازه راســخ القامة ، مرفوع الرأس ، تذكرت حكاية رواها الناس فى القاهرة عن سلطان أحبوه ، خلعه المتمردون ، ونفوه الى بر الشام ، وحبسوه فى قلعة الكرك ،

أرادوا اذلاله فجعلوا كافة الأبواب والمنافذ منخفضة حتى يضطر الى تنكيس رأسه لكن ذلك لم يحدث قط · اذ كان يثنى ساقيه الى الأمام عند اقترابه من مدخل أو بوابة ، فتقصر قامته ، ولا ينحنى رأسه · بينما يضع يديه متعامدتين أمام صدره ·

اتخذت هذا الوضع ، هكذا دخلت القاعة منتصبا ، والحق أننى فوجئت برد فعل القيم ، اذ تطلع الى بفزع حقيقى ، برهبة ، انحنى ولم يعتدل الا بعد أن أذنت له · فيما بعد قال انها المرة الأولى منذ مدى لا يعلمه مخلوق يلج فيها القاعة مفرود القامة ، سابقة لم يقع مثلها من قبل ، اعتبارا من تلك اللحظة يمكن القول ان تغيرا جرى فى نبرات القيم عند الحديث ، بدا منه حذر غامض ورهبة ·

قاعة مستطيلة ، لفراغها مدى غامض لا يحده السقف شبه المنقوش ، المنقوش بزهور جصية بارزة تتوسطها رءوس عصافير مرهفة الدقة ، صيغ هذا كله من تدرجات اللون الأبيض ، ثمة رائحة ذات قوام يمكن رؤينه ، مزيج من زيوت قديمة وأخشاب عطرة ، هواء لم تمر عبره نسيمة منذ حقب ·

فوق الجدران توزعت الأطر ، رمادية ، فى البـداية تلـوح خالية ، لكن مع استمرار النظر تسفر الملامح ، لا أدرى ·· هل تتكون عندى فى مخيلتى ، أو فى الواقع ؟

كانت أربعة عشرة ، أسلوب اللوحات متشابه ، هذا ما يتوهمه الناظر بعد الطلة الأولى ، ولكن مع الامعان والتأنى يلوح الاختلاف ، وتبدو الفروق ·

الأولى يغلب عليها اللون الأحمر ، أعلاها زاويتان محددتان بخطوط مقوسة ، تتخللها أغصان مورقة ، متشابكة ، متداخلة ، متفرقة ، على مهل تظهر ملامح الوجه ، عينان هادئتان ، متطلعتان الى شىء ما ، هناك بأسفل ، الرأس مثقل بعمامة بيضاء ، تلافيفها تشبه

تضام أوراق الوردة الحمراء ، يبرز منها أعلاها ما يشبه قلب الزهرة البارز قليلا ، القعدة قرفصائية ، يد مبسوطة ، وأخرى ترتكز على الركبة ، هذه الأيدى حيرتنى ، فى الأولى تمسك منديلا طويلا ، هرمى الشكل ، فى الثانية ترتفع الى ما يحاذى الصدر . أصابع مضمومة ، يبرز من بينها غصن لا ينتهى بشىء ، فى الثالثة تمتد الأصابع بالعرض ، الابهام أعلاها والوسطى بارز قليلا أما البنصر فكأنه بمفرده ، فى الثالثة تبرز وردة صفراء ، يخالط أوراقها مسحة بنفسجية حادة ، تكاد تطغى على ما عداها ، حتى ملامح سلفى الذى أجهله تماما ، كذلك الزمن الذى عاشه ، لم ينصح القيم ، لم يجب عن أسئلتى بوضوح · لكم عاودنى فيما بعد شكل الأيدى ، حيويتها الكامنة ، تفرد كل منها بحضور خاص كذا تحديق العيون المطلة عبر العدم والتى سأنتمى اليها يوما ، تماثلت الزاويتان العلويتان ، ولكن النقش الذى يملأ الفراغ المحيط بالرأس ، اختلف من لوحة الى أخرى ، ولكن عناصر تكوينه لم تخرج عن اغصان تنتهى بزهور أجهلها ، تتخللها طيور غريبة ، أما ما يوحد الكينونة حقا ، ما جعل استدعائى للملامح صعبا فيما بعد ، تلك الابتسامة ، التى يراها كل متطلع الى ، راسخة ، لا تتبدل ولا تتغير مع تقلب أحوالى ، وتعاقب الأمزجة ، أذكرهم فكأننى أرى نفسى ، كلهم قدموا مثلى من جهة الشروق · واحد منهم غامق السمرة ، آخر منحرف العينين كأنه صينى ، غير أن الابتسامة تدنى الفروق ، جاءوا من جهات شتى ، ولكنهم انتهوا الى محاذاة موضع الشروق ، فحق لهم ما نلته بدون توقع ، ما لم يخطر على بالى ، وما لم يدر بخلدى ·

قال القيم ان الابتسامة مكتسبة ، لكنها تصبح داخلية ، منبعثة باستمرار اثر عملية يسيرة تجرى للملامح ، يقوم بها كبير المداوين ، وارث علم الطب فى الاقليم كله ، بعدها ، يحين موعد الظهور المرتقب الخروج الى عامة الخلق ، ثم استقبال أرباب

الدواوين ، وعمال النواحى والشـــعراء ، والمؤرخين ، والتجار ، والصناع ، وسائر صفوف الرعية ٠

ابتسامة فريدة ، تميز رأس البرارى ، ابن الشمس ، صاحب النفحة ، عن سائر الخلق ، سفورها الدائم يكسف العيون الجوارح ، يهدىء الخواطر اذا اضطربت ، يحل المشـاكل اذا تعثرت ، يثير الأنس والطمأنينة ، بعد ظهورها ، واستتبابها ، يبدأ الرسامون عملهم ٠ حيث يوفد كل جزء معمور واحدا من أبنائه المتقنين لهذا الفن ٠ وربما يتجاوز عددهم السبعمائة ٠ كل منهم يعد لوحة ، بعدها تعرض على ، ومنها أختار الصورة الرسمية التى ستعلق فى الشوارع والميـادين ومداخل البيوت والقصـــور والمعامل والدواوين وداخل الغرف ، حتى فى المخادع ، فمن الأصول المعمول بها أن يرى الناس رسم الرأس أينما ولوا البصر ، أما الصورة الأبدية فتلك تعد على مراحل ٠ وبطرق خاصة ، من ينال شرف ابرازها الى حيز الوجود فجرى انتخابه بدون أن يعلم ٠ وبعد اخطاره يبدأ اعـداده للمهمة ، يبقى اسمه سرا لا يعلن ٠

سألت عن العملية اللازمة للابتسامة وظروفها ، قال انها ساعة أو نحو ذلك ، لن يشعر بشىء لأنه سيسقى البنج ٠

دفعت اصبعى مستقيما ، حادا ، أصـبح من سماتى حتى ضربت به الأمثال ٠ فقيل « نافذ كأصبع الرأس » ، أو « مشهر فى وضوح الأصبع » الى غير ذلك ، والحق أننى لم أقصد ، لكن هذا ما ظهر منى بعد أن صار لكل حركة أو همسة تصدر عنى معنى ، وشأن يتجاوز وجودى ، رفضت بحزم ٠

أمقت غيابى عنى ، حتى مفارقة الواقع بالنوم لا أدلج فى النعاس الا بعد بلوغى مدى من التعب لا أقدر على تحمله ٠ هذا الموت المؤقت أخشى ألا تعقبه يقظة ، لم أدخن الحشيشة قط ٠ فى القافلة

شربت خمر الصين • وعرق البلح فى الواحـة • ولم تغرب عنى الموجودات ، نعم •• عرفت نشوة لم أعهدها • ودنوت من القوم أكثر ، لكن ادراكى الحاد للفروق بين الموجودات لم يهن •

يصير ذلك مكروها ، أن أفقد حسى ولو لدقائق معدودات ، خاصة مع غربتى ، وبعدى عن كل حبيب أو صاحب ، صحيح أن ما يحيطنى من أبهة لم أكن بقادر على تخيله ، لكننى أجنبى ، رأس لقوم لا أعرف عنهم شـيئا حتى الآن أسـوس من أجهلهم ، أمور شتى لا ألقى اجابات عنها • لكننى أرجأت وأجلت •

تطلع القيم صوبى حائرا ، وربما لم يواجه ، لم يقرأ عن مثل هذا من قبل ، ربما خطر له •• كيف سيتم رسم الابتسامة اذن ؟

قلت منهيا الصمت بيننا

سأتحمل الألم

قال دهشا :

لكنه فظيع

تطلعت اليه صامتا فأنحنى • تردد عندى صوت الحضرموتى ، لحظات انفرادنا واقترابنا وأخذى عنه • واشتمالى على ما يفيض به على ، قال ان أى ألم له حد ، لأفظع أنواعه مدى ينتهى بعده ، خبر ذلك عندما اضطر يوما للعلاج كيا بالنار ، للحس الانسانى طاقة على الاحتمال ، فاذا تجاوزها الألم بطل • أما الارادة فلا حد ولا حاجز لتحملها ، ألم تخبرنى عن الرجل الذى نبع الحليب من ثدييه فى البرية ليطعم طفله بعد أن أشرف على هلاك مبين ؟ استعد ما رويته لى وتمعن تفهم !

لم أطلب وثاقا ليشـدونى به الى سرير الجراحـة كما فعل الحضرموتى • لكننى بسطت جسدى وكأننى أنوى الاسترخاء •

اتجهت بفكرى الى أمور نائية عن كافة ما يحيطنى من حركة ذات نذر ، وظهور آلات وقوارير وكلاليب . وأربطة ، مراهم ومعاجين ، كنت أسترجع لحظات وأمكنة تمت الى زمنى المصرى ، الســـارى عندى ، الممتد معى ، والعجيب أننى أرى بالمخيلة ما لم أنتبه اليه عند المعاينة ٠ كم من صوت أو لون أو رائحة أو عبارة لم أدرك الكنه الا بعد استرجاع بطىء ، أو مباغت ، ولهذا شرح يطول !

أحاطونى متطلعين الى من خلف أقنعة ٠ دنا كبيرهم ، صرت أتلقى أنفاسه على مسام جلدى ٠ فى البدء كان الوخز مرا تقبله ، استهدف نقاطا شتى من ظاهر وجهى ٠ وعندما انتقل الى داخل أنفى ، وباطن جفونى كدت أفز من الهول ، راوغت ، وغصت بأسنانى فى شفتى لأقهر الألم بالألم ، حتى اذا عبرت نقطة يصعب تحديدها فى الزمان ، المكان ، جسدى المحسوس ٠ حضـورى غير المرئى ٠ صار تقبلى ممكنا ، وما يمر بى محتملا ، كأنه يجرى لآخر منفصل ، مبتوت عنى ، صرت أرى المبضع عند استقراره على سطح مقلتى ، كما تطلعت متأنيا الى أسنانى الأمامية كلها بين أصابع كبيرهم بعد خلعها كلها وأثناء ترتيبه لها على صفوف لثات مصنوعة قبل اعادة زرعها مرة أخرى داخل فمى بعد تسويتها ، وتلميع أسطحها ، هذا كله بدد ما كان منى وحدد ظاهرى الذى قدر على أن أسعى به حتى مختتم أمرى ٠

واحد لا غير أمكنه أن يطالع صورتى الأولى بعد دخولى عليه مباشرة ، انه الشيخ الأكبر ، باركنى الله برضاه عنى ، وجعل مغربى قربه ٠

لن أنسى أبدا لحظة مطالعتى وجهى فى المرآة ، كان آخـر يواجهنى ، عنده بعض شبه منى لكنه قديم ، عيناى اتسعتا ، تشعان ضوءا خفيا ، أقدر على الرؤية ، أما الابتسامة فغطت على ما عداها ، تمسك طرفى الوجه ، كما أن ثباتها وغرابتها أضفت أخاديد بالجبهة

والوجنتين ، حركة دماغي أبطأ ، لا التفت الا بقدر ، ولا أكثر من التطلع فوقي أو حتى تحتي ومعظم الأمر الى الأمام ، وباتجاه نقطة محددة ، حتى قيل ان أعتى الرجال قلبا وأثبتهم فؤادا لا يقدر على مواجهة عيني الا لحيظات ، بعدها لابد أن يطرق ٠

طال التأني كل شيء ، حتى انني لم أعد التفت الى الوصيفات الجميلات ، واللواتي يدخلن مخدعي لايقاظي برفق ، أو يساعدنني على خلع ملابسي أو ارتدائها ، كل يوم يتبدلن ٠ ومن أطالع ملامحهن في الصباح لا أراهن في المساء ، مرة واحدة لا غير أقدمت ، عندما شرعت صبية آسيوية تدلك جسمي في أثناء تأهبي لحمام الصباح المعطر برحيق نعناع جبلي ينمو في الجهة الشرقية من الاقليم ، بطل التعامل به وحرم على سائر الخلق بعد اعلاني تفضيلي له ، فوجئت بدخوله في كافة ما يمت الى من مشرب أو مأكل أو حشايا استند اليها أو ملابس ٠

لم أعرف التدليك من قبل ، هنا ٠٠ لقيت منه أنواعا ، فثمة ما يناسب الحمام ، قبله وبعده ، وآخر قبل النوم ، وثالث بعد العودة من رحلات الصيد ٠ أو المواكب والحفلات التي تقتضي ركوبا أو جلوسا لمدة ٠٠ في البداية كنت أخجل ، لكني بعد ظهور الابتسامة الدائمة لم أعد أعبأ ، ولا أعرف العلاقة حتى الآن ، لكنني عامة صرت أكثر اقداما وأقل دهشة مما يمر بي ٠

البنية من جنس لم أره من قبل ، لطيفة الحضـور ، ندية الطلع ، منمنمة ، كل ما ينتمي اليهـا دان للقطاف ٠ انحناءتهـا تغزتني ، أناملها تدغدغ جسدي اذا ما تركتها حتى الآن ٠ خبيرة بالكوامن ، وخبايا حسي ، ارتعشت فلم أطق ، حتى أنني مزقت غلالتها الشفافة المنسوجة من أطراف ريش الكناري ٠

فيما تلا ذلك أدركت أنني حيرت القيم والمسئولين عن رفاه أحوالى وترضية أهوائى ، اذ اهتموا بمحاولة رصد المفضلات عندى من النساء فلم يقفوا على أمر · حتى اضطر القيم الى التلميح ، عندما تحدث عن رأس سابق كان يؤثر بنات السودان ، وآخر هام عشقا بالسامقات ، العاليات ، وثالث ينتابه خلط ويهذى اذا ابتسمت فى حضوره أنثى فلجاء ، وأدركت ما يبغيه ، قلت ان مثل هؤلاء أغبياء لأنهم قصروا معرفتهم على ظواهر معينة · ولم يدركوا الجوهر ، أننى أسعى الى الجنس كله · كل أنثى كون صغير ، وكل كون ينفرد بجمال لا يتكرر ·· ليتنى أقدر على معرفتهن فى جمعهن وتفردهن ·

أبدوا تقديرا لما قلت ، والحق أن ما صرحت به لم يكن عن تجربة بقدر كونه نتاج جدب وحرمان لم أنج منه الا فى الواحة ، وبعد أن آلت أمورى الى ما لم أتوقعه انطلقت أروى نهمى ، غير عابىء بتلميحات القيم الى احتوائى على نفحة مقدسة يجب ألا أزرعها الا فى موضع تستحقه ، طبعا مع مرور الوقت هدأت أحوالى ، فبعد أن أفرطت فى جماع الوصيفات ، وبعض من بنـــات وجدن فى القصر ـ عرفت أن القيم دفع بهن الى طريقى لحرصه على تلقيهن النفحة ـ صرت أتمعن وأدقق · فلا أشرع الا باتجاه من تبعث عندى سببا ، فى الأعم لا صلة له بالحس ، ربما بعثت ايماءة غير مقصودة لحظة قديمة ، وقد يثير لحظ مشع شجونا طال اندثارها ، فأسعى الى القربى ·

ذرا انغماسى تحققت بعد انتهاء عزلتى الأربعينية · وبدء توافد الهدايا من المدن والأنحاء والجماعات ، عذارى لم يمسسهن أحد ، فى ليلة ضاجعت اثنتين · ولدتا فى ليلة واحدة ، لكن تلك من الجهة الشـــمالية والأخرى جنوبية ، تجاوزتا الثالثة عشرة بأيام

قلائل ، الأولى تحسبها فى الخامسة والعشرين لفراهتها ونضج مقاييسها ، والثانية كصبى أمرد ، لكن لكل منهما مجالا وشعابا !

رغم بلوغى المدى ، وجوسى الدائم فى الملذات المتجددة ، الا أننى كثيرا ما استعدت هذه الصبية التى وقعت عيناى عليها عند بزوغى فى عيونهم خمرية ملامحها ، طزاجة حضورها ، لحظة انحنائها ، سفور ردفيها المذهلين باستدارتهما ومتانتهما ، لا استعيدها الا وأغمغم متمتما ، ولم أصدر أمرا بالبحث ، ما أيسر تحديدها ، تعيين مكانها ، وضمها ، ألم تكن بين المنتظرين ؟ أضمرت الوصول اليها بنفسى ، داخلنى يقين أننى ملاقيها يوما ، فى حفل ، فى جمع ، عند مرورى راكبا عبر الطرقات والميادين · نذرت أن أسعى اليها فور وقوع بصرى عليها مهما كان الموقف ·

الغريب أننى لم أتق الى مثولها أمامى ، بامكانى اختصار المسافة وتجنيد كافة الامكانيات لاحضارها ، فى أغوارى لم أكن راغبا ، ليس عن زهد ، ولا عن حرص ·

اذن ·· ما الأمر ؟

ستعجب اذا ما صارحتك القول ، اذ حرصت فى لحظة جلاء بصيرة على بقاء شىء ما بعيدا عن المتناول ، فى دائرة التمنى ، ذلك أن كافة ما أرغبه يتحقق · سائر ما يصدر عنى يحتذى · بلغ ارتوائى درجة أن الفارهة منهن ، المكتملة ترقص بين يدى ، وتتثنى · تفعل ما لا يتوقعه رجل من أنثى ، ولا يتحرك أمرى · فاذا ما قصدت تنشيط همتى استعدت الانحناءة اللوتسية ، تنسمت أنوثتها · واسترجعت طلتها صوبى ، أعانق بالمخيلة ما لا تدركه الحواس ، وأقيم ما أقدر عليه بما أعجز عن بلوغه · وهذا عجيب !

لن أطيل وأفصل ، فالأمر يفيض ، والمتاح لا يستوعب ، لكننى سأطلعك على الصبية اليمامية ·

اعلم يا أخى المقيم فى ديار المغرب ، أننى بعد أن نهلت من كل نبع ، ورويت ظمئى ، رغبت فى رؤية أكثرهن مناعة ، وأشدهن تحوطا ، وأعظمهن هيبة ، ذلك أننى اطلعت على أخبارها مما يعوض على · ومع اتضاح الجوانب الخفية التى حرصت على سبر أغوارها بدون عون ، حتى من القيم · أقربهم الى حتى ذلك الوقت ·

لم يخف انزعاجه عندما طلبت رؤية سليلة الطير ، بالغ فى الانحناء ، رجانى اعادة النظر فى الأمر ، هذا غير مسبوق · لم يحدث من قبل ، سألته باختصار عما اذا كانت رؤيتها مدرجة فيما ذكره لى عند دخـــولى الاقليم ، لم يجب ، اطرق مثقلا بصـــمت المجربين ، لم أعبأ ·· واصلت اصرارى ·

الحق أن أسبابا شتى ، متداخلة دفعتنى ، منها غرابة ما نمى الى وكيفية وفادتها الى العالم ، ذلك أن والدها من عالم الانس أما أمها فمن دنيا الطير ، لم يلتقيا قط ، وانمـا جرى عشقهما على البعد ، أحب كل منهما الآخر بالسماع وعبر أصناف الطيور المهاجرة · الساعية ، أما الوصال فجرى عبر ارسال نطفة من الأب قطعت مسافات شاسعة تناوب على حملها سرب من طيور القطا ، أحيطت بطريقة معينة ، وتليت عليها تمائم لا يعرفها الا الأب الذى أوتى المقدرة على فهم لسان الطير ، تلقت اليمامة تلك النطفة ، احتوتها ، واعتزلت عن سائر بنات جنسها فى موضـع لايطالها فيه باز أو شاهين ·

كيف خرجت هذه البنية ؟

هذا ما لم أقف عليه ، ولم أعرفه حتى الآن ، كما أننى لم أسـتطع التحديد والقطع ، أين عاش والدها ؟ ، ذلك أنه تأكد لى معرفة القوم هنا باثنين لا ثالث لهما فى الدنيا المعمورة ، يعرف كل منهما هنا بلقب « معصوم الطير » ، هذا يعيش فى جزيرة ، وذاك

في أخرى ، لكنهما لم يلتقيا قط ، لم أحتج الى أى تأكيد ، بالقطع ٠٠ هو التنيسى ، لو صح ذلك فاننى سألتقى بشقيقه آمر القافلة التى لم ولن تقع عيناه عليها ٠

الحق يا أخى أننى فوجئت ، بعد أن أحضروها من مكانها النائي المقدس محاطة بأربعة وأربعين حجابا ، أدخلوها الى الصالة الغسقية ، حيث كل ما يوجد داخلها فى حمرة المغيب ، تتوسطها شجرة نادرة كلها من مرجان البحر الهندى ، جذعها وأغصانها وثمارها ، وأكد لى القيم أنهم انتزعوها هكذا من القاع ، لم تبدل ولم تشذب ولم يعمل صانع ما عمله فيها ٠

بعد نزع الأحجبة كافة ، تطلعت بفضول سرعان ما انقلب دهشة فخشية ، ذلك أننى لم ولن أرى مخلوقة مثلها ٠

آدمية ؟

نعم ٠٠ لكنها لا تشبه البشر الذين نعرفهم ، انما يمثل حضورها فى منطقة بين الانسانية والحيوانية ، نحيلة ، طويلة ، سامقة العنق ، أنفها منقارى التكوين ، فمها يا قوتى مفصص ، شعرها طويل زغبى ، يداها مفرطتا الطول ، متعامدتان أمام صدرها المستدير المدبب !

شيء لا يبين أجج ندمي وجزعي ، غالبت أمرى ، فى هذه اللحظة أدركت مغزى الابتسامة الدائمة ، فمهما تعاقب على لا يبدو منى شيىء ، لم أصدر أمرا بانهاء اللقاء بسرعة ، انها مقدسة وتعد من أسرار الاقليم المنيعة ، فارقت موضعى متجها اليها ومثل ذلك لا يجرى الا لمن يدانى مقامى أو يفوقه ، دعوتها الى الجلوس فحطت كفرخ مبلول ، اقتربت من ركن الأريكة الأرجوانية خائفة تترقب ، قعدت فى مواجهتها أقل درجة مما هى عليه ، وهذا لا يكون الا مع

كبار العلماء ، لم أفصح عن عذر أو سبب ، لم أبرر اصرارى على استدعائها ، انما استفسرت عما ترغب ، عما يمكن أن أفعله لأضاعف راحتها ، غير أنها لم تجب ، فى أثناء تطلعى شغلت بالبحث عن شبه ما ينتمى الى آمر القافلة التنيسى ، لكن وقوف الكينونة على حافتى البشرية والطيرية حيرنى حتى أننى عندما أستعيدها لا أقدر على نسبتها الى شبه محدد ، بل أجد فى قسماتها قبسا من كل وجه مر بناظرى ، لكم رغبت فى محو كل أثر لها عندى ، اذ تنتابنى رعدة كلما استعدت ارتجافها وذعرها المحير ، ليتنى لم أقدم !

حـــدة النقلة ..

حدثنى أحمد بن عبد الله ، هداه الله ، قال :

قرب انتهاء المدة الأربعينية نز قلقي ، صرت متطلعا الى ما سألاقيه ، ما ينتظرنى ، أمضنى الوقت ، وصعوبة تمييز الليل فى النهار داخل القصر ، ربما لاسدال الستائر على كافة المنافذ وسيولة الضوء خفى المصدر ، ثمة نوافذ تطل على حدائق ممتدة ، لولا تنبيه القيم لظنتهــا مســاحات غنــاء ، دهشت لقدرة من صاغها وخطها ولونها ، أشجار وأزهار وأصنام صغار ، بعضها مرمرى والآخر من الصوان الحالك ، هذا كله مجرد مشهد متقن .

هل اختل ايقاع الزمن ؟

ربما .. لم أستفسر ، أحجمت عن التساؤلات الا عند الضرورة أو ازاء المفاجآت التى لا أجد لهـــا تفســيرا ، حتى أوحى بعلمى واحاطتى ، ثمة سؤال داخلى لم أقدر على منع حومه فى أفقى .

كيف أتصرف اذا فاجأنى الهاتف ؟

ماذا لو تردد فجأة ؟

عكر ذلك رسوخ أمرى ، وبدء صفوى ، واستقرار ظرفى ، لأول مرة فى وجودى ألقى كل ما أرغب رهن اشارتى . كانت النقلة حادة كاجتياز فاصل بين ظلمة طامة ونور باهر .

كنت أخشى بزوغ الصوت الذى يقلل كينونتى ، ولا يدعنى الا اذا لبيت ، وصرت طوعه ، من واقع ما مررت به ، أدركت أنه

لا يباغتنى الا فى لحظة لا أتوقعه فيها ، ينصرف عنه فكرى ، وتنعدم خشيتى · حتى أدفعه شرعت فى استحضاره باستمرار ، لكن هذا صعب ، هل أضع نصب عينى ، أينما وليت بصرى ما يذكرنى به ، بحيث لا يغيب عنى أبدا ؟

وماذا عن لحظات ما بين النوم واليقظة ؟ · ماذا عن ضرورة انتباهى لوضعى بين القوم ، العمل على فهم ما غمض على ، جلاء ما يحيطنى ، المهم ·· أضمرت النية على استمرار حالى الذى وصلت اليه بعد مشاق ، ودرء ما يهدده ، ليس الأخطار المحسوسة ، ولكن ما لا يمكن فهمه وادراكه أيضا ··

أقول أنا مدونه جمال بن عبد الله انه عند هـذا الحد بدا صـاحبى حزينا شرودا ، لم تعد الابتسـامة الدائمة كافية لموارة ما يمر به وما يطفو على ملامحه ، أبدى الرغبة فى الخروج الى المدينة ، ورؤية معالمها التى لم يعرف منها الا الجامع الكبير ودار الضيافة ، وطرقا ونواصى مبهمة ·

قال ان الموضـــع لا يعرف حقا الا من خلال زمنه وبشره ان وجدوا ، ارتحت الى رغبته ، لنرجىء التدوين قدرا ، مع تلهفى على معرفة حاله ، خاصة فى هذا الطور الغريب ، لكننى حرصت على ألا أستنطقه ، وانما أدعه يسترسل ، يقول ما عنده كما يشـــاء · وبين الحين والآخر أنبهه ، أو أبدى استفسارا خافت النبرة ، هذا ما لزمته ، آثرت صحبته ، أن أرافقه ، ليس لمعرفتى بحاضرة البلاد ومعقلها ، بل لأننى أردت الاقتراب منه ورصد ما يكون منه ·

بدأنا فى الصباح ، أوصيت من يحملوننى بمجاراة خطوه ، ألا يسرعوا فيتجاوزوه وألا يتمهلوا فيتخلفوا عنه ، هو أبدى حرصا ، وكثيرا ما تطلع ناحيتى فى أثناء مشينا ليطمئن الى صحة وضعى ، والحق أننى تأثرت لذلك ·

حدثته عن السور الحصين ، تتخلله أربع بوابات ، كل منها يواجه ناحية ، أما الغربية فتؤدى الى المحيط مباشرة ، أبدى اهتماما بطول السور وسمكه ، والأبراج القائمة خاصة عند أركانه والبوابات الثلاث المؤدية الى البر ، لكنه لم يذكر بوابة المحيط . ولم يفتنى هـذا .

قلت ان المحيط مصـــدر خطر دائم ، منه يجيء المجـوس والقراصنة ، كثيرا ما ظهروا فى فترات مختلفة ، وحاولوا اقتحام الحاضرة التى يعرفونها عندهم بمرسى غارب ، كما تعرف أيضا فى الأقاليم الجنوبية ، وحـدث منذ قرنين من الزمان أن نجحوا فى المباغتة ، ونزلوا عند الشـاطيء الصـخرى شمال غرب السور ، واقتحموه ، وتمكنوا من الحاضرة حتى صار القتلى فى الطرقات ، ونهبوا وسبوا ، لكن مقامهم لم يدم وان احتاج الأمر الى عشرين عاما لاخراجهم عنوة كما جاءوا عنوة ، وردهم الى البحر الأعظم .

هذا أمر يطول شرحه ، وتفاصيله مبثوثة ، مســـطورة فى المدونات وكتب التاريخ ، بعد تلك الواقعة ، أعيد بناء الســـور وتحصينه ، كما شيدت الأضرحة للصالحين ، المشهور أمرهم ، عند كل ركن من السور ضريح ، عدا الجهة المطلة على البحر الأعظم ، هناك ثلاثة يرقدون تحت قباب خضراء ترى من بعد سحيق ، كما يؤكد البحارة الذين أوغلوا .

توقفنا عند البوابة الشرقية ، تطلع الى ارتفاعها ، والى المدخل الممهد ومصراعيهـا الثقيلين ، المغطيين بالحديد والنقش النحـاسى البارز ، طفنا بضريح سيدى عبد القادر ، ورد الى ديارنا من المشرق ، وفى الليالى التى يكتمل فيها القمر يسمع صوته من داخل القبر اذا ألقى السلام عليه من عابر سبيل .

اجتزنا العتبة المؤدية الى الداخل ، هدوء فى سائر عناصر الموجودات ، رقة فى الضوء ، فى الفراغ ، فى وجوه الخلق ، حطوا

بى فى مكانى المعتاد عند قدومى للزيارة ، الى يمين الداخل . حيث أقيم صلاتى وأبدى نسكى ، وتأمل ما كان منى وما يمكن أن يكون .

تقدم صاحبى صوب الضريح ، مباشرة كأنه اعتاد القدوم ، لم يتطلع الى الأركان ، الى السجاد الأخضر ، والستائر المسدلة ، انما ركع أمام الضريح وصلى ، ثم قعد القرفصاء ، وبدا متفائلا ، متداخلا فى نفســـه ، كأنه يود أن يتوارى ، أو يلزم منزلة جد خفيضة ، اتخذ رأسه وضعا مائلا ، ينظر الى أسفل ، ولم يبدله من صلة الظهر الى العصر .

بعد انصرافنا سألنى عن الرجال المتمددين ، الراقدين عند الجهة الشمالية من الضريح ، قلت ان هؤلاء يجيئون من النواحى القريبة والبعيدة من الجبال والوديان ، يتمددون ثلاثة أيام عند تلك الجهة على أمل أن يروا أحبتهم الذين فقدوهم فى المنام .

لم يخف على هدوء نزل عليه ، وسكينة شملته ، أبدى رغبة فى الرجوع . التقينا فى المســاء وكنت المتحدث وهو المصغى ، أخبرته بأيام الحاضرة البهيجة ، رؤية هلال رمضان ، وأول أيام العيد ، وليلة النصف من شعبان ، وغير ذلك من الأعياد والمواسم ، وأعياد ميلاد المشــايخ المباركين الراقدين على أطراف المدينــة ، أكبرهم ، الوحيد الذى يقصده سكان الجزر القريبة ، عيد مولانا وسيدنا محيى الدين المسمى بشيخ البحر ، يطل ضريحه عليه وقبته الأكبر والأشمخ ، يستمر سبعة أيام .

حدثته عن ركوب السلطان ، وصــلاة العيدين ، واحتفالات نزول المطر ، وقدوم القصاد الأجانب ، والفرح الذى يعم بوصول رسول من المشرق ، والحفلات التى تعقب ختان الصبية ، كذا الخطبة والزواج ، لكل عادات وأصــول ، لكن المناسبة التى تجمع القوم يوميا ، وما من شبيه لها فى سائر الأمصـــار ، فميعادها غروب

الشمس . اذ يخرج كل أهالى الحاضرة ، بشيوخها وأطفالها ونسائها . لا يتخلف الا من أقعدهم المرض أو الحبس القسرى أو أداء الخدمة ، يتجه الجميع الى الجانب الغربى من السور ، يجلسون على شرفات تبرز منه ، أكبرها تلك المجاورة لضريح سيدنا محيى الدين الذى يعتقد الناس أنه جمع بين أهل البر وسكان البحر ، اذ تزوج والده التقى الورع من عروسة البحر المقيمة فى أعماق المحيط ، وذات ليلة وضعته قرب الصخور التى يتخللها الماء ، ولأسباب يجهلها الكافة تركته عند الكهف المغمور نصفه فى المحيط وأعلاه فراغ مقوس كالقبة .

يقول البعض ان أهلها رفضوا وليدها الغريب عنهم ، وقال آخرون انها لم تصحبه الى الأعماق لأن نطفة الأب غلبت عليها فجاء طبع المولود أقرب الى ناس الأرض ، وقال شيخ من الجبال الجنوبية انها أحبت زوجها البرى فأرادت أن تقربه من ابنه حتى يذكرها باستمرار ، وكلام الناس فى هذا كثير ، شائع .

نما المولود فى كنف أبيه ، وكان عبدا صالحا ، تلقى العلم فى الجامع الكبير ، وسافر الى المشرق فجاور فى مكة وزار الشام وأمضى فى طريق عودته زمنا فى الأزهر ، رجع وقد حصل علوم الأولين ، وله تفسير وتأويل معروف لسورة القصص ، اشتهر عنه حبه للبحر ، وبعد عودته من المشرق كانت له خرجات وسرحات فى قوارب صغيرة ، يوغل زمنا طويلا حتى يعتقد القوم أن المحيط ابتلعه وأن خبره تم . ثم يفاجأ الجميع بقدومه فى وقت لا يتوقع فيه أى انسان ظهور آدمى جهة المحيط ، كأوقات العاصفة ، وتكاثف الضباب .

اعتقد فيه أهل البلاد وأيقن سكان الحاضرين أنه يمضى للقاء أمه وأنهما يمضيان وقتا يتناجيان فيه ويفضى اليها بما كان منه

وما ينويه وأنه أوصاها بناس البلاد ، خاصة حاضرة السلطنة ، لذلك اعتبره الصيادون حاميهم وبركتهم ، فلا يخرج واحد منهم الى الصيد الا اذا مضى الى قبة سيدى محيى الدين ، ومن لا يقدر يبسط يديه قبل نشر الأشرعة ويقرأ الفاتحة ، ومن يفته هذا أو ذاك يعد اقدامه على خوض اللجة مخاطرة ٠

هذا معروف ، مجرب ٠٠

المهم أن النساء لهن فيه نصيب ، اذ تتجه العاقرات ، اللواتى لم ينجبن ، ويتطلعن شوقا الى ايناع البذرة فى أرحامهن ، يمضين الى الصخور ، ويقفن عند الكهف فى وقت معين ، قبل بزوغ أكليل القرص الشمسى ، يتجردن من سراويلهن ، ويرفعن ثيابهن ، ويعرضن أجسادهن لمياه المحيط ، لا يسعيين الى الغمر ، ولكن يتخذن أوضاعا معينة بحيث يطال رذاذ الماء فروجهن ، اذا كررت الواحدة منهن ذلك سبع مرات ، وفى كل مرة طالتها زخات الماء ، فانها تحمل وتضع مولودا ذكرا فى الأغلب باذن الله تعالى ٠

لم يخف على اصغاؤه المعمق قبل ذهابنا الى ضريح سيدى محيى الدين ، سألنى ٠٠

« لهذا دفن عندشاطىء المحيط ؟؟ »

قلت : نعم ٠٠

تابع مستفسرا

« أتظن أنه يواجه البحر و موضع المغيب ؟ »

فوجئت ، قلت انه قبالة الاثنين ، ولكن بعض الصيادين يقولون فى جلساتهم خلال الأيام التى يشق عليهم فيها الطقس ، يرددون فى مقهاهم أن الشيخ له ضريحان ٠ موقدان ٠ الأول فى

البر عند السور ، والثانى فى أعماق المحيط · وأنه يتنقل بينهما . أسبوعا هنا وآخر هناك ، وأنهم يسمعون صلاته ودعاءه من أجلهم عند اشتداد العاصفة ·

الحق ·· أن اصغاءه بلغ ذروته ، حتى أقول ان ابتسامته كادت تتوارى الى حين ، مع أنها لا تخفت فى نومه ·

لن أنسى أبدا لحظة وصوله الى الحد الغربى للمدينة ، بعد جوسنا خلال الزنقات الضيقة التى لا يتسع بعضها الا لمرور شخص واحد ·

عبورنا أمام الأبواب المغلقة ، والمواربة ، والنـوافذ الحاجبة لحيوات شتى ، عبرنا الساحات والميادين ، وحومة السوق ، واجتزنا الطريق العريض أمام القصر السلطانى المهيب ، تطلع اليه وتوقف بعض الوقت ، ولابد انه تذكر ما تذكر واستعاد ما مر به وكان ، هذا ما خمنته ، لكن هذا كله فى جانب ، ولحظة وصوله الى الحد الغربى ، فى جانب · يمتد السور ليحجب الحاضرة عن المحيط ، ولكنه لا يقطع الصلة أبدا ، بل يقيمها أيضا ، فوقه يمتد ممر يتسع لاثنين يمشيان متجاورين · يحده قوائم متوالية ، متجاورة ، تتخللها فراغات ضيقة ، تتيح للجند رؤية مهاجميهم واكتشاف أوضاعهم مع البعد قدر الامكان عن الخطر ، ثمة أبراج دائرية على مسافات متساوية ، وفى الليالى الحوالك العاصفة توقد النيران أعلاها لهداية سفن الصـيد التى تأخرت عن العودة · الصـخور التى تتخلل الشاطىء المحاذى للسور تمنع اقتراب السفن وتحوشها ، أما مراكب الصيد فمرساها خارج المدينة ، عند الطرف الشـمالى الغربى ، أما الشرفات فتبرز الى الخارج ، مستندة الى صخور لم تتغير أوضاعها منذ دبيب الانس والجن فوق تلك البقعة المباركة ·

أفسحها تلك المجاورة لضريح سيدى محيى الدين ، أطولها أيضا ، وعند ظهور الخطر لا يقترب منها الا السلطان وقادة جيشه ،

ولكنها لا تخلو حتى فى الليل من بعض الساهمين ، الراغبين فى الانفراد ، أما ذروة الزحام فتلك اللحظات التى أشرت اليها عندما تخرج المدينة للمثول أمام غروب الشمس !

حدثته عن صمت القوم ، وشخوصهم الى المغيب صامتين ، وملامحهم تنطق بترقب وخوف وأمل فى رجوع الشمس مرة أخرى ،

استفسر مطولا عن تلك العادة ، عن الاخوة الثمانية المغرر بهم ، لم يبد اهتماما بالأضرحة الأخرى ، قرأ الفاتحة عند مقام السيدة الصالحة أصيلة · ولكنه لم يبد فضـولا ، وتوقف قليلا عند مقام سيدى الحافظ وسألنى ، من أى بلدة أندلسية هو ؟ ·

حدثته عن خروج الناس الى السور لمشاهدة هلال رمضان ، وأحاطتهم بالقاضى ، وانطـلاق الزغرودة الأولى لحظة التأكد من رؤيته ، ثم انتقال الزغاريد من السور الى الأسطح ، حتى شمولها المدينة ، ما أغرب ذلك ، عندما يمتلىء الفضاء بتلك الأصوات القديمة السارية التى تمس حافتى الحزن والفرح ·

قلت ان للمدينة أصواتها الخاصة أيضا ، فمن ذلك هدير الأمواج وارتطامها ثم ارتدادها عن السور ، وسريان الرياح الخريفية التى تشبه الصفير المتصل خفى المصدر ، والهواء الممدود الطويل ، المنقطع أحيانا فى الشـتاء · ونزول المطر ، قطراته النحيلة ، المتقطعة والمتصلة ·

أصوات بعضها أزلى ، منها ما شـكلته المدينة وطوعته عبر فرجات البنايات وزواياها ، والمنحنيات ، والجدران المتعـامدة ، عاينتها ، وأطلت الاصغاء حتى أدركت الفروق ، دونت ملاحظاتى حتى صارت مرجعا فى معرفة أنواع الرياح وعلاقتها بالأوقات · وقفت على ثبات الدورة وتماثلها ·

قال انه يود لو أصغى الى زغاريد النساء عند رؤية الهلال ، واجتياز أصدائها الى الوديان وصوب المحيط ·

قلت ان رمضان يقترب ، وسوف تنطوى الشهور الأربعة بأسرع مما نتصور · وعندئذ سيرى أجمل أيام المدينة ، حاضرة بلاد الغرب ·

تطلع الى صامتا ، ابتسامته مظللة بسخرية عينيه وشكوك فؤاده ، لكم استعدتها فيما تلا ذلك ، وأدركت منها أمورا لم أفهمها فى حينه ·

لم يبد الرغبة للخروج فى اليوم التالى ، وبدا راغبا فى التجوال منفردا ·

وكأن صحبتى له مجرد مفتتح ، اطلعت على مادونه وقدمه الى ·

تماما كما فعل عندما رغب فى تدوين لقائه بالواحية التى أصبحت امرأته ·

وانى لمورد ما سلمه الى ، كل وفقا لما رتبه ، أما الآن فانثنى مستأنفا حديثه الى ، وكان ذلك صباح اليوم التالى لخروجنا معا وهذا نصه ··

للشكل عبرة ..

.. اخترت التأنى ، في المشى ، فى الالتفات ، فى النطق ، عند الحديث الى الآخرين ، أيضا فى التدبير ، ممن قابلتهم فى عزلتى الأربعينية رجل متوسط العمر ، يتقن تقليد الانس والحيوان ، والرياح وحفيف الشجر وخرير الماء ، وهسهسات الحشرات ، كان ذا مقدرة على تقليد خمسة أشخاص فى وقت واحد ، مختلفين ، متباينين ، ألسنتهم مختلفة ، تسمعه فكأنهم ماثلون ، متناقشون ، أيضا كان بارع الغناء مليح الصوت ، متمكنا من النغمات والمقامات ، قادرا على اثارة الطوب وتحريك الشجى فى وقت واحد ، أمضى فى صحبتى جلستين طويلتين .

استعرضت بصحبة القيم طرقا شتى للسير ، لرفع اليد بالتحية ، كيفية النظر الى الوفود والرسل .

قال القيم ان أى اشارة منه ستبقى عالقة بذهن من يراه ولو للمحة ، خاصة فى الاحتفالات التى تعد من رسوم الاقليم ، وأهمها المبايعتان ، الأولى وتعرف بالصغرى ، موعدها ثابت ، موافق ليوم ظهوره من جهة الشروق . والثانية الكبرى وتقام فى أى يوم ، لا وقت محددا لها ، والغرض منها الاشارة الى يوم غيابه الأبدى المجهول ، ولاظهار حرصهم على بقاء ذكراه فى أفئدتهم حتى وان حجب اسمه لفترة بعد اختفائه .

أقول الحق اننى أخفيت امتعاضى وضيقى لمجرد خاطرة رحيلى واندثارى ، لكننى لم أسفر لجهلى حتى الآن بكافة معتقداتهم ، وحتى

أخطو جيدا يجب استكشاف الأرض التى أعيش فوقها وأسعى فى أرجائها ٠

استحسنت أداء المشخص وأثنيت على مهارته ودعوته للتردد على مجلسى لأتسلى بما يتقن ويفعل ٠

اخترت التأنى سمة ، والجدية مظهرا ، والتبسط بقدر مع عامة الخلق ، كما انتهيت الى شكل التحية ، لن أفرد ذراعى ، لن أرفعها الى أعلى ، انما أثنيها على هيئة زاوية ، ألوح يمينا وشمالا بتؤدة ٠

قال القيم انها تحية غير مسبوقة ، ولا تسجل مثلها دفاتر الأيام المنقضية ، ان اقترانها بالابتسامة الدائمة يضفى هيبة جليلة ، لها ثقل فى الأنظار والعيون ٠

قلت اننى سأخالط القوم ، أزور بيوتهم ، أملس على شعور أطفالهم ، وأداعبهم ، آكل مما يأكلون ، أذوق ما يشربون ، الحق أننى كنت أستدعى بعضا مما يروى عن سيرة السلطان ركين رحمه الله وأكرم مثواه ، وجعل لى نصيبا فى الوقوف على تربته يوما وقراءة الفاتحة ، واحتذى ما سمعت وما تبقى عندى ٠٠

لم يخف على تحفظ القيم ، وحذره البادى ، ملت الى الأمام مضيقا عينى وهنا شعرت بالابتسامة الدائمة التى قدر لى ألا أفارقها ، لكن يبدو أن امتزاجها بالغضب وظهورها مع نذر السخط منى ، أو التحذير ، كان يضفى هيئة غامضة غريبة ترجف من يواجهنى ، ولكم كررت ذلك فيما بعد لأستمتع وأرصد ما ألحظه من ردود أفعال تتباين وتختلف ٠ تمـاما كمـا كنت أتطلع الى ملامح الاناث عند مضاجعتى لهن واقترابهن من ذرا المتعة ٠ قلت متمهلا ٠

ـ انى راغب أمرا ٠٠

اتجه صوبى ببصره على غير عادته · أمرته باستدعاء أمهر قصاصى الأثر فى الديار كلها · سأجرى لهم اختبارا ، لى بهذا العلم احاطة قصوى ، أول ما سيقوم به بعد انتهــاء العزلة الأربعينية الوصول الى الواحة ·

ـ هل جاء أحد بعدى ؟

يهز رأسه نافيا بشدة · فوجئت به ينحنى مقبلا الأرض أمامى ، قال بصوت متهدج ، انه يؤكد لى مرة أخرى ·· لا أثر لأى واحة تلك الجهة ، عقد يديه أمام صدره ·

أى واحة ؟ أى عين ماء ؟ أى قوم لا يزيد عددهم أو ينقص ؟ انه يرجو ألا أفضى بذلك الى ى انسان ، لا من الخاصــة ولا من العوام ·

ـ هناك واحة ·· امرأتى هناك وربما طفلى ·· من أى جهة قدمت اذن ؟

هز رأسه مبديا أسى وخوفا ·

يا أمير البرارى ، يا رأس الاقليم ، يا سيد القوم ، أنت لم تقطع الطريق المؤدى الينا فى ثلاث ساعات ، انما أنت تسعى الينا منذ الأزل القديم ، ألم تكن بذرة فى ظهر أبيك ، وجدك ، وجد جدك ، ألم تبزغ من الشرق يا من تحوى نفحة الشمس القدسية ، يا من تحمل ألم الجراحة بدون غيبوبة ، أنت قادم من عين الشمس ، من المشرق ومن أقلع من الشرق لا يعود ، لا ينثنى راجعا ، لأنه متجه دائما الى المغرب ، هل رأى أحد من الخلق قرص الشمس يرجع من حيث أتى ، من حيث طلع ؟

بدا كلامه غامضا ، خاصة اشاراته الى المغيب ، هل يعرف بأمر الهاتف الذى قلقل وجودى ؟ خلعنى من مصر ، أصلى ومنبعى ،

هل وصلت الى الموضع الذى حدده الهاتف ؟ ربما ، تمنيت ذلك ، هذا يعنى مكثى وبقائى هنا ·

لم أشأ التراجع أمام توسله الممتزج بنصحه · ولكننى ركنت الى راحة عجيبة · حتى ضبطت تساؤلا فى أفق وعيى ، أى واحة ترغب فى العودة اليها ؟ أى واحة ؟ · أخفيت ذلك · بل جادلته مؤكدا على بقائى فى الواحة وخروجى منها مضطرا ·

قال القيم ان المسافة التى ذكرتها لا يمكن أن تؤدى الى أى نقطة معمورة ، معروف أن هذا الاتجاه يخلو تماما من أى عين ماء ، أو أثر لزرع · قال ان خطوى لا يحسب بالزمن الذى يعرفه الخلق ، فما يبدو أنه استغرق ثلاث ساعات أو أربع ساعات ، يمكن أن يعادل بالحساب البشرى أربعين أو ثمانين سنة ·

قال ان طول الاقليم بالعرض مسيرة ثمانية عشر يوما بالابل ، وأربعة عشر يوما على ظهـــور الجياد · طوله مقارب ، لكن توجـد ترتيبات خاصة تكفل اتصال المقاطعات السبع ، والمدن السبعين ، والمحلات السبعمائة والواحات الثمانى · بحيث تصل الرسالة من أقصى طرف الى الناحية الأخرى فى أقل مما يستغرقه قيام وقعود !

تلك الوسائل من أسرار الاقليم ، اذا رغب فى الاطلاع عليه فمنه الأمر وله الطاعة ·

كرر تأكيده بخلو جهة المشرق من أى واحة ، قال انه يوجد من يعرف صحارى الدنيا ، يحفظ اسم كل ذرة رمل ·

أبديت عجبى ودهشتى ، قال ان كل شجرة أيضا لها اسم ، وكل غصن ، والغمام السابح ، والبروق والرعود ، وما يبدو متشابها للنظر العابر فى حقيقته ليس كذلك ، وأهل العـلم فى الاقاليـم يشتغلون ويتوصلون ، دنا منى ، على ملامحه ابتسامة ، قال :

ملكك يا أمير البرارى لا مثيل له ، وعجائبه لا تنفد ، وغرائبه مقصد للقريب والبعيد ، أجناس الطيور المختلفة لم تقصده عبثا ، وفى كل يوم تصيح كلها فى وقت واحد رغم اختلاف أصواتها اثباتا للأمر ، يا صاحب النفحة تعطف على قومك واعرفهم ٠

بعد انحناء طال نسبيا قال القيم ٠

ـ الشمس تشرق كل يوم ، لكن شمس الانسـان لا تطل الا مرة ، وبعد غروبها لا تعود أبدا ٠٠

الأقـــوال ..

.. لن يروح من وعيي أبدا يوم خروجي ، ركوبي لأول مرة ، كثيرا ما فكرت في لحيظة اندثارى ، عندما أروح فى جب الأبدية ، أى صورة سترد ، ستمثل أمامى ؟

بالطبع لا يقين عندى ، لكنها لن تخرج عن ثلاث ، أما ناصية حارتى التى أمضيت فيها عمرى الأول ، جدار المسجد الخلفى . ونافذته المستطيلة ذات صباح شتوى مبلول بالمطر الليلى المتبقى .

أو لحظة مواجهتى الشسوع الصحراوى بمفردى بعد مفارقتى القسرية للقافلة ، وادراكى لأول مرة ماذا يعنى العدم ؟

أما لحظة مواجهتى الحشد فلا يضارعها شيء آخر .

لحظة عبورى البوابة الخارجية ارتج الأمر على ، ان خروج الخلق مجتمعين ثم وقوفهم مهيب للمتطلع ، فما البـال اذا جثوا راكعين ؟ . سمعت دمدمة أصواتهم وهديرهم ثم جلال صمتهم ، كان جوادى نحيلا ، منسبا ، هادئا ، يحسب خطوه رغم أنه لم يقربه أحد منذ ولادته ، سلالة أصيلة لا يعرفها الا من شغلوا مكانى ، عندما اقتربت منه ، وقف بمفرده لا يمسك أحد بلجام أو قيد ، انحنى محمحما كأنه يعرفنى ، خفض رأسه لحظة ركوبى . وعندما خطا رفع رأسه يمينا وشمالا مختالا ، مزهوا .

بعد الخطوة السابعة سرى هدير ، بدا خافتا ثم تصـــاعد مدمدما ، فى البداية لم أدرك تماما ، كانوا يرددون ثلاثا :

« عاش رئيسنا وسيدنا »

« انظر الينا لتحل البركة »

« بأرواحنا ، بدمائنا ، نفديك يا صاحب النفحة .. »

الحق أقول ، بعد زوال رهبتى ، حط على حال غريب ، اذ رغبت فى الضحك بصوت مرتفع ، أقهقه يعنى ، اذن .. أصبحت ابن الشمس ، المقدس ، النورانى ، كل هذه اللافتات من أجلى ، تلك الانحناءات ، كافة ما يصدر عنى يؤول . قاومت الضحك الموشك على التفجر ، حدث لى مثل ذلك ، فى زمنى المصرى حضرت مأتما وكان الحزن مخيما ، والوجوم ساريا ، فوجئت بموجات ضحك تعبر داخلى لتهز كينونتى ، أحد الجالسين تقدم منى ، ، رفع يده ، صفعنى حتى أن المرئيات اختلطت عندى .

لم يصدر عنى الا الابتسامة الدائمة ، لحظة خروجى من القصر أشرت رافعا الصولجان الشمسى ، مجرد اشارة ، صدحت بعدها الموسيقى النحاسية ، ألف عازف ، كل مائة منهم مختصون بآلة مغايرة ارتج الهواء ، طبول ، أبواق ، بيارق رفرفت ، أسراب طيور حلقت على ارتفاع منخفض ، توالى بعضها فى ترتيب عجيب ، غريب ، أما السرب الذى ظللنى فلم يكن فيه طائر يشبه الآخر ، وعد اجتماع هذه الأنواع من المستحيلات ، لتنافرهـــا فى الطباع ، واختلاف مصادرها ، كان يؤمها الطاووس الذهبى النادر ، الذى بسط جناحيه فكان ما بينهما كافيا لتظليل خمسين رجلا .

رفعت يدى مرة ثانية ، فقاموا أجمعين كأنهم جسد واحد ، تذكرت جسد الفتاة المنحنى ، وتحديقى الى ردفيها المضغوطين لحظة وصولى ، سرت عندى نشوة ، وحدقت فى الوجوه لعل وعسى !

بعد أن كفت الموسيقى النحاسية أمكن للقوم النظر تجاهى ، والتطلع الى ابتسامتى وملامحى ، بدء الموسيقى المنبعثة من آلات خشبية يعتبر ايذانا لهم ، لقاء نظراتى بعيونهم ، لابد أنهم أجهدوا أنفسهم فى التطلع صوبى ، محاولة رؤية سماتى ·

أقول ان رؤية جمع كهذا مبهج ، باعث للنشوة ، لكن نفسه الحشد اذا اجتمع على شر يصير الأمر مخيفا ، ما رأيته جلل ، رجنى رجا ، وخلخل أمورا طال استقرارها عندى ، وأفسح الكوى والمنافذ لرياح لم أتوقع هبوبها يوما على روحى ·

حاولت استيعاب ملامح المدينة ، مركز الاقليم ، حاضرة البرارى ، المبانى قديمة ، شاهقة ، أقواس حجرية تتخلل الطريق ، أبواب هائلة لا تؤدى الى شىء ، الأرض مرصوفة بحجارة صغيرة ملونة ، مشهور أمرها ، طريق لا مثيل له فى عواصم الدنيا ، عريض ، تحفه أشجار نحيلة السيقان ، أنوثية المنظر ، ترسل شذى خفيفا ، لطيفا ، يحفز النفس على الخوض فيما لا يخطر على بال ، انه طريق المواكب ، حيث تقام المناسبات العظمى ، والاحتفالات ، رأيت بنايات مرتفعة ، وأبراجا ، وحدائق معلقة ، حاولت الا أنشغل بالمعالم النباتية ، هذه الوجوه ، تلك الملامح ، مصائر أصحابها عندى ، أرضى واسخط ، أرفع واخفض ، أقرب وأبعد ، كلمة منى تشقى وكلمة تحفز ، أين كنت من هذا ؟ أين انتظرنى هذا كله ؟ لو أن من عرفونى طفلا أو صبيا رأونى الآن لما صدقوا ولما استوعبوا ·

أهذا كله من أجلى ؟

بدون أن أدرى فاضت مشاعرى تجاه كل فرد فى الجمع ، وددت لو صافحتهم فردا ، فردا ، عاهدت نفسى على أن أجعلهم سعداء وأن

يجربوا فى زمنى ما لم يسمعوا به ، ما لم يعرفوه فى الأزمنة الآخرين ٠

مما لفت نظرى لافتات معلقة بين المبانى ، وعلى الواجهات ، تحصل كل منها شعارات الاقليم وعبارات مثل ٠

« سلام على الجميع ٠٠ »

« الانسان سيرة ٠٠ »

« أراض تشيل ٠٠ وأراض تحط »

كل الجمل مسبوقة بلفظين لا غير ٠٠ « من أقواله » ٠

من ؟ ما المقصود ؟ بعد رجوعى الى القصر ، بعد المأدبة المقدسة التى حضرها كافة قواد الجيش ، ورؤساء الطوائف ، وشيوخ الحرف ، وعدد من النساء ذوات المكانة ، كلهم وقفوا صفا . عقد الواحد منهم يديه أمام صدره ، يدنو ، ينحنى مقبلا عباءتى عند الكتف ، بعد انتهاء مراسم اليوم الأول سألت القيم عن تلك اللافتات ٠

قال انها من أقوالى ٠

أقوالى أنا ؟

نعم ٠٠ هناك ديوان مختص بذلك ، انه الجسر الواصل بين صاحب النفحة وشعبه ، بين أمير البرارى وناسه ، مهامه عديدة ، منها اعداد التصاوير واستنساخها ، وابلاغ أوامره ، ونداءاته الى الخلق فى سائر أنحاء الاقليم ، وهنا نظام معمول به مختص بذلك لا يعتمد الطرق المعروفة ، انما لديه عدد هائل من المرايا المنصوبة على مسافات متساوية ، كل منها تعكس ما يبدو فى الأخرى ، هكذا تتوالى المرئيات ، من واحدة الى أخرى فى لمح البصر ، وما هذا الا أحد

نظم ربط أطراف المملكة التى أشار اليها من قبل ، الديوان يقوم بتسجيل كافة ما يصدر عنه من عبارات ، وأستخلاص معانيها وتعميمها سواء فى لافتات ، أو تدريسها للكبار والصغار فى معاهد العلم ، النساخ يتولون اعدادها ، وشرح مفرداتها لأطفال المدارس ، وأيتام الزوايا ، ثم تصفيف ما تم تجميعه ، وفهرسته ، وتبويبه ، ونقله الى لغات الطير ، حتى يتم تلقينها لأسراب الحمام ، والعصافير ، والبواشق تساءلت ، ما اسمه ؟

قال القيم ، كافة الدواوين تنسب الى ما تقوم به عداه ، اسمه يذكر مجردا من كل صفة ، فقط ·· الديوان !

قلت اننى راغب فى الاطلاع على ما يقومون به ومراجعة العبارات المنسوبة الى ، لى صلة بأهل الانشاء ·

قال متلطفا اننى رب الحكمة ، سيد ـ فنون القول ، ما يصدر عني يحوى أصداء من النفحة ، وأى لفظ عندى يجب الا يؤخذ بظاهره ، كافة ما أنطقه يدون ، هنا مختصون يدركون ما يجب أن يخرج الى عامة الخلق ، وما يجب الاقتصار على طائفة دون أخرى ·

بسطت يدى فكف ، قدر رغبتى فى الاصغاء حتى ازداد معرفة بهم قدر حرصى على ابداء شأن ، اننى لست قادما من فراغ ، أردت أن أدبر الشئون كما أبغى ، الا يكون بينى وبين القوم حجاب ، هذه عبارة سمعتها مرة من كبير الواحة ، أحقا مررت بها ؟ ، أرجأت شكى ، أقصيت التفكير فى عذارى ، فى الفسطاط ·

توقى الى معرفة من أحكمهم جعلنى أنزع الى التبسط ، ما أكثر الحواجز التى تحول بينى وبين الآخرين ، لكى يصل أحد الوجهاء ، أو قاصد قادم رسولا من بلد ناء ، الى مقر مجلسى ، عليه اجتياز سبعين بابا تبدأ من مدخل القصر الأمامى ، وتنتهى عند القاعة الأمامية

المؤدية الى مقرى ، كذا أربعون ممرا ، وثلاثون حاجزاً ، وثمانى نقاط تفتيش ، على كل منها حراس أشداء ، يحملون على معاصمهم أنواعا نادرة ، مدربة ، معدة من الطيور الجوارح التى تهاجم فور ادراكها شيئا ما ، أخفاه صاحبه تحت الثياب ، أو داخل الجسم ، وثلاثة مراكز عليه أن يذكر عند كل منها الغرض الذى جاء من أجله ، وليلقن ما يجب أن يقوله وما يفعله عند دخوله ، ومثوله أمامى ، ثم جلوسه بحضرتى ، هذا كثير ، ولكنه أمر متوارث ، صعب تبديله ، قال القيم ان أى قادم من قريب أو بعيد يجب أن يبذل جهدا ، ويقطع مسافة ، ويجتاز موانع حتى تقع عيناه على طلعتى ، وعند دخوله قاعة جلوسى ، يجب أن يمشى مسافة من الباب حتى مقرى ، لا تقل عن عشرين مترا مما أعرف ، واذا كان ذا شأن يمكن أن أخطو ثلاث خطوات فقط لاستقباله ، أما العلماء وأهل الحضرة فأمضى لآخذ بأيديهم عند منتصف الطريق الى ، وأمد يدى داعيا اياهم للجلوس قربى ، كل خطوة لها ترتيب ، وكل تصرف له شروع وأصول يجب أن تحتذى ، الحق .. اننى بدأت أعلى مقدار الموضع الذى لقيت نفسى فيه بعد انتهاء عزلتى الأربعينية وليس خلالها ، بدأت ألحظ عندى ما لم أتوقف أمامه من قبل . كنت أمعن النظر فى ذاتى من زوايا عدة ، أحيانا كأننى أتطلع الى وجودى من مسافة ، تذكرت عرارا توقف امرأتى فى الواحة عند اشارة أصبعى ، خاصة اذ يشتد لمظى ويحتد أمرى ، جعلته من لوازمى ، فتعلقت به الأبصار ورنت .

امرأتى .. أول أنثى ولجت عالمها ، مع توالى الأيام وتمكن وضعى ، واستيعابى ، كنت أستعيد ملامحها فأحن ، وأهفو ، أرى هدوء محياها ، نظرها المتمهل ، تحننها على فى أويقات صفوى ، ميلها نحوى فى ليالى انفرادنا ، اذ تقبل على ، تدغدغ جسدى بأنفاسها ، توقظ فيه كوامن طال سباتها .

اذ انفـرد بنفسى بعـــد انصراف الوصيفات ، واغلاق المنافذ أود لو أنها بصحبتى ، أحيطها بالابهة ، أتمرمغ معها فوق هذا الفراش الغريب المحشو بالزئبق الرجراج ·

ما بين يقظتى ونومى ، رأيت نفسى منجها الى الشرق ، حولى حرس غريب الهيئـــة ، لكل منهم جناحا طائر بدلا من الذراعين ، اقتفيت آثار قدمى ، فى الرمال الناعمة ، فى المواضع الصلبة ، حتى وقفت عند بداية المرتقى الذى عبرته عند وصولى الواحة ، لحظة رؤيتى القوم وكأنهم يتوقعون وصولى ·

لكن ·· فوق المرتفع لا أثر ، ما من شجر ، أو نخيل ، أو مياه عذارى ، لا ضريح لمغربى أو مشرقى ، موضع قصاص الأثر خواء ، استعدت ما علمنى ، رأيت آثار قوم عاشوا هنا ، فجأة رأيت جثث موتى ملفوفة فى شرائط من قماش قديم لا عهد لى بمثله ، رءوسهم سليمة الشعر ، بعضها تسفر الشفاه المنفرجة عن أسنان منتظمة ، صحيحة ، لم يمسسها سوء ، عيون زجاجيـة ، قادرة على النظر ، التحديق الثابت المروع ·

فجأة ·· اهتز رأسى يمينا وشـــمالا ، تراجعت مضطربا ، تلك حركة لم ألمحها الا من أمى فى زمنى المصرى الأول ، عندما تبدى أسى ، أو حسرة ، أو انقطاع أمل ، أيد دفعتنى ، قاومتها ، كنت راغبا فى عناق أمى ، لكننى لم أر الا الأجداث ، تهدجت أنفاسى ، قمت مضطربا غير مدرك لما يحيطنى ، بدأت أعى بعد مرور لحظات ثقيلة الوطأة قادمة من زمن مغاير ، مختلف عن وقتى ·

لا أدرى الصلة ، ولا كنه العلاقة ، لكن بعد هذه الليلة تكرر الحلم مرات ، فى أماكن لم أتوقعها قط ، ولكن الغريب أننى بدأت فيما تلى ذلك أشك فى مكنونى ، ما أصونه عندى !

دمعــة معلقــة ..

حدثني أحمــــد بن عبد الله الآمل حسن الختام فقال : عندها أذكر ما جرى فكأن الأمر يتعلق بشخص غيري ، وكأنني لم أسمع ولم أر ولم عرف رجفات النشوة أو هزات المواجيد ، انما أخبر عن آخر انبتت الصلة به ولم يعد ماثلا عندي الا كصدى أطياف نائية ، أما زمني المصري ، بدايات سعيي فتدخل دائرة التلاشي ، كافة ما سبق بزوغ الهاتف . كنت كلا متكاملا ، متلائما ، لكنني مع كل مرحلة أقطعها باتجاه موضع مغيب الشمس أتعدد ، أنشطر ، مني ما يبدو واضحا جليا ، ومني ما تلاشى فلا أمل في استرجاعه بالذاكرة حتى ، كأني لم أعلق بأهلي يوما ، ولم أتدثر بهم أمنا ، ولم أقلق لتأخر أبي ، ولم يمضني صمت أمي ، ولم أفرح بمقدم الأعياد ونحن صحبة ، كأن وصلا لم يجر يوما ، ما كان مني تذرى ، فياحسرة على العباد .

أقول أنا مدونه ، الحق أنني في شوق لسماع أخباره ، خاصة بعد توليه أمور الحكم مصادفة ، وتقلده الصولجان بلا ســـعي أو تمهيد ، لكنني أثرت ألا أقاطعه ، ألا أشوش عليه ، كثيرا ما رأيت وسمعت في صمته أكثر مما وجدته في نطقه ، لكم رصدت في مآقيه معاني يمكن الاحساس بها ويعسر تفسيرها ، أو ارجاعها الى أصل أو معنى غير أن ما رقرق فؤادي وجعلني راغبا في القرب منه تلك الدمعة اللامرئية المعلقة ، دائما قاب قوسين أو أدنى ، لا هي متبلورة ، ولا في طور التكوين ، أحيانا تقترب ، ومرات تنأى ، وكثيرا ما تشف فيختلط سواد عينيه ببياضهما ، ولكن رؤية نظراته عند جلوسه أمام المحيط شجت قلبي ، وكلمت فؤادي .

ان شفقا يلوح عنده ، وليلا دانيا ، وهياما صعبا ، وحزنا قريبا لم أره عند طرف الشرفة الحجرية الا مرة واحدة ، صارت مقراً له ومثوى ، حتى بدا أنه سيلزمها ، طال وقته أمام البحر الأعظم وقل مكثه معى ، لكننى لم أكتف بتدوين ما يمليه على ، انما صرت متطلعا باستمرار ، محاولا النفاذ وسبر الأغوار ..

متى لاحت تلك الدمعة المعلقة رغم الابتسامة الدائمة !

هذا ما لم يفض بجواب عليه ، ولكننى لا استعيدها الا أوشكت على الشجى ..

تمــــكن ٠٠

٠٠ حدث أحمد بن عبد الله فقال : عزمت توطيد مكانتي ، وامتــــداد احاطتي ، ولاح مني ما أدهشني فكأني أعدت من قديم لهذا ، آليت على نفسي كبح رغباتي ، ليس عن خشية ، ولكن عن ارتواء ، في كل أسبوع تهدى الى عذراء لم تمس ٠ وغالبا ما تكون أجمل قريناتها في المقاطعـــة ، أو المحلة ، أو الجمـــاعة ، بعضهن فضضته ، وقليلات انتظرن طويلا ، لم أعد أمس كل من تحـــرك رغبتي ، خاصة بعد أن فوجئت باعتبار الوصيفتين ، أول من لامست وعرفت ، ذوات حظوة ومرتبة ، كل ما يخرج مني يحتوى النفحة المقدسة ، أنا القادم من جهة الشمس ابنها ، وموضع أشعتها ٠

هكذا ، هدأ حالي ، كافة ما أشتهيه رهن اشارتي ، كل ما تمنيته بالخيال صرت أحققه ، وهذا يطول شرحه ، المهم ٠٠ تمتين وضعي قبل كل شيء ، وأول خطوة محاولتي فهم ما صغر أو كبر ، أظهرت الهيبة ، ليس من خلال ابطاء خطوى وتمهلي كما يرى القيم المسن . كنت استعيد ما سمعته في صــباي عن السلاطين والأمراء ، أمعنت فيما يخصني ، من ذلك اشارة أصبعي عند احتداد أمري وعنف لفظي. أكثرت من التلويح به حتى صار علامة شائعة ، دالة علي ، تمــاما كنبر صوتي ، وقسماتي ، لكن الأعجب هو ظهور سمات السنطنة يوما بعد يوم مع ممارستي للحكم وتقبلي خنوع الآخرين ، طبعا لم يخل الأمر من هنات ، بل ٠٠ هفوات ، لولا مكانتي السامية لشاعت وعدت من سقطات الملوك ، مثل تفوهي ألفاظا لا أنتبه الى فظاعتها الا بعد خروجها ، هذا بعض ميراث النشأة الأصولية على الطباع المكتسبة ،

لا يجسر مخلوق على ابداء ملحوظة ، فما أنطقه بتم الاصـــغاء اليه ، يدون ، ويعمل الديوان على الفور شغله ، كثيرا ما نطقت جملا لا أقصد منها شيئا ، لا أشير من قريب أو بعيد الى معنى قائم بذاته ، ثم افاجأ باللافتات في كل مكان ، عليها الحروف الضخمة « من فكر مولانا »٠ « من أقوال سيدنا » ٠ « من مختـــار كلمـــه » أو « هكذا تحـدث ابن الشمس » ٠ عناوين ثابتة شتى تحتها ترد جملي وأقوالي ، فيما بعد صرت أدقق في اختيار لفظي ، وأصوغ عامدا أقوالا أتوقف بعـدها لأرى كيفية تقبلهم لها ، أحيـــانا ألقى ما توقعته على ملامح أركان الدولة ، وعناصر النظام ، وأحيانا لا ألمح أى أثر ، وان سرني انبهارهم ودهشتهم وخوفهم أو سرورهم بكل ما أقول ، لم يعد لفظ يمت الى يمضي بلا رد فعل ، كذا حركاتي وسكناتي ، لكن ثمة حيرة لاحت مدة من الوقت ٠

هل ألوم أهلي وصحبي في مصر ، ورجال القافلة ، وامرأتي في الواحة ، وسائر من عرفتهم قبل مجيىء هنا لأنهم لم ينتبهوا الى مأثور قولي والى ما يكمن في خواطري وشواردي ٠

أو أسخر من ناس الاقليم ، من شعبي الجديد ، لأنني أتحدث كيفما أتفق ، فيأخـــذون هم ما يتساقط مني ليجعلوا منـــه الدر والجوهر ؟

لم أحسم ، ولكنني كثيرا ما أســـخر منهم ومن ذاتي وأسرع بكتمان أمري ، وما شغلني حقا الاستمرار في تثبيت الحال ، وتمكني منه ، ويقين خفي أمضني ، أقلقني ، أن ما جاء فجأة سيولي بغتة ، كما حيرني أن ما اعتبره باعثا على الفرح أجده عندهم مصدرا لكل هم ، وما أخشاه يرونه مؤنسا ورفيقا ٠

أقدمت على ما لم يعتادوه ، وما لم يسمعوا منه ، بدأت باعلان الى الكافة ، العامة والخاصة ، يفضي اليهم نيتي في اشهار توقيعي ،

من اضطراب المقربين . أولهم القيم . أدركت أنهم لم يعهدوا ذلك ، قلت اننى سأتخذ شعارا . يتم نقشه فوق جدران القصور ، والمبانى التى أقيمها ، وملابسى . وكافة ما يمت الى ، أو ينتمى الى المملكة ، أمرت بأوراق وأقلام . الورق يتخذونه من سعف النخيل ، لحاء الأشجار . اما الأقلام فمن ريش الطيور ، والمداد من عصارة حواصل عصافير جنوبية ، رقيقة ، ضئيلة الحجم ، غاب عنى اسمها الآن .

جربت أشكالا شتى لشعارى ، ثم خطر لى أن أرسم قرص الشمس ، ومنه تنبعث خطوط أشعة ، عند نهاية كل منها حرف من اسمى الأول ، فجاء هكذا ..

أما توقيعى فهذه صورته ..

فقط مجرد خطان متقاطعين ، عندما أطلعت القيم على ما انتهيت اليه أبدى سرورا عظيما ، انحنى مقبلا طرف عباءتى الصباحية . اذن .. لمست عنده وتوأ ، ليس هو فحسب ، انما عند القوم كلهم ، اذ رسخ يقينهم بانتمائى الى الشمس ، هذا ما يقوله توقيعى ، وشعارى ، أخبرنى القيم أن الاحتفالات ستقام لمدة ثلاثة أيام اجلالا لتلك المناسبة المستحدثة .

بدأ الأمر داخل القصر . توافد ممثلو الدولة وأركانها ، أول من قدم التهنئة وحمل صحيفة بيضاء مهرتها بتوقيعى قائد الجيش ، ثم قائد الشرطة ثم رئيس الديوان ، ثم مسئول الجهات الأربع ، وكبير علماء الشروق والغروب وهؤلاء مختصون بملاحظة الشمس بالمناظير المعدة لذلك وتتبع مسارها وأحوالها ، وممثلون للحرف والطوائف ، وكثير منهم أذكر ملامحه ولا أعى وظيفته ، وبعضهم تداخلت سماته وقسماته ، كان القيم يهمس فى أذنى باسم القادم وما يشغله ، وكان آخر من قدم التهنئة ممثلو البلاد الأجنبية أو كما نعرفهم فى مصر بالقصاد . وكان من بينهم قاصد ملك الصين ،

والصقالبـــة ، وأمم قصية ، بعضـــها غير معـــروف فى المشرق أو المغرب .

طبعا أغرب ما مر بى عندما فوجئت بكبير الحجاب يعلن دخول قاصـــد صاحب مصر ، سرت عندى رعدة ، واعتصمت بابتسامتى الدائمة حتى لا تسفر ملامحي عما يعتمل عندى ، عندما ظهر لقيته مهيبا ، حاضرا ، عنده نورانية وثقة ، انحنى فى غير مبالغة ، لم يكن ممن أعرفهم أو سمعت عنهم ، لكنه واحد من الذين لم اجرؤ على الدنو من موكبهم عند المرور أو الظهور فى الطرقات ، حدقت وتمعنت ، ولم أشأ انصرافه بسرعة كالآخرين ، أستبقيته لحظات ، سألته عن أحوال مصر ، قال انه خرج منذ ثلاث سنوات في سفارة متجولا . وأن طيور مصر كلها بخير ،تتشوف وتتطلع .

لم أعلق ولم أعقب ، وأن اضمرت الاستفسار فيما بعد من القيم ، التفت اليه ، أوصيته برسول مصر خيرا ، اعتبر ذلك من اللفتات النادرة ، ويبدو أن القاصد أدرك فبالغ فى انحنائه عند خروجه متراجعا حتى كاد يتعثر ، بينما كنت أهفو الى حديث طويل معه ، وتنسم عبير وطنى الأول ، ولعله يأتينى منه بقبس .

فيما تلا ذلك علمت أن الصلات قديمة ، وأحد محاورها ومراكز ثقلها ، عاشق الطير التنيسى ، وقد وقفت على تفاصيل شتى ربما أورد بعضها اذا لزم الأمر .

علمت بخروج القوم للاحتفال بظهور توقيعى ، وشعارى ، رغبت فى الركوب ، تطلع القيم الى ، لكننى لم أقبل أى ملاحظه ، عندما تجاوزت أسوار القصر تظللنى النسور المقدسة وسرب الطيور المتألقة ، فوجئت بالحشد ، هل يفوق ما رأيتـــه يوم ظهورى ؟ ، لا أدرى .. لكن كثافة البشر فاقت توقعى ، معظمهم يرفع بيارق ، يتدافعون محاولين الاقتراب عكس المرة الأولى التى ثبت خلالها كل

منهم فى موضعه ، على الجانبين اصطف الجنـد المدرعون يتقدمهم ضباط طوال القامة ينتمون جميعهم الى مقاطعة جبلية فى الجنوب فلا يكون القادة الا منهم .

اكتفيت بالتطلع المتمهل ، حريصا على الالتفات مرة الى اليمين وأخرى الى اليسار ، والتلويح بذراع نصف ممدودة ، أخبرنى القيم أن تلك التحية غير مسبوقة ، وانها مختلفة عن الأولى ، وأن أمرا سيصدر بمنع أى شخص من أداء مثلهـا ، أومأت ، لكننى لم أقل اننى تذكرت فوق الجواد شـيخا حبشـيا ، كان مقيما فى رواق الجبرتية بالأزهر ، كان قصيرا ، نحيلا ، اذا أقبل على الطلبة المتحلقين ألقى السلام ولوح هكذا ، هذا الشيخ المسن الذى كان حجة فى علوم النحو والصرف ، القصى عني هنـا ، لا أدرى ان كان حيا يسعى أو قضى أمره لا يعلم أن حركة تلقائية تنتمى اليه ، بعثت فى زمن ومكان مغايرين اننى سأحرك بها جموعا ، وألهب بها أفئدة ، وأن أقوالا ستصاغ حولها ، وقصائد تنظم فى وصـفها . أما المثالون فسـوف يتسـابقون لتجسيدهـا عبر الرخام والحجر والنحاس والذهب .

ما ان وصلت الى ميدان البرارى السبعة ، مركز المدينة ومنه تبدأ الطرق لى المقاطعات الرئيسية ، حتى رأيت كثافة الجند ، كلهم يرتدون الزى الحربى ، شـاكى السـلاح ، خلفهم يقف الرجال ذوو المعـرفة بقرص الشمس ، وأصناف الطيور ، ومنزلتهم توازى الرجال الصالحين علماء الاسلام ، أو قساوسة القبط ، والعياذ بالله العلى الكريم ، انه غفور رحيم .

ما ان وصلت الى مركز الميدان ، ارتفعت النسور المقدسة ، حط كل منها فوق شجرة على ناصية الطريق ، ركعوا أجمعين ، مست جباههم الأرض ، رج صوتهم المدينة وفاجأني ..

« طال زمن سيدنا .. »

بقدر ما داخلني من رهبة ، بقدر ما بدأ يترسخ يقين عندى أنه لى من الأمر شيء ، وان ما جرى لا يمكن أن يكون مجرد مصادفة .. أبـــدا !

ترسيخ الأصول
وتنوع الرسوم

.. أبدى القيم ما يشبه نصيحة ، اذ قال ان مرات ركوبى وظهورى على الناس أصبحت متقاربة ، ومن رأيه أن أهل على الخلق مرات قليلة ، متباعدة ، من الأفضل أن يسمعوا عنى أكثر من رؤيتى ، أن يخمنوا ما سأقدم عليه لا أن يصغوا الى مباشرة ، وأن يتناقلوا أخبارى بينهم ، كل يصورها أو يرددها كما يتخيل أو يتمنى .

رفعت يدى منهيا .. مقاطعا ، قلت اذا كان ما يذكره لى سنة الملوك السابقين فاننى رأس لا شبيه له ، ولا مثل ، طرقى خاصة حتى وان بدت غريبة ، غير مألوفة ، اننى مسئول عن أحوال الناس منذ شروق الشمس وبعد مغيبها ، قلت متمهلا :

« لو أن عجوزا مجهولة دعتنى ليلا لما توانيت حتى أنصفها .. »

مجرد عبارة قلتها عرضا ، فى ركوبى التالى مباشرة فوجئت بلافتات معلقة فى عرض الطريق ، متدلية من فروع الأشجار ، من نوافذ البنايات ، على أبواب الوكالات والخانات ، على جدران المبانى الشاهقة الحاوية لآلات رصد الشمس ومساراتها ودرجات حرارتها ، حول أعناق الصغار الماضين لتلقى الدرس ، ثم جرى اعلان للقوم ، ان جماعة من أهل البصيرة قرروا عقد احتفال بالحاضرة الكبرى لدراسة العبارة ، وكلهم من الأفاضل ، المتمكنين من علم التاريخ ،

والأصول ، واللغات ، ومنطق الطيور ، بل جرت دعوة عدد من حكماء الأقطار المجاورة ، يقيم كل منهم على حدة ، ويتسلم راتبا معقولا ، ويكتب رسالة فيما خفى وظهر من معان .

بعض العبارات يمتحن فيها صبية المدارس ، ونفس الجمل يتم اجراء نقاش حولها مع طلاب الحاجات ، والســاعين للترقى ، أو المتجهين للسفر خارج الاقليم وهؤلاء ندرة ، بعض النساء وشمن كلماتى على أجزاء من أجسادهن ، ذكرنى ذلك باحدى محظيات سلطان مصرى فى الزمن القديم ، عندما خلا بها وفوجىء بتعاويذ سحرية حول فرجها ، ولما سألها ، ما هذا ؟ قالت انها استعانت بساحر عجوز تخصص فى الطلاسم وعمل اليازرجة لكتابة عبارات جالبــة للمحبة وقوة الشهوة ، طبعا السلطان ثار وغضب ، كيف وصل الرجل الى هذا الموضع ، متى انحنى ـ وكيف كتب ؟ أمر بنفيه الى الصحراء ، هذه واقعــة مشهورة يتداولهــا أهلى فى مصر ، وكثيرا ما حدقت متفحصا أجساد من عرفتهن ، لكننى لم أجد مثل ذلك !

سرور داخلنى ، لا أنكره ، عندما رأيت كل ورقة تحوى رسالة أو أمورا تخص تدبير الأحوال مصدرة ، مسبوقة بعبارة ثابتة ، مثل:

« من أقوال المرصد الثاقب »

« من حكم الشعاع الأسنى »

ثم يتبع ذلك أقوال منسوبة الى ، أذكر بعضها ولا أعى الآخر ، أطلعنى القيم على قائمة تتضمن ثلاثمائة وستة وستين لقبا ، كلها تدور حول صلتى بالشمس ، قربى منها ، علمى بها ، قدرتى على فهم ما يصدر عنها ، خاصة رحلتها اليومية ، المعلومة نهارا ، والمجهولة ليلا ، هذه الألقاب غير شائعة ، تذكر فى المكاتبات والمعاملات والمراسم الصادرة الى الجهات ، ولا تتلى مجتمعة الا فى مراصــد الاطلاع ! الاقليم كله مرتبط بوسائل مواصلات لا مثيل لها ، الهدف منهــا

ابلاغ ما أقول وعلمي بما يقال في أقصر وقت ، الى جانب نظام المرايا ، كان هناك الحمام المدرب ، أقيمت أبراجه على مسافات متساوية . تأخذ الحمامة اللفافة مطوية تحت أبطها أو في منقارها ، فتسلمها الى حمامة أخرى تنتظر في نقطة معينة من البرج ، ولهم تدابير عجيبة ، أما الطرق الممهدة ، السهلة ، فتخترق أعتى الجبال ، وتعبر الأنهار والبحيرات ، عندي نموذج محكم لها يمكنني التطلع اليك في أي وقت فأعرف حركة المسافرين ، ومواضع القوافل أثناء حركتها ، قال القيم مبتسما انها عصب الدولة ، وعماد السلطة ، تساءلت عن خفارة الحدود ، قال القيم ان النظام محكم وشامل ، هناك القلاع الامامية ، والمرايا الهائلة التي تكشف أي قادم من كافة الجهات ليلا ونهارا ، اضافة الى الطيور الحائمة باستمرار ، قال انه ما من طائر في هذه الدنيا الا وله بالأقليم صلة . ومنه مودة ، اليه يتبادلون الذهاب حتى لو كانت من تلك الأجناس التي تعيش في مناطق يستمر نهارها نصف العام . كذا ليلها .

قال القيم ان الاخطار لو أحدقت ، واقتربت ، فثمة طلاسم عدة ، يبدأ عمل الواحد منها اثر الآخر ، وهذا شأن قديم ، أول طلسم فاعل ، يحجب الاقليم كله من الرؤية الانسانية والحيوانية لفترة معينة ، يتاح خلالها لقادة الجند لم شملهم وترتيب شئونهم ومفاجأة خصمهم .

كنت راغبا في الاطلاع على كافة التفاصيل ، وبرغم ما يتضح لي يوما بعد يوم من مطلق أتحرك فيه ، وأتقدم صوبه ، الا أن حذرا لم يفارقني ، مازلت غريبا عن كافة ما يحيطني ، وان بدأت أمد أصابعي هنا وهناك ، فوضعي ليس مثله مثلا ، ولا مقابل له في كافة ما سمعت أو قرأت عنه من نظم وشئون دول .

دعوت قادة العسكر ، وتناولت معهم الغذاء الشمسي ، وزرت مقارهم ، وجالست العلماء والحكماء ، وأرباب الطوائف ، ورؤوس

قبائل نائية ، فتحت أبواب القصر لقوم لم يتصوروا يوما انهم سيجتازون بداياته الخارجية الى الفناء المقدس ، واقتضى ذلك اضافة قاعات جديدة ، وفتح أخرى لم يطأها مخلوق ، منذ زمن تعددت مرات خروجي ، وظهوري في الطرقات ، ووقوفي مع القوم البسطاء ، حتى انني تحدثت مرة الى عمال بناء ونساء يبعن الخضر ، أصغيت اليهم ، الحديث ، ولمستهم مباركا ، كنت أصلح الزوجة على زوجها ، وانهر الابن العاصي ، وأرد الصبية عن ايذاء الحيوانات ، أعلنت المنطقة الشمالية مفتوحة للجراد الأخضر ، فاذا نزلت أسرابه لا يمسها أحد بسوء ، ولكن اذا ظهر الجراد الأصفر فيباد فورا ، وحرمت مطاردة الفراشات الملونة وأصدرت مرسوما باعتبارها مثل الطيور ، وان كانت أقل مرتبة ·

كنت أشرف على وزن البضائع مستوثقا من سلامة الصنوج والموازين وقد أترجل عن جوادي لأستفسر عن أحوال الغرباء ، بل انني نهرت حرسي مرة لانهم منعوا بائعا حاول الاقتراب مني ، كنت أظهر في الأوقات غير المتوقعة ، على امتداد الليل والنهار كله ، ولم أخلف قط خروجي اليومي المقدس ، الأول للنظر الى شروق الشمس ، والثاني عند غروبها ، كثيرا ما شخصت واقفا متابعا القرص أثناء تحوله من صفرة الى حمرة وغوصه عند الأفق ، موضع المغيب كما يبدو من هنا بل انني استعدت مرات المغيب في زمن نشأتي ، عندما حملني أبي رحمه الله وأشار الى الشمس ، قال انها تذهب الآن الى بيتها وتخرج منه أيضا ، استفسرت منه : كيف ؟ · قال انها في شروق دائم ، وغروب مستمر ، لا تطلع هنا الا وتذهب هناك ولا تغيب هناك الا وتشرق هنا ·

يومها بدا أبي وكأنه يتحدث الى نفسه أكثر مما يوجه الخطاب الى غر صغير ، ولكن كلماته علقت بذهني ، وطوال رحلتي كنت أستعيدها ، وفي كل مرة أجد فيها ما لم أكن أفهمه من قبل ،

ليس ما قاله لى فى هذا اليوم الذى غادرته وغادرنى ، لكن أمورا شتى لم أدركها الا بعد مفارقتى الواحة ، أو عند دخـــولى الاقليـــم وفى الصحراء الشاسعة ٠

تريد مثلا ؟

جلسة أمى ،صمتها الطويل ، اسنادها وجنتها الى راحتها ، كنت ألهو حولها ، وأشاغلها ، وتنحيني عنها بهدوء ورقة ، لم أفهم ، وعندما أصبحت هى فى اللا زمن ونأيت أنا عن موطنى وصباى ، رأيت عند استرجاعى لقعدتها ما لم أدركه فى آنيته ٠ حتى اذا واجهت المحيط بمفردى أول مرة طالعنى وجهها القديم من الفراغ السحيق أدركت بغتة أن حزنها كان مرا ، صعبا ، ثقيل الوطأة ، أن صمتها الطويل أخفى عنى مالم تشأ ازعاجى به ، كيف لم أنتبه ؟ ٠ كيف لم أفهم ؟ لم أع ؟ ٠ كيف أدرك ذلك بعد ما مررت به ، بعد انقطاع السبل كافة ؟ بعد وصولى آخر حد الأرض ؟ فى أى لحظة ربما يدوى الهاتف فى كينونتى ، يأمرنى باستمرار المضى غربا ٠ الى موضع مغيب الشمس فلا يكون أمامى الا التلبية ، وخوض اللجة العظمى ممتثلا ٠

يمكننى الآن فهم بعض اشارات الشيخ الأكبرى عندما أصغى الى فى الجامع الكبير ٠

قال ان الوجود الانسانى أكرى الشكل ، دائــرى ، يبدأ من نقطة ويستمر الخط المنحنى حتى اذا اتضح الوضع ٠ ودنا الفرع من الأصل وتم التلاحم وقع المغيب ٠

ألا يقول القوم فى أمثالهم القديمة ، اذا اكتملت الناقة رحلت ، اذا بدأنا نفهم ونعى ما كان منا ، ما بداخلنا ، نقلع بغتة ، ليتنا نجىء مرة أخرى ، لكن مع الفهم القديم !

تطلـع خفى

أقول أنا مدونه ان أهالى المدينة اعتادوا وجوده عند المحيط . فى الصباح الندى يمضى الى مقهى البحارة الملاصق للسور ، يتجه الى مقعد من الجريد ، ومنـــه يبدأ النظر الى المحيط ، الى الزرقة اللانهائية ، الخضم وفى أيام قدوم الضباب الكثيف من الأعماق اللامرئيـة يطيل التحديق مضيقا عينيه ، ولا يصـغى الى أى نداء أو خطاب . اعتاده أصحاب المقهى ورروادها من البحارة ، والهاربين من همومهم ، وزحام الحاضرة الراغبين فى الانفراد ، أو المنتظرين السفر النهائى صوب المغيب الأتم .

أخبرنى أحد العمال أنه كان ينتظر قدومه بعد طلعة الشمس مباشرة ، تفاءل الجميع بابتسامته الدائمة ، وطلته المبكرة ، حتى حرص بعض الصيادين على لقائه قبل خروجهم تيمنا ، كان يقابله عند المدخل مقدما له ثمرة تين طازجة مقطوفة للتو ، تحمل زغب النضج السوى ، جسمها الأخضر الطرى متفتح عن قلب احمر واش بالبنور ، ثم كوب الشـاى الأخضر المثقل بأوراق نبات النعناع الفواح ، قال مرارا انه يفضله ويبحث عنه فى كل موضع نزله .

طبعا لم يخبرهم بانتشار النعناع فى كل عنصر حوله أو يمت اليه خلال مدته الرئاسية ، وربما لم يخطر على بال أحد من الرواد ما يمكن أن يجول بخاطره عند اطراقاته أو سرحان بصره ومدد صمته الطويلة ، المهم أنه أنس الى المكان ، وانتظم فى تردده عليه ، وتحدث الى رواده المعروفين وجلهم من صانعى الشباك وأدوات الصيد ، وأهل

المراكب المبحرة ، والى هؤلاء أطال الاصغاء وأكثر من الاستفسار . عن النوات المدونة ، مواعيدها وعلاماتها ، وغضبات المحيط المفاجئة ، وهذا الضباب الكثيف القادم من أعماقه ، والمدى الذى يمكن الوصول اليه ، والحد الذى يجب الرجوع عنه ، والتمثال الذى يرفع يده محذرا ، « لا خطوة بعدى » ، وآخـــر نقطة يمكن رؤية طيور الماء عندها ، وهل حدث فى الزمن القديم أو القريب أن رأى أحد البحارة سربا أو طائرا منفردا قادما من الحد الغربى لأفق المحيط الأعظم ؟ هل جرى ذلك ؟ ، ما أنسب الأوقات للابحار وللرسو ؟ ، وهل يختلف ترتيب النجوم فى العمق عنه فى البر ؟ ، ما أنواع السمك ؟ ماذا يطلق على كل صنف منها ؟ أيها أكثر ذيوعا وانتشارا عند القوم ؟

لم يتوجه باستفساراته جملة ، انمـــا على فترات متباعدة ، وعنـــد اصغائه يميل الى الأمام وابتسامته بادية .

دائما كان فى مواجهة المحيط الذى يمكن رؤية أمواجه من خلال الجدران المصنوعة من جريد النخيل ، تماما مثل المقاعد ، أما المصطبة الحجرية المغطاة بقماش من صوف الغنم فيتمدد فوقها أحيانا عندما تدركه القيلولة ، كان يحجب عينيه باسدال عمامته ، من يره يظنه نائما ، لكنه لم ينعس قط .

قال لى أحمد بن عبد الله فى لحظة تقارب ، وادراك كل دنا للآخر ، ان المقهى هو بوابة الدخول الحقيقية الى المدينة ، ومن لم يعرفه ويجالس رواده ، لم يقترب من المدينة ودروبها غير المرئية ، لكم أمضى بها من أوقات ، عدا المغيب ، قبله بوقت كاف يفارقها ، اما يقصد الجامع أو يتجه مباشرة الى الشرفة ، يقعد عند طرفهـــا ، يثبت النظر على اللامدى ، صـــار القوم يعرفونه ، لا يقتربون من مكانه حتى اذا شغله طفل صغير ، أو قادم جديد ، نصحه العارفون

بتركه شاغرا ، فهذا موضع الغريب ، منه يرقب غروب الشمس ، يتابعه بنظر واجف ، وملامح راحلة لم تحجبها ابتسامته التى كانت تلوح أسيانة ، تنز حزنا وحسرة لحظة دنوه وتحديقه .

عادة قديمة جدا خروج أهالى المدينة كلهم ، الصغير قبل الكبير ، خلو البيوت تماما من ساكنيها لحظة الغروب ، يقصدون الحد الغربى من السـور ، يقفون فوقه ، أو يروحـون ويجيئون فى الطريق المحاذى له ، المنخفض والذى تطاله أمواج المحيط فى ليالى ونهارات غضبه وجلده للشاطىء الصخرى ، قبل ملامسة القرص الدامى المياه الأبدية بثوان يكف الجميع عن الحديث ، ينزل صمت على المدينة ، وتحط الطيور فلا يسمع رفيف أجنحة ·

كان ذلك فى الزمن العتيق وحتى مدى قريب حدثنـا عنه الأجداد ، ولكن تغير ذلك الى حد ما ، فلم يعد الصمت شاملا ، لا يلتزم بها الا الواقفون فوق السور ، وعند أبراج المراقبة التى لا يوجد بها الا عسكر مولانا ·

حدثنى أحمد بن عبد الله ، لطف الله سيرته ، وأراحه فى هجاجه ان كان حيا يسعى ، أو فى مثواه ان كان متمددا فى رقدته الأبدية ، غفر الله له وغفر لنا ، قال لى ، انه استحضر المدينة التى بناها شادى العمائر المصرى ، ابن عاشق الطير وشقيق آمر القافلة ، قال انه رآها وجال داخلها أثناء جلوسه بين القوم أمام المحيط قبل مغيب الشمس ، أكد لى ذلك وأملى على بعضا من مشاهداته ، لكننى أقصر وانثنى الى ما وصل اليه وما عاينه من أحوال غريبة ، أما ركونه الى الحد الغربى ، ومثول المدينة الغريبة وتجوله فيها ، فأرجىء هذا الى حين لأنه دونه بنفسه فى وريقاته التى تركها عندى ·

أصـــول مستحدثة

٠٠ حدث أحمد بن عبد الله فقال ما نصه ٠

أينما وليت القصد ، لا أرى الا لافتـــات خطت عليها أقوال منسوبة الى ، أو لوحات تبرز رسمى ، بعضها صغير ، ومنها الكبير الذى يغطى واجهات مبان مرتفعة ٠

عجبت ٠٠ كيف فات ذلك على رؤساء الديـار المصرية ، من سلاطين وأمراء وحكام نواح ، لابد أن القاصد سيرجع الى القاهرة ، يخبرهم بما رأى ، يفضى اليهم بحرارة استقبالى ، ومشاعر غامضة راودته عندما صافحنى ، الا يحن الدم الى الدم ، والا يهفو الطبع الى الطبع ؟ ، تمنيت الاجتماع به والخلوة ، لكننى لم أقدم لأن المراسم المتبعة لا تسمح بذلك ، ولأننى كنت أخطو فى بداية الطريق لم أقدم على كسر المألوف ، وبعد مدة قصيرة طلبت السفير لتناول العشاء على مائدتى ، فوجئت عندما أخبرنى القيم برحيله ٠

استشاط غضبى ، فى صوت خفيض قال القيم ان النظـــام المعمول به يقضى بمدة معينة لكل قاصد غريب ، الا يزيد مكثه على واحد وعشرين غـروبا شـمسيا ، كل ما أمرت به تـم ، اكرامه ، والعناية به ، واعداد مئونة كافية له ولمن يصحبه ٠

أشرت بضيق أن يكف ، فصمت ، رحت استعيد هذا القاصد الذى جاء من ديارى ، بشكل ما يمثل موطنى ، ولكنه رسوله الى ، فكأننى السامع والمسموع معا ، لكم فكرت فى ذلك ، استفسرت عن موعد وصول السفراء مرة أخرى ، فقال ان مجيئهم نادر لبعد الاقليم

وصعوبة ادراكه وشسوع المسافة المؤدية اليه ، كما أن الصلات مع أمم الأرض طيبة ، حسنة ، تخلو من الحروب ، والغزوات ، عدا مرات الخروج الى الهمج الذين يظهرون فجأة من الصحراء فلا يبقون على شيء ، اما ما يربط الاقليم كله بنواحي الدنيا فالطير ٠

كظمت غيظي ٠ وهنا يجب الاشـــارة الى بدء ضيقي بالقيم ، خاصة بعد اعجابي برسومي ، ورغبتي في انتشارها داخل البيوت ، بالتحديد في كل موقع ، حتى غرف النوم ٠ والحق ان المخادع كانت مقصدي ٠ ولهذا سبب غريب لا أخجل من ذكره بعد انقضاء كينونتي واندثار وقتي الرئاسي !

ذلك انني كنت متشوقا ٠ راغبــــا باستمرار في الاطـلاع على ما يجري داخل البيوت ، عندما يخلو المرء الى نفسه ، أو الى أهل بيته ، خاصة ما يدور في المخادع ، كثيرا ما تطلعت الى واجهـــات البيوت المصمتة ، الى النوافذ المغلقة ، ترى ٠٠ ماذا يجري خلفها ؟ ٠ يقينى أن الانسان منا يرتدي ثيابا غير مرئية عند خروجه لملاقاة بقية الخلق ، سواء أولاده أو صحبه أو الخلق الذين يتعامل معهم في يومه ، خلال عمله أو عبادته أو سعيه هنا أو هناك ، متى يكون الانسان هو نفسه ؟

حيرني هذا ، ظننتها لحظات وحدته ، ولكن كثيرا ما يمعن الفكر فلا يمثل حضوره الا بالجسد ، حتى الجماع لا يحقق ذلك في كافة الأحوال ، كثيرا ما يقدم الرجل وباله مهموم ، بل عـرفت أحوالا يضاجع فيها المرء امرأة وشبقه يتأجج باســتدعاء أخرى نائية الى مخيلته ، جرى معي مثل هذا ، عنـدما أقدمت نهما على الجميلات اللواتي توافدن على من سائر نواحي الاقليم حتى هدأ أمري ، ولم يكن يحرك رغبتي الا استعادة انحناءة هذه الشابة البضة ، الغيداء ، التي توسطت النساء السبع عنه ظهوري عليهن ٠

كل ذكر أو انثى كينونة مفردة ، لاتتشابه مع أخرى ، بقدر ما عرفت من نساء خلال حكمي الاقليم كان تأكدي من فرادة كل منهن ، بدءا من الاستجابة حتى بلوغ الأوج وتجاوز الذروة ، حتى الهمود ·· لكل طريقتها في السكون والتطلع المرتوى ·

ماذا يجرى في البيوت الغميقة ؟

ممن عرفتهم رجل من البلاط الرئاسى ، كان مسئولا عن أبراج الحمام المختص بالبريد · وهذا منصب جلل ، مهم ، لا يقل خطورة عن مهام الأمين الأول المكلف بتذوق ما يقدم الى من طعام وشراب ، عرفت أنه يخرج في نهاية كل أسبوع الى بيت صغير خارج الحاضرة ، حوله حديقة متسعة كانت محطا لأنـــواع نادرة من طيور البـــلاد الباردة ، لا يذهب الا وحيدا ، يغلق المنافذ ، ينجــــرد من ملابسه كافة ، يبقى يومين كما ولدته أمه ، يتطلع في ذهابه ومجيئه الى المرايا التى غطى بها الجدران ويأتى من الحركات كل عجيب ·

تمنيت أن آتى من الفعال مثله ، لكن ثمة يقينا بقى عندى أن حركاتى وسكناتى مرصودة ، لم أعرف المصدر ، تماما كما لم أطلع على سائر نظم القصر ، ومنها مثلا نظام الاضاءة الذى يتبع حركة عينى ، اذا فتحتهما يتدرج الضوء حتى ينير المكان ، اذا أغلقتهما اعتمت الغرفة خاصة عند نومى ، ومن الأمور التى أرهقتنى ضرورة بقائهما مفتوحتين خاصة عند اســتقبالى الوفود والزائرين ، ونظر المشكلات المستعصية ·

فور ابداء رغبتى في شيوع رسومى ، تزايد عددها وتنوعت أحجامها ، وبالغ البعض فعلقوها في حجرات النوم ، استدعيت اثنين منهم وهما من المختصين برعاية الفيلة السياميـــة النادرة ، أثنيت عليهما ، وخلعت على كل منهما عباءة من ريش البلبل العراقى ، وهذا طائر يعز وجوده في الاقليم ، وشدنى اليه ما عرفته عن ظروف

اتمامه الجماع · اذ يطير الذكر والأنثى فى عين اللحظة ، هذا من جانب وتلك من آخر ، وفى لحظة خاطفة ، يلتقيان فى أعلى نقطة يمكن لجهدهما أن يبلغها · عندما يقع الاندماج ، اللحظة مارقة ، تتضام أجنحتهما ، يلج كل منهما فى الآخر ، وفى العلو تبدأ الذريه ، أى روعة ؟ ·

طلبت رؤية ذلك لكن القيم عجز عن التدبير ، فاللحظة فجائية ، وربما تتم فوق غابة ، أو جدول ، أو فى فضاء نهر نمير · ولكن فوق قصرى مستحيل ، لا يحلق حوله أو عبره طائر أبدا ، واذا اقترب سرب أو حمامة أثيرة ، أو مالك الحزين بقصد التأمل فانه ينزل فى الحديقة الأمامية ، وقيل لى ان ثمة طلسما ينظم هذا ·

المهم ·· بعد تكريمى لهما ، شاع الأمر وتسـابق القوم فى اقتناء رسمى ، وضعوه فى كل مكان ، خاصة المخادع ، وهكذا كنت أمثل حيث تمنيت دائما ، ولكن بدون بصر يرى أو أذنين تصغيان ، المهم ·· أننى كنت فى كل مكان ، حتى أتقن مصـــور من المقاطعة الجنوبية رسم ملامحى على أساور ذهبية ، وقلادات من فضة وفصوص زمرد وياقوت ومرجان ، فأحطت بأعناق النساء كلهن ، وتصدرت عمامات الرجال وفوق مواضع قلوبهم ·

أعجبنى ذلك ·

ارتحت اليه ، واعتبرته دلالة على اقترابى منهم ، وحبهم لى فى وقت قصير ، ولم أسمع بشىء مماثل جرى لأى رأس ممن قدر لى قراءة سيرهم ، أو المرور بأزمانهم ·

شاع أمر المصورين جدا ، راج أمرهم ، واعتبروا ظهورى نعمة وعصرا ذهبيا لهم ·

لكن ·· لم يسترح القيم الى هذا كله ، بدأ صـــمته وطالت اطراقاته وتطلعه الى رسوم السجاد المصنوع من ريش البجع البرتقالى

عند جلوسه أمامى • لا شك أن تبدلا جرى فى هيئته بالنسبة للأيام الأربعين التى لم أر خلالها شخصا غيره من رجال النظام !

الحق •• بدأ ضيقى به ، خاصة مع كثرة ابدائه الملاحظات . وبعد تزايد ادراكى لما يحيطنى ، لكننى لم أظهر له ما أبطن ، أمور عديدة احتاجه فيها ، كثير من الشواهد غامض على ، هذه الرموز ، ومنزلة الطيور ، والأيام المقدسة ، ومراقبة النجوم ، وتتبع الكواكب ، واناث وذكور وسط بين الانسان والطيور ، ورجال يتثنون متأودين فى مشيهم ، ولما كنت أحمد الله دائما على أننى لم ألط ولم يلط بى ، أبديت حذرى من ظهور هؤلاء ، وارجأت الاستفسار عنهم مع شئون أخرى اذ لم أشأ أن أتخذ موضع المتسائل على فترات متقاربة • لذا لم أسفر له عن أى ضيق ، ولكننى أثق من يقينه أن الصلة لم تعد كما هى ، من ناحيتى حاولت ارجاع السبب الى ظهورى وما ترتب عليه من مشاغل شتى ، ومن جهته راح يشير ويلمح • لكن نبره ارتفع عندما نصحنى متلطفا بتقليل ظهورى على الخلق ، قال انه من المتبع هنا سماع القول عن الرأس أكثر مما يرونه ، وأن يتخيلوه لا أن يلتقوا به •

قلت اننى أقدم على كل شىء بقدر ، ما يبدو غير مألوف له لعلى أبغى منه أمرا ، لم أكتف بتكرار الخروج والوقوف مع الخلق وانما استحدثت رسما لم يتبع من قبل •

هودج الأمـانى ..

.. انما وسعت حركتى ، لم تعد مقصورة على حاضرة الاقايم ، كنت راغبا فى زيارة كافة المقاطعات السبع حتى الواحات النائية ، مناطق لم يدخلها الا الجند الصغار ، أو رسل ديوان المكوس ، معظم القوم هنا يولدون ويشببون ويرحلون ، لا يرون من البلاد الا المكان الذى جاءوا اليه من أرحام أمهاتهم .

أمرت بترتيب يقضى بمجىء وفود من سـائر أنحـاء الاقاليم ليتعرفوا ويروا الاحتفال الكبير بيوم ظهورى ، طـوال مدة اقامتهم ينزلون ضيوفا على ، يخرج الطعام اليهم من مطابخ القصر ، وعند عودتهم يزود كل منهم بما يكفى حاجته .

عندما قررت ذلك لم أفكر قط فى أى هدايا يمكن أن يقدموها ، لكننى فوجئت بما لم أتوقعه ، ذهب أخضر ، مقعد لا يقدر على حمله عشرة رجال حفر من قطعة زمـرد واحدة ، أقفاص تحوى حيوانات لم أسمع عنها ، منها سحلية لهـا وجه آدمى ، وقردة تعزف آلات الطرب ، وزهور لا تذبل الا بعد عشر سنوات ، وسلحفاة ضـخمة يمكنها حمل عشرة أشخاص والمشى بهم ، وأصنام صغار من معدن حالك ، الواحـد فى قبضـة اليـد لكن يعجز الأشداء من حمله ، أما العذارى فعبارة عن مباراة فى جمال الانسانية .

من الغرائب توأم ملتصقان من الكتف ، كلاهما متزوج ، وقفا أمامى والى جـوار كل منهما امرأته ، أجـابا على كافة ما رغبت الاستفسار عنه .. وغير ذلك كثير .

توكلت وأضمرت النية على تغيير مكان الاحتفال بحيث يقام كل سنة فى مقاطعة مختلفة ، مع الأسف ٠٠ لم يتم ، المهم ٠٠ لن أسبق الوقائع ولكن ما أريد ذكره تلك الرحلات التى شرعت فيها ٠

مما اطلعت عليه حيوانات القصر النادرة ، الأسود ، الفهود ، الدببة ، الزراف ، الغزلان بأنواعها ، توقفت عنـــد ســـبعة فيلة أصلهما هندي ٠ من ديار الصبية التى صارحتنى بمواقعتك لها ، والتى أثق أنها تشغلك حتى الآن بعد نأيها !

أمرت بتدريبها واعدادها ، اختاروا لى أدكاها ، كانت أنثى ٠ عرفت بالفيلة الرئاسية ، جهزت بشكل خاص ، فوقها هودج مربع الشكل ، يمكن أن يغلق أو يفتح ، مقصورة مبطنة بحرير محشـــو بريش الزرازير البرية التى لا يتجاوز الواحد منها حجم الأصبع ، أما المظلة فهفهافة ، تتموج مع أرق النسمات وتصمد لأعتى الرياح المصحوبة بالرمال ٠

تحت الهودج قماش سميك يتدلى على جانبى الفيلة ، يحتوى على ثمانية جيوب كبيرة ، داخل كل منها حشية مستديرة مزخرفة يقعد فوقها متربعا من ينال شرف الركوب ، بالطبع أولهم القيم ، والثانى رئيس الديوان ، الثالث والرابع من حرسى الخاص المقرب . أما المقاعد الأربعة الأخرى فلا يتخيل انسان مدى السعى لشغلهما ، لم تابعت الحيل والألاعيب المبذولة من نفر ظننت أن منزلتهم تمنعهم من ذلك ، ولكننى رأيت عجبا عجابا لن أفصله خوف الاملال ٠

فى البداية صارحنى القيم ، هذا تقليد غير مألوف ٠

قلت ان زمنى لما لم يعرف من قبل ٠

قال انه من الأفضل تخصيص فيل لركوبه مع البقية ، وفيل للحرس ، وركوبى بمفردى ، لم أصغ ، بل اننى تشاغلت عنه فى

أثناء حديثه ، ويبدو أنه أدرك فكف · لم أقل له اننى هكذا أحشرهم فى سترة الفيل تحتى · أجلس فوقهم متربعـــا ، وضع لم أختره عبثا ، ولم أصممه عرضا ·

الحق يا أخي العزيز أن الله فتح علي بما لم أتصور صدوره عني يوما ، بـل اننى كثيرا ما توقفت مراجعا نفسى ، أحقــا هذا تخطيطي ؟ · كأني ولدت فى سدة الحكم ، كأنى لم أجد نفسى فيه فجأة ، مصادفة ·

صار الركوب فى أحد هذه الجيوب الثمانيـة الضيقة ، التى يجبر المرء فيهـا على التقوس حتى ليدركه الحذر ، صـار مقياسا لدرجة القرب مني والرضا الصادر عنى ، واذا ظهر شخص غير معروف لكافة محشورا فى أحد الجيوب ، حريصا على اظهار دماغه حتى يراه القوم فان هذه يعنى قرب سطوع نجمه ، وبداية تألقه ، وأحيـانا العكس ، اذ كنت أبادر بدعوة أحدهم ممن بلغنى عنه أمر ، يركب معى مرة أو مرتين ، ثم يختفى تماما فلا يسمع أحد عنه خبرا ، ولكن من الخطوات التى أشاد بها القيم ، اصرارى على صحبة المنبوذين ولهذا تفصيل · فى أثناء استفسارى عن سائر الأجنـاس الذين يقطنون الديار ، فوجئت بوجود جماعات عند الأطـراف الحدودية ممنوع اقترابهم من الحاضرة الرئيسية والمراكز الفرعيـــة ، والايوانات ، وذلك لأسباب شتى ، بدءا من اختلاف العقائد ، وحتى غلظ الطباع ، وخشونة الحال ·

الى الجنوب مثلا ، يستقر قوم يشكلون ما يشبه القبيلة ، كافة سكان الاقليم يسمعون عنهم ، ولكن حرم عليهم تماما الاقتراب من الحدود الآمنة ، كانوا لا يقدسون قرص الشمس ، انمـا يعبدون حرارتها وما يصدر عنها من أشعة ، فهم يؤمنـون بالعرض وليس بالمصدر ، قرأت بعضا مما كتب عنهم وحفظ فى السجلات الرئاسية التى لا يجوز لغيرى الاطلاع عليها ، الغريب أنهم كانوا يعيشون تحت

الأرض تماما ، بيوتهم أسواقهم ، طرقاتهم ، ويتلقون أشعه الشمس من خلال ملاقف مستطيلة تميل كلما اتجهت الى أعلى، يمارسون زراعة نبات واحد على عمق كبير ، الحناء ، وتعد من أجود الأنواع ، ولا يمكن لعذراء ان تمشى الا وعلى كتفيها هذه الأشكال الهندسية والدائرية الدقيقة والتى تأملتها طويلا وحاولت ادراك مغزاها ، اما فى أثناء تأملى عرى الجسد الانثوى ، أو بعد همود الارتواء الشامل ·

كافة شئونهم تدبر من المراكز القريبة بواسطة عدد مصرح له ، يقدمون اليهم الدقيق والزيوت واللحوم والأدوية مقابل الحصول على انتاجهم من الحناء واعادة توزيعه ·

ما تعجبت له انهم يدفنون موتاهم باخراجهم من تحت الأرض الى سطحها وتركهم فى العراء حتى تذرى أجسادهم ·

قوم آخرون أكثرهم عددا يعيشون قرب الحدود الشمالية ، اشتهروا بالسخرية حتى من أنفسهم ، وكثيرا ما تعرضوا للرأس ببعض النكات والجمل اللاذعة ، بـل ان الشمس لم تفلت منهـم أيضا ، عندما طلبت اطلاعى على بعض مما يتداولونه لأول مرة ألمح الذعـر على ملامح القيم ، لكن ازاء اصرارى امتثل ، وهكذا عرفت كافة ما يتردد عنى ، وعن الآخرين ·

قلت للقيم انه ما من منطقة ستعزل أو تحرم فى الاقليم بدءا من الآن ، هذا مصدر قلاقل ، وبؤر خطر محتمل ، اذا انعزل طرف عن الجسد مات ، خاصة الأطـراف ، الحدود يجب ان تكون آمنـة ، وألا يقربها الا أصحاب الثقة من العسكر مهما كانت بعيدة ، قصية ، لم أكتف بذلك ، بل خطوت الى ما هو أبعد ·

وجهت دعوات الى كبار المنبوذين ، ومصدر التأثير فيهم ، هكذا وصل الى الحاضرة لأول مرة أدق الوجوه ، وهم جنس طويل القامة ، كثيف الشعر · لون الجلد أزرق والعيون كأنها صيغت من بللور

صاف ، أما الساخرون فانتشروا فى شوارع الحاضرة ، أخذتهم هيبة فكفوا ٠

المشكلة أحاطت بأهل الجنوب ، سكان تحت الأرض ، كانوا لا يقدرون على التحرك نهارا ٠ فسمحت لهم بالاقتراب ليلا ، وهكذا عرف بعضهم ركوب الفيل الرئاسى ، أحد الساخرين لم يصدق نفسه ، أخذه الروع فكف قلبه خشية وخوفا ٠

كان المسموح لهم بالركوب يقفون على مسافة معينة ، يرشهم الخدام بالعطور السبعة الشافية ، ثم ينصب السلم الرئاسى المصنوع من الذهب الخالص ٠ فاصـــعده متمهلا الى ظهر الفيـــل حيث ألج الهودج ، لكننى قبل دخولى ألتفت ملوحا ، مشـــيرا بيدى ، مظهرا التحية حبشية الأصل ، عندئذ ينحنى جميع من يقف على قدمين ، أو على أربع ، ويصيح الناس كافة ٠

« أدام الله علينا شروق سيدنا ٠٠ »

أما الطيور فتزعق فى توقيت واحد ، كل بصوته ، ثم يوضع السلم العادى ، من خشب الصندل الفواح ، يصعد عليه القيم أولا ويتبعه الآخرون ، كلهم خافضو الرءوس ، أحيانا ٠٠ عند نزولى ، ومفارقتهم الجيوب الثمانية ، كنت أستدعى أحدهم وأهش وأبش فى وجهه ، أو أبدى لفتة ، أو أطيل المصافحة لحيظات ، كان بعضهم كما بلغنى بعد ذلك يمشى فى الأرض مختالا ، مزهوا ، مترفعا حتى على ذوى الرحم ٠

لمـــاذا ؟

لأن الرأس الأعظم ، المقدس ، بأدله الحوار ، أو تبسط معه ، سرعان ما تسرى الهمهمات بقرب توليه مكانة عالية ، وقد يحدث هذا أولا ٠

طبعا كنت أختار بعناية الأربعة الذين ينالون شرف ركوب الفيل الرئاسي ، وفقا لأسباب لا أفضى بها الى أحد ، حتى الفيم ، على الفيلة الأخرى كان هناك مدعوون آخرون ، ورجال الدولة ، والعلماء ، وخصصت اثنين للنساء ، وكثيرا ما كنت أرجع بصبايا يقدمن الى كهدايا من النواحي التي أصل اليها ، واذا كان الشيء بالشيء يذكر ، فانني لن أنسى أبدا بنية في الثالثة عشرة ، يا سلام .. لا أستعيدها الا وسرت في جسدي رعدة رغم كثرة ما قابلت ، كانت فلجاء ، مرتوية الشفتين ۰ وعندما رأيتها ، أمرت بركوبها الهودج الى جواري ۰ شب عندي حريق فور ملامستها ، وكانت تبدو دهشة ، متعجبة ، وعندما تجردت من ملابسي التحتية لمحت خيطا من لعاب يسيل عبر شفتيها المنفرجتين ، عالجت وضعنا وكلما خطر لى أنني أمارس العشق وعلى بعد أشبار مني الى أسفل خيار المكرمين ، المقربين ، وحولى الجند ، وأصحاب الهيبة ، ازددت شبقا ، لكن الصبية نفسها بدت مختلفة ، واعتدت منها ذلك فيما بعد ، كلما لامستها غشى عليها ، تتوقف عن مدارها لحيظات ثم تتوهج بلا انقطاع ، اعتدتها حتى أنني فضلتها على سائرهن ۰ لم أقتصر عليها تماما ، لكنني لم أدعها عند خروجي قط ، دائما تصحبني الى مناطق الصيد ، والى بحيرات الزئبق التي تعانقنا فوق الوسائد السابحة فوقها والحشايا ۰ ويبدو أن شرهي الى العذارى خاصة والجميلات عامة غذى مخيلة رجال الديوان فأشاعوا حكايات لا حصر لها عن قدرتي الجنسية ، واستطاعتي مضاجعة ثلاثين أو أكثر في ليلة واحدة ، وقدرتي على اطالة الجماع حتى ان معظمهن لم يحتملن المكث قربي ، عدا هذه الصبية ذات الخاصية الفريدة ، اذ كان عالمها يقبض جسدي فلا يفلته الا اذا شاءت ، أو اضطررت الى أمرها لعدم قدرتي على احتمال متعة الملامسة والنأى ثم الاقتراب ۰

هذه البنت جاءت من احدى مناطق المنبوذين ۰ غير المسموح لهم بارتياد المدن المأهولة ، لكنها بالطبع ليست النتيجة الوحيدة

لاقترابى من أنحاء ظلت مهملة ومصدر مشاكل شتى ، ساد الهدوء ، وقل خروج الحملات التأديبية ، وسعى بعض من أعتى الخصوم القدامى الى التقرب بعد أن لاحت المبادرة من جانبى ، وصار أملهم ركوب أحد الفيلة خلال رحلاتى ، أما الدخول فى سترة الفيلة الرئاسية فهذا هو الأمل الحق بعينه ·

فيما بعد ، فى وقت متأخر علمت أن بعضا من القوم أضمروا خشية أن توجه اليهم دعوة الى جيوب الفيلة ، وأن اثنين منهما نظما شعرا ضد ذلك ، وأنهما هجا الى البرارى النائية التى لا يمكن للطيور القناصة أن تقربها ، لم أخف ضيقى ، سخرت منهما ، من أمثالهما ، أمرت بتعقبهما ، قلت ان ما يبدأ صغيرا يكبر فيما بعد ·

لم يكن ذلك الا شيئا ضئيلا جـــاء متأخرا ، من أمور عديدة كدرتنى ، بدأت المنغصات بعد كثرة ترددى على سائر الأنحاء ·

تعددت رحلاتى ، الى ان اكتشفت أمرا لم يخطر ببالى مجرد وجوده ، فبدأت نكوصى ، الخارجى ، والداخلى ··

سفور الخبيء ..

●● بدأ الأمر عندما لاحظت ظواهر عجيبة على صبية من نسائى أميل اليها لانفرادها بصوت غريب ، هادىء ، متخثر ، لا ينفذ عبر الأذنين انما يدغدغ الأوصال ويسرى عبر الظهر الى مكامن الرغبة ، فيحدث عجبا رغم الوهن ، وأى صدود ، كنت أحجبها بستارة خفيفة ، وأصغى اليها ، أطيل الحوار معها ، حتى اذا بلغ اتقادى حدا لا يمكننى تجنبه اندفع ممزقا الحجاب .

لكننى .. رصدت تحولا فى نبرها ، اخشوشانا . وتحشرجات، صار اقترابى منها يسبب لها ألما شديدا ، ثم فوجئت بالقيمة على الاناث والمشرفة عليهن تطلب مقابلتى فى الصباح الباكر عقب تجرعى الكوب اليومى من شربة مخاصى النسور .

قالت ان البنت دخلت فى مرحلة التغيير .

أى تغيير ؟

قالت انها مجرد أنثى من رعيتي ، وان ما يسرى على الجميع يمشي عليها أيضا ، لايستثنى أحد .

اذن .. الأمر أكبر ، أشرت بيدي ، كفت ، لا أحب لهجة الشرح هذه ، أفضل ظهوري عارفا ، ملما ، خاصة فى نظر الآخرين ، لا أسأل الا القيم ، لهذا استدعيته ، استوضحته ، انحنى مقبلا ما بين قدمى ، علامة اقدامه على الافضاء بأمر عظيم .

قال انه لم يخف على أن شيء . ولكن ثمة أمورا ينطق بها شفاهة وأخرى يدونها ، وثالثة تقضى التقاليد بمعرفتها من خلال المعايشة ، من ذلك تحول الرجال الى النساء ، والاناث الى ذكور . كافة أهالى الاقليم يمرون بالجنسين ، من يبدأ ولدا ينقلب الى فتاة . أو العكس ، ما من مدة محددة يمكن تعيينها ، ربما جرى التبدل فى الطفولة ، خلال الشباب ، لكنه لايتأخر أبدا عن الخمسين ، من يرحل قبل اكتمال انتقاله الى الجنس الآخر اعتبر ملعونا . لم تتخلله أشعة الشمس المقدسة . كل مقيم يسرى عليه ذلك ، أما الغرباء العابرون فلا يعرفون هذه النعمة !

نعمة ؟

أجل .. هذا ما ينفرد به الاقليم .

لم أخف دهشتي ، أشهرت اصبعي مشيرا اليه مستفسرا ؟ نعم .. نعم ، جرى تحوله بعد بلوغه السابعة عشرة ، يوما .. كان شابة مكتملة . ولد أنثى ، تنبأ العراف بنضج مبكر ، فعلا .. بدأ الحيض وعمره ثمانية أعوام واعتبر ذلك خرقا للعادة . لكنه لم ينجب الا فى الثانية عشر ، كان أما الثلاثة ، والأطفال هنا ينسبون الى الأم وليس الى الأب . بعد تحوله أنجب بنتا واحدة ، أمها كانت من ضباط القصر الأشداء ، ولكن الخشونة سرعان ماتزول مع تمام التحول . وكلما كان الرجل مكتملا ، فاضت أنوثته وطغت بعد انتقاله .

تطلعت اليه صامتا ، مباغتا بما أسمعه ، كنت أثق أنه ينفذ الى ما وراء ابتسامتى ، يعرف ما أفكر فيه ، حقيقة جزعى أو تلهفى ، قصدت مراوغته ، حدت عن الموضوع تماما ، سألته ٠٠ كيف يعتبر الاقليم ملجأ ومقصدا لكافة طيور الدنيا ، بينما ينخذ الناس ملابسهم من ريشها وجلودها الرهيفة ، حتى البسط والفراش ؟ ٠

قبل الأرض مرات ثلاثة ، قال انه يود الافضـــاء أولا برجاء يتمنى منى ألا أخيب أمله فى الاستجابة اليه ، الا اتخذ أى اجـراء مفاجىء أو رد فعل غير متوقع على ما سمعته منه ٠

أومأت موافقا ٠

رجانى اعتبار هذا الرجاء مقدسا تماما كمطلب القوم القديم ، الاحتفاظ بصور الطيور وتماثيلها ٠

لم أبد رد فعل ، اســتمر وضعى تجاهه ، اعتبر ذلك علامة موافقة فانحنى شاكرا ٠ اعتــدل ، ثم بدأ يجيب عن استفسارى ٠ قال انه لم يقتل طائرا قط فى الاقليم كله ، لم يرفع حجرا ضـــد عصفور أو صقر ، لا من رجل ولا من صبى ، ولا من مختلى العقل حتى أبدأ ٠٠ لم ولن يحدث ، فى كل مكان توجد أوان تناسب الطيور لتأكل منها وعندما يوضع أساس أى بناء لابد من مراعاة زوايا اقتراب أنواعها ٠ وحطها وانتظارها ، واقامة بعضــها مدة تكفى احتضـــان صغارها ، فى الريف الجبلى أو الهلى ، فى الواحات النائية ، فى الصحارى يفكر القوم فى أحوال الطير تماما كما يفكرون فى أنفسهم ، لكل مكان ما يناسبه ، أو ٠٠ ما اعتاد عليه من أجناسها ، واذا زرع المرء قطعة أرض ليجنى منها ثمرا لغذائه فلابد أن يتخللها أو يحيط بها شجيرات تنبت ما يفضله الطير الذى اعتاد الموضع ٠

حدث أن اهدى ملك الصين شجيرات فاكهة وغرست فى احدى الضياع الرئاسية ، بعضها لاينبت مثله فى الاقليم ، وآخر مشابه

لفاكهة أو خضر هنا ، لكن حجم ثمارها مختلف ، كانت الطيور تجيء وبرغم تجاور الأشـــجار ، فانها لم تقرب الا ما اعتادته من نبـات الاقليم ، هذا باب مفض الى خضم لا ساحل له من التاريخ القديم ، والمعتقد المقيم فى النفوس ٠

من أين يأخذ القوم الريش وما تبقى ؟

فى الاقليم سبعون موضعا ، تقصده كافة أجناس الطيور عند شعورها بدنو الأجل ، يحط كل منها ، يمضى وقتـــا ربما يطول أو يقصر ، حتى يغمض عينيه ويكف جناحاه عن الرفرفة ، وعندئذ يتقدم المكلفون ، فينتزعون الريش ويسلخون الجلد بطرق خاصة ، يتوارثونها ، ويتقنونها ، ثم يرسلونها الى المعامل ، لهذا يعبق الاقليم كله برائحة الطيور كلها ٠

فى الدنيا المعمورة لايوجد الا موضع واحد مماثل ، مشابه ، يقصده جنسان لاغير ، الهدهد ٠ ومالك الحزين ٠ حيث يفارقون الخلاء المسكون بأمة الطير ٠

أين ؟

فى تنيس ٠٠

أحنى القيم رأسه ٠ ظل مطرقا ، علامة انتهاء حديثه ، الا أننى لم أشأ صرفه ٠ طبعا كنت مشغولا ، ليس بمقابر الطيور ، انما بما لم أسمع مثله من قبل ٠

لكنك لم توضح لى أمورا كثيرة ٠

قال ان المعارف بلا حصر وكل منها يحتاج الى وقت ٠ وما يعرف أول النهار ٠ يختلف عما يتضح عندما تتوسط الشمس قرص السماء وما يتكشف قبل الغروب مختلف تماما ٠

طبعا لم أتوقف عند كلماته ، اذ كنت متلهفا الى الاطلاع على ماقلقلني ، لكنني فيما بعد استعدتها فرغبت وندمت ، رغبت اطالة الحديث والاستقصاء ، أما الندم فلانني لم أزجره بعد أن تحدث الى بطريقة تستر أكثر مما تعلن ٠

كان يكتفي بالاشارة ، ملمحا ، لايخوض طويلا فيما أرغب فى الاطلاع عليه والاحاطة التامة به ، من جهتى لم أبد تلهفا أو تعجلا ٠ احتفظت بذلك حتى فى مواجهة هذا الموضوع الغريب ، حتى أبدو غير مبال أمرته بالانصراف ٠

بقيت وحيدا ، هذا شأني طوال رحلتى اذا فوجئت بما لم أتوقعه أو استعصى على فهمه ، أمعن النظر ، ربما ٠٠ لأعيد ترتيب ما تبعثر منى كيف سألته ؟ لماذا ؟ ألم أر صوز من سبقونى ؟ كلهم رجال ٠ لكن ٠ هل ولدوا هكذا واستمروا ؟ كيف النهايات ؟ اذا علمت أنهم كلهم قدموا من جهة شروق الشمس فهل سرى عليهم ما يعرفه القوم ، هل أزيحوا بعد ظهور أعراض التحول ؟ لكن ٠٠ ألم يقص على سيرة امرأة تولت ثم غدرت ؟ ، بعد أيام سمعت منه الاجابة ٠ نعم ٠٠ جاءت من المشرق ٠ تلك مشيئة لاترد ، لكن بعد أن جرى منها ما لم يتوقعه انسان ، ترتفع الدعوات والابتهالات حتى يكون القادم ذكرا ٠

واذا ظهرت أنثى ؟

يجيب بايقاع رتيب ٠٠

ليس لنا الا الامتثال

لمحت فى نظراته لمعة لم أسترح لها ، يعرف ما أريد الوقوف عليه ويصمت ، ولو نطقت سيجيب فى عبارات موجزة ، اشارات ٠٠ مجرد لمحات نائية ، بغضته ، يخفى أكثر مما يظهر ، كان يجب أن يخبرنى ، أن يفسر لى ، هل يسرى هذا على أم لا ؟

تنغص عيشى ، أجهل ما سيصير اليه أمرى ، هل ســأفارق جنسى ؟ يختلف مصيرى عن الآخرين ، ماذا يحكم هؤلاء القوم ، من يوجه شئونهم غيرى ؟ . فى واد أنا وهم فى واد ، أين تكمن معتقدانهم الخفية ؟

كلما سنحت الفرصة اتطلع الى المرايا . هل طرأ ملمح ؟ ، هل ظهرت بادرة ؟ . كل من يدخل على أشك فى أمره . اذا كان رجلا رأيت فيه الأنثى الآفلة أو المقبلة . أما رغبتى فصدأت ، فى زمنى القديم حكى صاحب لى عن أحد معارفه أنه أعد لقاء ليلة أنس ومتعة . دعا ثلاث نساء ، خلا باحداهن ، فوجىء بها نصف رجل ، أصابه خوف غامض حتى أنه لم يطق البقاء فى البيت مع مكث الخنثى فيه ، عندما وقفت فى الحمـــــام منتظـرا بدء البخار الوردى تطلعت الى جسدى . فردت ذراعى مرتين متأملا أبطى ، تحسست بروز صدرى . هرع قلبى اذ لحظت تحول خصرى ، وبروز أردافى ، لكننى انتبهت الى وقفتى المائلة قليلا .

ضاق حالى فألحت امرأتى على . أيامى فى الواحة . لو أدرك عذارى وأشرب من مائها البارد ، كنت أستعيد كافة التفاصيل بعد قضائى أوقاتا طويلة منفردا ، أما فى غرفة المرايا السبع ، أو فى الحديقة الفارسية ، أو قبل هجوعى فى الغرفة الشرقية المصممة بحيث تنفذ الى داخلها أشعة الشمس فور بزوغها وتلامس المواضع نفسها عند غروبها ..

جد على الاستيقاظ مبكرا ، شـح نومى . بدأت الخروج الى الشرفة الدائرية المطلة على الحديقـــة لتى لا يحط على أغصانهـا الا البـــلابل واليمام كنت أقابل الشمس عند طفلهـا من الأفق . لا أتحرك ولا أفارق الا بعد ارتفاعها . ظن القوم أننى اتبعت طقسـا جديدا للتوجه الى القرص المضىء ، صار ذلك متبعا . معتادا . وأثق أنه بقى بعدى . ظنوا تقديسى للشمس ، والحقيقة أننى أسرح النظر

وأحاول العبور بالصبر الى مافات منى هناك ، ما انقضى منى . ومع استمرار رحيلى ، وتمكن اغترابى ، واستحالة المزار ، صار تقليبى فيما مضى دأبى . اذا ما اضطرب أمرى . أو ضاق حالى ، اعتصم بما عندى . استعيد لحظات نائية ، أنهكنى الحنين الى أيامى المصرية : الى أبى الذى فارقنا قبل الأوان . لم أتعـرف على دروب المدينة الا بصحبته . ولم أعبر شوارعها طفلا الا برفقته . فى كل مكان له صاحب ، وأينما ولى وجهه فهو ساع الى رفيق ، هذا خياط ، وذاك حجام ، وآخر قصاب ، ورابع عقاد للخيوط الحريرية التى تنتهى بها ستائر الحرير ، وخامس من أمناء البريد ، معارف شتى . من مركز المدينة الى أطرافها ، حتى فى مقابرها ، أصحبه الى فناء يتقدم مقبرة عالية الأركان ، ريحان أشجارها مازال طازجا ، فواحا عندى .

لم آمن الا بقربه ، خطواتى ظلال وأصداء لسعيه ، فى اكتمال جمعنا ذروة رضاى ، كلما اعتم أفقى وضاق أمرى أسترجع ما كان فأهدأ أشكو أمرى الى الذكرى ، ومن استحضاره بالمخيلة التمس العزاء والصبر على المكاره . فكأنى استجير بالعدم .

هذا شأنى طوال الرحيل . ومازلت رغـم طعنى فى السن وتراكم المحن والرزايا . اذ يشتد بى الهفو أغمض عينى . اذ يلمحنى المكلفون بالخدمة فلا يقتربون ، أضـافوا لقبا جديدا الى صفاتى : المتأمل .. لأننى أمضى غـربا . مدفوعا . مجبرا . كثيرا ما حننت الى ما انقضى . كنت أتطلع الى الشمس المشرقة مسترجعا علم الميقات الذى لقنـه لى الحضرموتى العجوز . عند مفتتح اغترابى ، وبدء ابتعادى . لكم أمعنت النظر الى المكان والوقت .

ما من زمان مسـتعاد الا مرتبط بمكان ، وما من موضـع متخيل الا متصل بلحظات سارية ، هذا ما خضت فيه طويلا . وأننى لأقصر حتى لا أحيد عن القصد .

لأنني مرغم على الرحيل ، متوقع استئنافه في أى لحظة اذا ما بزغ الهاتف ، وفي اتجاه واحد لا بديل له ، كنت أتطلع بالمخيلة الى ما فارقته ، انظر الى الشروق ، وأحاول حساب الوقت . لكنني لم أصل الى تحديد دقيق لغرابة موضع الاقليم وبعده غير المألوف ، وغرابة ترتيب النجوم في السماء . لم أر مثيلا لأعدادها . وتوزيعاتها . حتى أن التوصل الى البروج المألوفة كان مستحيلا . أما تعلقي فجرى بنجم لا أظن أنني رأيت مثله ، كان يظهر قرب خط الزوال ويظل عالقا الى ما قبل الفجر ، قريب جدا ، وكثيرا ما استعدت كافة ما ذكره الحضرموتي ، لكن عبثا .. لم أصل الى تحديد .

أعرف أن الشمس تطلع على القاهرة ، على مصر للهـا لجبـل ظهورها هنا ، كلما أوغلت غربا تتأخر على ، ويعلم الله أى مدى يمكن أن نبلغه اذا ما أوغلنا عبر المحيط الأعظم .

هنا ، يمكنني تحديد الفرق ، تطلع الشمس على مهادى الأصلية قبل ساعتين صيفا ، وثلاث شتاء ، يكون هنا ليل ، وهنا صبح . ويكون هنا أصيل وهناك اكتمال مغيب ، الجمع بين اللحظتين مستحيل ، بقدر ما يفصل المسافة بين نقطتين في المكان . بقدر ما يتباعد الزمان ، ما من لحظة واحدة تحتوى الكون المحسوس ، ما يكون هنا ليس في عين الوقت ، التماثل منفي والاختلاف بين ، أما اليقين فمستعصى على . مع كر الليالى تنفذ المئونة ويعسر الخطو .

أوضـــح الاشـــارات

.. يقول جمال بن عبد الله كاتب بـلاد المغرب . مدونة :
لما لاحظت وهن أحمد وارهاقه خشيت عليه ، خاصة عندما أوى الى صمت مكين ، ولاحظت انطباق فكه العلوى على السفلى وكأنهما لن ينفرجا أبدا فى هيئة لم تبد منه أول قدومه ، كما طالت فترات صمته وسرحات عينيه صوب ما لايرى !

حدثته عن مكثى فى المدينة ، لم ابتعد عن أسوارها أكثر من مرحلة . أى ساعتين على ظهـــور الخيل ، لكنني جست خفيهــــا وظاهرها . سلطان البلاد اعتبرنى حجة ومرجعا ، حتى اذا انهــار حجر من بناء ، ورغبوا فى معرفة من وضعه أفدتهم ، واذا ما تداخل الأمر وغمض حـــول من جـــاء ومن رحل ، من أقام ومن اغترب ، أوضحت وفسرت .

لا أعرف بيوتها فحسب . ومن يقطنها ، ويتردد على كل منها ، لكننى عالم بقبورها وما تضمنه من أموات ، وضعت كتـابا فريدا أسميته « أوضح الاشارات الى أماكن الزيارات » على البعد أذكـــر

الرقود المتمددين فى أى قبر ، وترتيب دخولهم ، ومن خلفوا وراءهم، أعيش حيث ولدت • يقول من تنقل وسافر وابتعد مثلك انه لايمكن رؤية المكان الا بعد مفارقته •

اذن •• كيف ترى أدق التفاصيل فى موضع لاتغادره ؟ المعروف أن طول النظر الى الشيء لايعنى ادراكه ، ولكن اذا امتدت الاقامة يتحقق الاستيعاب بالحركة ، بانقضاء المسافة ، لكننى أدركت الفروق عندما تجاوزت الفترة •• ولهذا تفصيل •

اعلم ياصاحبى • يامن أشعر بقدم معرفتى به رغم حداثة الصلة وقصر مدة الصحبة ، أننى انشغلت بالنظر فى أمور عميقة منذ زمن بعيد منذ صباى وفتوتى ، كنت أتساءل عن الجهة التى مضى اليها الأمس ؟ • حقا أين راح الماقبل ؟ طيب •• اذا مضينا سعيا فى اتجاه نقطة محددة فى المكان • هل نصل الى لحظات منقضية فى المكان ؟

يا صاحبى ، تقول لى ان الشمس تطلع على ديارك قبل أرضنا ، لو أوتيت أنت وأنا أو أى شخص حدة بصر بحيث يمكن الرؤية بلا مدى ، بلا حد ، لو وقفت هنا والآن ساعة ضحى ، سترى المؤذنين فوق المآذن القاهرية يدعون الناس الى صلاة الظهر •

ألا يعنى ذلك امكانية رؤية اللحظة التى لم تحل علينا بعد ؟

افترض العكس يا أخى ، لو انك تطلعت الينا من فوق سطح الأزهر ، اذا نظرت الآن ، ستجد أفقنا فى انتظار الشمس •

ألا يعنى ذلك أنه يمكن رؤية الماضى ؟ ، ألا يعنى امكانية رؤية ما هو قبل القبل أو بعد البعد اذا ما نأينا الى نقطة قصوى فى المكان ، هناك وراء هذا المحيط الأعظم • أو عند ذلك النجم المعلق ؟ ، أراك تتطلع الى دهشا ، أعرف أن ما جال عندى خطر لك ،

ولن تسألني كيف ؟ ، لا أطلب منك اجـــابه ، لكنني ادعوك الى المحاولة ، علنا نصل معا الى مايشفي الغليل يا ابن المشرق البعيد وقد صرت الى المغرب أقصى ليس بعده حد ، سوى موضـــع مغيب الشمس ، لعلك بالغه في قصدك هذا ·

اعلم يا أخي الكريم أنني رغم انشغالي هذا منذ الطفولة الا أن ادراكي الأعم بما انقضى لم يبدأ الا بعد اكتمال عقده الثاني تقريبا ، في الطفولة والصبا لايكون هناك الا حاضر غير متصـــل في الوعي المدرك بما قبله أو بعده الا فيما ندر ، لكن مع التقدم حثيثـا في الزمان ، تكتمل شيئا فشيئا أمور استيعاب ما في الكون الانساني، عندي بدرجة · أو عندك بدرجة ، ولكن الفروق طفيفة في الأغلب ، الأعم ، حتى اذ بلغ المرء نقطة فيها ما مضى أطول مما تبقى ، وما مر أكثر مما هو آت ، ينثني الانســـان ممعنـا في تقليب ما انقضى ، متحسرا على ما فاته ، ولكن يوم لاينفع ندم ، أحيانا يا أخي الكريم ، كنت أعجب من أمري ، وأسـخر من ذاتي خاصـة عندما يهلكني الحنين الى مفقود ، الى عادة لا أعي ما تتضمنه من قيمـــة ، كأنني لم أعش طفولة واحدة ، بل في كل مرحلة أرى ما لم أشهده من قبل ، وعندما دنا الشباب من المغيب رأيت أمورا جديدة علي ، البيت الذي أعيش فيه ولدت به أيضا ، لكن ·· هل هو البيت نفسه ؟

انني أسألك ؟؟

قال انه لم ندم علاقته بموضع ، وعندما يخيل اليه أنه بدأ يعتاد مكانا يبزغ الهاتف ، هكذا يفارق ما اعتـــاد أو ما أوشـــك الاعتياد عليه ·· لا يمكنه الحكم على صلة بمنزل أو دار أو وطن !

أشرت باصبعي متمهلا في نطقي ، قلت أثق أنه ليس البيت نفسه ، الفناء الذي كان يبـــدو رحبا فسيحا أقطعه جريا قبل أن تحل بي المحنة التي أقعدتني ، هذا الفناء ضاق على مداه ، الغرفة

الداخلية التى ولدت بها لم تعد تعنى شيئا ، أدخلها كثيرا فلا أذكر ذلك ، واذا خطر لى فكأنما يمت الى شخص آخر ، كأننى أطالع تاريخا قديما يخص غيرى ، مع غياب أحباب وتلاشى عادات تبدلت الجدران مع أنها لم تهدم وتغيرت الأبواب مع أنها لم تخلع ، وتباعدت أو تدانت الغرف مع أنها لم تتحول · لكن ·· ثمة ما يستعصى على الرصد · مالا يمكن أن أعبر عنه بكلمات يؤكد أن المكان ينتقل فى ثباته وأن لزمته ، يرحل عنك وترحل عنه وان أقمت فيه عمرك · وما أقوله أعنى به الشوارع والساحات والنواصى ومداخل البيوت ، يخيـل للغريب مثلك أنها تتشابه ولكن عندى يختلف الأمر ، لو فتحت الحديث لأفضت وأمللت ، بـل لأعجب مـن نفسى ·· كيف أشرق وأغرب بينما رغبتى فى معرفة ما جرى لك قوية ، عارمة أود مصارحتك بأمر غريب ، ذلك أننى أتساءل الآن ، هل خلوت الى الهندية حقا ؟ هل ضاجعت الصبية فى حديقة القصر · سآمرهم بحملى الى الموضع على أتنسم أثرا ، لكم استعدتها ، حتى أننى ضاجعتها بخيالى مرات لاتعد ولاتحصى ، كل ما رغبته منها ومن بنـات جنسـها تخيلته وعشته · لكن اتصالى الواقعى بها ، هل جرى حقا ؟

والله يا أخى الكريم ، بعد ما سمعته منك · وبعد ادراكى لأمور شتى استعصت على ، صرت الى شك مقيم ، أحقا تمرغت معها على الحشائش حتى امتزجت رائحتها بالأرض ، بالتراب الندى ·

يا أخى الكريم ، قص على ، اننى متأهب لتدوين ما ستصير اليه أحوالك فى بلد يتحول رجاله الى نساء ، والنساء الى رجال ··

تاجج الكوامن

حدث أحمد بن عبد الله فقال :

لما استقر خوفى من تغير يحق بى ، يبدل جنسى ، أعدت النظر فى أحوالى · خاصة ان استفساراتى الصامتة لم تلق أجوبة ، لم يفض القيم العجوز بما يشفى غليلى ، ويفش ضيقى !

زاد كربى بعد تيقنى أن سبعة من أركان الدولة ، أحدهم مكانه عند باب الايوان النورسى المخصص لاستقبال السفراء الأجانب . ودعاة الطير فى الاقليم ، كلهم ولدوا اناثا ثم تحولوا ، أحدهم أمضى عشر سنوات وأكثرهم قضى أربعا وعشرين وأنجب طفلين · أما نساء القصر فمنهن عدد كبير بدأوا ذكورا ، والأخريات فى سبيلهن أو ينتظرن !

من طريف ما أذكره اننى استفسرت من متولى الايوان النورسى باعتباره ممن يحق لهم الجلوس بحضرتى عن متعة النكاح عند الرجل والأنثى ، فقال ان لذته كامرأة كانت أعظم وأشهى ، خاصة مع وقوع

التوافق . قال انه عرف كيف يستفيد من حياته الأولى عندما تم التحول ، خاصة ان حظه كان جيدا فلم يستغرق وقتـــا طويلا . البعض يقضى عامين أو ثلاثة بين الجنسين ، لا أنثى ولا ذكر ، وهذا من أصعب الأحوال ، وان حاول بعض الحكماء ايجاد عقاقير تسهل المهمة ، فى البداية أحجمت عن الاستفسار حول بعض من لازمتهن ، وعرفت منهن فنونا لم القها فى غيرهن ولكم دهشت عندما علمت فيما بعد أنهن فى الأصل ذكور وانقلبن فى عمر مبكر .

خفت بوادر لا أعرفها ، ان ينتهى ما عهدت لأبدأ ما أجهل ، فى البداية صدت رغبتى ، حتى عن الابكار اللواتى يعتبرن نادرات هنا لأن القوم لا يمنعون بناتهم أو أولادهم قبل الاقتران ، يمكن للولد مضاجعة الصبية عند البلوغ وعلى مرأى من والديه أو صحبه . قبائل الأقاليم ونواحيه سجتهد لتقديم الابكار بعـد بذل جهد فى الحفاظ عليهن الى السدة العليا والمرتبة الأقصى . ابن الشمس !

بمجرد قيامى بافتضاضها . يمكن لها الرجوع الى الجهة التى قدمت منها اذا لم أستبقها ، بمجرد عودتها وعلى جبينهـا دائـرة صفراء زعفرانية تشير الى مرتبتها الجديدة التى نالتها بعد الامتزاج المعلى . لا يمكن لشاب أن يقترن بها الا وفقا لرغبتها ، بعضهن يعلن اعتزالهن الرجال تماما ، يتفرغن للنظر الى الشمس ، وانتظار شروقها اليومى ، وغروبها ، هؤلاء يتبرك القوم بهن ، حتى ان المرضى يحملون اليهن من مسافات قصية ليلمسنهم ، أو يهمس فى آذانهم كل ذلك لأننى امتزجت بهن ولو مرة !

أكثر من شهر بحسابى انقضى دون أن أقرب احداهن . لا أدرى .. ربما خوفا ، أو تقززا ، انما يسعى الانسان الى الجنس الآخر ليتم ذاته ، فكيف اذا كان الجنس كله مشكوكا فيه ، اما فيما مضى أو فى الآتى ، خفت أن يكون ذلك أول الأعراض ، لكن لم يستمر الوضع ، بل انقلب . كيف ؟

لسبب ما ، لا أدرى طبيعته ، فى أثناء ركوبى جوادى قاصدا رحلة مباركة تفقدية . تذكرت البنية التى توسطت الاناث السبع عند ظهورى . منذ مدة لم استعد انحناءتها ، لم أفكر قط اذا كانت امرأة فى طريقها الى الرجولة أو العكس ، انحناءتها المكتملة ، الرحبة الواعدة . الداعية ، لم تكن الا لأنثى أبدية .

فوجئت بالرغبة تتقد فى جسدى ، حتى اننى اضطررت الى تعديل وضعى فوق الجواد ، بالطبع انتشيت ، وأضمرت النية على تعويض ما فاتنى ، لكن ما جرى فاق ما توقعت . فوجئت ببيارق تنشر ، وموسيقى وأسراب من طيور تتابع تحليقها فوقى ، والقيم يتقدم ليمسك لجام جوادى بيـــده ، ومن خلفـــه القواد والمدونون والحكمـــاء .

ماذا جرى ؟

كلهم .. يتقدمون بتهنئة أفقية ، أبدية ، لانعاظى !

بدأت دهشة عندى حجبتها ابتسامتى الدائمة عنهم ، كيف أطلعوا على أمرى ؟ . هل عندهم ما يمكنهم من الوقوف على ما يدور بخلدى ؟ أم رصدوا مد يدى الى ما بين فخذى عند تعديل وضعى ؟

قال القيم انهم فرحون لوقوع الانتصاب ، وتجدد أمرى بعد همـــود .

طال نظرى اليه وعندى منه توجس متجدد وضيق ، لا يطلعنى على وسائله ، ولا أموره الدقيقة ، شغلت عنه بما تتابع ذلك اليوم ، اذ سرت الأنباء فى كافة أنحاء الاقليم . جرى احتفال فى اليوم التالى لحظة شروق الشمس ، أعظم أوقاتهم وأجلها . وطبقا لما يوائم عاداتهم اعتبروه عيدا يحتفلون به فى اللحظة عينها التى بدأ فيها انعاظى !

.. لا أدرى إذا كان مستمرا أو توقف ؟ أو انقلب الى عيد غامض الأصول مثل مناسبات عديدة شاركت فيها ولا أعرف حقيقتها ، وعندما يوشك الضحك أن يتملكنى لغرابة ما أراه أبذل الجهـــد لأكتمــه ..

المهم .. انني بعد طول خمود عدت الى أكثر مما كنت عليه ، يمكنني القول انني أخذت من النساء حظى ، أدخرت صورا وأوضاعا وردود فعل احتاج الى سنوات طوال لاستعادتها . والتمتع بها مع المخيلة ،كنت موغلا المهن ، مدفوعا برغبة تأججت فجأة ، وخوفا من انقلابى أنثى فجأة فألقى مصيرا أجهله . وأفارق دورا طالما أتقنت القيام به .. من ناحية أخرى تصاعدت رغبتي فى تمكين وضعى . والاحاطة بكل كبيرة وصغيرة . مدة غير قصيرة أمضيتها والكل يولى وجهه ناحيتي ، أى كلمة ألفظها تؤول وتفسر ، بل تشرح وتبسط للصغار . أى عبـــارة أقولها عمدا أو مصادفة تصير من المواثيق والعلامات ، أما ما رصدته بعناية فاقبال الناس كافة على ، توجههم نحوى ، واطاعة كل ما يصدر عنى ، وابتذالهم الذوات المصونة للتقرب والسعى لالتماس رضا معنوى أو محسوس ، رب كلمة منى تحدد مصائر وتنهى أوضاعا ، حدث أن قابلنى أحدهم فى يوم تصاعد فيه اضطرابى من ادراكى لتحول الجنس هذا . اشحت بوجهى عنه . وتصادف صدور حركة من يدى لم أقصدها . مضى صامتا كمدا الى بيته وقعد ، لزمه ولم يخرج منه الا محمولا ، راحلا الى الأبد . صرت حذرا فيما بعد . لا أشير الا بقدر ، ولا ألوح الا بحساب ، أكره أن يروح عدد منهم مصادفة ، بدون سبب . لكننى فى الوقت نفسه زاد الحال عندى ، وزاد فى دماغى ويقينى ، استقر الامر على أن أصير أنا المرجع والقياس المدرك لما يخبئه الأفق الشرقى والغربى ، أن تنسب الى الابعدية ، وتبدأ منى وتنتهى الى البديهات . بمقدار القرب منى يكون الرقى وتستقر الطمأنينة على قدر رضـــاى يكون الارتقاء ، غضبى ورضاى هما الأساس ، صرت اذا خلوت الى نفسى أتعجب من

قدرتى على ابداء الآراء التى ينحنى لها أعتى الحكماء . واتخاذ القرارات العويصة . شئون ظننت اننى لا أقدر على خوضها يوما . مالم يطرأ على مخيلتى قط ، اذن .. حان الوقت لاظهار ما أضمرته ، وما أضيق به منذ مدة .. باختصار . قررت الخلاص ممن يحجب عنى أكثر مما يبدى ، من القيم ..

تريث مستنفر ..

حدث أحمد بن عبد الله فقال :

بدأت ألحظه بدقة ، عيناه تتحاشيان النظر الى · أصبح قليل اللفظ ، بطيء الكلام · كثير الشرود ، زاد هذا من نفوري واعراضي عنه ، أعملت الحيلة · مترقبا أى ردود فعل ، برغم تمكنى لم أنس قط اننى غريب · اننى من جانب وهو من جانب ، مع اعتبارهم اياى ابنا للشمس موفدا من جهتها كى أدبر شئونهم ، لم أقرب واحدا منهم الى درجة الوثوق به ، لم أتدخل الا لحسم أمور كبرى · لم أنحز الى طرف ، وبرغم موقوتية وضعى ، لم أكف عن تثبيت أركانى كأنى باق أبدا ، أحيانا راودنى أمل فى استقرارى بعد طول هجاجى · أن يكف الهاتف عنى ، منذ أن تلقيت الأمر بالرحيــــل عن مصرى لم اهدأ ، اندلعت غربتى وشبت ، صحيح ان اقامتى فى الاقليم طالت ، لكن الى متى ؟

لم يستمر انتظارى . اذ بدأت بالاهتمام بالعقاقير ، والأخلاط . واطلعت على خزانة الأدوية وما تحتويه من معاجين ولعوقات وأكحال وحبوب وفتائل و .. سموم .

استفسرت عن أنواعها . ومنافعها ومضارها ، قال الخازن ان كثيرا منها يدخل فى تركيب بعض الأدوية ، كما أنها تستخدم مع الغرباء الذين يفدون بقصد الحاق الضرر أو الاقامة !

رأيت قنينة بها سائل أرجوانى اللون يوضع قدر يسير جدا منه فى الطعام فلا يظهر أثره الا بعد شهور ستة . ومعجون فى لون راحة اليد يدهن به مهبل الأنثى فلا يؤذيها . لكنه يتسرب الى من يضاجعها فيبدأ انحلاله على الفور . يتساقط شعره ، ويتفسخ جلده . يرى نهايته بعينيه ولا يمكنــه عمل شىء معجون آخر تدهن به الأوراق وعند الامساك بها بعد مدة معينة يتسرب عبر المسام .

طلبت قارورة مادة تلون الماء بدرجات الطيف . وأخرى يسكب منها قطرة وسط قاعة شاسعة فتعبق بعطر النعناع . وثالثة يذاب منها قطرة فى كوب ماء . عندئذ تقوى شهوة الجماع عند المرأة . حتى لتخمش وتموء كالقطة . وقد عرفت مثــل ذلك . ورابعة من سم سريع فتاك ، وخامسة لبطىء لا راد له .

طبعا .. هدفى القنينتان الأخيرتان ، وما الباقى الا للتمويه واخفاء الغرض ، فى ليلة دعوت الى اجتماع بأصحاب البريد بغرض ضرب مشورة لتحسين أبراج الحمام الزاجل ، واختصار مدة وصول الرسائل الى أقصى حدود الاقليم ، بحيث نباهى الأمم الأخرى بالمدة . وما البريد الا عصب الدولة ، وأحــــد أركانهـــا ، أبديت اهتماما خاصا به ، عند انصرافهم دنا القيم منى ، أبديت رغبتى فى تناول الافطار معه غدا فى الشرفة الفيروزية المطلة على حديقــة الطاووس الفضى .

أبدى السمع والطاعة . كانت نظـــراته تحـــوى قدرا من الاستسلام ، لكم استعدتها فيما بعد ، ومثل أشياء عديدة لا أقراها الا بعد انقضائها ، ولا تتضح تماماً الا اذا ولت اندثرت .

أمضيت ليلتى أرقا ، استرجع صورا نائية . وأتخيل لحظات لم تأت بعد ، لحظة ابلاغى وفاة القيم ، مبالغتى فى اظهار حزنى ، معلمى ، ملقنى الأسرار ، أمرى بتجهيز جنازة مهيبة لتشييعه الى المقابر المقدسة . تدوين سيرته وأقواله .

لا أدرى متى أدركنى النعاس . لكننى لم أغفل عن أرقى الذى بدأ يمضنى ، لا أذكر من القائل عن مسمع منى فى الواحة انه اذا جافاه النوم سعى الى مناغشة امرأته ، يواقعها فينهك وينام راضيا . لكننى هذه الليلة لم أبد أى رغبة . كنت مستمتعا بعزلتى وانفرادى . متمددا فوق حشية من الزئبق ، وجدران مبطنة بحرير رهيف ، ضوء مطيع ، يأتمر بعينى ، اذا فتحتهما أضاء جنبـــات الغرفة ، اذا أغمضت ينطفىء .

اخترت أصناف الافطـــار بنفسى ، ورحت أسرح البصر فى الحديقة متعقبا الطواويس النادرة . لا يوجد مثلها فى البر المعمور ، أمرت بابقاء الحرس ، وتلك عادة غير مستجدة . فكثيرا ما أثرت الخلوة ، ألم يضيفوا الى ألقابى . المتأمل ؟

قبضت القنينة المخفاة فى حزامى الطيلسانى . فقط .. قطرة صغيرة فى اناء اللبن الحامض المصنوع من الفخار الزجاجى ، أعدتها الى مكانها . استخدمت الملاعق الخشبية حرصا ، تراجعت مسرورا ، قال أحدهم يوما على مسمع منى : أفضل ان أطبخ بيدى ، وكان يقصد أمرا لا علاقه لة بالأكل أو الطبيخ .

وقعت رقعتين الأولى خاصة برحلة للصيد سأخرج اليها غدا • خلتجهز الفيلة • الثانية لبدء ترتيب عشـــاء أسبوعى فى القاعة البيضاوية يدعى اليها أرباب الشئون • والقواعد •

انتبهت الى الأطباق المتراصة ، الى وعاء عسل النحل الأبيض الذى يأكلونه فى الجبال • الى مرور الوقت المحدد لوصول القيم • تطلعت الى الطبق الذى يحتوى القطرة القاتلة •

مؤكد •• لن يجىء !

بهدوء • شرعت أتناول طعام افطارى • بعد أن أمرت برفعه خمت واقفا عاقدا يدى أمام صدرى ، أمرت بتجهيز الحمام الصوتى بعد الظهر • وهذا حوض من صخر قاتم الخضرة ، يتمدد الانسان فيه عاريا ، ثم تبدأ صفافير فى اطلاق أصوات متناغمـه صـــوب مسام الجلد ، تتخللها • وبذلك يكتمل تفتحها ، ثم يمتلىء الحوض بصابون جذاب فى عطور مختلفة •

استفسرت عنه صباح اليـــوم التـالى أصغيت الى اجابة آمر الأحكام ، رصدت لهجته لأقف على أى تغير بها . أمرت بالبحث عنه فى كل الاتجاهات •

قال انه غياب لا رجعة منه •

مـات ؟

لزم الصمت ، بقى مطرقا لا يجيب . أمرته بالانصراف ، مرة أخرى بمفردى • لماذا يبدو الجميع وكأنهـم توقعوا ذلك • اختفاؤه ليس مفاجئا لهم • توارى كل أثر له ، أركان مجلسى لا يذكرونه ، لا يشير اليه أحد ، أما مكانه فبقى خاليا •

غريب أمرى ، لكم ضقت به خلال الفترة التى سبقت دعوتى له للافطـار ، تخيلت موته ، ورتبت اجـــراءات تشييعه ، بل فكرت

فيما سأقوله عنه ، واظهارى الأسى والأسف عليه ، برغم هذا كله انفتح داخل فراغ ، بل أقول ان وحشة نالت منى ، افتقدته . كان يبصرنى بأمور أجهلها ، ويشرح لى غوامض شتى . لم يكن ممكنا أن ابدأ وأستمر الا بمعونته ومشورته وكل ما لقنه لى خلال العزلة الأربعينية .

لم أنس قط اننى غريب عنهم ، واننى راحــل باســـتمرار ، لم أخدع باستقرار أمرى ، حتى فى ذرا أوقات صفوى واستغراقى كنت انتبه الى موقوتية وضعى ، وأن ما يحيط بى لن يدوم أبدا . صحيح اننى كنت فى عرض دائم ، ومتغيرات ، ومتجددات . لكن رحيلى الدائم أدى بى الى هنا . وسيخرجنى عند لحظة معينة منه ، كيف ؟؟ لا أعرف . لكم افتقدته .

طقوس شتى أديتها بدون ادراك جوهرها أو غاياتها ، كان يبصرنى ، يقول لى اعمل كذا وأقدم على هذا فأمتثــل ولا أستفسر ، كان يمكننى أن أراه باستمرار ، فى أى وقت ، فى أى طارىء هو الوحيد الذى يحق له الدخول حتى باب مخدعى ، لكم عمــل على راحتى . لم يترك رغبة عندى الا وعمل على تحفيفهــا . من مأكل أو مشرب أو عنصر رفاه ، حتى مزاجى تجاه النســــاء . أتــى الى بما يوافق هواى : الباسقات دون العشرين ، والمنمنمات الدقيقات . مكتملات الأرداف ، مشرعات الاثداء ، وعندما لاحظ نظراتى تجاه صبية فلجاء قرينة أحد كبار القواد ، جاءنى اليــوم التالى بأنثى اذا ابتسمت لاحت انفراجة ملحوظة بين سنتيها العلويتين ، الأماميتين ، بث عيونه ليأتى بمن يوافقن مزاجى .

حزنت عليه مع أننى سعيت الى الخلاص منه بيدى ، لكننى رحت أعزى نفسى مرددا أن نفاذه الى أدق شــئونى زاد على حده . كما أن ملاحظاته سببت لى ضيقا . نعــــم .. كان الخلاص منـــه

ضروريا . ألم تكن يده مطلقة فى كل شىء ؟ كيف أقبل وصيا أو شريكا ؟

لكن .. هل تخلصت منه فعلا ؟

لا ..

اختفى فى الوقت المناسب ، ألم بما أدبره له . كيف فاتنى ذلك يوم أن أدرك انتصابى وجعل منه عيدا ؟ فراره اذن مزعج وليس مطمئنا ، انه فى مكان ما . قريب ، وبعيد ، يقف على خبىء نواياى ، كيف ؟

لا أعـــرف .

شرعت فى اصدار أوامرى بالبحث عنه . لكننى لم أقدم . أثرت ان أبدو فى نظرهم وكأننى أفهم سر ابتعاده . قررت تسيير أمورى بنفسى . ألم أوافق فيما بادرت اليه ؟ ألم أتساءل فى لحظة صفو . أين كان هذا كله عنـــدى ؟ كأنى وضـعت أسرار الملك والسلطنة ، لم أعد فى حاجة الى بذل الجهد كى أبدو خلاف ما أنا عليه، اذ صرت فعلا الى غير ما كنت عليه . تمهلى عند المشى صار طبيعيا . اجاباتى ايماءاتى . كذا أوامرى ، شرعت فى خطواتى لم يعهدوا مثلها . وابتدعت رســوما جديدة لم يألفوها ، من ذلك اكثـارى الخروج . مرة ملثما . ومرة مرتديا قنـاع الطير الذى اعتادوا رؤيته مرة كل سنة ، تعددت رحلات الصيد . بنفسى أختار من سأنعم عليهم بصحبتى ، لكم استمتعت بتسابق القوم على ركوب الأماكن الأربعة تحتى ، كنت افاجىء بعضا ممن ينتظرون مجرد المثول أمامى ، أتتبع أخبار من صحبتهم مرة واحدة لم تتكرر . اتصالاتهم ومساعيهم .

دعوت المنبوذين الى مائدتى البيضاوية ، بل قابلت عددا من الكفرة المارقين القائلين بوجود فجـــرين . الأول كاذب ، والثـانى حقيقى . أصغيت اليهم ، طمأنتهم على أحوالهم ، بدا كبيرهم غـــير

مصدق ، ثم علمت أن مجيئهم الى القصر أحدث بلبالا كبيرا عندهم ، وانهم انقسموا الى ثلاث فرق . الأولى تبارك ذهابهم ، والثانية تعتبرهم مجرمين والثالثة لم تعلق برأى معلن !

أكثرت من التفقد ، لم أترك بناء جديدا الا وشاركت في وضع أساسه . وجلت فيه عند افتتاحه ، أى معمل ولو صغير قصدته للفرجة ، أتوقف أمام ما يعرض على ، أبدى ملاحظات عامة سرعان ما تدون ويجرى العمل للأخذ بها مع أننى لم أقل الا كلمات عادية ، أعجبنى ذلك وأثار سخريتى لكننى لم أفصح عنها . صرت أدقق كل شيء ، وأتابع كل أمر ، أظهر فهمى كل كبيرة وصغيرة .

اتبعوا تقليدا لم يعمل به من قبل . كتابة سجل يحفر فى الرخام . يتضمن أسمى واليوم والشهر والسنة ولون الرداء الذى كنت أرتديه ، لا أدرى .. هل بقيت هذه اللوحات أو انهم طمسوها بعدى طبقا لما يعتقدونه من انتفاء الحاجة الى التاريخ .

لو استمر القيم لما رضى عن هذا ، تحديته فى غيابه ، كنت أتخيل ما يثير ضيقه أو انزعاجه وأقدم عليه ، وأحيانا أخرى أتصور رأيه فى هذا الموقف ، أو ذلك القرار ، ما كان يمكن ان يقوله لى ، فأعمل وأقدم ! لكن أغرب ما عرض لى يتعلق بأمر اقترحته عليهم وجد عليهم منى ، وتفصيل ذلك مثير .

وقعت عندى دهشة عندما تأكدت أنهم لم يخوضوا حربا منذ حقب سحيقة . ومع هذا يعدون جيشا نصفه راكب ونصفه راجل ، يظهر فرسانه ومشاته فى المناسبات والأعياد ، وأحيانا يخرجون فى عروض مهيبة الى مهام غامضة لا يعرفها أحد ، وقد حاولت الاطلاع لكن برغم هيمنتى وكامل بأسى لم أوفق .

رأيت استنفار الجيش ، وايجاد ما سميته الخطر المحدق ، وأساس الفكرة سمعتها من رجل فى سوق خان الخليلى كان يحاور

تاجر أبسطة أعجميا ، يحدثه عن شابة وقع لها خلط فصارت تبكى وتضحك بعد أن تلقت خبرا ثقيلا ، فما كان من المحدث وهو قريب لها الا صفعها بقوة فكفت ، أفاقت . علق الأعجمى مؤمنا ، موافقا . وقال أن الحس كله يتوجه الى مصـــدر الخطـــر المباغت فيشحذ ويستنفر .

لابد من خطر محوم . اذا لم يطل حقيقة ، فلنوجده من يدرى .. ربما يضع حدا لتلك الرخاوة البادية عندهم والأدية الى تحول رجالهم الى نساء ، وانائهم الى ذكور .

هكذا خـــرج المنادون الى طـرقات المدن . وحلقت الطيور الى الأطراف النائية . رسالة منى تعلن عن تحرك الطامعين فى خيرات الأقاليم . أعلنت ضرورة وقوفنا متأهبين لصدهم . أكثرت من خروجى الى الميدان الكبير واعتلائى البرج المستدير ، وتحدثى الى النـــاس ، حذرت وأنذرت ، هددت وتوعدت ، لوحت بأصبعى الشهير الذى صار علامة . فى اليوم التالى يردد المعلمون فقرات مما قلته ، وينبه الأب أولاده الى الخطر المطل الذى اكتشفه ورآه الرأس الأعظـــم ، ثم استنفر القوات وتمر وتمر تحت أسراب الطيور الجارحة متجهة الى الحدود القصية لاقامة الدفاعات . والحصون ، كنت أفكر فى أهالى الواحة ، والمرقب ، وحذرهم الدائم . وتعاقبهم على رصد الفسطاط حتى صار جزءا من حياتهم ، آه لو أعرف ماذا جرى لهم ؟

لكن هذا موضوع ربما حاد بنـــا عن القصد ، اننى راغب فى الافضاء بما جرى . فى يوم لا أدرى موقعه الآن . لم أستطع حفظ أسماء أيامهم وأسابيعهم لغرابتها . خرجت الى القاعة الملحقة بمخدعى، أخبرونى بقدوم صاحب الأخبار المكلف بمتابعة ما يجرى فى أرجاء الاقليم . ولا يمكن ان يقوم على طلب مقابلتى فى موعد كهذا الا لوقوع أمـــر جلل .

عندما رأيته واقفا وسط الحجرة مطأطىء الهامة أيقنت من وقوع شيء غير عادى ، ولأننى أتقنت التأنى حتى صار ذلك من سماتى لم استفسر ، انما أشرت له فجلس ، ثم تطلعت اليه هادئا · واثقا · طلبت منه استدعاء شيخ مفسرى الأحلام المقيم فى البر الغربى · بعد لحظات صمت ، قلت اننى رأيت مناما حيرنى كأنى أقف فى مكان مغلق · وبصحبتى ثلاثة يشبهوننى تماما ، أحدهم واقف ، والثانى قاعد ، والثالث نائم ، قام مقبلا الأرض أمامى · أكد ان الرجل سيمثل أمامى بعد وصوله مباشرة · فقط ·· مسافة الطريق ·

صمت منتظرا الاذن ليفضى بما عنده ، طبعا بدأت بحديثى عن الحلم حتى لا أبدو متلهفا على معرفة ما جاء من أجله ·

أظهرت الاشارة ·

قال ان الأخبار تتوالى منذ يومين من المدن الحدودية بظهور من ينوى الأذى ، جند كثيف ، يقتربون ، ونصبوا خيامهم قرب بعض عيون المياه المباركة · فى الليل ترى نيرانهم المشتعلة من مسافات بعيدة ، تكاد تضىء الصحراء ·

من أى الجهات بالضبط ؟

من الجنوب ، والشمال ··

هل ثمة سابقة ؟

لم يحدث ذلك منذ اشراقك علينا ·

قلت اننى أسأل عن الزمن القديم ، قبلى ، بكثير ··

لزم الصمت الأتم ، علامة الجهل بالمكان والزمان · قلت ان الأمر يقتضى استنفارا عاما ، ورفع البيرق الأبيض الذى يتوسطه بأشق أحمر باسط جناحيه . قمت واقفا ·

سأخرج صباح الغد لأكلم الناس ..

صرفت الرجل ، ودعوت الأركان السبعه ، وبقى مكان القيم خاليا ، لم أدر . أحقا خطر حقيقي أو تنفيذ لسياسة الخطر المحدق ؛ لكنني في المرات السابقة كنت أنا الداعي ، المبادر الى اطلاق النفير العام ، لم أكن متأكدا . ما من يقين عندي ، لكنني قدرت أن أبدو ثابتا ، وان أرتب كل ما يصدر عني وكأن كل شيء حقيقي ، واقع . خاصة بعد ان قاموا وركعوا أجمعين أمامي ، داخلني يقين أنني ما قطعت مراحلي كلها الا من أجل هذه اللحظة ، وقعت المراسيم التي سترسل بالحمام الزاجل الى سائر النواحي ، ملزما كل قبيلة بتجهيز مائة من أشداء الذكور الذين لم يتحولوا بعد لدعم الجيش ، كما أصـــدرت مرسوما بجباية الأموال ، وللدهشة التي قابلوه بها أيقنت أنهـــا السابقة الأولى .

طلعت البرج مرتديا العمامة الصفراء ذات الأشعة والتي لا تظهر فوق رأسي الا في الظروف الخاصة ، والملمات . تطلعت الى الساحة الكبرى ، الأرض لا تظهر من الواقفين ، في أثناء ارتقائي الدرج فكرت في الفتاة التي وقع بصري عليها صباح ظهوري ، انحناءتها المثالية ، تناسقها هل تقف بينهم ، هل تراني الآن ؟

تأهبت لبدء حديث غير عادي . الزحام مختلف عن كل مرة الحشد كثيف بما يعني ادراك الخطر ، سأعلن بدء الجهاد دفاعا عن موطن الشمس . اقليم الطير ، سأهدد العدو القادم الى موطنها ، أسرابها ستحرق خيامهم ..

خيامهم ؟

في هذه اللحظة برق أمامي الفسطاط ، الخيام المتراصــة ، التدريبات ، النداءات اليومية .

هل وصلوا ؟

أى طريق سلكوا ؟ كم ســيرابطون عند الحدود ؟ أى نــوايا يضمرونها ؟ لابد من ســفرى لألقى نظرة من قريب حتى استوثق وأتأكد .

مازلت أذكر ألوان الأعلام والطبول والنداءات الليلية المتلاشية فى الفراغ .

تأهبت لصعود الدرجات السبع المؤدية الى الشرفة الدائرية .

حيث لا يقف الا أنا . لا يمكن لأى مخلوق أن يقترب ، بينما تتردد التماعات الياقوتة النادرة التى تتوسط عمامتى والمعـروفة بشطف النار ، يمكن رؤية بريقها من مسيرة يوم كامل .

ما بين الدرجة الثالثة والرابعة .

بالضبط .

بالضبط ، هبط ثقل مفاجىء شل صفوى . اجتز زهوى . لم أتوقع هذا قط ، لم أعد لمواجهته . لم يكن ثمة مجال لأى موسوم أو قرار أو استنفار أو جند مدجج أو طير نادر أو حيـــوان زاحف أو مخلوق كى يشد أزرى أو يثنيه عنى !

مرة أخرى أصغيت الى الصوت القادم من كل فج ، النابع من جهة ما عندى وتخفى على ، تلك النبرة الآمرة . التى لا قبل لى بها . بمماطلتها أو التحايل عليها .

« ارحــل » .

لما بدأ خطوى يتعثر ، دنا أكثر . نبع من كافة الاتجاهات . أشد حزما ، وأثقل وقعا .

« ارحل الآن الى موقع مغيب الشمس » .

عبور القافلة ..

هذا بعض ما خطه أحمد بن عبد الله بيده :

.. لم أعد أفضي معظم وقتي في المقهى ، انما زادت من جولي خلال المدينة . مع اكتمال كل غروب أعلى ادراكي لما لا يمكن رؤيته الخبيء منها ، عرفت تعاقب الأوقات عليها ، فما يمكن الاطلاع عليه في الضحى ، يبدو مختلفا عند الأصيل ، بل ان مرور غمامة يبدل الأمر كله ، حضور المباني والطرق والدروب الموصلة ومنابع المياه والأشجار والأطيار وتلك النواصي وحافة البر وأمواج المحيط تتغير مع اختلاف درجات الضوء ، والضحى والليل اذا سجى .

ارتحت الى حاضرة بلاد الغرب ، الى مرسى غارب كما يسميها البحارة المترقبون دائما صفو الموج ، واعتدال الأحوال للامعان بحثا عن الرزق ، لكنها ليست الراحة المصاحبة للاقامة ، نعم .. ركنت الى المقهى ، ولمست طيب المأوى ، وكرم القوم ، وحنو من تكلف بي ، وصبره على ما أقول ،وعدم ازعاجه عند بدء نوبات صمتي أو سرحات

فكرى ، أيضا رغبت المشى فى دروبها المصاغة من الحذر ، والمظللة بالترقب القديم ، فالمدينـة بقدر ما تبـدو من الخارج مستنفرة ، متأهبة ، بقـدر ما تلوح من أزقتها وساحاتهـا الصغرى منطوية ، مترقبة ، انها مدينة الحد الأمامى ، الطرف الأقصى ، رباط الانتظار ، وبرغم قدم الخطر ، وابتعاده ، لكن ثمة يقينا ما انه ربما يطل مرة أخرى ، هكذا تتجاور البيوت ، تتقارب الواجهات ، تنحنى الشوارع والزنقات ، يؤدى بعضها الى الآخر ، وعند حافة المحيط الأعظم يعلو السور فتنأى النوافذ الواجهات عن لا محدودية المدى . من رحيلى الطويل أيقنت ان العمارات والخطط ليست ما تبـــدو ، لكنهـا ما تحتوى وتخفى أيضا ، ما جرى فيها عبر أزمنة مندثرة ، مولية ، طاوية لكل شىء ، صغر أو عظم ، ليست القاهرة ما تلوح للعابر ، أو المقيم الغافل ، انما ما جرى لها وفيها ، وعند الانسان الفرد ربما لا يكتمل المكان الا برحيله الى موضع آخر فيرى محله الأول على البعد ، يدهش اذ يقف على أمور كانت تبدو له عادية وليست كذلك فى جوهـــرها ، بقـــدر ما ضمنى المكان واحتــوانى ، بقدر ما احتويته وتنقلت به من موضع الى آخر ، كثيرا ما استحضرت سعيى فى أيامى المصرية ، الواحة ، اقليم الطير ، بينما أجلس فى المقهى ، أو عند شرفة المحيط ، هذا الزمن الذى أستعيد فيه ما كان ، تلك المواضع ، ينتمى الى من ؟ يحسب لأيهما ؟ ، المحل الذى أوجـد فيـه بجسدى ، أو ذلك الذى استدعيه بمخيلتى ، وكينونتى غير المتطورة ؟

لكم أمعنت النظر الى ذلك ، لكننى لم أصل الى مرسى نهائى ، وهذا مما شق على خلال ترحالى ، اذ اننى لم أثبت ، لم أسـكن بموضع مهما طالت اقامتى .

أقول اننى لم أشعر قط ان حاضرة بلاد الغرب آخر المطاف ، لم أنتظر الأمر بالرجوع ، بالانثناء ، فلا مفـر من التقدم صـــوب

موضع مغيب الشمس زادى أرق دائم فى انتظار لحظة البزوغ ، واذا نامت العيون كلها ، واذا غفت فانني لا أنام ، لا أهجع أبدا .

غير أن خاطرا يلح على منبها الى ان هذا البلد آخر حد العمار المسكون ، الى أين اذن ؟

الحق اننى لا أقدر على القطع ، ما أنا الا فى انتظار أمر أو تفسير ، ليس أمامى الا أن أتبع الشمس ، أن أقصد موضع غروبها ، لهذا أعى تماما أن مقامى به مؤقت ، محدود مهما طال .

لا .. ليست تلك دار اقامتى .

اذن .. الى أين ؟

واذا أعلنت العصيان ، لافترض ذلك جدلا ، اذا شرعت قاصدا تلك القنطرة التى اجتزتها فوق الخليج الى مربط القوافل ذلك الصباح القاهرى البعيد . متى أصل اليه لو شرعت الآن ؟ ، ماذا سيقابلنى وأى أمور تنتظرنى ؟ وهل يكفى ما تبقى ؟

أعى أن من خرج هذا الصباح البعيد تناثر وتذرى ليصير الى كائن آخر ، أضيف اليه وأخذ منه ، انى الآن مغاير ، متحد بالقديم ومنفصل عنه فى آن ، بعيد ، جد ناء ، تواق الى راحة لم أعرفها قط حتى فى زمن أبهتى وسلطانى !

لم أتصور قط اننى ملاق بعض من عرفت فى خطواتى الأولى ، بعد أن وصلت الى حافة البر المعمور ، بدأ ذلك فى أثناء مكثى فى مقهى البحارة ، كنت صامتا موليا ظهرى الى الحاضرة ، أحس دبيب الحياة فيها ولا أدركها ، كل الجالسين صامتون ، شاخصون الى المحيط ، بدا من فراغات الجريد التقاطع جهما ، غامقا ، تنبع الغيوم الثقال من أمواجه لترتقى السماء ، وبدا توقع لغيوث هواطل لم تلح بعد ، كان أهالى المقاطعة الشمالية فى اقليم الطير يتطلعون

الى السحب ذات البروق ، فاذا توالى البرق سبعين مرة توقعوا المطر خلال وقت قصير ٠

هكذا تحل أوقات يكف القوم خلالها عن الحديث ، عن تبادل الحوارات ، كأن أمرا خفيا يصدر فجأة فيسكت الجميع ويشخصون الى المحيط ، لذلك سمعت من يقول ان طول القعاد بالمقهى أو عند الشرفة يذهب العقل ، بعض رواده انتقلوا الى مستشفى الحمقى أو المجانين كما نعرفهم فى الشرق ، هنـا يربطون بالسلاسـل ويقيدون الى الجدار بأساور من حديد كالأسرى ويجـلدون اذا عاطوا أو ارتفع صراخهم ٠

فى المقهى سمعت بوصول القافلة ، وما أندر الوصـول من المشرق ، صحيح ان الأفراد لا يتوقفون عن التوافد ، بعضهم يقيم أو يستمر فى الرحيل جنوبا أو شمالا ، ثمة حكاية وأخبار تتردد عمن يقصدون الابحار فى الايغال غربا ، هؤلاء مجهولون ، لايعرف عنهم شيء ، ولم يعد منهم أحد ليخبر بما قابله أو رآه !

دافع لا يفسر جعلنى أهرع الى حومة السوق ، لحظة رؤيتى الجمال باركة والأمتعة على ظهورها كأن شيئا لم يتبدل ، لم يتغير ، كل ما انقضى من المسافة الفاصلة عندى كأنه لم يكن ، اقتربت ، طفت وحدقت ، مازلت أذكر وجوها ، بقايا ملامح بعد أن تبدلت عبر الدروب والمحطات ، وجوه أخرى اختفت ، مضى أصـحابها تماما ، سألت عن أقربهم الى فلم يذكره الا رابع من وجهت اليه استفسارى ٠

رحل منذ سنوات بعيدة ، وقبره مجهول ، دفن على الطريق ، عند حدود بلدة تركمانية قديمة هجرها أهلها ، لكنـه قضى فى أكرم حال لحظة سجوده مصليا بعد أن ضبط اتجاه القبلة ، على مسيرة نصف يوم ضريح صيخ جليل ، ذكره شائع وأتباعه كثيرون ، قتل وهو يحارب التتار ، برز اليهم على رأس الجند ، وكان يدور

راقصا ، ومنشدا ، وله كتاب يقرأه القوم بصوت مرتفع اسمه « فواتح الجمال » .

أصغيت غائبا ، كأني مباغت بما أسمع . مع أني أتوقع ذلك منذ زمن طويل ، بل مضت على أوقات أردد لنفسى مؤكدا حتمية غيابه الآن ، ومع ذلك بكيت تأثرا بعد ظنى جفاف دمعى ، ولم أدر هل بكيته أو رثيت نفسى ؟ ، حزن غامض غتيت لم أعرفه عبر رحيلى جثم على حتى أننى أرجأت سعيى الى أمر القافلة ، هو كما توقعت ، لكن ملامحه درست ولم يبق منها الا طلل .

كأنه كان يشعر ، هو المسافر القديم ، من رأى وسمع ما لا عد له ولا حصر ، لكنه لم ينطق ، لم يستفسر حتى ، ولم أسفر ، جرى بيننا حوار ومداولة ، ولكم أتمنى أن أقصها على صاحبى ، أو أدونها ، لكن هفهفة الأسى تعيقنى ، وادراكى لعمق الشجى يعطلنى ، صحبته الى حافة المحيط ، وأنصرف عند الأصيل عدت الى مكانى الذى أرقب منه الغروب . تعلقت بقرص الشمس .

هل أرقبها حقا . أم أضفى مما عندى ؟

تغيرت ولكن تلك الدائرة لاتتبدل ، أترحل هى أم ترحل بها ؟ من يمضى بالآخر ؟ ، فى هذه القعدة طال تحديقى واصغائى ، وكنت قاب قوسين أو أدنى .

تبدل المواضــع ..

حدث مدونه ، جمال بن عبد الله كاتب بلاد الغرب فقال :

بعد اصغائي الى حديثه ، لم تلح على الأسئلة المتوقعة ، كيف غادر الديار ؟ ، هل اســـتجاب الى الهاتف فورا أو انه تحـايل حتى يدبر أمره ، انما ترددت عندى حكاية جد قصيرة مما يرددها أهالى حاضرتنا فى ثنايا حديثهم ، يقولون ان الذئب تزوج الناقة ، مضوا اليه ليهنئوه ، قال : اذا بركت ٠

ارجأت أخباره لأننى اعتدت احترام صمته المفاجىء ، زم شفتيه ومضى بصره الى نقطة غير محددة فى الفراغ ، أظنها داخله هو وليس فى الجهة التى يسدد اليها بصره ٠

اذ تكتسى العينان بزجـــاج غير مرئى ، وتثبت الحدقتان ، ويخلو الوجه تماما من أى تعبير ، أتشاغل برسم بعض الأشكال على ورقة خالية ، أو أتحسس نصف جسدى الميت ٠

هل بلغه نبأ القوم بعد خروجه ملبيا نداء الهاتف ؟

لمحت لكنه لم يجب ، ولم يوضح ، خشيت أن نفرغ قبل وضوح الاجابة كيف أوضح للسلطان اذا واجهني أو استفسر ؟ لكنني أيضا صرت به عليما . ما لا يريد البوح به لن ينطقه أبدا .

يوما سألني مولانا وسيدنا عما اذا كنت أعرف من مات وهو يقف فوق المنبر ؟ .

قلت انني طالعت في معجم الأدباء لياقوت أن الاصبهاني صاحب الأغاني انه قال في مجلس له : أخبرني شيوخنا أن جميع أحوال العالم قد اعترت من مات فجأة ، الا انني لم أسمع من مات على المنبر !

كان في المجلس شيخ أندلسي قدم لطلب العلم ولزم أبا الفرج يقال له أبو زكريا يحيى ابن مالك بن عائذ ، وكان أبو الفرج يعظمه ويكرمه ويذكر ثقته .

قال أبو زكريا انه شاهد في مسجد الجامع ببلدة من الأندلس خطيب البلد يصعد الدرج يوم الجمعة ، وقبل بلوغ آخره تهاوى ميتا ، انزل منه ورقى أحد الحاضرين المنبر فخطب وصلى بنا .

أقول انني أول ما واجهت الموت زمن غضاضتي الأول ، عندما كنت أسبق بعض الصبية جريا ، قبل أن يلحقني ما أقعدني ونال مني ، عصر يوم ، علا صراخ من البيت المجاور ، لزمت مكاني خوفا ورهبة .

قال أبي حزنان أسفا ان الشيخ حسن بن علي الفزاني طاع منه السر الالهي ، لم أفهم ماذا يعني ذلك ؟ لم يطف الغياب الأبدي بذهني قط حتى بداية عقدي الثالث ، واذ أصغي الى حديث الموت يداخلني يقين انه مدرك الكافة عداي ، لكنني عرفت الخوف من الفقد ، كنت أترقب عودة أبي من الديوان ، خاصة ان موعد ظهور

على رأس الزنقة لم يتغير الا فيما ندر ، فاذا تأخر خرجت الى الشارع أتطلع ، خوف غامض يرجف قلبى ، الا يظهر ، ألا تهل طلعته ، ألا أشم رائحة ملابسه ، خاصة عباءته المنسوجة من الصـــوف ، مما أقضنى مجرد خاطر قدوم المغيب وتأخره ، لكن أن أفكر في احتمال غيابه الأبدى فهذا ما لم يخطر على عقلى ، فى الكتاب رأيت لأول مرة صبيا يتيما ، بلا أب ، وآخـــر بـلا أم ، ولكم أشفقت ، وترفقت ، وتسامحت معهما ، لكننى لم أتخيل نفسى مكانهما قط ، قبل اكتمال المغيب كنت أصحب والدى ، نمضى الى الشرفات المطلة على المحيط الأعظم ، لحظة اكتمال الغياب اليومى أقترب أكثر من أبى ، حتى لألتصق به تمـاما ، وكأنه يفهم فيقدم على ضـــمى الى صدره · تتجه أنظارنا معا صوب نقطة واحدة حيث غربت الشمس ، وتلك موازية ، مقابلة تماما لنقطة شروقها كما أدركت بعد زمن بعيد ، لو مد خط عبر السماء لكان اتساقه مثاليا ، هائلا !

أذكر خوفى الغامض فى صباى ، ألا ترجع الشمس مرة أخرى فيدوم الليل المسكون بالجن ، وأرواح القتلى أبدا · لكن من أوفى مدته ، وقبض ملك الموت روحه لا يظهر هائما فى الليل ، انما يأتى الى الأحباب عبر المنامات والرؤى ·

عندما سمعت الصراخ يحتد صعدت الى السطح ، الوقت ما بين العصر والمغرب ، لحتهم يخرجون . الجثمان ملفوفا ، لا يظهـر ملمح منه ، لكن لم يصعب على رؤية ملامح الجسد الفاره النحيل ، لكم رأيته ساعيا دابا على عصاه قاصدا المسجد الكبير خمس مرات يوميا ، بعد تقاعده عن عمله فى سوق الوراقين ، كان من أمهر وأشـهر ناسخى المصحف الشريف فى ديـار المغرب ، متقنا للخط الأندلسى القديم الذى يصعب على أهل المشرق قراءته ، وما زال مولانا يحتفظ فى قصره بنسخة من خطه ، أوقفها ليتلو القراء منها ليلا ونهارا

عند قبره ، أطلعت عليها ، وقرأت منها ، وما من لفظ كريم رأيته الا وتذكرت لحظات انسياب الحروف وتشكلها بين يديه ٠

بعد أن أغلقوا التابوت الخشبى تساءلت : كيف يتنفس ؟

سأل أحد الواقفين ٠

« هل أوصى بشىء ؟ » ٠

أجاب ابنه الأكبر ، نحيل مثله ، بادى التجهم ٠

« لا ٠٠ لكنه اعتاد الصلاة فى المسجد الكبير ٠٠ » ٠

ما علق عندى رائحة غامضة لم أدر مصدرها ، هبت على حواسى لحظة تطلعى الى الصندوق المستطيل ، رائحة لم تعرفها حاسة شمى مرة أخـرى ، لم أقدر على تصنيفها أو نسبتها الى شىء محدد ــ لا يرد الموت على مسمعى أو فكرى الا ونفرت عندى ــ انبعثت من داخـلى ٠

دائما كنت أنظر اليه كأمر يخص غيرى ، ولكن مع تكرار خروجى الى حافة المدينـــة ، مع دوام تطلعى الى طفل الشمس ، رصدى لدرجات اقتراب واكتمال الليل ، انتبهت الى الدورة ، حتى أقلع أبى بغتة فى أثناء سجوده مستقبلا القبلة ، اقتحمنى فيمن انتمى اليه ، دنا ولاح ، عندئذ بدأ انتظارى ، وأدركت معنى خروج القوم الى حافة المحيط الأعظم ، وشخوص أعينهم الى المغيب ٠

تحت السور منطقة رملية بعدها صخور وعرة ، منها كهوف منحوتة تتكسر على جدرانها الأمواج القادمة من المجهول ، يصعب الرسو على أى قارب تجاه المدينة ، لذلك كان أساســها هنا ، أما الميناء فهناك خارجها ، بعيدا عنها الى الشمال ، يمكن رؤيته من مقهى البحارة ، تمرســت الحاضرة خلف الأمـواج والصـخور والسور المشيد ، محاولة منا لاتقاء المخاطر القادمة من المجهول ،

من موضع المغيب ، لعل وعسى ، وان كانت معرفتى لما مضى تؤكد انه ما من سور دفع عدوا مباغتا شرسا ، ولكن القصـــد اطـــالة الأمد ، وايناع الأمل •

فى المنطقة الرملية قبل الصخور ندفن اعزاءنا ، موضع غريب أثار دهشة أحمد بن عبد الله المصرى ، غفر الله له ، دقق واستفسر، مضى وتأمل ، وزادت دهشته عندما أطلعته على مالا يعلمه الا الثقاة من أهل مدينتنا ، آخر حد العمار ، وأول نقاط المجهول • ذلك ان اعتقادا ترسخ ، ان المرأة العاقر يمكن أن تحمل اذا امتزجت بمياه المحيط الأعظم ، يتم ذلك فى وقت اكتمال المد ، وعند هبوب الرياح الشمالية الشرقية ، معها يعلو الموج الى حد معين ، يرتطم بالصخور ، عندئذ ترتفع المرأة ثوبهـا ، تكشف تمـاما عن فخذيها ، ولا تقرب كل منهن المحيط الا متجردة من سروالها ، تعرض نصفها الأسفل لرذاذ الموج فى وضع يعرفنه كلهن ، وعندما تبدأ تشعر بالبلل المالح يجب أن تأتى كافة ما اعتادت عليه من رهز وغنج عند خلوتها بزوجها ، وبعضهن يبالغن ، فاذا تم البلل ونفذت الذرات فان الحمل يبدأ بعد حين باذن الله ، وهذا معمول به من قديم الزمان ، ومجرب !

أبدى عبد الله اهتماما لم أتوقعه بالحالين ، دفن الموتى عند الشاطىء وأستفسر عن التفاصيل ، بل دقق وأمعن ، أى موعد أفضل عند النساء اللواتى يقصدن المحيط ؟

كنت أجيبه بما أعرف ، لا أبخل عليه ، راغبة فى القربى ، لم أبد اعجابا أو فرحـــا أو حزنا أو شـــكا بما يقول ، التزمت تدوين ما يملى على ، وعندما دنوت منـــه واقترب منى لم أخرج عن حد معين ، أخفيت ميلى اليه وحيرتى ، ليس مما أسمعه وأكتبه ، انما لتقلب أحواله ، تارة يدفق حيوية فى سكونه ، ومرة أسمع

صوته كأنه آت من شخص آخر ، محايد ، لايمت اليه بصلة ، فكأن آخر لايبين ينوب عنه ٠

أما ابتسامته الدائمة فتخفيه عني الى حد ما ، كل ما تبقى من أيام عزه ، ودولته ، أعرفها الآن الى درجة تمييزي ابتسامته الحقة وهذا ما لم يتفق لأحد غيري من قبل كما أكد ٠

بدا متهللا هذا الصباح ، قال انه رأى في المنام كأنه يجول في شوارع القاهرة العتيقة ، ويأوى الى مقهى اعتاده ٠ ويرشف كوبا من خلاصة النعناع الجبلي ٠

قال انه بقدر احساسه القوى بلوغ حد البر المعمور ، أمعن فيما كان ، ما انقضى ، عنده تراثه ، تفاصيل ، ومضات ، لو أفصح عنها ربما رآها الآخرون بلا معنى لكن أوشك كبده أن يتفتت مرات اذ يستعيد لحظة مستحيلا تكرارها ٠٠

« لماذا تبتسم ؟ » ٠

ملت تجاهه ٠

« كأنك تكنى عنى ٠٠ »

قال دهشا ٠

« لكنك لم تفارق ديارك قط ٠٠ لم تتحسر مثلي ؟ » ٠

قلت تأنيا ٠

« لأن ما فات لن ندركه ٠٠

أشرت الى الأرض ، الى الجدران ٠٠

« وهذا الموضع لا يمكن الاحاطة به ، ما كان منه عندى اندثر ٠٠ وما يطالعني منه الآن شيء آخر ٠٠ » ٠

سرى شرود في عينيه ، تساءلت حاثا اياه على الكلام لأول مرة ٠

« ألن تحدثنى عن أصحاب العكاكيز » ؟

العكـــاكزة

.. حدث أحمد بن عبد الله فقال انه رأى غروب الشمس ثلاثا وخمسين مرة . حتى الآن يجذع ليلا اذ يستعيد غرائب الأصوات التى ترددت . بعضها مصدره حقيقى يمكن تعيينه ، والآخر تكوينات صاغها الفراغ وسفى ذرات الرمال وتعارض مسارات الرياح .

لم يحمل الا مخلاته ، ثياب له ، والركوة التى سدت جوعه وأوقفت مسغبته وتلك الكتب ، الحضرموتى ، قصاص الأثر ، القيم ، كل منهم أسهم بقدر .

لن يطيل فى الافضـــاء بمعاناته لانتقـــاله من النقيض الى النقيض . من جاه الملك وطيلسان العز الى وحشة الفقر ، ويبوسة الصحراء ، والوحدة الصماء بعد احاطته بالندامى ، والساعين طلبا للرضا السامى ، كان يقتفى أثر المغيب طوال الليل مهتديا بالنجوم حتى اذا لاحت شرابات الضوء الأولى يتمهل ، يرنو الى القرص البازغ عند الأفق .

بعد طول مكثه فى الشرفة المطلة على المحيط يمكنه القول بثقة ان ما يظهر أول النهار مغاير تماما لما يغرب · ملامح الشمس عند الأفق الشرقى غيرها عند الغربى ، رحيلها لا يغير منا فقط ، ولكن من جوهرها أيضا ·

لولا الهاتف لاتجه شرقا ، الى المنبع ، لكن ليس بوسعه الا الامتثال ، الهاتف يرح كيانه رجأ ، يهمى عليه ، يحيط به ، لا يدع له ثغرة ، اذ يمتثل يلقى نفسه وحيدا ، ما من مرجع له الا شوطه القديم الذى قطعه منذ خروجه الأول ، ما لقيه صعب ، لن يطيل ·

قبل اكتمال مغيب اليوم الرابع والخمسين ، بالضبط ·· عند تلك اللحظة التى يوشك فيها القرص على ملامسة حد الأفق ·

توقف شاخصا ·

ما هــذا ؟

تمدد فـوق الرمال ملصـقا أذنه باليابسـة ، هكذا علمه الحضرموتى منذ زمن طويل ، هكذا تبدو الأصوات أوضح ·

لا ·· لم يعد ثمة مجال للشك ·

دبيب أقدام ، ركض ، قرع دفوف ، رنين صنوج نحاسية ، أصوات جماعية تشبه ما يتردد فى حلقات الذكر عندما أصغى اليها فى حوارى وشوارع المحروسة زمن أمنه وسعيه ، على ناصية الزقاق الذى عاش فيه راضيا ، قبل خروجه مأمورا ، مجبرا ، يقع ضريح سيدى مرزوق الأحمدى ، لكم توقف عند النافذة المطلة على المقام المكسو بقماش أخضر متين ، عندما شب صار يسعى بمفرده ، عند عودته ليلا يرى مجهولين يقفون خاشعين · يتضرعون ، أو يبتهلون ، أو يبسطون الأيدى بالدعاء ، يتراقص لهب واهن ، شموع وضعها

من لا يعرف عنهم شيئا ، بعد الانتهاء من مولد الامام الحسين يبدأ الاحتفال بسيدى مرزوق ، تغص الطرقات بالزحام ، يقيم القوم القادمون من الأقاصى ، يفترشون الحصر والبسط ، لا يكفون عن الذكر طوال الليل ٠

هذا ما فارقه منذ زمن بعيد ٠

قال أحمد بن عبد الله ٠

« لك أن تتصور حالى فى البرية القفر عندما أصغيت الى أصوات ذكر أو هكذا تبدو من بعيد ٠٠ » ٠

طرح عنه أى حذر ، مضى غير هياب ، لن يرى أعجب مما مر به ، لم يعد يخشى ما ينتظره ، رأى سرادقات متجاورة أو متباعدة ، مفتوحة الأجناب ، حشايا وقدور طهى وأوعية فارغة وطارات خشبية وعصيا وصنانير لصيد سمك ٠

فى الصـــــحراء ؟

هذا ما رآه ٠

رجال ونساء بعضهم يتحدثون ، يتعانقون ، يجلسون متجاورين محملقين الى الفضاء ، أطفال صغار يحبون ، فتيات فى السابعة أو الثامنة يرقصن ، كل ثلاث أو أربع معا ، شاب يجثو على أربع ، وآخرون يتعاقبون للقفز فوقه ، صبية تنفخ قربة جلدية لا يبدو تأثرها بما يندفع اليها من هواء ، رجل وحيد يحيط صوان أذنه بيده ، لكن ما من أحد يحدثه ، آخر يرتدى عمامة ثقيلة يلوح مهددا بعصا غليظة معقوف أعلاها ، يشير الى السماء ، سبعة أو ثمانية يجلسون متجاورين ، شاخصين الى رجل يتكىء على عصا مماثلة ، تتعاقب الانفعالات على ملامحه ، لكنه لا ينطق ٠

فوق الرمال أطباق نحاسية فسيحة ، أرز ، ضأن مشوى ، طيور مختلفة الأحجام ، مسلوق ، مشوى ، محمر ، جبن مستدير ، مســـتطيل ، زجاجات قوارير فخارية ، نبيذ ؟ نعم ·· أحمر وأبيض !

البعض يأكل ، يكور الأرز الناضج بالسمن ويدفع به الى فمه ، أو يلتهم قطعة من اللحم ، أحدهم يستند الى عصا ، كلهم اما يمسكون

أو يستندون أو يضعون الى جوارهم تلك العكاكيز الخشبية ، مع أنهم صحيحو البنية ، خطوهم سليم · أمامه وعاء من خوص ممتلىء حشائش خضراء يدفع بها الى فمه ، لا يمضغ ، انما يبلع مباشرة ، لا يتوقف ·

امرأة ورجل يتعانقان ، يرفع ثوبها ، ما هذا ؟ على مرأى ومسمع والجمع لا يلتفت ، بل ان شابا يتطلع اليهما ، ثم يميل ليربت كتف الرجل مبديا الرضا والاستحسان ؟

تحت سرادق فى المنتصف تقريبا ، فرقة من أرباب الآلات ، حوالى سبعة ، ستة تتدرج أعمارهم من الصبا الى الشباب ، شيخ يتوسطهم يرتدى جلبابا أبيض وغطاء رأس أحمر ، لولا اغماضة عينينه الأبدية لظنه القيم ، حضوره وهيئته متماثلتان · يمسك آلة وترية · يسندها الى ركبته يمرر فوقها قوسا ، أوتارها أربعة أو خمسة ، الآخرون يعزفون ، عود ، رق ، قانون ، طنبور ، ناى طويل ، ناى قصير ذو شعبتين ، ايديهم تتحرك ، تلمس أو تطرق ، لكن ما من صوت ، ما من نغم ، هل يجربون أنفسهم ، لكن أى أصوات موسيقية أصغيت اليها عن بعد ؟

نار موقدة هنا وهناك ، شواء ، شواء · انتبه الى جوعه وحرمانه من الطعام الساخن منذ خروجه القسرى على أم رأسه ، بعد أيام عرف فيها لحم الطاووس المطهى على البخار ، وأطباقا من ألسنة السمك ، وعيون المها المقلية فى زيت النعناع ··

جائع ..

لم يتطلع اليه أحد ، لم يستوقفه رجل ، لم يزعق فيه طفل ، كل لاه ، لم يحدث ظهوره أى رد فعل ، كأنه يسعى بينهم منذ زمن ، أقدم على الطعام ، أكل وشرب ، وتمدد مسترخيـــا ، مسترجعا ، متنقلا ما بين اليقظة والوسن ، دانيا بين الحين والحين لعل خبرا يأتيه من النجوم الشوارد !

فارقه حذره ، لم يعد يتلفت خشية البغتة ، وهنت غربته مع اشتدادها ، بل ان لا مبالاة حلت به ، ماذا سيجرى أكثر مما جرى ؟، هذا مما صار يتردد عنده ، عكس الترقب الذى لازمه مراحل شتى كلما قطع مسافة أو بلغ أرضا تحوى جديدا ، غريبا .

مع اطلالة الشمس اتجه القوم اليها ، ولأول مرة يســـمع الموسيقى تصدح فى أنغام سريعة لولبية التصاعد ، عانق بعضهم بعضا ، ولثمه أحدهم ، وصافحته امرأة شابة ، لكنه عندما تماست نظراته بتلك الصبية النافرة أدرك أنه عند حدود المغامرة ، وأن جديدا ينتظره .

« ابتهج .. فلا ندرى هل ستطلع الشمس غدا أم لا ؟ » .

يقول أحمد بن عبد الله ، أن صوتها كان سوسنيا ، منمنما كقدها ، كما أن أول جملة توجه اليه حوت اشارة الى معتقدات القوم والتى بدأ يكتشفها شيئا فشيئا .

قال انه طوال اصغائه الى خبر البنية الهندية كانت هذه الصبية ماثلة أمامه لكنه لم يشأ أن يفصح حتى لا يفسد ، كانت شديدة النفاذ اليـــه ، برغم كثرة من عرفهن مدة سلطنته وتمكنه لم يستطع اجراء أى مقارنة ، ما من شبيه ، ربما لوعيه أن كل أنثى بازغة فى لب الوجود مختلفة .

ما أجج رغبته مع نصبه وكده الداخلى لبعد الشقة أنوثتها الفياضة العابرة ، تكوينها الجسدى الدقيق ، طفولته ملامحها ، ايماءاتها ، غلمنتها ، اذ بدت تلخيصا للبشرية بشقيها الأنثوى والذكورى ولهذا سحر !

تطلع حوله . خطا نحوها ، كان مســـتعدا ، لكنها مدت يدهـــا ··

« الأوان لم يحن بعد ·· » ·

تقبله الرفض صعب بعد قدر ليس هينا من الزمن كان القوم يسعون فيه بأبكارهن اليه طلبا للبركة ، لم يقدر على الالحاح ، انبثق وعيه بغربته ، لا يعرف رد الفعل الممكن ، هذا شعور يطل فجأة ، لازمه فى الواحة ، فى الاقليم ، فى عبوره الصحراء متبعا مسيرة الشمس ، دائما يفاجأ بما يجهل فلينم على الفور ·

تطلع الى حركة القوم ، من اين يجيئون والى اين يذهبون ؟ هذا الطعام وتلك القدور ، ما المصدر ؟ · عندما فتح عينيه أول صباح هنا سمع حفيف الصمت الملكى الذى يتردد فى غرفة نومه الفسيحة كميدان يتوسط مدينة · اصغى الى النعومة المدثرة ، لكنه سرعان ما وعى ، كم لبث ؟

لا يدرى ، هنا تأخذه الاغفاءة فجأة ، ربمـــا لطول تعبه ، ودســـامة الطعام بعد طول حرمان ، القوم منتظمون حول أرباب الآلات · للصبية عطر خفيف لم يخطئه ، داخله تراث من الروائح المتنوعة ، صينية ، زنجية صقلبية ، العطور المخصصة للوجه مختلفة عن تلك التى تدلك بها الأعضـــاء الداخلية ، واليدان ، وما بين الفخذين ، أما الشعر فله محاليل وتراكيب ، كان الحلاق من أهم شخصيات القصر المقربة منه ·· ألا يسلم له ذقنه ورقبته ؟

ينتمي هذا الى شخص آخر غيره ، حتى الواحة ، وامرأته ، وطفله الذى لم يره . حقا .. كم ابنا خلف فى الاقليم ؟ كيف سيعاملون بعده ؟ . تساءل : هل مر حقا بتلك الأيام ؟ يشك فيما عنده ، ولكن يومض بارق خاطف فتتفجر لحظات ظن اندثارها ، يتوق الى درجة ضوء ، أو ركن لا يذكر موضعه بالضبط ، مجرد عبير واهن يبعث عنـــده زمنـا أتم ، مجرد اشارة توقد داخله نارا ظن خمـــودها .

غرابة ما عاينه شـغلته عن محـاولة الفهم . أما رغبته فى الصبية فاستعرت خاصة أن كافة ما يجرى حوله منفلت عن كل ما عهد ، مدخله اليهم جاء عبر الرقص ، وتفصيل ذلك اننى انتبهت الى عزف هادىء بدا وكأنه بلا مصدر . نابع من الفراغ . تفتقت عنده لحظات طال بعدها ، اصـــباح القاهرة ، طلوع الشمس فى الصحراء وغروبها الغامض ، وأصوات الليل فى البرية ، واتقاد نشوته المفاجىء .

ازدادت سرعة الأنغام ، تلاحقت ، تنقل بين الفائت والحاضر وما لم يعرفه بعد ، يمسك قائد الفريق بطبلة قصيرة ، اسنه الآلة الوترية الأخرى الى جواره ، يحدق الى الأرض باتجاه نقطة لا يحيد عنها . يتبع الآخرون هزات رأسه ، من لحظة الى أخرى يضرب الطبلة بطرف أصبعه فيتغير الاتجاه . مع نهاية كل لحن يستديرون تجاه احدى الجهات الأربع ، يحنون رءوسهم ، عندئذ تعلو أصوات القوم بترتيب موفق ، واذ يصغون يبدأ العزف من جديد .

قام واقفا عندما اندلعت أنغام راقصة ، تمايل يمينا ويسارا ، أشار بأصبع الى لحظة مولية ، وبآخر الى لحظة آتية ، فرد ذراعيه على سعتهما ، دار على ساقين ، ثم على واحدة ، زاد من سرعته حتى لم يعد قادرا على رؤية جسده ، أو من يحيطون به ، لم يتوقف ، كأنه يسعى الى ما لا يدرك .

بعد أن هدأ فوجيء برجلين أحدهما خمسينى والآخر أكبر ، معهما امرأة غاربة ، كانت تحملق اليه ، تحاول أن تقلد رقصه ، سأله أحدهما ..

« أين أتقنت هذا الرقص ؟ » .

هذا السؤال فاتحة تعرفه اليهم ، أجاب موضحا منبعه لكنه أخفى مقصده ، قال انما هو سائح فى أرض الله ، استفسروا عن المدن التى مر بها ، المدن بالتحديد ، هل رأى هناك ما ينم عن اليوم الذى تقوم فيه القيامة ؟

استفسر منهم ، شيئا فشيئا بدأ يدرك ، عند أى قوم حل ؟

انهم العكاكزة ، أو أصحاب العكاكيز ..

قال أحمد بن عبد الله هون الله عليه فى آخرته كما هون عليه ما كان من دنياه ، ان هؤلاء قوم كانوا يسكنون اقليما شاسعا عامرا بالمدن والأنحاء ، والأسواق ، تمر به دروب القوافل المتجهة غربا الى المحيط وجنوبا الى بلاد الزنج .

ثم جاء رجل من المرق ، لا يعرف أحد من أى جهة بالضبط ؟ ، كان يرتدى الأبيض الناصع ، ويمشى على عكاز خشبى مع أنه بدا صحيحا ، سليم الأطراف ، قال انه جاء من الجبال بعد اعتكاف دام أكثر من مائة عام مما يعد الناس ، حتى رأى فى المنام شيخا جليلا يقول له : أنائم أنت والأوان يدنو ؟ ، سأله مرتجفا ، أى أوان ؟ ، قال الشيخ ان يوم القيامة قريب والساعة وشيكة . أمره بالنزول الى الناس ليأخذوا نصيبهم من الدنيا !

قام مفزوعا ، وعنده يقين أن ثمة تغيرا هائلا وقع لكنه لم يستطع التحديد ، فارق موضعه ، منهيا خلوته على الفور ، نزل الاقليم وبدأ ينذر الخلق ، ويقول ان ما تبقى قليل ، وكافة ملذات

الدنيا فى سبيلها الى الفناء ، فلينهل كلا منها بقدر استطاعته ، ورحمة الله واسعة !

سرعان ما لاقى كلامه هوى فى نفوس البعض ، فى البداية صاروا يجولون الطرقات منبهين ، منذرين مذكرين بدنو الأجــل النهائى ، فى البداية مضى كثيرون الى دور العبادة ، اعتصموا بها ، أقاموا الصلوات باستمرار ، دفعوا أصواتهم بالدعاء والابتهال أن يغفر لهم ، البعض طفش ظنا أن الهجاج فى الأرض منجيهم ، منهم من فارق امرأته وعياله ومنهم من صحب أهله ، أما اتباع صاحب العكاز فقالوا بقصر ما تبقى من مدة ، وحرج الوقت ، وأن الحياة فيها مباهج عديدة لا يحيط العمر بها ، ما يعرفونه أفضــــل مما يجهلونه ، ما من وقت ليضيعوه ، خرجوا من المدن المعمورة الى الخلاء البعيد ، وبدأ كل منهم يفعل ما يريد ، ولكن وفق خطى كثر الحديث عنها ، فمن ذلك قيامهم باتيان كل ما هو معاكس لما استقر عند القوم ، لم يتخذوا بيوتا ، انما مجرد سرادقات من قماش ، وأدنى ما يحتاجون من فرش ، وهب كل منهم ما لديه للجماعة ، وأطلقوا العنان ، ومما أقدموا عليه شرط اماتة النفس المعنوية قبل الالتحاق بهم ، من ذلك ضرورة أكل لحم الميتة ، وقولهم فى ذلك انها ذبيحة الله ، فلماذا الامتناع ؟ وضرورة أن يصحب القادم امرأته ، ويشهد وطأها من جانب من لا يعرف وهو ناظر لما يجرى لزوجته أو ابنته أو ابنه ، حتى اذا بدأ طبيعيا غير مبال صفقوا وحق له المشاركة ، كفوا عن مناداة بعضهم بالأسماء أو الألقاب ، صار الابن ينادى أمه فلا تلتفت اليه ، واذا طق أى خاطر فى دماغ أحدهم يقوم لينفذه فورا بدون أن يواجه لوما أو ردعا ، ومما قاله بعضهم ان اليوم لنا وغدا لا ندرى ما سيجرى فيه .

والشمس الغاربة من يضمن رجوعها اذا كان النذير بالقيامة أطل ولاح ، لينفق كل ما بحوزته ، ليفعل كل ما يروق له ، ولا داعى لاظهار ما يخالف باطنه .

يقول أحمد بن عبد الله ان بعضا مما سمعه لا يرغب فى ترديده ، كما أن أمورا كثيرة جرت لم يستطع فهمها أو ادراكها ، رأى خلال اقامته التى لم تمتد بينهم طويلا عجبا ، بعضهم ارتدى المصبوغ من الثياب النسائية ، حمار الذكر من هؤلاء يمشى متمايلا ، متثنيا ، مطقطقا بأصابعه كالراقصات ، آخرون تجردوا تماما وكشفوا عوراتهم ، اشـتهر فى الاقليم أمر رجل شرطة عرف بانضـباطه وقسوته وفظاظته مع الضعفاء والأيتام وأصحاب الحاجات ، كان مجرد ظهوره فى الأسواق يسبب سريان رعدة ، ذات ظهيرة وقف فى فناء مبنى الشرطة ، خلع ملابسه المزركشة المحلاة بالقصب ، وأشعل فيها النيران ، تجرد تماما الا من عكاز اتخذه من غصن شجرة سنط ، لم يعد يدخل من باب بيته ، بل راح يتسلق الشرفات ، والجدران ، صار يهجم على النساء ، يخطف الحلى والمصاغ من حول أعناقهن ، يقطع الطريق على بعض العائدين ، ويختفى عند الزوايا حتى اذا اقترب أطفال يخرج فجأة ملوحا بعكازه ، يفرون فزعين ، ثم سعى الى الخلاء ..

آخر كان تاجرا للأعشاب المداوية ، بل انه عالم متجر فيها ، ضج الناس منه بعد أن بدأ يعطى المرضى عكس ما يصفه الأطباء فلا يزدادون الا خسرانا مبينا ..

ثالث ربط نفسه مكان البهيمة التى تجر عربته ، وراح يعدو بها فى الأسواق ناهقا ، زاعقا .

كثيرون هجروا محلاتهم ، لماذا البيع والشراء ، لماذا تكبد المشاق لاحضار البضائع النادرة أو نقلها ، لم يعد الاهتمام منصبا الا حول

الطعام والشراب ، يقال ان شابا ثريا توفى أول الهوجة فجأة ولم يكن متزوجا ، لا ابن له ، ورثه أحد أقاربه ، ورآه الناس مهموما مغموما ، مع أن الثراء نزل عليه بعد املاق ، كان يتساءل ، كيف ينفق ما آل اليه ؟ حتى أنه جمع صحبه وسألهم :

« أريد عملا وتجارة لا تعود على بربح » .

قال واحد منهم :

« تصدق بها على الفقراء » .

قـال :

« الحسنة بعشرة أمثالها ، أخشى أن أكافأ فيعود الى أضعاف المـــال » .

قال آخر :

« اشتر جمالا وحملها برمال الصحراء من الجانب الغربى الى الشرقى » .

قـــال :

« بما يسفر نبش الرمل عن كنز فيئول امره الى ..

قال أحدهم :

« اشتر كافة الابر المعدنية الصغيرة واصهرها فى سبيكتين لن تزيد قيمتهما على درهمين » .

أجـــاب :

« أليس يرجع منهما درهمان ؟ » .

قال نديم له :

« أذن .. اشـــتر الزجاج من مشـــارق الأرض ومغاربها واكسره .. » .

أبدى حماسا ، صاح :

« هو ذاك .. » .

استأجر القوافل ، صار يرسلها الى المدن القريبة والبعيدة تشترى كل آنية من زجاج ، ما رخص وارتفعت قيمته ، ثم يجمعها فى كومة خارج البلد ولا ينصرف الا بعد انتهاء العمـــال الذين استأجرهم من التحطيم .

قال أحمد بن عبد الله انه لا يريد الاطالة ، فالتفاصـــيل لا حصر لها ، كم من نســـاء كن خافرات ، منتقبات ، خرجن الى الشوارع حاسرات ، بعضهن عاريات كما ولدتهن أمهاتهن ، بل ان رجلا تزوج نخلة ، عشقها ، راح يمضى اليها ويحيطها بذراعيه ، يقبلها ويمسك جذعها ، ثم أعلن أنه عقد عليها ، وأنها تحدثه وتفضى اليه ، قال القوم ان هذا طبيعى مع اقتراب القيامة ، قاضى القضاة صار يحبو على أربع ، وكان اذا رأى كلابا ضالة نبح فى وجهها ، فتفر منه الضوارى مذعورة بعد أن يوسعها عضا وخمشا ، انفلت الأمر وطق العيار ، وصار ظهور الانسان مهما اختلف قدره أو شأنه بعكاز خشبى كأنه اعلان للكافة بتوقع أى تصرف منه .

حدث أحمد بن عبد الله فقال انه نظر فى وضعه فخشى على نفسه ، ذلك أن بقاءه جامدا ، متماسكا ، رزينا ، لما يثير القوم ، لذلك أقدم على اتيان ما لم يفعله فى الواحة ، أو عندما تمكن من رقاب العباد زمن ملكه ، يعى الآن أنه شعر فى القصر بوطأة الرصد . لم يفارقه يقيه أن عيونا خفية ترقبه فى أشد أوقاته خصوصية .

خلع ملابسه ومشى عاريا بينهم ، لا يمسك الا مخلاته بيمينه . أضمر النية أن يموت دونها لو حاول أحدهم سلبها ، لا يستتر

الا اذا مسه برد الخلاء ، وعندما انتبه الى نفسه يمشى منثنيا أدركه خوف يحوله الى أنثى نتيجة مكثه فى اقليم الطير حاكما ومدبرا ، هل ألم بما قدم له من طعام وعطور وأدوية ؟ ٠ هل يفلت من قانون يحكم البشر هناك لمجرد أنه ابتعد مرغما ؟

طوال أيام عريه لم يتطلع اليه انسان بنفور ، لم ينهره صبى أو رجل ، بل ان النساء كن راضيات ، احداهن توقفت أمامه وتفحصته ثم ضحكت ومضت ، فى الليل يقبلن عليه ، لا يعرف أيا منهن ، يتم المضاجعة ولا يدرى ، لكنه كان دائم البحث عن تلك الصبية ، فى كل اقليم تلوح له غيداء ، يتعلق بها وتمضى ، لم ينس هذه البنية التى توسطت زميلاتها عند وصوله اقليم الطير ، أبدا ٠٠ لن تروح انحناءتها من باله ، حتى الآن يستمد رغبته من استدعائها ، فى الليل اذ تقترب منه امرأة يتنسم الفراغ بحثا عن الرائحة الخافتة السوسنية ، لكنه عبثا يسعى !

يقول انه اعتاد صراخ القوم المفاجىء ، ورقصهم المباغت ، وزعيق هذا ، وصمت ذاك ، وتشقلب عجوز ، ورنو غلام ، لكنه ضاق بما حوله ، ربما خشى على نفسه ، وما رآه حوله جعله يحذر ، ولانهم تحدثوا اليه فقد اعتبروا واحدا من جماعتهم حتى أن شيخا منهم قدم اليه عكازا ، لا يصل انسان هنا الا سعيا للانضمام اليهم ، هذا مفروغ منه عندهم ، يقول أحمد بن عبد الله ، انه لم ينتظر بزوغ الهاتف فى أفق وجوده ، لأول مرة منذ بدء اغترابه يفارق موضع اقامة طوعا مع علمه بوحشة القفر ويبوسة البادية ، آخر ما رآه رجل يتمنطق بحزام جلدى ، يمسك بسيفه الخشبى ملوحا ، مهددا شيئا غامضا لا يبين ٠

أولى ظهره لموضع المشرق ، مضى وعنده دافع مبهم ، وتوقع لما لا يدريه ٠ وترقب لما لم يحط به علما ٠

هــذا ممــا

خطه أحمد بن عبد الله بيده

اذن ٠٠ يممت وجهى طائعا ، ملبيا ، جهة مغيب الشمس ٠ أقفو أثرها ، لا أدرى ٠٠ هل تمشى بى أو أمضى بها ؟

أحيانا يشب داخلى وازع ، أن انثنى ، أن أعصى ، اسلك ما جئت منه صوب المشرق ، أولى الى كافة ما مضى منى ، غير أن مانعا يبدأ منى ، ومن خشية الهاتف يحول دونى ٠

انى مطلع الآن على الدروب العامرة . والمدن المسكونة المؤدية الى المشرق ٠ لكن الخاطر ينبهنى ، لقد لاقيت ما لا تتوقعه وما لم تتخيله عند قطع الخراب ، الصحراء المجدبة ، المقفرة ، فماذا ينتظرنى فى البر المعمور ، وكم أحتاج من وقت ؟

استسلمت لتأجج حنينى ، تحركه أمور دقاق ، ربما لا تعنى لغيرى شيئا ، لكنها عندى الأمر كله ٠ من ذلك هبوب نسمات حانية ٠ تطاول الظلال عند العصارى ٠ استرسال أذان ينبعث من

فوق مئذنة نائية ، جبلت على حب الواهن من الضوء · خاصة لحظات الانتقال من النهارات الى الليالى القاهرية ، دنو الغسق · انعكاس لهب شمعة تحنو عليها مشكاة على بلاط مبلل بقطر المطر · انعكاس ضوء على قماش أخضر يغطى ضريح أحد العابرين من الصالحين المجهولين · كلما استعدته أكاد أنفطر ، أوقن أنه يتنفس · أن الغطاء يرتفع وينزل بتأثير شهيق غامض وزفير محير . أكاد أتذرى ، لست شرقيا أو غربيا اذ أستعيد الشريط الأصفر ، مكتوبا بحروف كبيرة ، متداخلة لم ينسـخها كاتبها ، انما بذل الجهد لمحاكاة المعنى :

« قل لا أسألكم عليه أجرا · الا المودة فى القربى ·· » بقدر همى وتوقى ، بدأت أقف على ما لم أتبينه جليا من قبل وأنا ممعن فى غمارى ·

ما كان راسخا عندى يتشظى ·

ما ظننت أنه يبيد أبدا · لا ألمحه مهما سددت البصر · واذا خطر فلا يسفر الا عن نتف باهتة كأنها تخص غيرى · كنت عند بدء وعيى بذلك يكاد الدمع يفيض ، واذا رآنى من يعرفنى أو من يجهلنى يظننى كالمغشى عليه من ألم الفقد ، لكن ·· مع طول رحيلى وتنقلى ييبس شئ لا يبين عندى ، صرت أتقبل ما كان وعرا على تحمله ، ولا أنفر جزعا مما لم يخطر لى توقعه ·

عندما ألتقيت مصادفة بالقافلة فى حومة السوق ، عند حافة المحيط ، آخر البر المعروف ، لم أدهش وكأننى توقعت ذلك ، عندما أخبرنى بموت الحضرموتى ، هفا قلبى لكننى سرعان ما وليت وان استعدته فيما تلا ذلك وتأسيت !

هل يقسو القلب مع طول السفر ؟ · لماذا أنسى ما ظننت أنه لن يفارق قلبى وبالى أبدا ؟ · هل الاقتراب من موضع المغيب له صـلة ؟

غير أني ترقرت أسفا عندما اطلعني على اختفاء جزيرة تنيس ، طغا عليها موج البحر اثر موت آخر شجرة بلسان ، بذلك اختفى من الدنيا ، أما الطيور فحادت بعد أن كانت تأتيها من كل فج ٠

كمدت ٠٠ مع أنني لم أر تنيس قط ، لم أمر بها ، ولن أشهدها ، ليس لاختفائها ، ولكن لموقعها الشرقي عندى ٠ بينما كل سعيى صوب موضع المغيب ٠

أحيانا أهفو ٠

لو أنني على مقربة من الأزهر الآن ، اسعى كل يوم الى ضريح مولانا وسيدنا الحسين ، أطالع الآيات المنقوشـــة على جدرانه ، وتنانيره ، ومشكاواته ، وأتنسم عبيره الخفى ، لو أنني أسعى ما بين بوابة الفتوح وميدان الرميلة ، لو أن امرأتى الواحية تنتظر عودتى عند الظهر فى بيت مكنون بصحبة ابنى الذى لم أطالع وجهه !

لو تتجسد اللحظة الآنية فأحاط علما بما يجرى فى كل موضع حللت به ٠ لكنني أطلب المستحيل ، لو اوتيت البراق عينه فمجرد نقلتى من هنا الى هناك تلغى الآنية ، اذن ٠٠ ما أنا الا محكوم عليه بالعدم ٠ عندما أصل منتهاى تبدأ رحلتى ، كينونتى الحقة ٠

لماذا ضيعت ما ضيعت اذن ؟

ألم يكن ممكنا تلبية الهاتف فى دار اقامتى ؟

يبدو صاحبى ، مدون قولى ، وكأنه يدرك ما أعنى ، عرفه بدون رحيل ، بغير انتقال ، كذا ملامح الرجال المنتظرين هدوء البحر الأعظم فى مقهى البحارة ٠

استفسر صاحبى :

« ألم يرهقك الترحال ؟ » ٠

قلت :

« بلى .. » .

بدا متعجبا :

« لماذا المواصلة اذن وقد بلغت ما بلغت ؟ » .

قــلت :

« لكي يطمئن قلبي .. » .

الظـــلال ..

خطواته أقصر ، لكن .. أسرع ، النهارات تتوالى ، الليالى تنتهى لتبدأ ، كم غروب توالى عليه ؟ كم امتدت اقامته ؟ لا يمكنه التحديد ، انه يشك الآن فيما عنده .

هذا ما كرره أحمد بن عبد الله فى جلساتنا الأخيرة ، قال ان سنوات شتى تعاقبت عليه . يراها عند هذا الحد حلما يصعب أحيانا استرجاع تفاصيله وملامحه .

وقوفه اليومى عند حافة البر وأول البحر ، رؤيته الغروب أضاءت عنده ما ظنه معتما . انه يمضى الآن غربا بغير هاتف ، لا يعرف الى أين تؤدى المراحل التالية ، ما خلفه وراءه أكثر مما يتوقعه ، لا يترقب مثل الحقب المنقضية منه ، لكنه يتوجس خيفة بعد أربعين غروبا من مشيه وحيدا . منقطعا عن الخلق تماما ، بدأ ظهور نخيل ، أشكال غريبة من الصبار ، تغير لون الرمال من صفرة الى حمرة . أيقن أنه على وشك بلوغ علامة فارقة . خاصة عندما رأى طيورا محومة .

هل ترقبه ؟ تتحين اللحظة المناسبة للانقضاض عليه ، هل يدنو مصيره ؟ يعرف قدرة تلك الجوارح على رؤية سعى النمل من تلك الارتفاعات الشاهقة • ربما ترقب وهنه وكفه عن السعى لتأخذ نصيبها منه ، فى الواحة اعتقد أهلها أنها تبنى أعشاشها فى الفراغات العلا ، تبيض وتتكاثر فى السماء ، الحضرموتى أخبره عن أوكارها فى رءوس الجبال • متابعتها القوافل عسى أن يتخلف عنها ما يمكن التقاطه • مثل ضبع يتعقب ضحيته ، يراوغها مرة يأتى من يمين ، وأخرى من شمال ، حتى اذا تمكن الدوار وبدأ الخبال يدنو • يلحس ما تحت الابط • ما حول الاست ، يفكك أعصاب الفريسة ، ثم ينشب أنيابه على مهل •

لكم استعاد فى قفره نظرة الحضرموتى الحادة • تلويحة أصبعه القاطعة ، اذ يحذره من خطورة الاستسلام للوهن • للاسترخاء بعد بلوغ التعب درجة قصوى • واليقين من انقطاع السبل ، المسافر بمفرده أو الضال فى الصحارى يدركه هذا الضال ، الركون الى الكف ، التوقف عن السعى ، متعة بداية الصمت الأبدى ، قال الحضرموتى انه بقدر رغبة الانسان فى الحياة ودوامها • يسعى طائعا ، مختارا الى العدو ، هذا بيان ! ، لم ينس ذلك •

لكم ألح عليه الخاطر وقويت الرغبة ، أن يكف ، أن يستكين عند الموضع الذى بلغه ، أوشك على تقبل ما يصدر عنه ، لكنه يذكر الرجل النحيل الذى طاف العالم المعمور عدة مرات فينتفض مفارقا مكانه أيا كان الوقت !

عند الأصيل بلغ مرتفعا من الأرض ، الحواف الرملية كلها مؤدية الى المدينة • رآها مستقرة فى الوادى ، ألم بحدودها ، كل أسقفها بادية ، من قرميد أخضر ، أما الجدران فبياضها شاهق ، دقق فميز أفنية البيوت ، والمداخل ، والأزقة الصغيرة والطرقات

الفسيحة · فى الوسط ما يشبه المئذنة ، برج مستطيل حوله ثلاث شرفات ·

كأنه يكتشف الهواء أول مرة ، لينا ، طيبا ، لابد أنه مر على بحر قريب ، أيقن أن زرقة الموج قريبة ، استنشقه مستسلما للحنين وتوقع الوصول !

صحيح ·· أنه لا يعرف ما سيلقاه ، لكنه لم يعد يفكر كثيرا ، لا يصبأ ، بل انه لا يتعجل اللحظة المرتقبة ، بل يؤجلها قليلا ، عندما يخلو بأنثى جميلة طال شوقه اليها ، لا يتعجل عريها ، انما يؤجل لحظة الكشف ، للتوقع لذة ·

شرب ثلاث جرعات ماء من الركوة ، استجمع قواه ، على مهل حذر نزل المنحدر ، بدا العصر هادئا ، واعدا بامكانية ما · فى الواحة يمتد الأصيل ، يقع الغروب بغتة ، تنطفىء الشمس بلا تمهيد ، اختلف الأمر فى اقليم الطير ، اذ يستمر النهار الخادع حتى يستقر الليل · كثيرا ما تأمل تلك الظـــاهرة من شرفة القصر الدائرية المخصصة لامعان الفكر ·

أحقا عاين هذا ؟

ترى ·· من شغل مكانه ؟

من قدم بعده ؟

هل ظهر القيم بين المنتظرين ، المستقبلين ؟

من القادم الجديد ؟ ما ملامحه ؟

كيف تبدو صورته في لوحات البهو الأعظم ؟

لا تتوقف الأسئلة عن التداعى ، المهم الآن ·· ماذا ينتظره وراء تلك الأسوار ؟ · حتى اللحظة لم يطلع على انسى أو حيوان

أو طير ، ليبدأ البحث عن أبواب السور ، منافذه ، لكل أمر مطلع ومفتتح • يقول أحمد بن عبد الله انه رأى أعراضا لم يسمع بمثلها • تداخل عليه الوقت ، لم يعد قادرا على تحديد المدة • كذلك رؤيته لمن أحب ومن عرف ، أو من خطر على باله ، أو عايشهم زمنا ، قبل لوح النسيان وزيغ البصر •

فى لحظة غروبية طالع امراته الواحية ، ماثلة أمامه ، تماما كما فارقها ، فى أوجها • مقبلة ، متطلعة •• لكن الى جهة أخرى ، كأنه لا يمثل أمامها ، لا يفصله عنها الا مقدار خطوات ، مسافة لا تزيد أو تنقص ، مهما أقدم أو قطع ، مرة أخرى كف ، لزم مكانه واكتفى بالتطلع صامتا بعد يقينه من انعدام الفراغ اللازم لمرور صوته ، كلاهما لا يسمع الآخر ولا يراه •

تتوالى عليه المواجيد ، وحالات الانتشاء ، حتى ليبلغ منها ما يطاله الرجل من المرأة ولكن •• بدون تماس ، بالضبط كامتلاء المرء ، يضاجع الهباء ، بينما يصل الجسد المحسوس عمله •

رأى البنية الفارهة ، اللدنة ، فى وضعها المنحنى ، لم يدركها رغم ملكه ، بقيت صورتها تلهب مخيلته بعد أن أبقاها فى دائرة التمنى •

تابع صبية العكاكيز ، كانت تتثنى ، تتمايل ، مبرزة شرافات جسدها وأغواره ، كيف لا يتحرك عنده نبض ؟

يرى فتاة فتحت بابا مغلقا أثناء عبوره طريقا فى مدينة جبلية ، فور وقوع بصره على ملامحها ، صاح :

« اللـــه •• »

لكنها سرعان ما ولت ، لم يخف أسفا ، تتداخل الملامح ، يمتزج بعضها ببعض • تتشوه ، تفقد خصوصيتها ••

كان ذاك زمن رياسته ، عندما أهدته قبيله سكن المقاطعه الحدودية ابنه زعيمها ، بدت نحيلة ، خاملة ، كثيفة الخجل ، حتى انه أمضى ثلاثة أيام لم يطلبها لتناول العشاء معه وقضاء الوقت ، مما اضطر القيم الى تنبيهه بلطف ، فى اهمالها مخالفة للأعراف والأصول الرئاسية ، قبيلتها فى كرب ، ورجالها مازالوا منتظرين المنديل الأبيض المبرقش بنفط الدم ، تأخيرهم يعنى أنه ما من رجل فيهم سيمكنه رفع عينيه فى أى مخلوق ، ربما أدى ذلك الى فتن واضطرابات ٠٠ !

عندما نظر اليها أيقن من الجهد غير العادى المبذول لاعدادها له ، أطرقت ، تطلع اليها صامتا ، فجأة ٠٠ جذبها ، فوجئت ، لكنها لم تقاوم ٠

بالطبع ٠٠ على قدر المحبة تكون العناية ، ولأنه كان مستهينا فلم يحرص ، لكن مع اللحظات الأولى بدت علامة بدلت أحواله ، اذ رآها تعض شفتها السفلى بسنتيها البارزتين ، مجرد اقدامها أشعل دفئا حميما عنده ٠ اتقد عندما أصغى الى درجة صـــوتها المتخثر :

« خذنى بالراحة ٠٠ »

لم يسمع مثله ، اعتاده ، لم يتم أمره معها الا بعد مناغاتها ، ونداءاتها ٠ تسربها الى دمه ، الى أقصى خلاياه ، فى كل مرة يميل دماغها ، تغمض العينين ، يمرر تحت فتحتى أنفها خلاصة النعناع المركز ، تفيق فيمتزجان ٠

هذه الهادئة الملامح ، داخلها بئر نفط مشتعل ، لم ير مثل ذلك ، استعادها باستمرار ، واستمد من وقتهما المبدد نشـــوة حاضرة ٠

رآها هنا . تمكن بصره منها ، وثق آنها تتطلع اليه ، لكن ما من تعبير باد على وجهها ، ما من رد فعل لمثوله فى مواجهتها .. أمامه صاحب نسيه منذ زمن بعيد ، كانا صديقين . لا يفترقان ، لكم أقسما على أن يلزم كل منهما الآخر . ثم كرت الأيام ، تذرى كل منهما فى ناحية ، لسنوات نسى ملامحه حتى رآها أمامه ماثلة فتساءل عما اذا كان حيا يسعى أم أنه غاب الى الأبد ؟

شيخ مهيب ، صموت ، كان يظهر عند المنحنى قادما من الحوارى الجوانية ، قفطانه شاهى ، لحيته بيضاء ، كان يلقى درس العصر فى صحن الأزهر ويصلى المغرب وخلفه الخلق ، لم يعرفوا اسمه ولم يطلع أحد عليه ، أسماه الناس بالجوانى لأنه كان يجىء من هناك .

حلاق ، كل شىء يمت اليه نظيف ، يبدو دائما متأففا ، شاكا فيما حوله ، نافضا الغبار دائما عن كل ما يحيطه . اذا رآه واقفا أمام دكانه يسرع الخطا ..

بائع جبن ، عيناه واسعتان ، اذا كشف رأسه بدا شعره غزيرا ، منمقا ، ناعما ، مسترسلا .

ملامح لا يذكر أسماء أصحابها تتوالى . مواضع مر بها يوما ، أشجار عتيقة ، نخيل ، موائد طعم منها ، أرائك جلس عليها ، يبدو هذا كله أمامه ، لكن ثمة حاجز شفافا حتى لا يمكن رؤيته أو اجتيازه، لدهشته رأى ما لم يره فى حينه ، بينما غابت عنه أمور ظن أنها ستتمكن منه أبدا .

ما تعجب منه أن تقديره للوقت اختلف فى أثناء انتظاره ، كأن الشمس تتخذ مدارا أسرع ، أو فى بعض الساعات بعضها تندغم . كثيرا ما ردد : هل أتى عليه زمن لم يكن شيئا مذكورا ؟

حدث أحمد بن عبد الله فقال انه عند لحظة لا يمكنه تحديد موقعها ، شعر بالبوابة تفتح قبل أن يرى مصراعيها منفرجين ·

اجتـــازها ··

بمجرد عبورها كأن غشاوة أحاطته من قمة رأسه الى أخمص قدميه ، دثرت وجوده المادى · رأى الضباب خلال رحيله فى درجات شتى ، من خفيف هين الى كثيف كاللبن ، لكنه اختلف هنا ، بدا سائلا باستمرار ، كما تفرد الضباب القادم من المحيط والذى فوجىء به هنا ، فجأة يظهر من العمق السحيق ، يتقدم فى كرات جلزونية هائلة ، يشمل كل شىء كالنبأ العظيم ·

فى الواحة يخشون ظهوره · ذات صباح بدا كأنه قادم من أعماق الأرض · اضطربت امرأته ، قالت ان هذا نذير · تطلع اليها جائرا فوجىء بانطوائها ، بابتعادها ، بتوجسها ·

ما أكثر ما اطلع عليه من معتقداتهم ، لا يرون نخلة أنثى الا ونطقوا بتحية حارة · لا يعبرون جسرا أو شقا فى الأرض الا بعد استئذان القرين الخفى المقيم تحت الأرض · لكل شىء ظاهر عندهم حضور آخر خفى ·

اذا بدأوا الطعـــام تمتموا · اذا فرغوا تلفتوا حولهم ثلاث مرات · اذا انتقل أحدهم من بيت الى بيت لزم أن يتلو عبارة عند البوابة تعنى أن باب الأول يسلم على الثانى ·

حرصوا على ألا يلقى كبير أو صغير نواة بلح فى عرض الطريق ، لابد أن يقوم كل منهم بوضعها فى جرة ذات شكل خاص توضع تحت الابط · ما أكثر ذلك · لكن ·· أين انقضى ؟

تفاصيل دقيقة تتوالى عليه بينما يلفه هذا الضباب الغريب ، لم يكن باستطاعته رؤية أصبعه لو وضعه أمام عينيه مباشرة ،

ولا تلك الزاوية من أنفه التى اعتاد النظر اليها اذ ينظر الى أسفل محاولا ادراك ملامحه بنفسه ٠

لم يكن بحاجة الى انضاء وقت آخر ليدرك أنه وصل الى درجة يمكنه فيها السعى بدون رؤية ٠ كافة ما رآه من الخارج عند وقوفه فوق المرفع ٠ البيوت ، الأزقة ، القرميد الأخضر ، له وجود مغاير بعد عبور البداية ، يمكن القول انه اللاوجود ، ليست الأشياء فقط ، انما البشر ، ليس الساعين ، انما كل حى ، كل وافد ، انتقى كل محسوس ٠

تماما ٠٠ مثل لحظات الانتقال من اليقظة الى النوم ٠

ذلك الحال ٠٠ عندما يحلم المرء أنه يطير فى الهواء أو يسبح تحت الماء ، هذا بالضبط ما لقى نفسه فيه ٠

لا يذكر متى بدأ معه هذا العرض ، فى الواحة أو اقليم الطير ، المؤكد أنه لم يعرفه فى زمنه المصرى ، وخلال مراحل القافلة ، حال مقيت ، لا قدرة له على دفعه ، أو منعه ، يداهمه حيث لا يتوقع ٠

يصحو فى أثناء نومه ليجد نفسه غير مستيقظ ٠

يكون وعيه حادا ، منتبها لكافة ما يحيطه ، لكنه غير قادر على تحريك أطرافه ، أقصى امكانه اصدار صوت مكتوم من أنفه ، لكم أفزع ذلك امرأته الأولى فى البداية ٠ كانت تهزه برفق هين ، وهى لا تدرى ماذا تنطق ؟ وأى عبارة تلفظ ؟

اذن ٠٠

عرفه أثناء مكثه فى الواحة ٠ يتذكر مضيها الى قصاص الأثر ٠ أوصاها الرفق به ٠ ألا تفزعه ، انما تأخذه على مهل ، فلن تقدر على الشياطين التى تدخل فى عـــراك مع زوجهـــا لاختطافه من عالم البشرية !

فيما بعد ادرك أن ما ظنه وعيا حادا انما هو مجرد وهم . بالأمس كاد يهلك لطول النزع ، فى كل نوبة يسمع خطا امرأته الواحيه ، اذ تقترب يهدأ عراكه مع المجهول ، تخفت مقاومته انتظارا لسماع النداء واللمسة الحانية التى ستنهى وثاقه الكونى ، لكن صوتها لا يصل اليه ، وجودها يظل بمنأى .

ماذا جرى ؟

تباغته دفقة من الوعى المفاجىء ، انها قصية عنه ، فارقها مرغما ، انه فى مكان جد مغاير ، وسرعان ما يستأنف مشقة النزع أو تستأنفه .

أقول أنا جمال بن عبد الله مدونه اننى اقتربت منه مشفقا ، بدا متعبا مجهدا ، كأن نصب الرحلة حط عليه مرة واحدة ، أثق فى أنه يرغب الافضاء بشىء كثيرا ما لمحته فى طلة عينيه ، على حافة شفتيه ، لكنه لا يبين ، لما طال صمته وسمعت أنفاسه مجهدة متلاحقة ، اقترحت خروجنا معا الى شاطىء البحر المحيط . أشار بيده ، قال انه مطلعنى للتو على ما جرى له فالغروب شديد !

قال ان ما يمر بنومه مؤقت ، لكنه يلقى عليه ظلا ثقيلا ، حذره قصاص الأثر من تهجد الأنفاس ، ربما يلقى خاتمته اذا ثقل عليه الأمر ، أما ما لقى نفسه فيه بعد عبوره البوابة فكان شاملا . طفا فى فراغ لا نهائى . ما من يابسة تحته ، ولا جذع يمكن الاستناد اليه . فقد وعيه بأطرافه . يدرك وجود ساقيه ويديه وصدره وجذعه . لكنه لا يراها . سائر أعضائه مجرد فكرة مستقرة عنده ، كذا حركته ، يخطر له المشى فيدرك أنه يسعى بدون خطو . بينما تتوالى عليه مرئيات متخيلة تتارى طبقا لسرعته المفترضة .

يفكر أنه يمضى فى طريق ممتد ، اذا خطرت له ناصية ظهرت واذا استدعى مدخل بناية رآه كما صاغه عقله ، واذا رغب فى

شرفات مطلة مثلث على الفور ، أمامه تقوم بنايات لا تمكث الا مقدار مرورها عبر وعيه · اذا شرد قليلا اختفت المعالم وانطوت الواجهات ودرست الرسوم · وامتد ذلك الفراغ المتماهي اللين الذى لا يمكن التشبث فيه بشيء ·

تماما مثل المحيط ·

لا أول له ولا آخر · لا يمكن تحديد نقطة بداية واخرى للنهاية ، الغروب فيه اشارة ، وزرقة الموج لا يطالها ادراك ، فيه انتفاضات الحياة ، وارتجافات الموت ، عات ·· لا قبل لانسان به ·

أصـــــوات !

خرير ماء · ربما ينحدر من مرتفع · أو يتدفق من صنبور الى حوض من مرمر ، يترقرق في جدول مفروش بالحصى ·

أصوات متداخلة ، بعضها واضح ، تتضمن تساؤلات :

من هو ؟

من أين جاء ؟

الى أين وجهته ؟

كأنها صـــــادرة عن محققين ، بوعيه الطافى أجاب عن كل استفسار رغم جهله بالمصدر ، وانعدام اليقين ، يحاول استدعاء الأقربين ليأتنس ، لكنه لا يرى الا ظلالا مارقة · أمه مجرد اصداء ، همسة سرعان ما تتلاشى ·

أما والده فلم يتبق منه الا معنى يشى بحيرة خفية ، غامضة ، وخطوه اذ يسعى ·

عند حد معين أيقن أنه لم يعد بمفرده ، أنه يتماس مع كيان آخر ، أنثوى الحضور ، وجد لذلك متعة · لكنها ليست مما عهد ·

جديد عليه ذلك ، يعيشها لكنها تبدو مستعادة عبر الحنين ، تتداخل مع بقايا عطر منبعث من خشب الصندل ، وعبير شعر منسدل على عنق سرح ، متطاول ، مؤد ، انبعاثات الزوايا الدقيقة للجسد التأجج ، لكل منهن عقبها الخاص ، حتى المستدعيات بالمخيلة !

يتعرف على المدينة غير المرئية ، يقترب من تحديد بعض المعالم ، يبدو ان مهمة أسندت اليه ، وظيفة أو تجارة يتكسب منها أو ينشغل بها ، ربما يكتب أوراقا قصيرة تشبه الايصالات ، يسلمها الى أناس شتى لا يمكنه التحق من ملامحه ، سرعان ما يولون مبتعدين موقن أنه صاحب تجارة ما . يجلس عنده ناصية سوق التوابل والعطور ، فى دكانه أوعية لم يتبينها تماما ، أهى مصنوعات جلدية ؟

رائحة جلد مدبوغ ، لكنه يشك فيما يرى ، لا .. ليس متجرأ للجلد ، انما محل صغير ، عطور .. أرفف من خشب قديم ، مطرزة ، مطعمة الحواف . تغطى الجدران ، زجاجات صغيرة ، بعضها ملون ، دقيقة الحجم ، فل ، ياسمين ، جلنار ، شقائق نعمان ، بنفسج ، نرجس ، عود ، قشور أشجار تنبت فى أقاصى الدنيا ، عنبر يطرحه المحيط ، يطيل النظر الى اناء زجاجى داخله ما يشبه تمساحا دقيقا جدا ، ساكن الحركة ، أسير سائل ثقيل القوام .

يتذكر قولا لا يدرى اين سمعه ولا من قائله : تاجر العطور لا يخسر أبدا ، اذا بارت تجارته فحسبه أنه تمتع برائحتها . لكنه يرى نفسه على رأس قافلة من الجمال ، يعبر دربا ضيقا يحفه سور من طين لبن قديم يبرز فوقه سعف النخيل ، وللنخيل عنده شأن عظيم ، يمشى سعيا الى منحنى لم يبد بعد ، من أى جهة قدم ؟ الى أين ؟

لا يدرى ..

غير أنه موقن من امتلاكه مقهى ، صغير الحيز ، لطيف المكان ، يتوافد عليه قوم صامتون ، يقصد قرب مدخله عند موضع مرتفع قليلا يشرف منه على الكافة ، دكك مستطيلة ، مناضد مستديرة ، مقاعد من الجريد ٠

أين المقهى ؟

لا يمكنه القطع ، حتى الكيان الأنثوى الذى لازمه ، تداخل به لا يعرفه ٠ كيف يخلو اليها وكيف تقرن به ؟ لا يمكنه توصيف لحظات المتعة التى يتفجر بها عند توالج عالمهما ٠

أحيانا ٠٠ يوقن أنه كله مستعاد ، حتى الآتى منه ، ما هو الا ظل لأصل فى مكان ما ، كل ما انقضى منه فى متناوله ، لكن ٠٠ ليس كما عهد ، انما كأصداء لا يدوم أحدها ٠ وغمامات عابرة ، قطرات متدفقة ، لا تثبت الا مقدار عبور الموجة للموجة ٠

ما من كينونة محسوسة ، ما من ثابت مدرك ، المدينة تتحدد عندما يشرع ، وتزول اذا أراد ٠ كل الطرق تبدأ منه وتنتهى اليه ، ومعها اللحظات المولية والقادمة ٠٠ تماما كالمحيط ، بمقدار التحديق واطالة النظر يمكن الاطلاع على ما يبغى ٠

ما طمح الى رؤيته شاهده ، لكنه لم يدركه ، اطلع على القصر الكبير المطل على الطريق الرئيسى فى القاهرة ٠ رأى كافة المآذن ، والمداخل التى اجتازها أو عبر أمامها ، تلك التى تأملها طويلا ، والتى لم يعن بها ٠

أطلع على كافة من وقع بصرهم عليه ، ومن رآهم بنظره ، طلاب علم ، تجار ، شـــيوخ ، جنود ، روم ، صقالبة ، زنوج ، كرد ، جراكسة أرمن ، أوزبك ، تركمان ، سفراء من الهند والصين ، رعاة ، زراع ، صيادو ســـمك ، أطباء ، حجامون ، مجبرون ،

مصحفون ، علماء فى الانواء والبروق والطيور ، فى الآفاق ، فى الصخور ، عند الشفق والليل وما وسق ٠

كافة ما رأى ، محلات ، ميادين ، برارى مقفرة ، أقاليم شتى ، الصداقات والعداوات والخلافات ، ما حاول ادراكه مرارا وما جهد لكى يلحق به ، قلاع يسكنها مرابطون لا يغفلون ٠

هذه شجرة عتيقة ، ضاربة ، مالت بعد انتصاب جذعها ، انكشفت جذورها الدفينة ٠ جفت واسودت ، لكن بقيت صلة واهية وتتفرع الغصون ٠ هذا من غريب ما رأى ٠ عاوده مرارا رغم كثرة ما مر به من عجائب ٠

لكن ٠٠ لم الدهشة ؟

اذا كان المحيط الأعظم أصله قطرة ٠٠ فلم العجب ؟

قال صاحبى أحمد بن عبد الله وصوته يتخذ نبرا هادئا حرت فى توصيفه ، فلم أجد الا الهدوء الأتم والطيبة والسكينة ٠ الصوت الملازم للمراحل النهائية ، للخواتيم ، عندما تتمهل الاندفاعات ، ويدرك البصر ما كل عن الاحاطة به ، ويبدو قريبا كل ما ظنه المرء بعيدا ٠ قال انه لا يعرف حتى الآن كيف رجع الى وضعه الأول خارج المدينة راضيا ، مرضيا ٠

هل تردد الهاتف داخله ؟

هل أتاه من بعيد ؟

هل أمره باستئناف الرحيل الى موضع الشمس ؟

يسعى الآن صوبها بدونه ٠

قال غفر الله له :

« لم يهلكنى الا الحنين الى ما لا يمكن ادراكه ٠٠ » ٠

رب أعن ٠٠

حدث جمال بن عبد الله ، كاتب بلاد المغرب ، قال

٠٠ لم أفاجأ الا أن خواء بدأ عندى ، اذن ٠٠ قدر على أن أودع واستقبل ، أن يعبرنى الآخرون وأبقى ٠ أن أنتظر ٠ بدءا من ابنى شقيقى ٠ الى أى أرض انتهى أكبرهما بعد أدائه فريضة الحج منذ ثلاثة وعشرين عاما ؟ أو ٠٠ فى أى بقعة هلك ؟

هفا على الأصغر ، طالت رحلته منذ اقلاعه فى الحريف ٠ سبع شـتاءات ولا أعـرف عنه شيئا ٠ يماثلنى أحمد بن عبد الله عمرا وطولا وشرود عينيه رأيت فيه سرحاتى ، أشعر كأنه ابنى الذى لم أنجبه ٠ كل ما أفضى به استقر عندى ، حتى حنينه واشتياقه وحزنه على اختفاء زهـر البلسان وغرق تنيس وحرمانه من اجتياز المداخل التى ألفها وعرفها ٠

أبدى التصديق والفهم عندما أفضيت اليه بنبأ الصبية الهندية، أثق أنه يدرك ، لكنه لم يبح ، تداخل الأمر على ، فلا أدرى ما وقع لى حقا وما توهمته ، كلاهما تساوى ، رب يسر ٠٠

أجلت رفع تدويني الى سلطان الديار ، تلك أوراق لا تخص غيري ، لم يملها على غريب قدم الينا من المشرق وقص على القوم ما عاينه من أمور تحيد البصر الحسير ، ما تحويه متعلق بي ، ليس لأنني كتبت حروفها ، في الأيام التي جمعتنا لم أكن مصغيا فقط ·

لم أحط به كله ، لم يطلعني على الكتب التي حوتها مخلاته ، فاتني ذلك ، فاتني الكثير مما رغبت معرفته ، ولكنني وقفت على كثير ، وددت ألا أطلع مخلوقا على ما أفضى به الى ، كأنني أهتك سري ، الشيخ الأكبري لم يفاجأ ، وكأنه على علم ومطلع ، رأيت ملامحه كما لم أواجهها من قبل ·

بعد تمام يقيني من غيابه طلبت منهم الذهاب بي الى الشرفة . حملوني أنا المقعد الى السور · جست بعيني عنده أفق المحيط ، من أى فج عميق تنبع هذه الأمواج ؟ والى أى مستقر تمضي شمسنا تلك ، لم يرجع منه أحد . ومازال القوم يتوقعون عودة الفتية المغرر بهم ، رغم أن النساخ أدرجوا رحيلهم في أوراق العجائب ، هل لحق صاحبي بهم ؟

هذا أفقي المبين ، الى هذه المواضع الصعب ادراكها نظر طويلا ، آكاد أوقن أنه يراني من مكان ما ، من نقطة يصعب رصدها أينما وليت وجهي أدركه ، أثق من تمام وعيه ، أن مغيب الشمس عندي ، أمامي وخلفي ، فوقي وتحتي ، لحقت به في ثباتي ، ودنا هو منه بعد ترحال طويل ·

حركة المحيط الجبارة نتاج أنفاسي ، وتسعى أمواجه لتتلاشى عند شواطيء ذاتي ، كان يمكنه تلبية الأمر هناك ، لكنه رحل ، وما الرحيل الا عنده وعندي ·

ما الشمس الا علامة ، سفرها اللانهائي مشروط ، وما الشروق وما الغروب الا داخله وداخلي · كل يمضي الى أجل مسمى ، كل

يستجيب الى الهاتف الذى لا يرد ، كل يصل الى شرفة كهذه ، مرئية أو غير معاينة ، عندها تحل السكينة ، وتطول السرحات ، وتفيض الطلات محبة وشفقة ٠

لم يكن رحيله الا رحيلى ، مدارجه مدارجى ، أوقن أنه جاء الى الدنيا لحظة وفادتى ، أنه فطم وحبا وسعى معى ، وعندما بزغ الهاتف لبيت فى ثباتى ، واستجاب عبر رحيله ، لذلك غيابه غيابى ٠

بعينيه ألبى ، أتطلع ٠

أرقب الشمس الدانية من حافة المحيط ، حتى اذا اكتمل مغيبها ، ورحت أتعلق بصفرتها المعلقة فوق الزرقة الممنوحة منها للمدى الواسع ، يكتمل يقينى أنه أدرك ما أراه الآن ٠ وأن اكتمال الموضع عندى وعنده ٠ هذا غروبنا المدبر ٠ ومجهولنا المسفر ، فأين قرارنا المكين ؟

جمال الغيطانى

١٩٩٠ ـ ١٩٩١



متون الأهرام

متن أول

تشــوف

عرفه أول سعيه ، غير أنه لم يحط بخبره الا بعد التمام .
وما بين البداية والنهاية استغرق الأمر سنوات طوالا ما تزال أصداؤها
سارية ، ممتدة ، كذلك وجوده ، حتى وان أصبح غير ماثل مع
تمام اليقين بانتفاء امكانية اللقاء والمخاطبة .

رغم ذلك يثق أنه هناك ، يمكنه أن يمضى فى أى وقت فيلقاه ،
يفد على ذاكرته فى أويقات متباعدة ، مختلفة ، يمثل بقوة حتى ليكاد
يلمسه بيديه ويسمعه بأذنيه ، الا أنه وثيق الصلة بمواضع معينة
لا يمر بها الا ويجىء .

« لا تستدعى الذاكرة لحظة ما الا مقترنة بموضع ما » .

لحظات من النهار الشتوى أو الخريفى أو الصيفى ، يبدو
خلالها مبتسما بهدوء ، قامته الممتلئة ، مستقيم الظهر ، بارز الصدر
لم يغير جلسته طوال أعوام ، كذا وجهة عينيه ، ونظراته ، حتى

عند حديثه الى آخرين ، أما تعبير الدهشة فمبادر دائما ، كأنه يطالع أمرا عجبا للتو ٠

مواضع شتى ارتبطت به . أهمها جامع الأزهر وما يتعلق به ، الرصيف المحاذى لباب المزينين ، المؤدى الى الرحبة الفسيحة حيث الصحن واطار الأعمدة والمزولة فى الجهة الغربية ، والأروقة المشرقة والظلال ومهابة الشيوخ الماضيين ، وأنفاس الصالحين الذين لزموا وعشقوا بعد أن عرفوا ٠

« **يستحيل العشق بدون معرفة** » ٠

أما اللحظات فتمت الى الصبا ، الى زمنه الأول ، عندما كان كل شىء مقبلا والتطلع الى الأمام غالب ، عام ٠ الى ذلك الرصيف جاء صبيا دون العاشرة ، عبر ميدان الحسين اليه ، لم تكن ثمة حواجز تقسم الطريق ٠ المكان متضام وقتئذ وأعمق ألفة ٠ قربه ينتهى خط للترمواى رقم تسعة عشر ، واجهة المركبات مقطبة حزينة ٠ يرمقها فى موضع قصى من ذاكرته المثقلة الآن ، طلاء أصفر فاتح ، عجلات سوداء ، مصابيح عميقة ٠

كيف اهتدى اليه ؟

لا يمكنه التعيين أو القطع ، ربما أثناء تجوله مع صحبه بعد الخروج من المدرسة الاعدادية القريبة ، كانوا يشرعون فى استكشاف الدنيا عندما يعبرون ميدان الحسين أو ميدان بيت القاضى ، أما ميدان العتبة ، والأوبرا ، فلا يجرؤون الا بصحبة آبائهم وذويهم ، أماكن كانت قريبة البعد بمقاييس الوقت المنقضى ٠

« **الأمر دائما نسبى** » ٠

لو قارن ما حل به من دهشة بمقاييس حاضره ، لعادل عبوره شارع الأزهر قديما وصوله القطب الجنوبى الآن ، أو حواف

سيبريا ، أو مضيق بيرنج · بل ان عبور قبو غامض ليثير فيه من الرعدة والتوق والحذر ، ما لا تقدر قوى شتى أن تبعثه ·

« للبدايات دائما شأن عظيم ، والبدايات لا تتكرر أبدا » ·

البداية لحظة ، تحتوى المكان والزمان ، بعض النقاط يمكن تحديدها والأخرى تتوه فى اجمالى البنية الغاربة ، لذلك لا يمكن تحديد يوم معين لرؤية الشيخ تهامى أول مرة ، كيف اهتدى اليه ؟ ما من اجابة مؤكدة ، غير أنه من أوائل الذين اتصل بهم وتعامل معهم مباشرة فى سنه المبكرة تلك · كان يعرض الكتب القديمة يرصها بحذاء الجدار الرمادى العتيق ، عناوين مختلفة : فقه ، تفاسير ، تاريخ ، روايات طبعت فى سنوات من القرن الحالى أو الماضى ، يقعد فوق كتب مرصوصة ، مربوطة بحبل متين · تتلامس راحتا يديه بين ركبتيه ، يكتب الأسعار بقلم رصاص على الأغلفة الخلفية ، لا يجادل ، لا يناقش · لكن ·· اذا اقترح المشترى سعرا أقل وبدا ذلك نتيجة حاجة وانعدام قدرة فانه يومىء فقط ، يهب الكتاب مقابل ما يمكن دفعه ، لكنه لو لمح استهانة أو استهتارا ما فانه يتطلع بقسوة ·

« يولد النهار من الليل ، ويخرج الليل من النهار » ·

كان يرقبه صامتا ، مترفقا · بعد تأكده من اهتمامه وجديته رغم صغر سنه بدأ يقترح عليه ، يدله · كان يتناول الكتاب ويقعد عند الطرف الآخر ، لا يقوم الا بعد الانتهاء ، كثيرا ما استغرقته العوالم المتخيلة ، فلا ينتبه الا عند اضمحلال الضوء وبدء الغروب · اقتراب الرجال المكلفين باشعال المصابيح المرتفعة المطلة على الطريق ، يسندون السلالم النحيلة ، يصعدون بسرعة فوقها ، بيدهم عصى طويلة تنتهى بما يشبه الكرة ، تابعهم يوميا باهتمام ، ولم تقع

عيناه على مصباح اضاءة فى أى مدينة نزلها ، أو ى جسر عبره ، الا ويتذكر على الفور ملامح أولئك المجهولين العابرين ·

« **انها للزيارة ، ليست للاقامة** » ·

تلك اللحظة لا تحل عنده ، الا ويستعيد جلسته وابتسامته الغامضة ، واتجاه بصره صوب الغرب ، كأنه ينتظر خبرا أو يتوقع قدوما ما من تلك الجهة ، أو يتابع أمرا لا يعرفه الا هو · فى تلك الأيام كان فضاء المدينة صافيا ، مرهفا ، وكان الواقف فوق جبل المقطم يمكنه عد حجارة الأهرام اذا أوتى البصر ·

الأهرام ···

مقصد الشيخ تهامى ، لب اهتمــامه ، بؤرة تفكيره ، سبب وجوده فى المدينة · فى هذا الموضع ، من مكانه فوق الرصيف كان يطوف بالأهرام ، يدقق معالمه · رغم قيام عمارات عديدة عبر الفراغ الفاصل ، تحول دون وقوع عينيه على البناء الشاهق ·

« **أحيانا ترى البصيرة ما لا يراه البصر ، وأحيانا يرى البصر ما لا تدركه البصيرة** » ·

لكم رأى موجودات شتى رغم بعدها وخروجها من دائرة النظر ، ولكم غابت عنه محسوسات طال مثوله أمامها ، ليس هذ احاله بمفرده ، لم يختص به · انما يشمل ذلك النوع الانسانى كله ·

قال ان الواقف فوق مئذنة الأزهر يمكنه الاحاطة بأدق رؤية ممكنة لأهرام الغرب ·

وهل رأى انسان · أو أخبر نص قديم عن أهرام فى الشرق ؟

الوضوح الجلى يكون مرتين ، عند الشروق والغروب رغم قرب مئذنة مســجد محمــد بك أبى الدهب حتى يمكن للواقف بشرفتها

أن يتبادل الحوار بدون رفع الصوت عاليا مع الآخر المطل عبر مئذنة الأزهر ، الا أن الأهرام تبدو مغايرة · لسنوات طالع كافة التفاصيل فى الأوقات الخمسة السابقة على الأذان ، ثلاث مرات فى وهج الضوء وسطوعه ومرة مع اكتمال الليل وحلوله ، ومرة مع وهنه وقرب زواله · خمس مرات يوميا ، يصعد السلم الحلزونى الذى لا يتسع الا لشخص واحد · ما زال كثيرون يتحدثون عن قوة صوته ، ونفاذه الى الآذان القصية ، وفيضه عبر الفراغات الشواسع ، حدث عن رؤيته الأهرام واختلاف ظهورها عبر ساعات الليل والنهار :

« هل كان بامكانك مشاهدتها ليلا ؟ » ·

يتخلل لحيته شبه المثلثة · أصابعه نحيله ، طويلة ، الأهرام لا تغيب عنه أبدا ، اذا لم يطالعها بالبصر ، فانه يشهدها بقلبه ، وبقدر التركيز يكون الوضوح ، سواء كان الوقت غسقا أو فجرا ، ومن يثابر ، من يجالد الوهن والضجر واليأس فانه يرى عجبا ·

« ما يبدو واضحا فى حين ، يغمض فى آخر ، وما يكون غامضا فى وقت ، ينجلى فى وقت » ·

لم يصرح بأكثر من ذلك فيما يتعلق بالرؤية وتسديد البصر ، لم يل : لماذا التحق بالأزهر ، لم يفصل ·· أى علم درس ؟ أين أقام ؟ فى أى رواق ؟

كان يتدفـق باللفـظ ، بالجملة اثر الجملة اذا تعلق الأمر بالأهرام ، لكنه يضن ، يشح اذا حاد الحديث عن شخصه ، أثار صمته ودفقه الرغبة فى التخمين ومحاولة الوقوف على جوهر الأمر ، لم يكف عبر مراحل معرفته به ، استنتج أمورا بعضها أصبح مع الزمن يقينا ، من ذلك تأكده أنه التحق بالأزهر من أجل أمر يتعلق بالأهرام ، ومنها أنه لم يتم دراسته لغرض يتصل أيضا بالأهرام ، وفى كلا الحالين كان مأمورا · ليس بوسعه الرفض أو الاختيار ·

« السائل جاهل ، لكن ٠٠ هل المجيب عالم ؟ » ٠

لا يمكن القطع ٠ احيانا لا يكون بوسع المرء الا التساؤل والتيه عبر استفسارات لا نهاية لها ، هل قصد الالتحاق بالأزهر للاطلاع على مخطوطات محفوظة بالخزانة الأقبغاوية ؟ أو المكتبة الطيبرسية ؟ أو في داخل احد الأروقة ؟ لكن ٠٠ ماذا حال بينه وبين تلك الأوراق أثناء اقامته على مقربة من الأهرام ؟ يمكن لأى انسان أن يقصد مكتبات الأزهر ويطلع على ما شاء ، الا اذا كان ثمة نبأ بمخطوط لا يمكن اخراجه الا حين يقيم وينتظم ؟ هل يكمن قصده داخل المئذنة ؟ فتوسل باتقانه الأذان ، وجمال صوته وقوة نبره وعذوبة ترجيعه ، حتى ان كثيرين اعتادوه وانتظروا صعوده ، وتطلعه صوب الغرب ورفع يديه لتلامس أصابعه أطراف أذنيه ورفعه الأذان

هل كان يقصد التطلع الى الأهرام ؟

لو أراد مكانا مرتفعا لاتجه الى المقطم ، كان يمكنه ملازمة مسجد الجيوشى عند الذروة ، أو مسجد الأسباط السبعة ٠ هل كان يبحث عن خبيئة ما ؟

« من يثابر يصل ، ومن يعبر حاجز الوقت تكتمل له الرؤية »٠

عندما عرفه كان يلزم الرصيف قرب باب المزينين الرئيسى ، يحتفظ تحته بتلك المخطوطات العتيقة ذات الأغلفة الجلدية السميكة ، لم يفارق المكان الا مرتين ، أيام العيدين ٠٠ الكبير والصغير ، عندما يحيط رجال الأمن بالموضع كله قبل صلاة العيد بيومين حرصا على الزعيم الذى لم يخلف صلاة العيد بمسجد مولانا وسيدنا الحسين ٠ الحق ٠٠ انهم عاملوه برفق وهيبة ، لم يقسوا عليه باللفظ أو النظر كما يفعلون مع الباعة الجائلين والمتسكعين ، المترددين ٠ كان يجمع كتبه ويمضى فى صمت الى مكان لا يعرفه أحد ٠

لم يستفسر . وان كان الرصيف الخالي منه يثير وحشة مبكرة سيظل لها أصداء وترجيع ، دائما يتساءل : أى مرحلة عنده لقيه خلالها ؟ أى مخط فى طريق سعيه الى الاحاطة بالأهرام .

« بلوغ المراحل نسبى » .

لم يفض اليه بالغرض من مجيئه الى القاهرة الا بعد سنوات ، بعد أن عمق التقارب ، ودنت الكينونتان ، حدثه فقال انه مغربى ، تمتد أصوله الى قبيلة تقع جنوب الصحراء ، من هنا سمرته الغامقة وشعره الأكرت ، الجعد ، ولد فى مدينة قرب الجبال ، وان كانت تقع فى واد حصين ، بحيث يبلغ الانسان مشارفها ، ويكون على بعد أمتار قليلة لكنه لا يرى مبانيها وطرقاتها وميادينها ونواصيها الا عند دخوله اليها فعلا .

« كلمة ، أو نظرة ، أو ايماءة .. ربمـــا تحيد بمصير وتغير مسار حياة » .

منذ طفولته اختلف لطلب العلوم والحكمة والأدب الى شيخ طاف بلاد المشرق ، ودخل أقطار الزنج صحبه حتى صدر شبابه ، وعندما علم بخروج ركب الحج قوى عليه الحنين فشاور شيخه . بارك عزمه ، ورسخ من أمره . خرج طاويا المراحل ، ليس بنيته الا أمر الحج والزيارة . وصل أرض الحجاز ملبيا محرما ، طاف وسعى وشرب من زمزم ، وقف فوق عرفات ودعا . أفاض من حيث أفاض الناس . وبقى ملازما له . مصاحبا . لحظة وقوع بصره أول مرة على الكعبة الملتحفة بردائها الأسود . ومشهد القوم المتجهين صـــوب المزدلفة ، أرديتهم البيضاء فى غميق الليل ، والشـــعاب المؤدية الغاصة بهم ، والجبال الصماء المشرفة . أما مثوله عند ضريح المصطفى فله شأن آخر . رجع مع جماعته . وعندما حل بوادى زم بعد غيبة ، وقبل التماس الراحة سعى الى شيخه الحكيم ليقص عليه ما كان من أمره . بعد أن أصغى طويلا سأله فجأة :

حدثنى عن الأهرام وما رأيته منها ؟

تلجلج ، تردد :

ما عندى من المعاينة ما أرويه ، ولا أقدر أن أسوق حديثا صحيحا عنها ٠

أشاح بوجهه قائلا :

أخسس بهمة لطالب علم وحكمة ، لا يتشوق ، لا يتشوق الى معاينة ما يكمن من عجب ٠٠ ألم تعبر القاهرة مرتين ؟

أومأ مجيبا ٠ قال الشيخ :

ألم يكن بينك وبينها الا ركضة راكب ، أو دفعة قارب ؟ اذا لم يكن ذلك سقوط همة ، فماذا نسميه ؟

ثم أدار ظهره اليه ، وأطرق ، فلم يكن بوسعه الا الانصراف والمغادرة ، لكن ٠٠ منذ تلك اللحظة لم يطب له مقام ، ولم تلن له ضجعة ، أدرك أن مقامه فى مسقط رأسه انتهى ، وأن سنوات استقراره ولت ، وأنه يجب أن يرحل ٠

« كل شيء من لا شيء » ٠

فارق وادى زم للمرة الثانية ، خروج مغاير ٠ مختلف ، الأول له مدى ومراحل معلومة ، والثانى سعى الى مجهول غير مدرك ، فى الأول دافع نابع من أغواره ، فى الثانى كأنه مرغم ، لكنه راض أيضا وعنده تحد ، لابد أن يرجع الى شيخه بما لم يسمعه من قبل ، ما لم يعرفه السابقون ، حتى أولئك الذين عاينوها ، ودققوا وصفها فى كتاباتهم ، هكذا سعى ، مر بقرى ومدن لم يعرفها من قبل ونزل ضيفا على من يجهل ، رحب به من لا يعرف ٠ وصل بر الجيزة ، عاين أهرامات عديدة ٠ رآها من مسافات متفاوتة ، فى لحظات

مختلفة ، لم يحدد شيخه هرما بعينه ، سأل عنها كلها · تعلق بالأكبر ، لم يفارقه منذ وصوله الى نزلة السمان ، القرية الصغيرة التي يسكنها أعراب قدامى يطوفون بالأهرام سعيا الى الرزق ومنافع أخرى ، عندما جاء لم يكن هناك أى مناطق سكنية قريبة · كان الشارع العريض ، المزدحم ، المؤدى ، مجرد درب أو جسر أو طريق مهدته الأقدام والقوافل ، على جانبيه أراض مزروعة ، يتخللها بيوت صغيرة ، ونفر قلائل يبدون فى الفراغ كعلامات الكتابة ! حضور الأهرام مهيمن قوى ، يؤطر الموجودات · لم يكن مزودا بأى عنوان · لا يقصد شخصا معينا ، أو جهة محددة · أو مؤسسة ما ، كان على باب الله ، لذلك لم يشغله هذا قط · لم يؤرقه ، كان لديه يقين داخلى أنه لن يفتقد موضعا يحتمى فيه من وحشة الليل ، وقسوة الانفراد ، لن يعدم لقمة تكفيه ، كان مدفوعا ، غير عابىء بشىء الا المامه بكل ما يمكن أن يعينه على معرفة الأهرام ، والعودة فى يوم ما ، شهر ما ، سـنة ما ، لحظة معينة يمثل فيها بين يدى شيخه ، وفى الهدوء الذى يلف وادى زم ليلا يقص عليه ما أحاط به علما · كان يقينه الذى يصعب وصفه أو ادراكه أن الأمر كله لن يستغرق وقتا طويلا ، وأنه سيبلغ اليوم الذى يشد فيه الرحال الى الغرب ، الى العودة · لن يتجاوز الأمر كله سنة !

« لا يدرى الانسان أنه مسافر دائما ، ان فى حركته أو ثيابه »·

عندما نزل القرية الصغيرة القريبة من قدمى أبى الهول رأى المئذنة البيضاء المرتفعة فوق البيوت كافة ، دالة الى المكان الذى يمكن للجميع دخوله بدون دعوة أو ترتيب · فى اللحظات الأولى لم يثر ظهوره فضولا ، كانـوا يؤدون صلاتهم ، بعد انتهائهم مضى الى الامام ، نحيلا ، واثق الوجود · على وجهه رضا وقبول ·

غريب ؟

أومأ مجيبا ، لم يستفسر عن اسمه أو الجهة التى قدم منها او مقصده . هكذا تقضى أصول الضيافة المتوارثة ، ثلاثة أيام لا يسأل فيها القادم عن شيء ، ثم تقدم اليه أصول الخدمة ، وبعد الثالث يمكن الاستفسار عن الجهة ، والقصـــد ، الشيخ تهامى لم يلزم الصمت ، أفضى بخبره . قال انه طالب علم وعنده اهتمام بالنجوم ، وفى بلده المغربى من علمه أساس الصلة بين الأهرام والفضاءات القصية .

« الوافد من بعيد فى نظر القوم غريب ، وهم بالنسبة اليه كذلك ، فالكافة غرباء » .

لم يطمئنهم الا بشاشة الامام وترحيبه به . حدث منذ أربعين سنة أن ظهر غريب وأقام بالمسجد ، وفى الليلة الرابعة فوجيء القوم به يحاول التسلل هربا بعد خلعه المشـــكاوات الثلاث التى علقها الظاهر بيبرس بنفسه منذ سبعمائة سنة عندما جاء لرؤية الأهرام ، اعتـاد الأهالى ايقـاد الشموع داخلهـــا ليلة المولد النبوى الشريف لا غير ، لا الخفير ، ولا خادم الجامع ، ولا سائر الأهالى نسوا ذلك ، بستر من الله وتوفيقه كشفوا أمره . أمســـكوا به لحظة تأهبه للهرب ، انهم يحذرون الغـــرباء لأســـباب أخرى منهـا اعتقاد رجال الحكومة بوجود خبايا تحت البيوت ، ومداخل سرية الى مقابر فرعونية لم تكتشف بعد ، لذلك كثر بث العيون ورصد الآذان ، لم يهدىء خواطرهم الا اقبال الامام عليه وكأنه يعرفه ، أو كان يتوقع قدومه ، حلوله بينهم ، والحقيقة أنه بقدر ما كان الشيخ تهامى يتطلع برهبة الى القوم باعتبارهم الأقرب الى أسرار الأهرام . بقدر ما كانوا ينظرون اليه بخشية واجـلال ، هو القـادم من المغرب الأقصى . حيث العلوم الغامضة ، والقدرة على النفاذ الى الحجب غير المرئية ، لم يقلقهم الا أنه بمفرده ، أعزب ، لم يعتد أهل النزلة على اقامة مثله بينهم ، اذ يصبح مصدرا للقلق ، للتوتر ، للحذر الدائم ،

صحيح انهم يتحدثون الى أجانب من كل جنس وملة يؤجرون جمالهم ودوابهم ويعرضون مهاراتهم فى تسلق الأهرام أمامهم ، بينهم من يتقن عشر لغات أو أكثر باللسان فقط ولا يجيد كتابة اسمه ، لكم حيرته خبراتهم ، خاصة قدرتهم على الصعود السريع الى الذروة ، الى تلك النقطة التى تنتهى عندها الأحجار كلها وتبدأ اللانهائية التى يصعب ادراكها ٠

فى خلوته ، سواء خلال السنوات التى أمضاها على أطراف نزلة السمان أو رواق المغاربة بالجامع الأزهر ٠ أو فوق الرصيف المحاذى ، يستعيد ملامح الامام فيوقن أنه كان مدركا لهدفه ، ملما بغايته ، ينطق بذلك ما يصاحب وجهه وملامحه وابتسامته وهدوء ظاهره ، الغريب أنه لم يذكره مرة الا وأدركه حنين دامع ٠

« البقاء فى الفناء ، والفناء فى البقاء » ٠

استقر فى كوخ من خوص وجريد نخل عند حدود النزلة ، قرب الطريق المؤدى الى أبى الهول ، لم يفارق بصره الأهرام قدر الطاقة ، حتى ساعة نسخه الخطابات أو عرض الحالات التى يمليها عليه أهالى النزلة الذين لا يتقنون القراءة أو الكتابة ٠ كثيرا ما يمر الكبار والصغار بكوخه فيجدونه مفتوحا ، مباحا ، لم يغلق بابه قط ٠ لا ليلا ولا نهارا ، لم يكن لديه ما يخشى فقده ٠

« ما يكون قصيا فى البداية ، يصبح قريبا بحكم الوقت وقانون المدة » ٠

ثلاثة شهور كاملة رنا خلالها الى الأهرام ، خاصة الأكبر ، هاب الاقتراب ، اكتفى بالنظر من موضع قعوده أمام الكوخ ، رأى البنيان العجيب عبر ساعات النهار كلها ٠ حفظ حركة الظلال ، تعاقب الضوء على المستويات المختلفة من البناء ٠ ملامسة أشعة الشمس على الأحجار الضخمة ، المختلفة فى أوضاعها ، المتفقة ، تلك

الدعائم المستطيلة الموحية بمدخل مغاير لذلك النقب الذى فتحه عمال الخليفة العباسى المأمون زمن قدومه لجمع الثروة ، يقال ان رجاله عثروا بالداخل على مقدار من الذهب يوازى قيمة ما أنفق على فتح الثغرة ، لم يعرف القوم مدخلا آخر ، لكنه أكد أنه بمتابعة النظر ، وتدقيق البصر واقتفاء درجة انعكاس الشعاع واختلافه من موضع الى آخر كان على وشك تحديد مدخلين على الأقل لولا وقوع ما لا يمكنه ذكره أو التلميح حتى اليه ٠

« بالمداومة تقع الاحاطة ، شرط الالتزام » ٠

قال انه بعد مرور مقدار غير هين ، اطلع على الكتابة القديمة الممحوة فى الظاهر ، ذكر المؤرخون القدامى ومنهم المقريزى فى خططه أن الأهرام كان مغطى بكسوة وردية عليها كتابة بالقلم الغريب ، ثم اختفت ، لكنها لم تمح ، كان ظهورها مشروطا بأمور معينة . أهمها القدرة على التدقيق ، وادامة النظر فى أوقات محددة ، لكن لصعوبة تعيينها وجب النظر طول الوقت ٠ فى لحظة ما يبدأ ظهورها ، خفيفا ، هينا ، كأنها قادمة من أعماق الماء حتى اذا بلغت السطح توهجت بلألائها الذهبى ، تماما كسابق عهدها الجلى عندما كان يمكن رؤيتها من مسيرة سبع ليال ، رآها ، تمكن منها ٠ ألم بها جملة وليس تفصيلا ، فالمدى فسيح ، لا يمكن بلوغه فى عمر أو اثنين لكنه كتب رسالة صغيرة فى شروط ظهورها ، وما يجب اتباعه أودعها متاعه القليل ، أكد أنه درس أوضاع الشمس ، وتعامد أشعتها على الذروة ، تلك النقطة التى ينتهى عندها البناء ومنها يبدأ أيضا ، عند انتصاف النهار فى أى يوم من الفصول الأربعة ، يكون ما بين القرص الملتهب وتلك النقطة خط مستقيم ، صريح كحد السيف ٠

« مالا يدرك بالنظر ، ينفذ اليه القلب » .

كلما ألم بجديد ظهر له آخر . وكلما ظن أنه جمع عن الأهرام ما سيبهر به شيخه أقصى المغرب ، كلما ظهر له مثير حدا به الى البقاء . معارف شتى صار اليها وانتهت اليه ، كان يصغي ويستفسر ويرنو نهارا ويختلس البصر ليلا ، وتواتيه في عمق المنام حلول شتى شغلته زمنا طويلا خلال نومه حتى دنت تلك اللحظة وحلت ، تشبه الرغبة في امرأة ما ، لا يمكن تحديدها ، منبثقة من داخل ، دافقة ، محرضة ، نازعة ، لا فكاك منها ولا حيدة عنها .

هكذا قام ساعيا الى الأهرام فى ليلة هادئة ، باردة ، أبطأ صقيعها ايقاع مرور الوقت ، جاء الهرم الأكبر من الشرق ، كان على يقين أن ثمة شيئا انسانيا فى تلك الأحجار التى تبدو صماء . وانه لو تكلم فسوف يسمع من يخاطبه .

« تبدو الجبال ثابتة ، صماء ، لكنها تنوى كل لحظة » .

فى تلك الليلة أدرك أمورا عديدة بعضـها يمكن التصريح أو التلميح اليه . فمنها :

ـ استحالة ادراك الأهرام بالنظر عند الوقوف بالقرب منه . في مدى ظله ، أما رؤيته عن بعد فوهم ، لأنه لا يبدو على حقيقته .

استـيعاب الارتفاع بالنظر مستحيل ، التطلع من أى نقطة يتعارض تماما مع زوايا ميل الأهرام .

ـ البناء أشمل من ادراكه بنظرة واحدة ، لذلك أينما وقف الانسان ، أينما تطلع فانه لا يدرك الا جزءا من كل . توقف عند أماكن بعيدة ، بعضها مرتفع مثل تلال المقطم ، والفسطاط والضفة الشرقية للنيل ، وقف فى كل موضع مددا متفاوتة فى الوقت ،

متساوية فى مدته كل مرة يرى مشهدا مختلفا عما رآه فى المرات السابقة ، بل ان ما يطالعه عند انتهائه مغاير لما يراه فى البداية ٠

« الأمر نسبى ، الأمر نسبى » ٠

تلك الليلة وقف تحته مباشرة ، طاف به ، هاله ما بدا عليه من حجم غير مأموف ، مندمج بالليل فكأنه جزء أو امتداد له ، بتأن بدأ قياس الضلع الشرقى ، استوثق مواجهة كل ضلع لجهة أصلية ، أما الارتفاع فلا يمكن ادراكه بالتطلع ، يظل المرء قلقا ، متأرجحا ، موزعا بين الشروع والبلوغ ، بين التخطيط والتنفيذ ، يتجاوز أبدا ٠

منذ تلك الليلة بدأ يتجه ببصره الى الأهرام حتى وان توارى عنه ، لكنه تقلقل واهتز عندما شرع فى التثبت ٠

« الانســـان راجـل ، والوقت راكب ، فكيف يلحق العابر بالأبدى ؟ » ٠

بعد تأكده من مواجهة كل ضلع لجهة أصلية بدأ القياس ٠ الا أن اضطرابه بدأ عندما شرع فى المحاولة الثانية للتأكيد ، بعد أيام لم يجرؤ على تكرار المحاولة ٠ شك خلالها فى أمره ، فى اسمه ، المرة الثالثة أيقن من الفرق ٠ الاختلاف أمر لا يقبل الشك ٠ ثلاثة فى انتمائه الى البلد القادم منها ، بل ٠٠ والمقيم فيه ٠ غاب عن ذاكرته وادى زم بما حواه من واجهات ونواص وقمم أشجار وصفاء جو ، وملامح أحبة ، صار يسأل نفسه : أحقا سعى هناك ؟ هل تبع شيخه الى درجة الخروج عن الأوطان ؟ أحقا جرى ذلك ؟ لم يتوقف عن المحاولة ٠ فى المرة السابعة والتى جرت بعد انقضاء شهر قمرى فوجىء بتطابق دقيق مع نتيجة المحاولة الأولى ٠ لكن فى الثامنة اختلفت تماما ٠٠ أذهله ذلك الاختلاف البين فى شىء محسوس ٠

« الألفة فى غير الوطن تذهب باليقين » ٠

تلك فترة وعرة ، ذرف خلالها دمعا خفيا ، كلما عانى ضغطة وحدته . وشدة فردانيته ، غير أن مجرد وقوع عينيه على الأهرام يبث داخله سكينة ، يستسلم للنظر ، الى مهابة التكوين ، الى استعادة ما جمعه عنها من القوم ، عن حرمتها المتوارثة ، عن تفحم أى زوج من ذكر وأنثى دخلا اليها وحاولا الاتيان ، عن وجود طيور غامضة ترفرف فى فراغاتها عن طلاسم معدة ما تزال فاعلة ، أمرها مجرب • ما زال الأهالى يكنون رهبة واحتراما لكل من يدنو أو يبدى اهتماما ، لكنهم لم يفضوا بأسرارهم وما يعلمونه الى غريب عنهم ، خاصة الطرق المرئية ، الخفية التى يسلكونها فى اتجاه القمة • من تخصصوا فى ذلك اعتبروا هذا سرهم المكين ، لقنوه على مراحل لأبنائهم أو ذويهم أولئك الذين لاحت عليهم علامات النجابة والاستعداد للطلوع •

« كل نفس نائقة » •

ثلاث ليال ، فى الموعد عينه • جاءه شيخه بنفس الهيئة التى تركه عليها فى وادى زم ، أشار الى الجامع الأزهر ، وكلما هم بالسؤال رفع اصبعه فى استقامة لا تقبل الجدل • يأمره بغير نطق أن ينتظر هناك لحظة يزوره فيها •

صباح استيقظ فيه قلقا ، غامضا ، منقطع الأسباب بموضع إقامته ، وصل الى لحظة فاصلة ، كانت ملامح شيخه ناصعة ، تسد عليه جهاته • تحول دون ورود أى خاطرة عليه اشارة يده تدله وتنذره ، ترشده الى الأزهر • وتحذره ألا يحيد ببصره عن الأهرام • قطع المسافة الفاصلة مشيا • ما بين الهضبة والجامع ، لزم الصحن ، أصغى الى الشروح والتفاسير ، أعجب القوم ترتيله للقرآن بالطريقة الأندلسية القديمة ، وكذا رفعه الأذان بنفس النغمات التى ترددت فى قرطبة وغرناطة وشنترة وما تزال فى بعض أحياء المغرب القديمة بفاس ودكالة وطنجة وكذلك وادى زم ، وغيره من النواحى والجهات•

من أسعد مراحله تلك التى بدأ فيها الصعود الى المئذنة وتطلعه الى بهاء الأهرام التى ينتهى عندها الأفق ، ويقع الخط الفاصل بين الأرض والفراغ العلوى ٠

« كل طريق يؤدى حتما الى طريق » ٠

لم يحد قط عن الأهرام ، اما بالنظر مباشرة ، أو بتطلع القلب أوقات هجومه ، أو استناده الى أحد الأعمدة فى الصحن الأعظم ، أو جلوسه للمذاكرة داخل رواق المغاربة ، غير أنه طوال تلك السنوات كان فى حالة انتظار خفية تارة وجلية أخرى ، الى أن وفد عليه شيخه مرتديا البياض ، عبر الصحن من جهة الشرق الى الايوان الغربى ، كان يجلس تحت المزولة الشمسية ، شخص اليه ببصره وكينونته تلقى عنه الأمر بالانتقال من داخل الجامع الى محاذاته ، الى الرصيف المحيط ، وبدء الاشتغال بالكتب انتظارا ليوم ما يحل عليه ضيفا من بحوزته مخطوط عتيق ، فيه الشرح والتفسير لكل ما استعصى عليه من حروف غامضة بانت له مع مداومته التطلع الى الأهرام ٠ عليه بالصبر وعدم الحيدة ، هكذا ٠٠ استقر فى موضعه ، ظهره الى جدار الجامع ، وعيناه باتجاه الغرب ، صار يتتبع ما يجرى داخل الأزهر ، وتنقل زملائه الذين حصلوا على الاجازات ودرجوا فى المشيخة ، وصار كل قادم أو ساع الى كتاب يحوى احتمال كونه كذلك الآتى بالمخطوط المنتظر ، لذلك لم يصد ولم يعبس فى وجه امرأة أو صبى أو عجوز ٠٠ فمن أين له أن يدرى ٠ ورغم انتظاره ، والمنتظر قلق دائما ، غير مستقر ، فانه ظل شاخصا دائما الى ناحية الأهرام ، وكثيرا ما تأخذه رجفة يجتهد لاخفاء أعراضها اذ يقوى عليه حضور هذا البناء ، المهيمن ، المشرف ، الملغز ، المحيط ، الدال ، الجلى ، الغامض ، الراسخ ، الصاعد ، الثابت السارى ، القريب فى بعده ، البعيد فى قربه ٠

متن ثان

ايغـال

... وفي هذه السنة شاع أمر فتية الأهرام ، قيل انهم سبعة عرفوا بتقاربهم ، وامتزاج أهوائهم ، وترحالهم صحبة وشروعهم معا .

لكم شوهدوا معا ، من سوق الحمام الى سوق الشماعين ، ومن شارع العطور الى النحاسين ، ومن الخيامية الى السيوفية ، ومن المقطم الى القناطر ، ومقهى الخلاء ، الى مقهى المدينة . كانوا طلاب علم ، أهل ثقـة ، واقدام ، وجرأة على المغـامرة ، وكثيرا ما خرجوا صحبة الى الصحراء أو الريف القريب ، كانوا مقبلين ، والوقت أمامهم .

عندما عزموا أمرهم ، وانتهوا الى تحويل قرارهم من فكرة الى خطوات حقيقية ، أطلعوا أحبابهم ، طافوا بشيوخهم يلتمسون الاذن والبركة . تفاوتت ردود الفعل ، فقليل شجع وآزر ، وكثير حذر وأنذر ، غير أن ذلك لم يفت ، ولم يثن .

كان خروجهم مشهودا ، وما زال كثيرون يذكرون بهجتهم ، وحلاوة تضـــامهم ، ورقة مرحهم ، لحظات صـــعودهم الأحجار وتلويحهم ، للواقفين ، المراقبين ، الشاخصين · التفاتة كل منهم قبل دخوله ، قبل عبوره النقب الذى أحدثه الخليفة المأمون · تطلع كل منهم جهة الشرق ، الى الجمع ومنهم أهل صاحوا منادين ومشجعين ومودعين ·

الحق أن أمرهم شاع فيما بعد أكثر ، عزمهم ألا يرجعوا قبل الوصـــول الى صميم الأهرام المتين ، القصى المكين · أخذوا معهم ما يلزمهم من زاد وحبال وأدوات تمكنهم من ارتقاء الجدران أو النزول فى المهاوى ، وأعشاب وأخلاط لمداواة الجروح ، أما التغلب على الوحشة والرهبة فجعلوه من شئونهم ·

يؤكد البعض أنهم خالطوا كل من له صلة بالأهرام ، خاصة الذين أوغلوا داخلها الى مسافات متفاوتة ، وأمضـــوا أوقاتا فى مهاويها أو مراقيها وأن ما شرعوا فيه لم يكن نتاج نزوة ، انما ثمرة تخطيط وتدبير ·

يؤكد آخرون أنهم مضوا بدون أى فكرة مسبقة عن الشـــعاب الغميقة فى الداخل البعيد ، قدموا غير مزودين الا برغبة هائلة فى المعرفة ، والوصول الى تخوم المجهول ، لو توفر لديهم قدر لما أقدموا فالاحاطة بأمر مقلقة ، ولو اطلع المرء على الآتى لاختار الحالى ، القائم ، هذا حق لكن المؤكد أن ما أقدموا عليه كان مغايرا ، لم يسبقهم اليه أحد ·

يلى النقب مرتقى دهليزى صاعد بميل خفيف لا يبدو مجهدا ، وعرا تسلقه حتى يخيل للكثيرين أنه مستو ، لن يكلفهم من أمرهم عسرا · ولجوا مرحين متوثبين ، متطلعين ، كانوا مضـــطرين الى الانحناء ، الارتفاع لا يسمح لمتوسط القامة أن يفرد طوله ، كانوا

يعرفون ذلك ، مدركين الى ضرورة انحنائهم لمسافات طويلة ، تطلع كل منهم الى الأمام ، خاصـــة أولهم الذى لم يكن أكبرهم سنا ولا أكثرهم تجربة ، انما كان الأشد حزما والأظهر اتزانا ، وأثناء الإعداد أجمعوا على تسليمه أمرهم ، والمرء يحتاج دائما الى من يدله أو يرشده ، تستوى الحاجة الى ذلك فى شتى مراحل العمر ، تتغير الدرجة فقط ، أحيانا يكون انسانا يسعى أو كلمات قديمة فى كتاب مدون ، أو وصايا محفوظة ، متناقلة · كان أولهم ثابتـا ، يبدو هادئا ، راسخا ، قويا على مواجهة البغتات ، لم يختلف أمرهم ، فتلك المسافات أمرها معروف ، بعضه مدون ·

ما خالجهم ذلك القلق المصاحب للشروع ، للبداية ، للانتقال من حال الى حال · الاقدام على قصد المجهول يثير المرء أيا كان ، لكنه اجتهد فى اخفاء ذلك · انه الوحيد الذى لم يلتفت الى الخلف عند الوصول الى نقطة وهن عندها الضوء الوافد من الخارج ، أصبح بعيدا ، صدى الصدى ، خطوة واحدة فقط ويختفى ، خاصة مع ميل الممر الى اليسار · يبدأ ضوء آخر ، هادىء ، خافت ، حر السابقين واللاحقين لأنه مجهول المصدر ، لا يقوى هنا أو يضعف هناك ، لا يكون ظلالا للموجودات القائمة ، أو الأجسام المتحركة العابرة ، فكأنه يخترق ما يعترضه ، وهل رأى أحد ظلا داخل الأهرام · هل أخبر من دخلوها بذلك ؟

عند تلك النقطة الفاصلة يلتفت كل منهم بتلقائية ، ربما لالقاء نظرة على آخر ملمح من واقع معروف ، مألوف ، حتى وان احتوى على مجهول ، غير أن ما يسعون صوبه اشد غموضا ، فالأمر دائما نسبى ·

مع تقدمهم عبر الفراغ مجهول الاضاءة تقاربوا أكثر بقدر غير ملحوظ ، لكنهم انتبهوا الى ذلك فيما بعد ، وعندما ارتفعت أصواتهم قال أولهم انه منذ الآن سوف يكون الضحك بحساب ، والحديث

بقدر ، كل جهد مبذول يستهلك قدرا من الطاقة ، وتلك تعتمد على الهواء ٠٠ وبالطبع ، المتيسر منه فى الداخل غيره فى الخارج ٠

لم يكن ذلك بغريب عليهم ، سمعوا ذلك فى أيام التجهيز والاعداد ، قبل عبورهم من واقع الى واقع ، من عالم يعرفونه الى آخر لا يلمون بمساراته وتخومه ، كل منهم بدا مع كل مرحلة ، بل ٠٠ كل خطوة وكأنه بحاجة الى من يذكره بما ألم به قبل عبوره النقب ، الى استنهاض البديهيات التى تداولوها ، وحفظوها قبل شروعهم ، لكن ٠٠ هذا أمر من جملة الطبائع ، فرق كبير أن يقرأ الانسان أو يسمع ٠ وبين أن يعاين ويعرف ٠

بعد اجتيازهم الممر الأول ، ودخولهم الى المرقى التالى ، تزايد المجهود المطلوب لكن بقدر محتمل ٠ المقارنة بين مرحلة وأخرى ، كلاهما داخل الهرم ، وهذا مستجد ، وعند وصولهم الى الغرفة المربعة التى كانت ترقد داخلها الرمة البالية داخل الحوض الرخامى تطلعوا الى بعضهم ، رغم قصر المدة المنقضية الا آن كلا بدا وكأنه يرى الآخر لأول مرة ، ربما بتأثير الضوء الغامق ، أو لأنهم يتواجهون بعد تقاطرهم بحذر ، كانوا يفيضون نشاطا وحيوية ، غير أنهم بدوا حذرين ، يكبح كل منهم رغبة ما ، اما فى الحديث أو الضحك ، أو التحليق على بعض مما مر به ٠ لميتذمر أحدهم ، حتى ثالثهم الأصغر سنا والأضعف بنية ، أرقهم حضورا ، غير أن يقينا خفيا لدى معظمهم أن ثمة تغييرا وقع ، ربما فى الملامح ، فى النظرات ، فى التطلع ، غير أن المبررات عديدة ومقنعة منها طبيعة ذلك الضوء ، الصعود البطىء المدرك بتسارع الأنفاس وزيادة الجهد المبذول ٠ غير أن تقديرهم للوقت بدا محيرا ، بعضهم خيل اليه أن وقتا طويلا مضى ، وآخرون كانوا على يقين أنهم لو عادوا واجتازوا النقب من داخل الى خارج فلن يجدوا شمس يومهم الأول متقدمة كثيرا فى السماء ، ربما لم تبلغ منتصفها بعد ٠

أولهم تحدث عن ذلك فيما بعد عند نقطة متقدمة ، قال انه على يقين أن للأهرام ناموسها الزمانى والمكانى المغاير ، الخطوة لها قياس خاص ، الزمن ايقاعه مغاير · أولا ·· ما من شروق أو غروب مدرك هنا ، ما من صبح أو ظهر ، لا وجود للأصيل أو الضحى ، لا ضوء يتغير أو ظلالا تتعاقب أو تتوارى ، وأن ما يخيل اليهم أنه انقضاء ساعة فى الداخل ربما يوازيه مرور شهر فى الخارج ، وربما أكثر ، أدهشهم ذلك لم يعلقوا ، حتى عندما طالب من يفكر فى الانثناء والعودة ألا يدهش اذا لقى زمنا مغايرا تماما لما يعرف وألف ·

لم يطل مكثهم فى الحجرة المربعـــة · اتجهـوا الى الفتحة الموجودة ، فى نهايتها ازداد انحناؤهم عند عبورها ، وطبقا لما دونه أصحاب التجارب السابقة فلابد أن تتسع المسافة بين كل منهم ، فيما بعد قال ثالثهم ان أول هبات الحنين والتذكر وردت عليه أثناء جلوسهم متواجهين داخل الحجرة المربعة ، هلت على فؤاده رائحة شجرة تين عتيقة ، تتدلى أطراف أغصانها لتلامس مياه ترعة عميقة ، كان يعبرها يوميا ويتذوق ثمارها ، لمحة عابرة ، مارقة ، لم تعن عنده شيئا فى البداية ، لحظة وقوعها ، لكنها صارت فيما بعد محطة غير مرئية ، يطيل الركون اليها كلما أوغل يكتشف من خلال استعادتها ما لم يقف عليه لحظة وقوعها · هنا ·· فى هذا الحيز الضيق · المحدود فى الظاهر ، يدرك ما لم يستوعبه بالنظر المباشر فى الخارج · كثيرا ما لا يكون الاستيعاب لحظة السماع أو النظر انما يتم الأمر كله عند الاستعادة بالخيال ، ويبدو التفسير الذى استعصى أمره زمنا ، يبرق مع اللحظة المستعادة من بين ثنـــايا الذاكرة ، ترسخ ذلك مع تقدمهم ، ايغالهم ·

بدا ارتقاء الدهليز التالى مختلفا ، المنطلق مغاير ، والخطو ذو دلالات أخرى ، فى الأول كانت نقطة الارتقاء تبدأ عند النقب ، عند الفتحة الفاصلة بين الخارج والداخل ، بين عالمين ، لكن الانتقال

الآن ، من داخل الى داخل ، عبر ذات التكوين ، فالمغايرة تتم فى اطار الدرجة وليس النوعية ، هكذا بدا لهم الأمر فى البداية ٠

التقدم فى الدهليز الثانى يقتضى وضعا مختلفا ، فى الأول كانوا متقاربين ، بوسع كل منهم لمس الآخر لو مد دراعه ، لكن هنا لابد من قطع مسافة ، ربما خطوتين أو ثلاثا ، لكنها مساحة ، أحيانا تمر لحظة لا يمكن لأى منهم أن يرى الآخر ، لكن يخفف الاحساس بالوحدة المباغتة سماع الحركة ، والاصغاء الى الخطو ، غلب على كل منهم الانشغال بالنفس ، وان راح الفكر الى الآخرين فانه جزء من الاهتمام بالذات ، سلامته جزء من سلامتهم ، وما قد يلحق بالآخرين يمكن أن يلحق به ، وما يعرض لأولهم سيلحق بآخرهم ٠ كان الشعور بالقربى أقوى فى المرحلة الأولى ، قبل بلوغهم الغرفة المربعة الأولى ، وهن بدرجة ما ، يدركون أن آخرين سبقوهم الى هذا المرتقى . حتى هذا الجزء كانت خطى سابقة مرت ، رغم ذلك فان قلقا خفيا حوم ، المكان غير مطروق بقدر كاف ،المفاجأة قد تقع فى أى لحظة بغتة ٠

رغم المحاذير ، الا أن بهجة سرت خاصة مع الشعور الدائم بالارتقاء ، وعى خفى أنهم يصعدون الى أعلى باستمرار رغم أن درجة الميل لا تكاد تلحظ ، ثمة صعود يتم صوب نقطة غير مرئية ، غير مدركة ٠ غير محددة ، لا يمكن تعيينها ، أو الاشادة حتى الى الجهة الواقعة ضمنها ٠ لم يصفها أحد من قبل ، نقطة ربما تتغير بالنسبة لكل منهم ، فلا تجمعهم عندئذ انما تفرقهم ٠

كافة الاحتمالات قائمة ٠

الفراغ الداخلى لا علاقة له بقياسات الخارج ، يبدو حديث أولهم أقرب الى الافهام الآن ، هنا ٠٠ المكان غير المكان ، كذلك الوقت ، ومن يخيل اليه أنه أمضى يوما بالقياس الى ما عـــرفه ،

ربما يكتشف عند رجوعه ، اجتيازه النقب من داخل الى خارج ، أن زمنا طويلا قد انقضى ، لن يتعرف عندئذ على المعالم والملامح ، لن يجد ما يأتنس به الا الأهرام فينثني عائدا ، موغلا الى أمد لا يدرى قراره ، تماما كما يجهل القوم منتهى هذا البناء ، وغاية عمادته ٠

مع تمام ادراكهم بالطلوع ينمو أيضا يقينهم أنهم معلقون ، ولو أمكن لبصر اختراق الحجر لرآهم فى صميم الفراغ ، رغم صلادة الأحجار ، وتقارب الجدران ، رسخ يقينهم بمقدمهم الذى لم تبدر منه اشارة تنم عن خشية أو تردد أو قلة يقين ، استكانوا الى وجوده فى المقدمة مع أنه صارحهم أن معرفته بالأعماق لا تزيد عما أحاطوا به الا قليلا ، ون ذلك قاصر على مسافة محددة طرقها البعض قلبهم ودونوا بعضا من ملاحظاتهم ، حتى هذا النزر اليسير وجده بالمعاينة مختلفا بقدر ، أفضى اليهم بذلك عند بلوغهم الغرفة الأولى ، لكنهم نســـوا هذا كله ٠ أو تجاهلوه ، وأبدى كل منهم ما يؤكد أنهم يوكلون أمرهم اليـــه بالكليـــة ٠ حتى أنهم عند توقفه ينتظرون ما سيقدم عليه ، وما سيلوح منه ٠

لحظة وصولهم الى الغرفة الثانية ابتهجوا ٠ بدا على ملامحهم الارتياح ٠ ثمة مرحلة تمت ، وخروج من دهليز ، وانتباه الى تيار هواء سار ، خفى المصدر ، غامض الوجهة لكنه مطمئن ، منعش ٠

أطالوا النظر الى بعضهم ، كأنهم يتعرفون على بعضهم لأول مرة ، قبل استغراقهم ، وبدء استعادتهم الخطى وابداء الملاحظات على ما عاينوه ، قال مقدمهم ، ان البقاء مستحيل ، ولابد من المواصلة ، وهذا ما أوصى به كل من بلغ هذه النقطة من قبل ، ولينتبهوا ٠٠ فالمرتقى الثالث آخر ممر مطروق من قبل ، بعد انتهائه سيلجون مواضع ، لم يرد ذكرها من قبل ، ولم يجرؤ على اقتحامها أحد ، لم يقل انه ربما حاول البعض لكنهم لم يرجعوا ليخبروا بما اطلعوا عليه ٠ ربما لأنه لم يكن على يقين ، لم يكن من صفاته الاخفاء أو

المداورة ، كان صريحا ، واضحا كالشهير ·· هذا الى جانب عوامل أخرى مما طمأنهم وبث ثقة فى نفوسهم ، تأملوه خلال لحظات تقابلهم أكثر مما تأملوا نقوش الغرفة الساطعة بألوانها ، وتلك الحروف الغامضة والتى تبدو كأنها فى حركة دائمة من أعلى الى أسفل ، ومن أسفل الى أعلى ·

كانت الغرفة الفاصـــلة بين المرتقى الثاني وبداية الثـالث مستطيلة ، تخلو من أى حوض رخامى أو خشبى ، جدرانها مغطاة تماما برسوم وتصاوير يتخللها ما يشبه الحروف ، ليست يونانية أو سريانيـة ·· وبالطبع ليست عربيـة · خيل اليهم أجمعون أن مقدمهم يدرك بعضا من أسرارها ان لم يستوعبها كلها ، غير أنه بدا حائرا أمام بعضها ، لم يخف ذلك ، قال ان ما نقش على الجدران الخارجية لا علاقة له بما يراه هنا وهذا محير !

لم يطل مكثهم ، لم تتشعب استفساراتهم ، كان امتثالهم تاما· كافة الأقاويل المتوارثة ، والسطور الشحيحة المدونة تنصح بسرعة الانتقال ، والحذر من تلويثها ، أو التفوه باللفظ الخشن ، أو اتيان الفعل الفاضح · يعلم الكافة مصير كل رجل وامرأة شرعا · حكى القدامى عن دخول شاب وصاحبته بغرض الخلوة فتحولا الى رماد منطفىء · مرة أخرى صحب أربعة رجال غلاما جميل الصورة ، وبمجرد شروعهم تيبسوا جميعا · تحولوا الى أحجار ممسوخة ·

هذا معروف ، مقطوع به ·

ما يجب الانتباه اليه ، تغير الهواء وثقله بما يؤدى الى غلبة النوم ، من يغف لحظة فلن يفتح عينيه مرة ثانية ·

ليس الوسن أخطر ما يتهدد العابرين ، لكنها الأحلام المصاحبة ، حيث تبدو وجوه أنثوية مفتقدة عندهم ، عذبة ، جميلة · عيون شرهة فياضـــة بالرغبـة ، شفاه ساعية ، وجنات متوردة داعية

للقطاف ، وأصوات هامسة ، مغناجة ، ملهبة للأعصاب المدسوسة ٠ ألوان لا مثيل لها فى عالم الحس ، لا يمكن تحديدها أو تصنيعها أو نسبتها الى الأزرق أو الأحمر أو الأصفر ، تمرق خلالها لحظات اندماج شعشاعية متأججة ، قادمة من العدم اللامرئى الى الحضور العابر فتنعشه وتبث فيه دفقا لا يمكن الصمود تجاهه ، أو استيعابه فتكون الرقدة الأبدية ٠ لم ينصحهم باتباع خطوات معينة ، أو تلاوة نصوص مقدسة ، أو اللجوء الى لحظات موازية ٠

على كل منهم أن يواجـه بمفرده كافة المغريات ، المثبطات ، وربما هذا سبب لكمون كل منهم ٠ لتباعده عن الآخرين ، ليس بالمسافة فقط ، ولكن بالحس ، فما يجب مقاومته خلال هذا المرتقى يمثل فى الداخل ، ولا يأتى من الخارج ٠

أربعة وأربعون هوة سحيقة ، يلزم لعبورها افساح الخطى ، وأحيانا القفز ، احتاط مقدمهـم لذلك فربط خصر كل منهم بحبل يشده الى الآخرين ، حتى اذا زل تعلق مصيرهم به فيضطرون الى بذل الجهد لرفعه أو اللحاق به ٠

لا شك أن طبيعة الضوء تغيرت خلال اجتيازهم ذلك المرتقى ، يمكن القول انه ضوء ولا ضوء ٠ عتمة لا تحجب مواقع الخطى غير أنها جاثية ، أسباب عديدة أدت الى ترسيخ اليقين بمهابة الفراغ ولا نهائيته أيضا ٠ أما الرائحة فكانت مغايرة ٠ انها أكثر ثقلا ، لكنها ليست خاملة ، عطنة ، رائحة غامضة ٠ تثير الخلايا وتخيف أيضـــا ، تومىء الى مجهول يصعب ادراكه ٠ ما زال الاحساس بالصعود قويا ، ربما ساعدهم ذلك بدرجة ما على مقاومة النوم ، وتلك الرؤى ، استلزم الأمر جهدا أدى الى تسارع الأنفاس ، ومغالبة الجهد ٠

أصعب ما واجـه مقدمهم ، أولهم ، دليلهم ، الملم بما دونه القدامى ، أشق ما فوجىء به تلك الأصوات الآدمية ، الأنثوية ٠

الناعمة ، المبثوثة ، تتخلل لحيظات الانتقال من اليقظة الى مشارف النوم ، التأرجح خلال اليقظة الحتمية التى لا مفر منها ، لم يدر المصدر بالضبط ، اذ تسرى النغمات خلال المسام من خارج الى داخل الى خارج ، أصوات تلوح فى البداية متداخلة ، لكن يمكن تمييز كل منها مع التدقيق والاصغاء الذى يعنى الاستسلام لوطأة الوسن ، فى درجاته يبدو التثنى ، الرحابة والتمكن ، لحيظات الذروة السابقة على انطفاء الشبق ، وتمام الأرب ٠

لكن بلوغها هنا ٠ فى تلك المنطقة من داخل الأهرام يعنى التبدد ، التذرى ، ليس هو فقط ، انما من معه ، صحبه الذين أسلموه أمورهم ، تلك أصعب المراحل حتى الآن ، بعد تمامها وقعت أولى المفاجآت المؤلمة ، المنهكة ٠٠٠

فى الغرفة الثالثة ، الأضيق عرضا ، الأكثر ارتفاعا ، ضيقة السقف ، هرمية الشكل ، عندما تواجهوا منهكين ، متعبين ، مترقبين ، أدركوا أن التمام ولى ، وأن النقصان بدأ ٠

الآن ٠٠ هم ستة !

كيف تمكن صاحبهم من فك الحبل الذى يشده اليهم ، أم أنه فارقه مرغما ؟ ربما يسهل تصور الأمر ، خاصة أنه آخرهم ، السابع ، أشدهم حيوية ، وأكثرهم حماسا قبل الشروع ٠

أين مضى ؟

تعسر الاجابة لا يبقى الا التخمين ، ربما استسلم للوسن ، أو تبع الصوت فهوى ، أو أدركه نصب فجثا ، أو آثر الكف فانثنى ٠

تطلعوا الى الفتحة التى أدت بهم الى هذا الموضع فلم يروها ، لم يساعدهم الضوء الغامق ، ربما لم يشاءوا التوقف تحاشيا لادراك

حقيقة مؤلمة ، هكذا يكون الانسان أحيانا ، ولكن لفترات قصيرة ، سرعان يستجمع بعدها نفسه فينتبه ويدرك ويحاول ٠

يعى مقدمهم الآن بلوغهم نقطة لم يصل اليها أحد ، كل ما يلى ذلك غير مطروق ، غابت أخباره مع المندثرين ، مجهول الآن بالمرة ٠ كل منهم استرجع ملامح الصاحب المختفى بقدر ، هكذا ٠٠ بعد رفقة ، ومشاركة ، صـــار استدعاؤه بالمخيلة وللمحات وجيزة ، يغيب هنا ليظهر هناك ، وعند لحظة معينة ينطوى فلا يخلف لمحة أو أثرا ٠ تقدمهم وخطوهم هنا لا يتعلق بهم ، بقرارهم شأن المراحل السابقة ، المنقضية ، انما لابد من انتظارهم ، حتى ظهور الفتحة التى تبدو لكل منهم بصورة مغايرة ، ربما مستديرة ، أو مستطيلة ، أو مثلثة ٠ أما توقيت الفتح فلا يد لهم فيه ، انما يرتبط بعوامل يصعب تفسيرها ، كثيرون طواهم الانتظار هنا ، وكثيرون ملوا فانثنوا عائدين ، وربما مضى البعض ولم يرجع ٠

استرجع بعضهم ما يروى عن المفـاجآت التى يتعرض لهـــا الطراق ، انخساف الأرض فجأة خروج مارد يحمل سيفا ، يقطع رقبة كل من يتجاوز حدا معينا داخل الأهرام ، هذا الحد غير واضح ، بل يقال انه يختلف من شخص الى آخر ، أو هبوب كاسحة ، عاصفة من مركز الأهرام ، تنفذ الىّ أدق أقسامه لتبيد كل من جرؤ وأوغل ، يحيرهم هذا الهواء اللطيف ، الناعم ، المنعش ، لا يتوقف عن الهبوب المنتظم والسريان عبر وتيرة لا تعلو ولا تهن ، لكنه من حين الى حين يشتد ولكن فى كل الأحـوال لا يسمع له صوت ٠ يخشون تحوله الى درجة تعصف بهم كلهم ٠ مقدمهم أخفى عنهم توجسه وخشيته من هذا الهواء الطيب ، بقدر هفوفه ورقته أثار عنده رعدة خفية لم يفصح عن مداها ، لم يطلع على أى ذكر له فى سائر المراجع التى ألم بها ، ولم يخبره أحد شفاهة ممن أدعوا العلم بالخبايا والأسرار ، لكن ٠٠ ليس هذا الا تفصـــيلا ضئيلا ٠ انهـم

عند مفترق حاسم الآن · ولوج مختلف ، خطا مغايرة ، أما ضيق المرتقى فباعث آخر على الحصر والشعور بالنكس · كان الانحناء مؤلما فى البداية الا أنهم اعتادوا عليه ، خاصة مع تحريك أعضائهم بشكل معين ، عند نقطة معينة ازدادت سرعتهم كأن قوة ما تدفعهم · أو الأرض تطوى تحت أقدامهم ·

فى لحظة معينة بدأ تقلص احساسهم بالارتفاع ، كل منهم على يقين أن انحدارا بدرجة ما بدأ ، لم يكن الميل مدركا فى البداية لكن مع تزايده أبدى مقدمهم حذرا ، اضطروا مثله الى محاولة التمهل والتشبث مع التمسك بالجوانب المصمتة ·

كأن الأمر لم يستغرق الا دقائق ، رغم وطأة الوقت وتثاقله ، والاجهاد ، بسرعة ·· انتهوا الى بسطة من الحجر المستوى ، جدران مرتفعة تمكنهم من فرد قاماتهم اذا استطاعوا ، ذلك أن أجسادهم تكيفت بدرجة ما مع ضيق المرتقيات ، والوضع شبه المنحنى الذى اضطروا الى اتخاذه ، ما من مصدر باد للضوء الذى ازداد كثافة ·

الى اليمين باب مصمت ·

الى اليسار باب مقابل ، كأنهما الظل والأصل ، متماثلان ، متواجهان ، كالصوت والصدى ·· على الجدران طلاء أحمر لأشكال يصعب تحديدها ، توقف كل منهم حول الفوهة الدائرية المؤدية مباشرة الى أسفل ، هل كانت موجودة فى منتصف البسطة الحجرية أم ظهرت الآن ؟

ما من تفسير ، ثم ·· ما أهمية التحديد اذا انتفى الخيار ؟

التفت المقدم الى الآخرين ، الكل معتصم بالصمت ، ما كان يحدوه وقع بعضه ، طول الصمت وفقدان الرغبة فى الكلام يوما ·· أخبره شيخ مغربى جاء من أقصى بلاد الغرب بقصد الفرجة على

الأهرام بخطورة الصمت ، اذا وقع خاصة عند الرحيل أو الخروج الى الجهاد فتلك علامة شؤم ، قال المغربى الأسمر ، مثلث اللحية ، ناصع الابتسامة ، كأنه يراه أمامه الآن ، انه خرج يوما مع نفر من صحبه فأوغلوا فى الصحراء الجنوبية لغرض يعنى القوم ، كان مقدما عليهن ، عينه الشيخ • اضطرتهم الأحوال الى الاقامة فى مكان منقطع قرب عين ماء صغيرة • كانوا فى انتظار مدد لم يأت ، خشى عليهم من الانتظار ، أمرهم بتنظيف الرمال ، أبدوا دهشة ، لكنه أصر ، أكد أنها تعليمات الشيخ التى لا يمكن ردها ، بعد فوات المدة أخبرهم بالسبب الذى دعاه الى هذا الأمر الغريب ، فلو تركهم سينفرد كل منهم بذاته فيمعن ويرحل ويحن فيضعف عن المواصـــلة ، هزوا رؤوسهم ولم يتندر أحد •

لكن الفرق بين • كان المغربى فى الصحراء ومكنوا ، لكن داخل الأهرام ليس بوسع المرء الا السعى ، الا الحركة ، الا الخطو ، الا التقدم على أمل بلوغ الغاية ، وتلك تختلف من شخص الى آخر ، فالبعض يوغل طلبا للكنوز الدفينة • والبعض يقدم بحثا عن العلوم القديمة ، وآخرون يبغون الوقوف على المجهول ، فى كافة الأحوال لا يمكن لمن ولج الأهرام أن يكف ، أن يتوقف ، عليه أن يستمر أو ينكص ، الأهرام كالجسر ، والجسور للعبور ، ليست للاقامة ، وكل عابر يســعى مقلقلا ، غـير آمن بدرجة ما ، فالأمان دائمــا للوصول ، لا يكون أثناء الانتقال •

ليس بوسعهم الا النزول ، طالما أنه ليس بمكنتهم اختراق هذا الجدار الصلد أو فتح ذلك الباب الوهمى الذى لا يؤدى الى شيء ، ليس أمامهم الا أن يتقدموا من خلال تلك المســـارت والمرتقيات والمهاوى التى صيغت خططها فى أزمنة لم يعرفوها ، ومن آخرين لم يلتقوا بهم قط !

عند كل حافة ، عند كل مدخل ، يستعيدون ما كان منهم ، خاصة صاحبهم ، ترى · أين هو الآن ؟

لا يعرفون ما جرى له ، لا يلمون بمصيره ، ومن أين لهم ذلك ؟

لا يعرفون ما جرى له ، بمصيره ، ومن أين لهم ذلك ؟

لو قرر بعضهم العودة فأى يقين يؤكد لهم أن الطريق الذى سلكوه فى المجىء هو عينه الذى يرجعون منه ، هل سيؤدى بهم الى عين نقطة البداية ؟

كما عاينوا وشاهدوا ثمة فتحات تبدو فجأة ، ودهاليز تطول بأكثر مما قدروا لها ، فماذا يضمن لكل منهم صحة طريق العودة ·

فى الغرفة الأولى قال أحدهم ضاحكا :

وهل الخروج من الأهرام مثل الدخول اليه ؟

يبدو الهزل جدا الآن ، بتأثير الاجهاد والضوء الغامض والرهبة يتعرف كل منهم الى صاحبه بصعوبة ، لكل عند الآخرين صورتان ، الأولى تمت الى ما قبل دخولهم وموقعها المخيلة ، وثانية يقع البصر عليها الآن مضاعفة بشروط المكان والفراغ وسريان الهواء ، وكل ما يأتى أو يذهب عبر المسارب الخفية التى لم يلم بها كائن ·

ما من بديل للاستمرار ·

فى زمن التحضير والتأهب · قبل عبورهم النقب ، أخبرهم مقدمهم عن ثلاثة دخلوا فى زمن قديم ثم غابت أخبارهم تماما حتى ظن قومهم أنهم من الهالكين ، بعد أربعين سنة كاملة ظهر أحدهم قرب صحراء أبى صير ، قيل انه خرج من نقب مجهول ، مغطى الآن بطمى النيل المترسب · لزم الصمت ولم يخبر بشىء !

من يدرى ؟

ألقى بالحبل ، نزل متعلقا به ، انتظر الخمسة ظهور الاشارة · لم يطل وقوفهم ، جذب مقدمهم جسور القلب الحبل مرتين ، عندما استقروا الى جواره أدركوا أنهم ينتقلون من حيرة الى حيرة ·

الحيز غريب ·

لم يقفوا بمثله من قبل ، لا يمكن القول انه مستدير أو مربع ، كان جامعا لأشكال لم يعرفوهــا قط · ما بلبل خواطرهم رؤيتهم حيرة مقدمهم لأول مرة ، عهدوه ثابتــا ، مكينا ، لا يمكن التنبوء بما يجول عنده ، حتى صعب عليهم استنتاج ما يفكر فيه لم يكتم عنهم خواطره فقط ، انما أوجاعه أيضا وما يضايقه ، عندما تبعوا بصره الحائر أدركوا ما يجعله ضاجا ، مقلقلا ··

الى أين ·· وكيف ؟

لأول مرة يواجهون فتحتين كأنهما انشقتا للتو ، فى آنيــة واحدة ، متساويتان تماما ، الأولى الى اليمين والأخرى الى اليسار ، هذا أمر نسبى ، بالقياس الى أيديهم وعيونهم ، فلا يمكن تحديد دقيق للجهة داخل هذا العمق من الهرم ، ما يمكن اعتباره يمينا عند هذا ربما يكون يسارا عند ذاك · للجهات داخل الأهرام مقاييس مغايرة تماما ، ادراكها لم يتم بعد ·

انها المرة الأولى التى يجب أن يتبعوا طريقين · هذا ما استقر رأى مقدمهم جميعا حتى الآن ، قال بعد اشارته الى الفتحتين أن هذه دعوة ، وتلك دعوة ، ولابد من تلبيتهما ، لم يبذل جهدا ظاهرا فى الاختيار ، أو اتخاذ القرار · بدا متعجلا · ميالا الى الاسراع ، غير ساع الى النقاش ·

انقسما ·· بعد أشارته الى أقرب الواقفين والى من يليه ، طلب من الثلاثة الآخرين أن يعينوا مقدما لهم ، قبل أن يتناقشوا

أو يشرعوا فى اتخاذ قرار تقدم . تصرف حاسم كأنه رتب له من قبل . كأنه أعد لمثل هذه اللحظة ، لم يجر عناق ، لم تلفظ كلمات ، فقط .. مجرد تلويح خافت بالأيدى .

ممر اسطوانى مكسو بحجر أبيض مشـوب بصفرة ، رغم التعب ، وارتجاف العضلات نتيجة الانحناء القسرى ، الا أن السعى كان أسرع بالنسبة الى المراحل السابقة ، بدا المقدم واثقا رغم أن كل ما ينتظرهم مجهول .

كل من الثلاثة كان يفكر فى صحبه الآخرين . الى أين وصلوا ؟ منهم الآن باستحالة اللقاء مرة أخرى ، وان ما كان صار مستحيلا .

ماذا لقوا ؟ نقطة الفراق باعثة على أسى ممدود . ومحاولة استعادة بعض مما كان ، خاصة أن هاجسا يقينيا يتجول لدى كل وهل افترق قوم داخل الأهرام والتقوا من قبل ؟ هل سمعوا بمثل ذلك ؟

مع استمرار المضى عبر دهاليز اسطوانية أو مهاو عميقة أو فتحات تبـدو فجأة ، يغيب كل من ذهب عن الأذهـان . يعمق الاستغراق . يؤكد مقدمهم أن هذا الممرات والمنافذ ستؤدى بهم الى غاية . كافة ما اطلع عليه فى كتب المطالب والطلاسم يؤكد ذلك .

انهم الآن أقل قدرة على تبادل الحوار . توارى أى تفكير يخص زملاءهم الآخرين . أو المراحل المنقضية والتى اختلف احساس كل منهم بها ، غير أن يقينا شملهم يخص الزمان يؤكد أن ايقاعه يزداد سرعة كلما أوغلوا ، وأن التمييز بين الليل والنهار صار صعبا ، وأن الشروق والغروب لا يتمان خارجهم انمـا داخلهم ، فلم يعـد للاستفسار القديم : ليل الآن أم نهار ؟ أى معنى ، يمكن لكل منهم تحديد ما يمر به ، فيمثلون فى اللحظة نفسها لكن يكون عند هذا ليل ، ويصير نهار عند ذلك . يقين آخر يخص المكان ، يقين ثبوتى

يؤكد أن مراحل الارتقاء ولت ، وأنهم يتحركون الآن فى عمق أهرامى متجه الى أسفل ، ربما تجاوزا مستوى اليابسة التى خطوا فوقها طويلا قبل ايغالهم فى العمق الأهرامى ، ما حيرهم أحيانا مصادر تلك الرياح الخفية ومساراتها ، كذلك درجات الضوء ومنابعه ، وذلك التدفق البادى من مقدمهم الذى لم يعد يتطلع اليهم ٠

من مهوى الى آخر ، من ممر الى ممر ، من مثلث الى مستطيل الى دائرة ، من قمعى الى حلزونى ،من مثمن الى مساس الى مربع ، الى ما يصعب توصيفه ٠

لم يعد المرور بالغرف مثيرا ، ما أكثرها ، مع كل خطوة تولى خطوات أقدم ، تندثر تماما من الذاكرة تمحى من المخيلة ، حتى اختلط عليهما الأمر ، شك أحدهما فى وجود رفقة سابقة ، وظن الثانى أن عهده بالأهرام قديم ، وأنه بذل الجهد فى ادراك ما ألم به من قبل ٠

عند حلول لحظة وموضع توقف المقدم ، يرفع يديه أمام وجهه انه مفاجأ بكل هذا السطوع المباغت حتى ليكاد يعشى ٠

هذا ما ورد التنبوء به فى بعض المخطوطات العتيقة ، فقط تلميح من بعيد ، لم يصفها أحد لأن بلوغها ظل فى دائرة اللاممكنات ، لم يذكر مخلوق بدقة هذا الامتزاج ، وذلك التداخل ، ما هذا كله الا ثمرات للسعى ، للصبر ، للمجاهدة ، يمكنه مصارحة صحبه الآن ، القول ان جهادهم واقدامهم وبذلهم لم يمض هباء ، كان داخله فيض يصعب استيعابه ٠

لا يعنيه الآن علوية الحركة أو سفليتها ، تتشابه عنده الجهات ، كافة الممرات تؤدى اليه ، ويدل هو عليها ، تبدأ منه وعنده تنتهى ، تتراص الأحجار داخله ويصل بينها يتوزع خلالها ، عبرها ٠ ينتهى الآن الى صميم الأهرام السيال ، المنصهر ، الدائم الذى لم يعبر

عنه بشر من قبل ، فلا اللفظ ولا الرسم ولا الايماء ولا التصريح ولا القيام ولا القعود ٠

أوغل فى الأهـرام ، وعين الولوج تدركه ، ما هو الا ذرات مكونة ٠ هو هو وهنا هناك ٠ وهناك هو ٠ نكتمل اسـتدارته ، فتلتقى النقطة بالنقطة ٠ وتكون الالتفاته الى الالتفاتة ٠

ليخبر زميليه ٠٠ ليطلعهما ، ليرى ما عندهما ٠٠

لكن ٠٠ عبثا رؤيتهما ، لا يواجـه الا نفسـه ، انه بمفرده تماما ، منبت ، صاغر ٠٠

من يصل الى هنا لابد أن يكون وحيدا ، منقطعا ، تلك اللحظة ، هذه المسافة من غور الأهرام ٠٠ لا تحتمل الرفقة ٠

متن ثالث

تلاش

.. عائلة أمرهـــا قديم ، ذائع ، مذكور فى كتب ما تزال مخطوطة لم تطبع بعد ، أما شأنه فمعلوم ، رائج داخـل البـلاد وخارجها .

يؤكد من لهم خبرة بتسلق الجهات الأربع أن نبوغه ظاهر ، ولخطوه فوق الأحجار ايقاع مغاير ، ورغم التاريخ الطويل لأجداده الا أنه جاء بما لم يقدم عليه أحد ، فلم يحدث قط أن تم الوصول الى القمة ليلا .. ومتى ؟

فى الليالى المعتمة ، الخالية تماما من القمر ، وأضواء النجوم القصية .

يعرفه كل من له صلة ، علماء الآثار المتخصصون ، ضباط وجنود الشرطة المكلفون ، أو القادمون لمهمات عابرة ، معظمها لحماية الشخصيات الكبيرة التى تجىء عادة للفرجة ، وأصحاب شركات

السياحة ، وقدامى المرشدين والادلاء والمترجمين ، وأجانب من بقاع شتى ترددوا على الأهرام مرات ، وصاروا مشدودين اليه ٠

حرص على رؤيته رؤساء وملوك وأمراء ، ونجوم سينما عالميون ومحليون ، ومصممو أزياء ، وخبراء عطور ، وأثرياء يمتلكون مراكب عابرة ، وأخرى راسية ٠ يعلق فى صالة بيته خطاب شكر موجه اليه من الديوان الرئاسى ، يشكره على المجهود المضنى الذى أبداه فى تسلق الهرم الأكبر سبع مرات متعاقبة لا يفصل بين كل منها أى استراحة ٠ أمام ضيف البلاد الرئيس الأندونيسى أحمد سوكارنو ٠

الثناء قديم عند أجداده ، ذكر البلوى فى تاريخه أن ابن طولون أثنى على أحدهم وأعجب به ، وترجم المقريزى لواحد منهم فى « المقفى » الذى ما زال قسم غير هين منه مفقودا ٠ قال المقريزى ان الناصر محمد كان يخرج الى الجيزة خصيصا ليراه ويتابعه ٠ أما نابليون بونابرت فنصح علماء حملته برسم جده الرابع ، لكنهم لم يتمكنوا لسرعته ، وخفته وقدرته على الابهار ٠

أسرة موغلة فى المهارة ٠ وتوارث المسارب المؤدية الى القمة ٠ عند سن معينة ـ ربما السابعة ـ يلقن الأب ولده الخطى الأولى ثم يوغل شيئا فشيئا حتى يصبح الطموح المستمر تقصير المدة ٠

يقول بعض من لهم دراية بالعلامات الخفية والطلاسم ، أنها تنقص كل مائة سنة مقدار دقيقة ، لم يكن الأمر سهلا ، مجرد تخلخل حجر من مكانه ، أو تآكل حواف آخر يطيل المسافة أو يختصرها ، بالاجمال ٠٠ يحيد بالخطة ٠

ما أقدم عليه هو ، ما انتهى اليه جعله مثالا يضرب ، وقدوة لمن سيأتى بعده ، اذ أمكنه اختصار المدة مرتين خلال عشر سنوات ، من ثمانى دقائق الى سبع ونصف ، الى سبع ٠٠ هذا توقيت غير

مسبوق بالمرة ، لم يدونه مرجع قديم أو حديث ، صـارت قدرته علامة على بلوغ المرام الوعر فى الزمن القليل ·

مشت سيرته بين الناس ، فأعجبوا به ، ومالوا اليه ، وكثر الثناء عليه ·

كان وحيدا ، لا أشقاء له ، جاء بعد انتظار سنوات سلم خلالها والداه بقضاء الله وقدره ، عندما وصل خافا عليه العين والحسد ، أحاطاه برعاية وحذر ، لم يرتد قط الثياب الزاهيـة ، انمـا كان ملفوفا فى الملابس السوداء · وسمت جبهته بدوائر البن الغامق ، كذا وجنناه ، ومقدمة ذقنه · رغم حرص أمه عليه من رفة الهواء ، من النسمة السارية الا أنها رفضت اطلاق اسم أنثى عليه ، أن تخفى ذكورته بملابس البنات كما اعتادت قليلات الخلفة ، مع أنها لو أقدمت لما شك الأقربون · فالولد كان مستدير الوجه ، واسع وعميق العينين ، مليح التقاطيع ، يؤكد كل من رآه أنه كان دائم التطلع الى جهة الأهرام ، الى الغرب ، لو حملته أمه يستدير ، اذا حادت به يرتفع صراخه · مع الوقت أدركت فلم ترضـعه الا اذا جلست وظهرها الى الأهرام · عندئذ تعلق شفتاه بثديها ، واذ يكتفى يدركه النوم الغميق ·

هل كان مشدودا لأمر خفى لا يعلمه ؟

هل كان يلبى نداء لا يمكن لآخر سماعه ؟

أم هو تراث أجداده الأقدمين الذين وزعوا أيامهم وأفنوا أعمارهم فوق تلك الأحجار ؟

لا يمكن لأحد القطع ، واذ يصغى الى ذكريات أمه عنه ، تحاول استفزازه · دفعه الى النطق ، الى التفسير ، لم يقابلها الا بابتسامة قانعة ، راضية ·

لم تدر أمه اذا كان يذكر لحظة فطامه . عندما تبعت والده قبل الغروب وأوغلا سبع خطوات داخل المرتقى · كشفت ثديها الذى دهنت حلمته بالصبار المر ، ترددت صرخاته ـ يا عين أمه ـ لكنه خطا خطوة باتجاه كينونته الغضة ، الخاصة .

لم يخف والده سروره المبكر بارتباط وحيده ، اتجاهه الدائم الى الأهرام لذلك لم ينثن ، أقدم على تلقينه أسرار المسالك المؤدية ، قيل انها أربعة · ويؤكد آخرون أنها ثمانية ، لمن أتقن · فى الثامنة صحبه حتى المنتصف ، فى العاشرة وقف الى جواره فوق الذروة . حيث تنتهى المادة ويبدأ الفراغ · أشار الى المعالم الدانية والقصية ، عندما بلغ الثانية عشرة أصبح باستطاعة الأب أن يقعد بين الزوار المتفرجين ، أن يتابع خطى ولده ، قفزه الرشيق من حجر الى آخر · فى الطلوع أو النزول ·

بدا وكأن المهارات المندثرة والمتوارثة انتقلت اليه واستقرت عنده ، تعلم القراءة والكتابة ، وأعجب به أساتذته ، قالوا انه عاقل ، رزين ، يسبق عمره ، كثير الصمت والاقتصاد فى الكلام والصيانة .

مرة واحدة انزعج والده لسؤال مفاجىء لم يتوقعه :

هل تسلق أحد أجدادى الهرم الأوسط ؟

لم يشأ والده أن يظهر انزعاجه ، أن يفضى اليه بالمحاذير الكامنة وراء صعود هذا الهرم بالذات · ما زال جزء من الكساء وردى اللون ، الجرانيتى ، المغمور بالأشكال والحروف يغطى قمته . لم يرغب فى التهويل ولا التخفيف ، انما قصد أن يتبع الصدق ، ألا يخفى عنه أمرا ، لكن بحذر ·

فى الولد شىء غامض ، يجعل المسنين ، المهابين يلزمون الصمت عند ظهوره ، يبدون الود ناحيته · يعاملونه باحترام ، أطلعه والده

على الواقعة الوحيدة التى جرت منذ ثلاثة أجيال ، عندما أقدم أحد الأبناء على الصعود ٠

فى الولد شىء غامض ، يجعل المسنين ، المهابين يلزمون الصمت عند ظهوره ، يبدون الود ناحيته ٠ يعاملونه باحترام ، أطلعه والده
على الواقعة الوحيدة التى جرت منذ ثلاثة أجيال ، عندما أقدم أحد الأبناء على الصعود ٠

لم يبد تحذيرا صريحا ، لكنه خشى أن يقدم على المحاولة ، لكن رغم عودة الابن الغالى للاستفسار والتقصى الا أنه لم يشرع ، كان اهتمامه الدائم بالهرم الأكبر ، خاصـة الذروة ، المنتهى ٠ كثيرا ما صعد اليها بدافع من عنده وأمضى الساعات الطوال منفردا ، وهذا ما حير أباه وأخاف أمه ، خاصة صمته المكين ، وقلة بوحه ٠٠ يثبت بصره تجاه الأهرام ولا يحيد عنه بالساعات ، مما أقلق والديه حتى أن أمه سعت سرا الى الشيخ المغربى لاعداد حجاب يقيه المهالك ، وبغتات الزمن ، لكن المغربى ، المرابط ٠ المتوحد بالوقت ، والصمت ، قال لها ان ابنها ليس فى حاجة ، لأنه موعود ٠

موعود بماذا ؟

لم يفسر المغربى ٠ لم يشرح ، هكذا هم ، يصعب استخلاص الحقيقة منهم ٠ لم ينه ذلك قلقهما الدائم عليه ٠ خاصة والده الذى لزم الدار مع وهنه ، وتضعضع أحواله ، لكم انتهت اليه أمور غريبة راجت وشاعت عن أجداده السابقين ، لكن لم يسمع عمن يشبه ابنه ٠ ما زالوا يقصون عن جده الثانى ذى الساق الواحدة وقدرته على تسلق الأهرام ، قفزا وانحناء مع استناده الى الحجارة الضخمة المتراصة ، واقامة جده الثالث لمدة شهر كامل فوق الهرم الأكبر ٠ لم ينزل مرة ، ولم يزوده أحد بكسرة خبز أو شربة ماء ٠ لم يبح لمخلوق بمصدر زاده ، وقال البعض وأكدوا أن طيورا خضرا كانت

تزقه بالثمر والقطر . يؤكد الرواة أن الذروة لم تكن تتسع وقتئذ الا لشخص واحد ، كانت نظيفة مجلوة كأنها لم تنقص شبرا . سمع عن أحد الأقارب الذين سعوا فى زمن بعيد ، دخل وغاب ، حتى انقطع كل رجاء في عودته ، لكنه ظهر بعد أربعة وعشرين سنة أمضاها كلها في عمق الهرم .

أين ؟

لم يجب .

كيف ؟

لم يفسر .

أبدى الولد اهتماما بجده الذى انقطع فوق ، عند المنتهى شهرا بأكمله ، صحيح أنه لم يلح فى الأسئلة ، لم يستفسر كثيرا ، لكن اللفظ المنطوق عنده يعنى الكثير من شخص طويل الصمت . عند افضائه بمثل تلك الاستفسارات تشخص أمه متطلعة ، واجفة ، حتى لتحبس أنفاسها .

قال أبوه ان ابداء مثل تلك الخشية لا محل لها الآن ، الولد عاقل واذا كان يتسلق بمفرده ، ويجتاز هذا الارتفاع الوعر ، ويبدى من الهمة ما جعله موضع اعجاب وطلب . فلا داعى لاظهار خوف لا يليق الا بالصبية .

تقول أمه انه سيظل صغيرا بالنسبة اليها ، حتى بعد زواجه وانجابه البنين والبنات ، عجل الله بيوم فرحه بعد أن يرزقه الله بابنة الحلال التى تصونه وتريح باله .

مرة واحدة قالت ان طول صمته يقلقها .

من يره أثناء تسلقه لا يخطر بباله قدرته على السكوت ، صعوده مختلف ، يستمتع والده بمتابعته . بمجرد ملامسته أحجار

الهرم . تسرى عنده حيوية وتهدر طاقة ، يخف ، يثب ، لا يتطلع الى أعلى . لكنه ينتقل برشاقة محيرة . وكأنه يتبع صوتا خفيا يدله . أو يمد يده الى اكف لا يراها الا هو ، ترفعه عند مواجهة حجرين متلاصقين ، مرتفعين ، يجب القفز فوقهما لاختصار جزء من ثانية . بل ان لون بشرته ليتغير ، قرب الذروة يصبح شبيها بلون الأحجار التى فقدت غطاءهـا منذ زمن . لون وسـط بين الأصفر والأبيض والبنى ، أحيانا لا يمكن توصيفه بدقة . كأنه قد منها متصل بها عبر خيوط غير مرئية ، يا سلام .. لولا سرحته الدائمة تلك ، وذهاب عينيه الى بعيد ، لفارق الدنيا مطمئنا عليه .

الحق .. لم يبـالغ والداه فى خشيتهما . كانا يرقبـانه بدهشة ، بحذر . بخوف من وقوعه فى الجذبة . أو استسلامه لسيطرة قوة غامضة لا يعرف مخلوق طبيعتها . ولا تنفع الأحجبة والأوراد فى دفع أذاها . ليس كل ما تضمه الأهرام وتلك الجبانات مكشوفا ، مباحا .

كان متعلقا بالأهرام ، دائم النظر اليها حتى وهو فوقها ، لا يكف عن الطواف بكبيرها وأوسطهـا وصغيرها . المكتمل منهـا والناقص . الخفى والظاهر ، مثل هذا الشغل غير جديد ، لا يثير ، فهو ابن عائلة قديمة الصلة . كان محور تفكيره من نوع آخر ، بما وراء هذه الأهرام ، لم تستغرقه الأمور التى تشد انتباه من يماثله عمرا ، حتى مراهقته لم تحدث تلك المطبات التى يقع فيها عادة من ينتقل عبر أطوار العمر المختلفة ، خاصة من الصبا الى الرجولة .

فتيات ونساء من أجناس شتى تعرضت له صراحة ، وتعلقن به . احداهن عرضت عليه مصاحبتها الى ألمانيا ، وله مايشـاء ، ما يطلب ، أحوالها ميسورة ، ولا تكف عن الرحيل وزيادة البلدان بهدف الفرجة ، والمشاهدة . أخرى من اليابان ما تزال تبثه هيامها

عبر خطابات تصل اليه بانتظام ، تحتل مركزا سياسيا مرموقا فى الحزب الحاكم ، بل ان رجالا هاموا به ، جاء بعضهم لرؤية الأهرام فلم يروا الا قوامه ، ورشاقته ، وملامحه التى تبدو كأنها خرجت من جدران معبد فرعونى ٠٠ هكذا وصـــفه مسئول كبير بحلف الأطلنطى ، يسكن مدينة لوكسمبورج ٠

كان يعرف جيدا كيف يكون الجواب ، ســواء كان اعتذارا رقيقا ، أو نهرا حازما ، قاطعا ، يعرف كيف يعبر عن نفسه جيدا من خلال اتقانه أربعة عشر لغة ، يجيد الحديث بمعظمها ولا يكتبها شأن أبناء المنطقة المخالطين للأجانب القادمين من كل فج ، الا أنه تميز عن الآخرين بقدرته على قراءة النقوش ٠ ونطق الهيروغليفية ، تعلمها من مفتشى الآثار القدامى الذين قربوه واستعانوا به فى مهام متعددة ، هو مثلا الذى حدد موضع الحجر الساقط يوم الزلزال الشهير ، مسئول كبير بالهيئة العامة للآثار ــ رحمه الله ــ صافحه بعد نزوله ، تطلع اليه ثم خاطب المحيطين به قائلا :

« انه يعرف عن الأهرام أكثر مما نعرف كلنا ٠٠ » ٠

هل كان الرجل ملما ببعض مكنونه ؟

بالتأكيد لا ، لأنه لم يجلس اليه ، لم يسمع منه ، لكنه تلقى عنه بعض الاشارات فأدرك واستوعب ٠ من عبارات تفوه بها ، من دلائل أخرى لا يمكن الاحاطة بها جملة ٠

عندما بدأ يفضى لوالده أخفى الرجل جزعه ٠ تقدم فى العمر الى درجة لا يمكنه عندها الا الاصغاء ، ما سمعه أثار عنده أصداء لم يبح بها لمخلوق ٠

قال ان هذا البناء الهائل من الحجر ســـواء كان الأكبر أو الأوسط ، انما هو مجرد أمر ظاهر لشىء آخر ، لمعنى ٠٠ ربما ،

لتكوين ، لحقيقة ، لقوة ما ·· يجوز هذا كله ، لا يمكنه التحديد ، لو علم وأحاط لاستقر وهدأ ·

لم يكن دافعه ومحركه لصعود الأهرام ، وحفظ المسالك ، تجاوز المدد المعروفة ، المدونة من أجل مواصلة دور متوارث ، أتقنه الأجداد كمصدر رزق ، وانتزاع الاعجاب من غرباء عابرين ، انما كان وسـيلة للوقوف على ما يبحث عنه ، ما يقضه منذ أن وعى وأدرك الفرق بين الأصل والظل ، بين المتبوع والتابع ·

ما وراء هذا التكوين ؟

لماذا جاؤوا بهذا الشكل ؟

كيف تتصل المادة بالفراغ ؟

تلك القاعدة الهائلة من الأحجار الضخمة التى تقل كلما اتجهنا الى أعلى · حتى تنحسر الكتل الهائلة ، تتلاشى عند حد معين ، بعده يبدأ الفراغ ، ينفد المحسوس القادم من أسفل ، ويبدأ اللانهائى ، ليست القاعدة الا نبته من العالم الأرضى ، نبتة تمت الى الكوكب كافة ، متصلة بما هو أشمل ، وعند الذروة تبدأ النقطة غير المدركة بالنظر ، ما هى الا البداية والنهاية معا لما يعسر على الافهام ادراكه أو استيعابه ·

تلك النقطة شاغله ·

أرحمية محسوسة ، أو لا مرئية ·

جذعها ثابت ، أو غير محدودة ، متصلة بحواف الكون ·

ألمح ولم يفسر ، ربما لأنه لم يشأ التصريح ، وربما لأنه لم يدرك · لم يستوعب ، لابد أن أمورا أخرى جالت عنده ولم يلمح اليها ، لم يكن باستطاعة والده أن يجادله · خاصة بعد رحيل أمه

الأبدى · وتضعضع بنيان الرجل · عندما رأى ابنه يقف فى الفناء لحظة انبلاج الخيط الأبيض من الأسود · لم ينطق لم يسأله عن الجهة التى يقصدها فى هذا الوقت ، ربما أدرك اللافائدة ، اكتفى بالتطلع ، بالتزود من فراهة حضـوره ، وسموق عزيمته ، بخبرة الأيام الطوال التى قطعها وعبرته أيقن أنها اللحظة التى أمضى أزمنة يعد لها ويتحسب ··

عبر الباب ، خرج الى الطريق الصاعد ، لم يتوقف لحظة ، لم يلتفت الى الوراء ·

بدأ تسلقه بسهولة ، بيسر ، لا يصعد الآن ليستعرض مهارة · أو ليبهر ضيفا · أو ليتقن طريقا جديدا يختصر به المدة ·

انها تلبية ، وابداء جواب ، ثمة دافع غامض الكنة · لم يطلع عليه شاهد ، ولم يلمحه راصد ، يؤدى به الى أعلى ، الى الذروة ، يتقن الوصول اليها عبر عدة مسالك تتخلل تلك الأحجار التى تبدو للمتطلع الغريب متباعدة رغم تلاصقها ، لكنها النظام عينه ·

فى طلوعه هذا لم يتبع طريقا أدى به يوما ، انما كان يتقدم منخطيا كل التقاط التى بدا مستحيلا الاقتراب منها يوما ، ويؤكد أبوه الذى زحف حتى بداية الطريق ، أنه كان باستطاعته أن يراه رغم اعياء النظر ، وغبشة الفجر ، وانقطاع الأسباب !

يردد العارفون ، المدركون لبعض مما وراء الحجب ، المتلمسون اتجاهات المصائر ، أنه بمجرد وصوله الى الذروة ، أقصى المسافة المتاحة · تألق عاكسا ضوء الشرق الوليد كافة حتى ليمكن رؤيته من بعيد ، من سائر الأنحاء ، ربما ارتدى قميصا يمت الى الأجداد · بدا منه ما يشبه الرقص فرحا ، كأنه يدرك القمة أول مرة ، هذه المساحة الضئيلة التى أمضى أحد أجداده فوقها شـهرا بغير زاد معروف ، التى تلخص كافة ما يقع تحته ، ما هو موغل فى باطن

الأرض · وذلك الفراغ المهيب ، الذى لا يمكن حده ، ويطمس كل الفواصل ، ويسوى بين الموجودات ·

لم تكن حركته الدائرية ، المتوثبة تلك ، الا تمهيدا لتلقى تلك البغتات من الاشراقات المفاجئة ، المتوالية ، والتى أخذته من كل جانب ، تخللته ، اجتاحته ، دفعت به واليه مستقر النغم · ومصدر كل حلم ، جذر كل توق ، سر اندلاع الرغبة وانطفائها ، والدافع لميل الغصن وفراقه عن الجذع ·

متن رابع

ادراك

حدثنا الناصرى محمد أحمـد بن اياس الحنفى المصرى فقال :

بعد مجيء الخليفة المأمون الى مصر واخماده الفتنة ، انشغل بأمر الأهرام جدا حتى أنه ضرب خيامه على مقربة منها ، وكان يكثر من التطلع اليها · والنظر الى سموقها · وتأمل الكتابة المنقوشة عليها بقلم الطير ، وطاف حولها مرارا ، اما راكبا يحيط به حرسه أو راجلا منفردا ، محدقا فى أحجارها ، متفكرا فى أسرارها ، متعجبا من هذا البنيان ، وقبل أن يقر رأيه على فتح النقب الذى يدخل منه القوم حتى أيامنا تلك ، أمر بقياس أبعادها بدقة ، وخصص لذلك يوما معلوما ·

فيه خرج بكامل الأبهة ، يحيط به أركان الدولة ، وعليـة القوم ، وكبار الخدم ممن جاءوا بصحبته ، كذلك أعيان أهل مصر ، وحشد من الخلق سعوا للفرجة ، خيموا فى المسافة الواقعة بين

الأهرام الكبرى وتمثال « أبو الهول » ، ثم جاء المعلمون وبينهم قياسون من بغداد ، وسمرقند ، ودمشق و ٠٠ القاهرة ٠

اختاروا كلهم المعلم ابن الشحنة ، وكان حجة فى هذا المجال ، يمكنه تقدير المسافات بالنظر ، يؤكد العارفون به أنه لم يخطىء فى ذلك قط تلقى أسرار القياس عن أجداده من قبط الصعيد الأعلى ٠

أشار المأمون الى الأهرام ، قال بلهجة تقع بين الأمر وطلب المعرفة بل ٠٠ والحيرة ، مما جعل بعض شهود ذلك اليوم يؤكدون فيما بعد أنه كان ملما بما لم يفصح عنه من قبل ، وأنه كان يعرف بشكل ما ٠٠

نظر ابن الشحنة الى الهرم الأكبر الذى حير الأقدمين والمحدثين، بدا معنيا متمهلا ، وعندما التفت الى من حوله لاح منه اضطراب خفى لا يستعصى رصده على الفطن ، اللبيب ، طلب من المأمون الاذن له باستخدام أدوات القياس ، مستحيل ادراك المطلوب بالبصر ، فأذن له ٠

قاس كل ضلع من الأربعة ، استغرق وقتا ليس بالهين حتى تململ بعض رجال الحاشية ، أولئك الحريصون دائما على اظهار ما يظنون أنه يجول بذهن سيدهم سعيا وتقربا ، غير أنه أشار بيده طالبا الصبر ، والانتظار فالمهمة عسرة ، وليست كما تبدو ٠

أقل ابن الشحنة فظن القوم أنه سيبلغ أمير المؤمنين بالنتيجة ، لكنه وسط دهشة الكافة طلب مهلة ثانيـة فاستجاب الخليفة ٠ غربت شمس اليوم الأول ، عاد بعد خلو السماء منها ليطلب فرصة ثالثة صباح الغد ، قال انه سيبدأ لحظة الشروق ٠

بش المأمون وأظهر له المودة والصبر ، بل وأثنى على همته تشجيعا وحضا له ، فلم تلح أى نتيجة بعد ٠

في مطلع النهار التالى فرغ ابن الشحنة من مهمته كما بدا عند اقباله على المأمون ، قال انه لم يعاين فى حياته ، ولم يسمع من الذين سبقوه عن أى بناء فى المعمورة يحوى تلك النسب الدقيقة ، التماثل مذهل ، مثير للاعجاب بين الأضلاع الأربعة ، لكنه فى شك من شيء لا يود الافصاح عنه الا بعد التأكد ٠

أومأ المأمون ، بدا راسخا كأنه يعرف ما صرح به ابن الشحنة مقدما ٠ لم يدر الحاضرون ان كان محيطا فعلا بما أوقع الشك فى نفس ابن الشحنة ، أو أنهم بازاء عادة الملوك الذين لا يبدون الدهشة ازاء ما يسمعونه من غرائب ، وكأن المامهم بكافة شيء أمر مفروغ منـــه ٠٠

سأل بهدوء :

وماذا تطلب ؟

التفت ابن الشحنة الى الهرم قبل أن ينطق :

أطلب قياس الأضلاع عند المنتصف ٠

أشار المأمون بيده :

« لك ذلك ٠٠ لكن أصحب معك من يجيد التسلق » ٠

جاءوا اليــه بأحــد العالمين ، الملمين بالدروب الصاعدة ، من عائلة تعيش على مقربة تخصص أفرادها فى طلوع الأهرام ٠ منذ زمن قديم ، الى ما قبل مجيء العرب الى مصر ، أمر المأمون أن يترفق بابن الشحنة ، وأن يدله ولا يكتم عنه ما يعرف ٠

كان ابن الشحنة فى الخمسين من عمره وقتئذ ، قادرا على الطلوع وان على مهل ٠ كان فريدا فى بابه ، ذائع الصيت بين المعنيين بأمور القياس ، متمكنا من أمره ٠

بدأ عند الضحى ، وعند الظهور بانت الدهشة على وجوههم جميعا عندما لاحظوا أنه يكرر ما يقوم به ، يغيب عن تلك الواجهه ليظهر بحذاء الأخرى ، تململ البعض ، غير أن المأمون بقى راسخا ، لا يظهر تململا أو ضجرا ، بل التفت اليهم مهدئا ومطمئنا ٠

اصبروا عليه ٠٠ الأمر وعر ٠

قبل الغروب مثل ابن الشحنة أمامه ٠ بدا مرهقا تعبا من بذل المجهود ، قال حائرا ، مترددا :

« يا أمير المؤمنين ٠٠ أخشى ألا تصدقنى ٠٠ » ٠

تطلع اليه بوجه هادىء ، يعجز الأقربون عن ادراك ما يجول عنده :

« قل ما عندك ٠٠ » ٠

قال ابن الشحنة القياس :

«العرض عند المنتصف مماثل للقاعدة ٠٠ لا يزيد ولا ينقص» ٠

طول كل ضلع أربعمائة ذراع ٠٠ يا مولانا ٠٠ لا ميل هناك ولا نقصان ٠٠ » ٠

بعد لحيظات سكون ، ردد ابن الشحنة :

« الأمر حيرة ٠٠ الأمر حيرة » ٠

جهر بعض الواقفين بشكهم ، بدا قائد الجيش الذى بذل الهمة وقمع الفتنة أشد جرأة :

« انه كاذب يا مولانا أمير المؤمنين ٠٠ يريد لعقولنا أن تصدق عكس ما نراه بأعيننا ٠٠ » ٠

تطلع ابن الشحنة الى المأمون :

« والله هذا ما وجدته يا أمير المؤمنين .. » .

بدا هادئا ، كأنه يصغى الى ما يتردد داخله ، وليس ما يقوله الغير ، نطق متسائلا :

« هل يمكنك قياس طول الأضلاع عند القمة ؟ » .

تطلع ابن الشحنة الى الذروة البادية ، فى الليل خلا الى المأمون مقدار ساعة ، ثم مضى الى موضع رقاده غير أنه أرق فلم ينم ، لكنه مع شروق الشمس كان يمضى عبر المسارب الخفية ، البادية ، يتقدمه الدليل مضى الوقت بطيئا ، لكن المأمون لم يبد ضجرا ، حتى اذا نزل الليل . واندمج الأهرام فى العتمة ، لم يفارق مكانه ، بل يقول البعض انه لم يفارق سرج حصانه ، أمضى النهار التـالى كله يرقب طواف ابن الشحنة الدائم فوق ، هناك فى أعلى نقطه ، حتى اذا غربت شمس النهار الثالث ظهر الدليل القديم ، كان متعبا ، خائفا ، قال مشيرا الى القمة .

« فى البداية لم أصدق مثله .. لكننى اسنوثقت بعد أن أطلعنى .. وعندما غاب عنى لحظة دورانه جهة الغرب ظننته تعب فمكث ليستريح .. لكننى لم أره قط . خشيت فجئت .. » .

التفت الخليفة الى قادة جنده . وأقرب صحبه ، أمر باطلاق نفير الرحيل ، وقطع المراحل بدون توقف ، وحار الخلق كلهم ، من حضروا ، ومن قرأوا فيما بعد أخباره ، ولكن لم يستدل انسان الى شىء قاطع ، مع كثرة التفاسير ، وتعدد الروايات .

متن خامس

نشـــوة

٠٠ لأنها تحدثت الى كثيرين ، معظمهم من العاملين فى المنطقة ، خفراء ، باعة ، أدلاء ، رجال هيئة الآثار ، فلم يعرف أحـــد متى ولا كيف اتفقت معه على دخول الهرم عند مطلع الشمس ، كثيرون تمنوا اناث من شتى أنحاء الدنيا ٠ مختلف مراحل العمر ، تتنوع ملامحهن ، وشخصياتهن الا أن ظهور تلك البنيـــة مغاير ٠ وهى أجنبية شكلا ، مصرية روحا لخفة دمها ، وظرفها ، وسرعة بديهتها ، وخصوصية دلالها ، وأيضا ٠٠ اتقانها العربية رغم أنها تعلمتها فى بلادها ، لكنها تتحدث وكأنها ولدت فى الجمالية ٠ وأمضت عمرها فى بولاق أو انبابة !

ظهورها اعتبر فيما بعد علامة ، خاصة بعدما تردد وصار يرويه القوم ، كانت شاهقة الأنوثة ، سيسبانية القوام صفصافية الشعر ، فمها مدخل ثرى ، ناعم الى عالم لا نلوح ملامحه ، تمشى فى الأرض مرحة ، جوالة ، أفضت لمن أصغوا اليها أنها تقوم برحلة حــول

الكوكب وأنها خصصت الوقت الأطول للاطلاع على ما تضمنه مصر من عجائب ، بالطبع أولها الأهرام ، تبدأ بالأكبر ، ثم الأوســـط فالأصغر ، ثم تمضي الى الأقدم : أبو صير ، أبو النمرس ، سقارة ، دهشور ، ميدوم • اللاهون •• لن تفارق البلاد الا بعد المعاينة والفرجة ، والمقارنة ، وتدوين هذا كله •

تعددت مرات ظهورها ، يوما بعد الآخر شاعت ابتسامتها ، راج أمر حسنها واشتهرت ملامحها ، تحدث القوم • تجيء من وسط المدينة حيث تقيم فى أحد الفنادق العتيقة التى يقصدها الأجانب متواضعو الدخول والامكانيات •

قسماتها تتضمن ترحيبا دائما ، لا تصد أى ساع ، لم تكسف مخلوقا أبدى لها ودا أو اعجابا ، لكن •• لم يصدر عنها ابتذال ما ، ثمة شيء فى نظراتها ، فى صوتها فى حضورها • يلوح فجأة فيضع حدا ، ويوقف الراغب فى اجتياز الحدود •

كل من شاهده يقدمها قبل شروق الشمس باتجاه المدخل تمنى لو أنه بديل له ، يسعى أمامها أو بين يديها ، تلك الفارهة ، الفياضة ، حديقة من الاستدارات الفوارة ، تلغى حضور ما عداها ، تفيض على الكافة • هو مكتمل ، من الأصلاء المتمكنين ، أبدى مهارات أعجبت الجميع ، كان رياضيا متينا متقنا للألعاب اليابانية ، حاز فى سن العاشرة الحزام الأسود ، كان وثيق الصلة بمن عملوا هنا ، مصريين أو أجانب ، ذائع الصيت بين المهتمين •

كان وسيما ، متقدا ، صريح الملامح ، كأنه خارج للتو من جدار معبد لم تتغير ألوانه ورسومه ، عرف عنه تعففه وزهده فى الأجنبيات اللواتى يرغبن أحفاد من عاشوا هنا ، ما تعرض له من اغراءات ليس سرا ، بدءا من التلويح بالاعجاب الى التصريح ، الى فرص عمل مغرية فى الديار البعيدة ، بل ان أكثر من امرأة عرضن

عليه عقود عمل صحيحة ، احداهن من أصل عربى تقيم فى كندا وتمتلك أرضا ، ومحطات بنزين ، ومنزلا على بحيرة ، ويختا يرسو فى خليج ، طلبت منه أن يضـــع الرقم الذى يريده · فقط ·· ليصحبها ويكون على مقربة ، لكنه أبى ··

لامه صحبه ، تمنوا لو أن ما عرض عليه قدم اليهم ، لو أن الفرص التى تسنح له واتتهم · وصفة البعض بالغباء ، وقال آخرون انه ذكى ، وهمس أحدهم : بل انه يخفى أمرا ، لكن لم ينل أحد من رجولته ، أو التفوه بما يمكن أن يمسه ، تمناه آباء زوجا لبناتهم ، وسعى تجار الى ائتمانه على تجاراتهـم ، لكنه أخلص تمـاما لوصية أبيه ، أن يسلك دربه ، وأن يتم عمله ، ألا ينأى بعيدا عن الأهرام ·

·· كان عطر السيرة · يخلف أثرا طيبا عند كل من تكلم اليه · أو سمع منه ، ضرب بخطاباته المثل ، يقول القوم : أكثر من بريده ، تجار الطوابع طلبوا شراء ما يتلقاه ، لكنه أرجأ الاستجابة الى الوقت المناسب ·

متى التقى بالهيفاء ؟

أين تم الاتفاق بينهما ؟

هذا ما لم يعرفه أحد ·

أهو الذى سعى · أم هى التى اختارته ؟

لا يمكن القطع ·

أول رؤيتهما معا صباح ذلك اليوم ، يتقدمان فوق الأحجار الضخمة باتجاه المدخل ، كانت ترتدى قميصـــا أزرق وبنطلونا أصفر ، يبدو من خلاله حواف سروالها ، وحذاء أحمر · يؤكد خفير قديم أنه سمعهما يتحدثان بلغة غربية لا يعرفها ، ولم يسمعها من

أى أجنبى ، انه يتقن الانجليزية والفرنسية والايطالية واليونانية والروسية وبعضا من اليابانية ٠٠ لكن ما فاها به لا يمت الى ذلك ٠

أما الخفير الذى تسلم تذكرتها وقطعها الى نصفين فقال انها كانت غاية فى الألق ، تكسف المتطلع اليها ونحرضه أيضا ، أكد نظراتها الولهى اليه ، لم تكن متطلعة فقط انما بدت مستطعمة ، مستمتعة ، أما هو فلم يظهر عليـه أى عارض جديد ربما هـذا ما حببها فيه !

روايات شتى تقص تفاصيل عديدة ، يتصل بعضها بمصادر معينة ، لكن الجميع يتفقون على اجتيازهما النقب لحظة الشروق ٠

هو ٠٠ وهى فى أثره ٠

عندما انحنت قليلا لتلج الدهليز بانت خطوط كينونتهـا ، محكمة ، فاصلة ، واصلة ، مؤثرة ، مرجفة ٠

أوغلا فى الممر الأول الصاعد ، والثانى المائل ، ثم ٠٠ ثم الثالث الذى لا وصف دقيقا له ، انما يختلف تقديره من انسان الى آخر ، وتناثرت الاشارات اليه فى كتب الأقدمين والمحدثين ٠ بقى أمر ، ملغز محير تماما مثل حقيقة أبى الهول ، أو أرصاد الجن التى تحمى الكنوز الخبيئة ، ومصادر الأذى الخفية التى تلحق بكل من هتك سرا يتعلق بالموتى الراحلين ، أو أتى بفعل شائن على مقربة منهم ٠

فتحة الدهليز أو الممر أو ذلك الباب الخفى لا يظهر الا على فترات متباعدة أو متقاربة ، يتكرر ظهورها فى أوقات متلاحقة ، وربما تمضى سنوات لا يسمع بها شخص ٠ دائما مسدودة ، جزء من الجدران المصمتة ، الحجرية ٠

من يفتحها ؟

من يغلقها ؟

ما هى الأسباب والعوامل ؟

هل هى مستطيلة ، مربعة ، دائرية ؟

لا أحد يمكنه على ذلك ، حتى أولئك الذين أفنوا السنوات الطوال فى الدرس والفحص وجس كل حجر ودس أصابعهم فى الحفر والشقوق .

المؤكد مما يرويه القوم ، أن قوة هائلة تندلع داخل الرجل أو المرأة ، درجة من الرغبة لم يصفها أحد .

هل كان واعيا عند اجتيازها ؟

يقولون ان عبق البنية غطى على ما عداها عنده فلم يعبأ ، حتى أنه أوغل عبر الفتحة بدون أن يدرى ، لم يلتفت الى الوراء ، ولا اليمين ، أو الشمال ، انما مضى متأثرا بمجالها ، وعند نقطة معينة التفت اذ لفحة دفؤهـا ، لم ير منها الا عينين متقدتين ، نفاذتين ، ناعمتين ، تفيضان حيوية على المحسوس كله ، اجتاحته رعدة مكينة ، أما نسيمها الخاص ، أرجها الأنثوى فقد أوغل وشمله وفاته فوتا . استدار فوقعت المواجهة .

كلها مشرعة ناحيته ، متأهبة له ، كان مستقبلا ومرسلا ، منها واليها ، اتصل تطلعهما صوب بعضهما ، شيئا فشيئا يسرى ما يشبه الحليب الفاتر عندهما ، غمس كل منهما نظراته فى الآخر ، ثم .. صار التقدم .

حال جديد ، عليه وعليها أيضا ، مغاير تماما لكل ما عرفاه أو خبراه من تأجج أو ازدهار رغبة ، متى جرى تجددهما ، ثم بدا امتزاجهما ؟

تشاكلت أطرافهما ، لم يعد أحدهما ملما بأصابعه أو يديه أو انحناءات الكتفين ، ومصـــادر الرعشـات والغمغمات ، وتحسس اللســانين بعضـــهما ، تبادلهما المواقع ، بل ان مسامهما بدأت تتشاكل ، جرى تكوكبهما لحظة ايغال كل منهما صوب الآخر ٠

ما من حد للتصاعد ، لنمو النشوة ، لاتقاد الرغبة ، كافة موروثهما من الصور واللحظات والرؤى والأفكار يتلاشى تماما ، لم تعد كينونتهما ذات امتداد تحقق في الفائت ، محتمل في الآتي ٠٠ انما صارت مندمجة في لحظة غامضة ، قادمة من منظومة زمن آخر لا عهد لكل منهما به ٠ لحظة لا قبل لها ولا بعد ، مبتوتة ، منقطعة ، خارجة عن أى سياق معهود ، لم يكن ثمة حد للارتواء عندهما ، انما اتقاد مستمر ، متصاعد ٠ ومثل هذا لا يعرف له مثيل ، ومن ثم يعسر الوصف ويصعب ٠

تداخلت عناصرهما ، بدأ انصهارهما يتحقق مع عجز وجودهما الجثماني المحدود عن احتمال أو استيعاب شهوة عارمة فاقت كافة الحدود ، بدأت أطرافهما تتحول على مهل الى لون أسود غامق مشوب بحمرة الوقيد ، ثم طال الأمر وعاء كل منهما الجثماني ، تذرى الى ما يشبه الرماد وان لم يبد كذلك ٠

متن سادس

ظـــل

لسنوات ردد القوم أخبـاره ، تناقلوا أمره ، دقق البعض وصفه وذكره ، لم يقتصر الأمر على القرى والنجوع والكفور المتقاربة فى الجيزة ، انما تجاوز الى أطراف شتى ، وأشار اليه باحثون معنيون ، وصحفيون ، ورحالة ، وقناصل أجانب يكتبون كل كبيرة وصغيرة فى تقاريرهم • المتفق عليه بين الرواة الذين عاينوه عن قرب أو تحدثوا اليه أنه جاء من مكان بعيد ، لكنهم يختلفون فى تحديده ، فى تعيين البلدة التى ينتمى اليها • يقول بعضـــهم انه كان فى الطريق من بلاد المغرب الأقصى الى مكة قاصدا الحج ، وأنه تخلى عن الركب ، خرج منه ، بعد أن وقع فى يده ذلك الكتاب الذى لم يطلع عليه أحد ، أو عندما جاءه الهاتف الخفى بما دفع به الى الحيدة عن المسار وتغيير الوجهة •

جاء من سمرقند !

بل خرج من بخارى !

لا ٠٠٠ المؤكد أنه من خوارزم ٠

فى كل الأحوال ينتمى الى الشرق ، ودخل البلاد مشيا على قدميه ، اقتنع أصحاب الأمر أنه طالب علم ، معنى بما تركه الأولون من آثار ، قصد الناحية الواقعة بين أبى صير ودهشور ، قرب الحد الفاصل بين الخضرة والصفرة ، بين الزرع ، والجدب ، بين خصوبة الوادى وأبدية الصحراء الساكنة ، أبدى اهتماما بالهرم الواقع الجهة البحـرية . يقول الأهالى ان هـرم الجيزة الأكبر يقول له : يا أبى ، اشارة الى قدم الأصغر وسبقه ، وتضمينا غير مباشر لما يؤكده العاملون أن « سنفرو » والد خوفو هو الذى شيده ٠ قلة أكدوا أنه أبدى حنينا الى البحر بما يعنى انتماءه الى احدى البلاد الواقعة هناك ٠ لكن ، لم يتأكد ذلك ٠ المؤكد أنه غريب عن مصر ، أنه دخلها دون العشرين ، أول مرة شوهد فيها كان فتيا ، عفيا ، قادرا على الحفر بمفرده وحمل أثقال ، وشق جذع نخلة ليقيم منها ما يشبه جدرانا وسقفا يقيه شـــدة رياح العراء ليلا ٠ لكنه لم يأو قط الى هذا المكان نهارا ، ذلك أنه منذ طلوع الشمس ، بل قبل اطلالة قرصها يسعى الى الموضع الذى حدده الكتاب ٠ أشارت اليه السطور وعينته الألفاظ ٠

يلزم ٠٠ لا يتحرك ، انما يتابع حركة الظلال حوله بانتباه بالغ وعينين يقظتين ، متوقعتين وصول ظل الأهرام الى نقطة معينة من الأرض ، ينبت منها جذع شجرة قديم لشجرة بلغت من العمر حدا متقدما ، جذر ذو ثلاث شعب ، متشبث باليابسة ، نخر ، من أغصان نحيلة متبقية تنبت فى أوقات معلومة وريقات خضراء ، درجة زاهية ، صريحة من اللون ٠

كان دائم التطلع اليه ، طويل النظر ، شديد القرب منه ليلا ، خاصة بعد امتزاج الظلال وانعدام الفروق فيما بينها ٠

لم يكن ممكنا الحديث اليه والاستماع منه الا بعدتمام الغروب ، فى النهار يظل شاخصا ، لا يحيد لم يره أحد يأكل ٠ ولم تقع عين على بقايا قربه حتى حار القوم الذين بدأ نزولهم على مقربة منه وبنوا بيوتا من اللبن أو الحجر ، وشقوا قنوات صغيرة من المياه أيام التحاريق ، ونزحوا من مياه البحيرة التى تبدأ الامتلاء صيفا وتترجرج فوق صفحتها الأهرامات الثلاثة المتقاربة ، المتعكسة ٠ كانوا متخصصين فى زراعة النخيل ورعايته ٠ ومداواة آفاته ، وتلقيحه فى المواسم ، تقليمه ، صعوده ، جمع دموعه ، عدد كبير من النخيل على حافة الصحراء ، كان التمر ينبت ، ينضج ويسقط فوق الأرض ، لا يجد من يجمعه ، الى أن استقروا وأبدوا وشاع أمرهم ٠ كان بعضهم يمضى الى أماكن قصية لعلاج نخلة ٠

ولأنهم وفدوا فوجدوه عند المد الفاصل بين الوادى والصحراء ، احترامو صمته وتحديقه ، ثم اعتقد بعضهم فيه ، صاروا يسعون اليه طلبا للنصح ، ثم البركة ، بشكل ما عرفوا قصده ٠ وان اختلف التصور ٠

قال بعضهم انه ينتظر اشارة لن تظهر الا له ٠٠ هو وليس غيره ، بعدها يسفر الأهرام عن خبايا لم يسمع بمثلها أحد ، ولابد أن خيرا سيطالهم ، لذلك سعوا دائما اليه ، لم يصد أى انسان قصده ، كان بشوشا ، رقيقا ، ألوفا ، عنده يسر ، ليس عنده نفرة من الآخرين ، كل ما رغبه أن يطلبوه ليلا ، أن يدعوه وحيدا نهارا ، لانتظاره الطويل ، الممتد ، يمكن أن ينتهى فجأة ، فى أى لحظة ٠٠٠ عندما يحيد ظل الأهرام عن مساره ، يتصل بتلك النقطة ٠ عندئذ تتكشف له الأسرار كافة ، أسس العلوم ، ومفاتيح الرموز ، يمكنه الدخول الى ما استعصى على البشر كافة ، الوصول الى ما طال عليه الأمد مخفيا ، مستورا ، ما عسر كشفه على الخلق ٠

كان يتداخـــل فى بعضه اذا اضطر الى مجالســـه ، خاصــة اذا جاءه كبير من انقوم وأظهـر له التواضـع والرغبـة فى القربى تبركا أو سعيا ، كان ـ يحفظ بلسانه ، وعينى ذاكرته تلك السطور التى اطلع عليها منذ زمن ، وعلى مســـافة نائيـة ، أصغى الى كافة ما يتردد عن الأهرام ، سواء صدر ذلك عن متخصصين ، قاسوا الارتفاعات وأحصوا الأحجار واختبروا ميل الزوايا ، أو الأهالى الذين احتفظت ذاكرتهم بوقائع بعضها حقيقى والآخــر متخيل • بدءا من وصف ملامح الحرس الخفى الذى يدفع كل أذى ، الى الطلاسم التى تحمى المبانى القديمة من أخطار شتى ، الى ما يتردد عن وجود أحياء يســعون ويعيشـــون حيواتهم فى عوالم مضيئة ، فسيحة داخل الأهرام ، يتناسلون ، ويجيئون ويرحلون ، وأحيانا تقع حروب بينهم ، وما تلك القرقعات المنبعثة أحيانا الا بعض أصدائها ، الى مصير كل عابث وعابثة داخل الأهرام ، ألم يعثروا على شاب وشابة فى الأكبر وهما متفحمان تماما ، قالوا انهما بعد شروعهما اندلعت نيران لم تبق على ما يدل عليهما ، ومثل ذلك جرى فى الأزمنة المختلفة • الى الحديث عن أنهار تتدفق فى مكان ما داخل الأهرام وشطآن حافلة بكل نبات غريب ، جميل ••

كان يسمع ، وكانوا ينظرون اليه ، اعتادوه ، ومع مر السنوات أصبح جزءا من ذاكرة الذين ولدوا وشبوا ونموا وسعوا فى تلك الأنحاء ، استمروا على ما أبداه أجدادهم وآباؤهم ، احترامه والتبرك به والخشية بشكل ما منه •

لم يتحرك من موضعه ، لم يحتم الا بجذوع النخيل التى شقها وسواها وعالجها بيديه ، وعندما حل به مرض زحف الى شجرة عتيقة ورضع جذعها بعد أن أولج فيه ما يشبه المسمار •

كان دائم التطلع الى السماء ، الى الهرم ، الى الجذور المطلة من التربة ، الى نقاط شتى لا يمـكن تعيينها • ربمـا الجهة التى قدم

منها ، أو ٠٠ لادراك المسارات غير المرئية المؤثرة على حركة الظلال وانتقالها ، وانتمائها الى الأصول ٠

فوق تلك البقعة من الأرض كرت عليه أيام وليال . رأى تحولات الضوء أصغى الى تتابع دقات قلبه اذ يسند رأسه الى ذراعه عندما يسعى الى اغفاءة ، يرصد ما يجرى داخله ، يحاول التعرف على ما يجرى عنده ٠ فى لحظة ما أدرك أن التتابع القادم من ماض بعيد قد لحقه تغير ما ، أن دفق الدم يتعثر أحيانا ٠٠ لم يعد قادرا على الخطو بالايقاع نفسه ٠ اتخذ من جريد النخل عصا يتوكأ عليها حتى يمكنه المشى حول الأهرام بعد الغـروب مباشرة ٠ كان ظهوره مثيرا للصغار . ملفتا للكبار رغم مضى المدة واعتباره جزءا من المرئيات الطـائفة ٠

بقدر ما كان يقترب من الأهرام بقدر ما كان يعى بلوغه نقاطا متقدمة فى الوقت ، ان ما فات كثير ٠٠ كثير ، وما بقى قليـل ٠٠ قليل ، غير أن يقظته لم تهن ، وحـدة وعيـه لم تحد ، كان يرقب حلول تلك اللحظة المدونة ، الموصوفة بدقة والتى لم يعد يميز الاها رغم أنها لم تحل بعد ، عندما يحيد الظل عن مساره الأبدى ، حتى يتصل بتلك البقعة من الأرض ، عندئذ ٠٠٠

لا يعرف انسان كيف أدرك القوم حقيقة ما جرى ، ما تناقلوه أزمنة طويلة ، لكن المعمرين منهم يذكرون جعيره الهائل الذى خض الأطفال وأرجفهم فى سـائر الأنحاء القريبة ، وألزم الحيوانات والدواب أماكنها ٠

اللحظة المتوقعة مرت ، لم ينتبه اليها ٠٠

كيف ؟

كيف وكينونته كلها محورها التوقع ، والحذر ؟؟

اللحظة لم تحل نهارا ، انما امتد الظل ليلا ٠٠

كافة توقعاته وحساباته جرت على أساس أن التحقق النادر المثير سوف يتم نهارا ، وهل تولد الظلال الا من الضوء ؟ غير أن ما جرى عكس ذلك ، فللقمر والنجوم قدرة على بث الظلال . صحيح أن القمر كان غائبا تلك الليلة . غير أن النجوم تتوالد عند حافة الصحراء وتفد من سائر أنحاء الكون .

هكذا .. مال ظل القمة المدببة ، النهاية الفانية فى الفراغ ، اتجه على مهل صوب جذور الشجرة القديمة ، المتشبثة ، هكذا .. تحققت اللحظة ولم يشهدها الا طائر غريب ، وحيد مهاجر من بعيد ، طليعة أسراب تحط منهكة فى مثل هذا الوقت كل عام ، لم تصل بعد .

عندما استيقظ تطلع الى الهرم ، الى الأرض ، الى الجذور التى بدت كأسنان خربة . الى الفضاء ، الى الغرب ، الى الشرق ، الى الشمال ، الى الجنوب ، الى الفوق ، الى التحت .

كيف أدرك ؟

لا يدرى أحد .

كيف استوعب ؟

لا يعلم انســـان .

لزم عمره كله ولم يحد ، وعند التحقق نال المأمول ما لن يعيه ، ما لن يدرك حقيقة ما استوعب الا بعد فناء كل الطيور وبقائه الى الأبد ، محوما ، مغادرا ، واصلا ، مقلعا ، حاطا ، ولكن .. من يدرك ريشة من جناحه سيبقى مثله ، سينتقل اليه ما استقر له ، ولكن .. كيف الاستدلال عليه ؟ وأين ؟ وبأى لغة ؟

وكيف يكفى ما تبقى ؟

لهذا كان صراخه ، جعيره فى مواجهة الأهرام ضاريا ، لم يسمع القوم مثله ، لا من قبل .. ولا من بعد .

متن سابع
ألق ..

كف

توقف

ما يراه لم يسمع عنه ، لم يقرأ ما يدل عليه ، بقدر ما فوجيء ، بقدر ما شعر براحة غامضة لا يمكن القياس على مثيل لها ، أو مضاهاة اللحظة بأخرى منقضية .

كان قادما من الشرق الى الغرب ، من تحت الى فوق ، صاعدا الهضبة بمحاذاة نقطة غير مرئية تتوسط الفراغ الفاصل بين الهرم الأكبر والأوسط .

ظهيرة شتوية سيالة ، لكن ... هذا الضوء البراق ، المنصهر لا علاقة له ولا صلة بالشمس البادية ، لم يدر مصدره بالتحديد ، ربما من داخله ، لكنه لا يشبه ذلك البريق الحاد ، الساطع ، المنبيء بنوبات الصداع الموجعة التى جاء بها الى الدنيا ، أقدم صور عمره مرتبطة بالآمه ، لا .. هذا ألق مغاير ، له المفاجأة والاستمرارية .

هل يصدر من جهة ؟

اذن ··· كيف يمكن تحديده بالمسافة الفاصلة ، لا يمتد بعدها ، ولا ينقص قبلها ، ولا يشمل ما يتجاوز ارتفاعهما ، رخيم ، نفاذ · يزيح الفراغ ذاته ·

خطر له امكانية القدم ، يمت الى زمن عتيق ، تماما مثل الهواء الذى تأهب القـــوم لاستنشاقه عند فتح مقبرة مركب الشمس المكتشف ، غير أن هذا الألق لا يمكن تعيينه بمكان أو مسافة أو توقيت زمنى · لا بعد ، لا مضمون ، لا كلمات يمكن أن تستوعب ··

طليق ·

مرسل دائما ·

راحة تشمله لم يعرفها ، مع وعد غامض بالوصول ، مع استمرار التحديق تلوح خضرة ، درجة من الخصـــوبة الريانة لم يعرفها من قبل ، هو المغرم بالألوان ودرجاتها ومتابعة تحولاتها وحفرها فى الذاكرة المتماهية · هذا أخضر غزير ، درجة واحدة لا تهن ، لا تضعف · يانعة ، لم يرها فى أوراق الأشجار ، فى نباتات البلاد التى رحل اليها وطوف بها ، أو فى جذوع الصبار المتقن لأنواعها وفصائلها ، أو زراعات الأرز المغمورة بالمياه بين القرى الواقعة على الطريق الى مسقط رأسه ·

خضرة ضـــوئية ، لا تؤثر عليها الظلال ، لا تتغير بحواف الأهرام ، هل يصدر الألق من داخلهما ؟

السطوع أوقفه عن المضى ، عن الخطو ، بل ان الدهشة راحت تتوارى · والتساؤلات تختفى ، والحيوة تمحى ، لانت رقبته فى مواجهة الاستقرار الوافد ، والراحة النابعة ·

يتأهب للمضى ، للخطو ، فالوعود بلا حصر ·

يخطـــو ٠

تخرج قدمه من قدمه ، وينفصل ذراعه عن ذراعه ، ويفارق صدره صدره ، لم يكن باستطاعته أن يظل معلقا ، نصفه في صورة جسدية ، والنصف في هيئة لم يعهدها من قبل ، فراغ ما بين البنائين يرسم الشكل المحسوس عينه ، لكنه ليس هو ، يؤكده وينفيه ٠ هذا حاله ٠

رحل عن رحيله ، لم يكن قادرا على التطلع الى الوراء ليعرف ما جرى له ٠ يتقدم مدفوعا ، محمولا ٠ سابحا في كينونة بلا أطر ، مصاغا من الضوء والخضرة ، مرتقيا الى تلك النقطة عند الذروة بدون صعود ٠٠

متن ثامن

صمت

خرج الى السطح ، الليلة الأولى فى البيت الصغير القائم قرب الصحراء • كل ما يحتويه صاغه بيديه ، وكما يرغب ، حتى البناء البسيط أشرف عليه ، وأضفى ، لم يترك شيئا للآخرين ، تلك هى اللحظات التى سعى من أجل تحقيقها منذ بدء تردده على الموضع الضارب فى العتاقة ، بزراعاته ، ونخيله ، وقنوات المياه ، والجسور الصغيرة وخط الأفق الذى تحده وتشكله ثلاثة أهرامات متقاربة . اثنان شبه مكتملين ،والثالث خرب ، لكنه لم يفقد هيئته ، كل ما فى الأمر أنه غير متساوى الأضلاع • سمع أهالى الناحية يقولون ان من بنى الثلاثة أشقاء متقاربون ، وان أصـواتا تسمع أحيـانا لا يمكن تفسيرها ، ولكنها لغة للخطاب بين ما يخيل للقوم أنه جماد صامت ، وأحيانا ، يتقدم هرم ليحل مكان الآخر ، وأن لكل منهم رصدا خفيا ، يحمى المكنون المصـون . ويمنع وقوع الفاحشة بالداخل ، وهل غاب أمر ذلك الشاب وتلك الشابة ، أوغلا حتى نقطة بعينها ، اتقدت رغبتهما وعندما تأهبا تفحما ، تحولا الى رماد ، أما من يقدر

على فك طلاسم تلك الكتابة فتتفتح له دروب لم يعرفها أحد من قبل · ولم يطرقها بشر ·

يتأمل النجوم ·

يشم رائحة الأرض العتيقة ، يحـــاول الاصـــغاء الى أصـــوات الليل ، أن يتعرف عليها حتى يألفها ، يتعايش معها · ·

ما هـــذا ؟

يتجه ببصره الى الغرب ··· يحدق ، لا يحيد ، ولا يميل ، ولا يقدر على النطق أو حتى ··· ابداء الدهشة ·

متن تاسع
رقصـــــة

نقطة ما ...

ما بين المشرق والمغرب

تبدو لمن صبر وحاول وجاهد وأفنى فتمكن ، لا يحيد موعدها ، يكون ظهورها مع اندلاع تلك الموسيقى القادمة من اللامنبع ، من حيث لا يمكن التعيين أو التحديد .

لا يراها الا من أوتى القدرة على احتمال الحنين والشجن وكتم الزفرة ، وعلى قدر المجاهدة يكون وضوح الرؤية ، حتى ليمكن لذوى التمكن الاحاطة بملامحها الملكية ، والنفاذ عبر انفراجة شفتيها، والايواء الى ركنى عينيها الشـــاخصتين أبدا الى موضـــع مغيب الشمس .

أنغام نابعة منها ، محيطة بها ، يصعب تشخيصها ، لا هى وتريه ، ولا هوائية ، ولا نحاسية ، مع اكتمال ايقاعاتها تتمايل

الجهات الأربع ، تتقارب حواف الكون ، ينتظم دوران الأفـــلاك العـــلى ·

لا يمكن تشخيصها · فليست المقامات عربية ، أو أفريقية أو فارسية ، انما تشمل هذا كله ، أبرز ما فيها حنين ممض · ممتــــد ·

من يتابر يمكنه رؤية ارتقائها الفراغ بقوامها الفاره الجلل ، يطالع أنونثها الكونية ، تلك التى حاول النحات العاشق ، العابد أن يبرز بعضا منها فى تمثالها البادى ·

من يخلص النية باستطاعته رصد بداية رقصتها ، تصاعدها اذ تبسط خطوطها وتلملمها ، تفردها وتثنيها ، عندما يضبط جسدها النغمات ، يبرر الايقاعات ، يبثها الى أقاصى الوجود · يشهدها كل ســاع فى طريقــه ، وكل مقيم فى منزله ، شرط أن يتجه بكليتــه صوبها ، اذ يدنو المغيب على اكتمال يبدأ دورانها ، يتسارع حتى ليصعب على النظر الانسانى ادراكها · تتحول الى نقطة ، الى أفول لا مفر منه ولا ادراك ·

متن عاشر

وكأنهم على ميعاد ،
وان باعدت بينهم الآماد .

متى حانت عشر

البداية نقطة .

والنهاية نقطة .

متن ثاني عشر

عند الذروة .. يقع الفناء .

متن ثالث عشر

كل شيء .. من .. لا شيء .

متن رابع عشر

لا شيء

لا شيء

لا شيء

الفهـــــرس

مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب

رقم الايداع بدار الكتب ٢٠٠٦/١٩٩٦

I.S.B.N. 977 — 01 — 4664 — 1

مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب



يؤكد جمال الغيطانى فى ابداعاته الأخيرة، مسيرته الروائية الطويلة، ومنهجه الروائى الساعى إلى توثيق العلاقة بين النص الحداثى وتراثية الأداء العربى، بأشكاله وتجلياته المختلفة.

وتكشف نصوصه الروائية عن ولع شديد باللغة والزمان والمكان والذات معاً.. ويضفر من هذه الجوانب الأساسية أعمالاً تشى بصوفية مترقرقة، تغوص فى متن القديم، وتقبض على وهج الروح وسلوك البشر.

وهو إذ يبدأ فى «شطح المدينة» رحلة بحثه فى المدينة العتيقة لتنتهى مغامرة البحث بضياع الهوية على المستوى الواقعى، فإنه فى «هاتف المغيب» يبدأ رحلة بحث أخرى عن هذه الهوية، ولكن على مستوى السرد العجائبى والمدن المسحورة، وإذا كانت البداية نقطة معلومة، فإن النهاية قد تكون نقطة التلاشى. وتقع «متون الأهرام» بين النقطتين «بداية البناء الراسخة الأزلية بقاعدتها العريضة وتلك النقطة التى ينتهى عندها البناء الهائل فى محاولة لإيجاد العلاقة بين البناء والهيام الصوفى.

إنها رحلة فى الزمن والمصير الإنسانى